نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء العاشر

تحقيق

الدكتور يوسف الطويل

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

ذِكْرُ مَا وَصَفَتْ بِهِ العربُ الخيْلَ

مِنْ ترتيبِهَا في السنّ، وتَسْمِيَةِ أعضائِها، وأبعاضِها، وألوانِها، وشيَاتِها، وغُرَرِهَا، وحُجُولِها، وعُصَمِها، ودوائرِها، وما قيل في طبائِعِها وعاداتها، والمحمودِ مِنْ صفاتِها ومحاسِنِها، والعلاماتِ الدالّةِ على جَوْدتِها ونَجَابَتِها، وَعَدِّ عُيوبِها التي تكونَ في خَلْقها وجريها، والعيوب التي تطرَأُ عليها وتَحدُث فيها.

أَمَّا ترتيبُها في السنّ ـ فالعربُ تقولُ: سِنُّ الفرسِ إذا وضعتْهُ أُمُّهُ فهو «مُهْرٌ». ثم هو «فُلُوٌّ». فإذا ٱستكملَ سنةً فهو «حَوْلِيٌّ». ثم هو في الثانية «جَذَعٌ». ثم في الثالثة «ثَنِيٌّ». ثم في الرابعة «رَبَاعٌ»، ثم في الخامسة «قارحٌ». ثم هو إلى نهاية عمره «مُذَكٌّ».

وأما ما قيل في تسميتِها، وتسميةِ أعضائِها وأبعاضِها ـ فقد قالوا: الخيلُ مؤنثةٌ، ولا واحدَ لها من جنسِها، وجمعُها خيولٌ. ويقال في صفاتها: «أُذُنٌ مُؤَلَّلةٌ» و«مُرْهَفةٌ»، أي محدّدة الطرَف. قال عَديّ بنُ الرِّقاع[1]: [من البسيط]

تَـخُـوضُ فـي فُـرُجـاتِ الـنَّـقْـعِ دامـيـةً ... كـأَنَّ آذانَـهـا أطـرافُ أقـلامِ[2]

و«حَشْرَةٌ»، صغيرة مُستَديرةٌ، و«مَقْدُودةٌ»، مُدَوَّرةٌ، وأُذُنٌ «غَضَنفَرَةٌ»، أي غليظةٌ، و«زِبَعْرَاةٌ» أي غليظةٌ شَعْرَاءُ، و«خُذَاوِيَّةٌ»، أي خفيفةُ السمعِ. قال عَدِيّ بن زيد[3]:

لـه أُذُنَـانِ خُـذَاوِيَّـتَـا ... نِ والـعـيـنُ تُـبْـصِـرُ مـا فـي الـظُّـلَـمْ

ثم «الناصية»، وهي الشعرُ السائلُ على الجبهة، يقال: «واردَةٌ» وهي الطويلة. و«جَثْلة» وهي الكثيرةُ الملتفَّةُ، و«الفاشِغة» و«الغَمَّاء»، وهي الكثيرةُ المنتشِرَةُ، و«السَّفْوَاءُ»، وهي القليلة، و«عُصفُورها»، أصلُ مَنْبِتِ شَعْرِها. و«قَوْنَسُها»: العَظْمُ الناتِئُ بين الأُذُنين.

---

(١) هو عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع العاملي. ونسبه الناس إلى «الرقاع» وهو جدّ جده لشهرته، وكان شاعراً مقدماً عند بني أمية، خاصاً بالوليد بن عبد الملك. . وقد تعرض لجرير وناقضه في مجلس الوليد. (الأغاني ٨: ١٧٢ ـ ١٧٧).

(٢) النقع: الماء المجتمع في الغدير؛ أو هو الأرض الحرة الطين المستوية ليس فيها حزونة.

(٣) هو عدي بن زيد بن حماد بن أيوب بن زيد مناة بن تميم وكان يسكن بالحيرة، ويدخل الأرياف مثقل لسانه، واحتمل عنه شيء كثير جداً. . (الشعر والشعراء ص ٩٧).

وأما الوجهُ وما فيه مما لم يُذكر في خَلْق الإنسان ـ «النَّواهِقُ»، وهما عَظْمان شاخِصَان في وجهه من الجَبْهَة إلى المَنْخرَيْن، و«اللِّهْزِمَتَان»: ما اْجْتَمَعَ من اللحم في مُعظَم الجَبين، و«عَيْنٌ مُغْرَبَةٌ» أي بيضاءُ الحَمَالِيق[١] وما حَوْلها. و«خَيْفاءُ»، إذا كانت إحداهما سوداءَ والأخرى زرقاء، و«المُحَمْلِقَةُ»، التي حَوْلَ مُقْلَتيها بياضٌ لم يُخالِفِ السَّوَادَ.

و«أنفٌ مُصَفَّحٌ» أي مُعتدِلُ القَصَبة. و«السَّمُّ»: ثَقْبُه، قال:

* ومَــنْــخِــراً واسِــعَــةً سُــمــومُــه *

وقال مُزَاحِم بن طُفَيل الغَنَويّ[٢] وقيل: العباس بنِ مرْداس السُّلَميّ[٣]:

مِـلْءُ الـحِـزَامَـيْـن ومِـلء الـعـيْـن يـنـفُـش عـنـد الـرَّبْـوِ مَـنْـخَـريـن[٤]

* كَـنـفْـشِ كـيـرَيْـن بِـكَـفَّـي قَـيْـنِ[٥] *

و«الجَحْفَلَةُ»: الشَّفَة، و«الفَيْد»: الشَّعر النابت عليها. و«الشِّدْقَان»: مَشَقّ الفَم إلى حدّ اللجام.

وأما العُنُق وما فيه ـ «فالمَعْرَفة»: موضع العُرف. و«العُرْفُ»: شعر أعلى العُنُق. و«العُذْرَةُ»: ما على المِنْسَج يَقبِضُ عليه الفارسُ إذا ركب، و«العُرْشَانِ»: اللحمان من جانبَي العُرْف، و«الجِرَانُ»: جِلْدُ أسفلِ العنق. و«الدَّسِيعُ»: مُرَكَّب العُنُق في الكاهل. قال سَلامةُ بن جَنْدَل[٦]:

يَـرْقَـى الـدَّسِـيـعُ إلـى هـادٍ لـه بَـتِـعٍ في جُؤجؤٍ كَمَداكِ الطِّيبِ مَخْضُوبِ[٧]

و«اللَّبَان»: ما جرى عليه اللَّبَبُ. ويقال: «عُنُقٌ قَوْدَاء» أي طويلةٌ. و«سَطْعَاء»، أي طويلةٌ منتصبةٌ غليظةٌ. و«تَلْعاء»: منتصبةٌ غليظةُ الأصل مَجْدُولةُ الأعلى. و«دَنّاء» أي

---

(١) حملاق الصين، وحملقها، وحملوقها: ما يسوّده الكحل في باطن أجفانها. جمع حماليق.

(٢) هو مزاحم بن طفيل بن كعب الغنوي كان والده من أوصف الناس للخيل وكان يقال له في الجاهلية المحبر لحسن شعره.

(٣) هو العباس بن مرداس السلمي، وكان يهاجي خفاف ابن ندبة السلمي ثم تمادى الأمر بينهما إلى أن احتربا وكثرت القتلى بينهما، وقد أسلم العباس قبل فتح مكة، وحضر مع النبي ﷺ يوم الفتح... (طبقات الشعراء ص ٣٨٤).

(٤) الربو: البهر وانتفاخ الجوف.

(٥) القين: الحداد.

(٦) هو من بني عامر بن عبيد بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم جاهلي قديم وهو من فرسان تميم المعدودين.. (الشعر والشعراء ص ١٢٢).

(٧) البتع: شدة العنق وإشرافها ـ والجؤجؤ: الصدر ـ والمداك: حجر يسحق عليه الطيب.

مطمئنةٌ من أصلها. و«هَنْعاءُ»: مُطْمَئِنَّةٌ من وَسَطها، و«وَقْصَاءُ»: قصيرةٌ، و«مُرْهَفَةٌ»: رَقيقةٌ.

وأما الظهر وما اتصل به من الوَرِكين ـ فمنه: «المَتْنان» وهما لحمان يَكتنِفان الظهرَ من مُرَكَّب العُنُق إلى عُلْو: ظَهر الذَّنَب. و«الحارِك»: عَظْمٌ مشرفٌ من بين فَرْعَي الكَتِفَيْن. و«القَرْدُودةُ»: حدّ الفَقَار. و«الفَقَار»: المنتظمة في الصُّلْب. و«الصَّهْوةُ»: مَقْعَدُ الفارس. و«القَطَاة»: مَقْعَدُ الرِّدْفِ خَلْفَه. و«المَعَدَّانِ»: موضع السَّرْج من جَنْبَيْه. قال شاعرٌ[1]:

فـإمَّـا زالَ سَـرْجِـي عـن مَـعَـدٌّ وأجْـدِر بـالـحـوادث أن تَـكُـونـا

و«الصُّرَد»: بياضٌ على الظهر. و«الغُرَابانِ»: مُلْتَقَى أعالي الوَرِكَينِ في ناحية الصُّلْب. و«الصَّلَوَانِ»: ما أَسْهَلَ من جانبي الوَرِكَيْن. و«العَجْبُ»؛ ما ٱرتفع من أصل الذَّنَب. و«العُلْوَةُ»: أصله، و«العَسيبُ»: عَظْمُ الذَّنَب. والأعوجُ العَسِيبِ: «أعزَلُ».

وأما الصدرُ وما اتصلَ به من البطنِ ـ فمنه: «الكَلْكَلُ»: ما مسّ الأرضَ من فَهْدَتَيْه. و«الفَهدَتان»: اللَّحمتان الناتئتانِ في الصدر، و«المَحْزِمُ»: ما شُدَّ عليه الحِزَامُ، و«الناجِرَان»: عِرْقَان يُودَجُ[2] منهما.

وأما الذِّراعانِ وما دونهما ـ «المِرْفَقَانِ»: مَآخيرُ رؤوسِ الذّراع. و«الخَصِيلة»: لحمة الذراع مع العَصَب. و«الصَّافِنُ»: عِرْقُ الذراع، و«الحِبَالُ»: عَصَبُها. و«الرَّقْمتانِ»: لحمتان في باطنهما لا تُنبتَانِ شَعْراً، و«الرُّكبةُ»: مَوْصِلُ ما بينَ الذِّراع والوَظِيف. و«الوَظيفانِ»: العظمانِ تحت الركبتين والعُرقُوبَينِ، و«الرَّضْفَتانِ»: عَظمان مُستديرانِ على الرُّكبة، و«السُّنبُكُ»: طَرَفُ مُقَدَّم الحافِرِ. و«النَّسْرُ»: ما يَتَطَايَرُ من أسفله كالنَّوَى. و«المَنقَلُ»: مُجتمَعُ الحافِرِ من باطنِهِ، و«ألْية الحافر»: مُؤَخَّرُه. ويقاتل: حافِرٌ أَرَحُّ: مُنبَطِحُ السَّنابِك. و«فرْشاخٌ» أي مُنبَطِحٌ. و«وَأْبٌ»[3]، مُقَعَّبٌ. و«مَصْرُورٌ»: مَضمُومٌ صغيرٌ، و«مُكْنَبٌ» أي كثيفٌ. والله أعلم بالصواب.

وأما ألوانُها وشِيَاتُها وغُرَرُها وحُجُولها وعُصَمُها وما فيها من الدوائر ـ من أَلْوانِها: «البَهِيمُ والمُصْمَتُ»: كلُّ ذي لَونٍ واحدٍ لا شِيةَ فيه، إلا الأشهَب فإنه لا يقال له بَهِيمٌ. يقال: فرسٌ مُصْمَتٌ، والأنثى مُصمَتَةٌ، والجمع مَصَامِتُ. وكذلك يُقال في

(١) هو عمرو بن أحمر بن فراص بن معن بن أعصر وكان أعور رماه رجل يقال له مخشي بسهم فذهب عينه. (الشعر والشعراء ص ١٦٨).

(٢) يقال: ودج الذبيحة أي قطع ودجها.

(٣) الوأب: انضمام السنابك.

قوائم الفرس إذا لم يكن بهنّ تَحجيلٌ. قال أبو حاتم[١]:

* مُـبـهـمَـةٌ مُـصْـمَـتـةُ الـقـوائـم *

ومن ألوانِ الخيل: «الدَّهْمُ»، وهي ستة: «أدهَمُ غيهَبٌ» وهو أشدّها سواداً، والأنثى غَيهبةٌ. والغَيْهَبُ: الظلمةُ، والجمع غَياهِبُ. وكذلك «الغِرْبِيبُ»، و«الحالِكُ»، و«أدهَمُ دَجُوجِيٌّ»: صافي السَّوَادِ؛ وقيل: هو مأخوذ من الدُّجَّة، وهي شِدَّة السوادِ والظُّلمةِ. وَ«أدهَمُ يَحْمُومٌ وأدهم أَحَمُّ»، وهو الذي أشرِبَتْ سَرَاتُه[٢] وحُجْزَتُه حُمرةً. قال أبو تمام[٣]:

أو أدهـم فـيـه كـمـتـةٌ أَمَـمٌ كـأنـه قِـطـعـةٌ مـن الـغَـلَـسِ[٤]

ثم «أدهَمُ أكْهَبُ»، وهو إلى الكدرة.

ثم «أَحْوَى» والجمع حُوٌّ؛ وهو أهونُ سواداً من الجَوْنِ، ومَنَاخِرُهُ مُحْمرَّةٌ، وشاكِلَتُهُ مُصفَرَّةٌ. والأحوَى أربعةُ ألوانٍ: «أَحوَى أَحَمُّ»، وهو المُشَاكِلُ للدُّهْمَةِ والخضرة؛ ولا فرق بينه وبين الأخضرِ الأحمرِ إلا بٱحمرار مناخِره وٱصفِرار شاكِلته. و«أحوى أَصْبَحُ» وهو الذي تَقِلُّ حمرةُ مناخره فتصيرُ إلى السواد ويكون البياضُ فيه غالباً على أطراف المِنخَرَين. و«أَحْوَى أطحَلُ»، وهو الذي تَعتَرِيهِ صُفرةٌ وخضرةٌ مُخالطتان لكُدرةٍ، وَ«أَحْوَى أكْهَبُ»، والكَهَبُ: قِلَّةُ ماء اللَّونِ وكُدرتَهُ في موضع المنخرين في حمرتهما وفي سواد السَّرَاةِ في بياض الأَقْراب.

ومنها الخُضر - وهي أربعةٌ: «أخضرُ أحَمُّ»، وهو أدناها إلى الدُّهمة، قال الشاعر:

* خَـضـراءُ حَـمَّـاءُ كَـلَـونِ الـعَـوْهَـقِ[٥] *

وهو الّلازَوَرْدُ[٦]. و«أخضرُ أدغَمُ» وهو الأخطبُ لونِ وجهه وأذنيهِ ومَناخِره،

---

(١) هو أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد الجشمي السجستاني النحوي اللغوي المقرىء، نزيل البصرة وعالمها، كان إماماً في علوم الآداب، وعنه أخذ علماء عصره كأبي بكر محمد بن دريد والمبرد وغيرهما. (وفيات الأعيان ٢: ٤٣٠).

(٢) سراة الفرس: أعلى متنه.

(٣) هو حبيب بن أوس.

(٤) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

(٥) العوهق: لون الرماد. والعوهق: شجر، وقيل: العوهق من شجر النبع الذي تتخذ منه القسيّ أجوده. (اللسان مادة عهق).

(٦) اللازورد: من الأحجار الكريمة، لونه أزرق سماوي أو بنفسجي، يكثر في أفغانستان، وأمريكا، يستعمل للزينة.

وهذا اللَّونُ يُسمَّى بالفارسيَّة «دِيزَجاً»، و«أخضرُ أطحَلُ» وهو الذي تعلو خُضرتَه صُفرةٌ، و«أخضرُ أورَقُ»، وهو الذي كلون الرَّماد.

ومنها الكُمَيْتُ ـ والجمع كُمْتٌ، والذكر والأنثى فيه كُميتٌ، وهي تسعةٌ، قالوا: وكُميتٌ من الأسماء المصغَّرة المرخَّمة التي لا تَكبيرَ لها، من أكمتَ بمنزلة حُميدٍ من أحمدَ، غير أن أكمتَ لم يُستعمَل. والكميتُ بين الأحوَى والأصدأ، وهو أقربُ من الشُّقْر والوِرَادِ إلى السواد وأشدّ منها حمرةً، والفرقُ ما بين الكُميت والأشقَر بالعُرف والذَّنَب، فإن كانا أحمَريْنِ فهو أشقرُ، وإن كانا أسودين فهو كُميتٌ، والوَرْدُ بينهما. والكُميتُ أحبُّ الألوانِ إلى العَرَب. ومن ألوانه: «كُميتٌ أحمُّ» وهو الذي يُشاكل الأحْوَى، غيرَ أنه تَفصِلُ بينهما حُمْرةُ أَقرَابِهِ ومَرَاقِّه ومُرَيْطَائِهِ، والمُرَيْطَاءُ: الجلدةُ التي بين العانَة والسُّرَّةِ، والأقرابُ: من الشاكلة التي هي الخاصرةُ إلى مَرَاقِّ[1] البطن، واحدها: قُرْبٌ وقُرُبٌ. قال الأصمعيّ: أشدّ الخيل جُلوداً وحوافرَ الكُمْتُ الحُمُّ. و«كُميتٌ أصْحَمُ»، وهو الأسودُ الذي يضرب إلى الصُّفرة. و«كُميتٌ أطخَمُ»، والطُّخْمَةُ: سَوادٌ في مُقدم الأنف. و«كُميتٌ مُدَمَّى»، وهو الشديد الحمرةِ وكلَّما انحدر إلى مَرَاقِّ البطن يزدادُ صفاءً. و«كميتٌ أحمرُ» وهو أشدُّ حمرةً من المدَمَّى، وهو أحسنُ الكُمْتِ. و«كُميتٌ مُذْهَبٌ»، وهو الذي تعلو حمرتَه صُفرةٌ. و«كُميتٌ مُحْلِفٌ»، وهو أدنى الكُمت إلى الشُّقرة وظاهِرُ شَعر ذنبِه وعُرفِه كلون جسدِه وباطنُه أسودُ، والأنثى مُحلِفَةٌ. وأنشدوا[2]:

كُمَيتٌ غيرُ مُخلِفَةٍ ولكن كَلَوْنِ الصِّرفِ عُلَّ به الأَديمُ[3]

قال أبو خَيرةَ: المُحلفُ بين الأصهب والأحمر، وهو من الإبل الأصحَرُ. و«كُميتٌ أكلَفُ» وهو الذي لم تَصفُ حُمرتُه ويُرَى في أطرافِ شَعره سوادٌ. و«كُميتٌ أصدَأُ» وهو الذي فيه صُدْأَةٌ أي كُدرةٌ بصفرةٍ قليلة، شُبِّهَتْ بلونِ صدأ الحديد.

ومنها الوِرَادُ ـ وهي جمع وَرْدٍ وهي ثلاثةٌ ـ والوَرْدُ هو الذي تَعْلُوه حمرةٌ إلى الشُّقْرة الخَلُوقِيَّة[4] وجِلدُه وأُصولُ شَعْرِهِ سُودٌ. وقيل: الوُرْدَة: حمرةٌ تضرِبُ إلى الصُّفرة. وتحقيقه أنه بين الكُميتِ الأحمرِ وبين الأشقرِ ـ منها: «وَرْدٌ خالِصٌ»، و«وَرْدٌ مُصَامِص» وهو الخالص أيضاً، والأنثى مُصَامِصَةٌ. و«وَرْدٌ أَغْبَسُ» تَدعوه العجمُ «السَّمَنْدَ» وهو الذي لَونُه كلون الرّماد.

---

(١) مراق البطن: مارق منه ولا في أسافله ونحوها.

(٢) هذا البيت لابن كلحبة اليربوعي بن عبد مناف وكلحبة أمه. (اللسان مادة حلف).

(٣) المحلفة: الخالصة اللون لا يحلف عليها أنها ليست كذلك. (اللسان مادة حلف).

(٤) الخلوق: ضرب من الطيب يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب. والخلوقية نسبة إليه.

ومنها الشُّقْر ـ وهي تسعةٌ ـ والأشقَرُ: أشدُّ حُمرةً من الوَرْدِ ـ يقال: «أشقَرُ أدْبَسُ» وهو الذي لونُه بين السوادِ والحمرة. و«أشقرُ خَلُوقي»، و«أشقَر أصْبَحُ»، وهو قريبٌ من الأصهَب. والصُّهبَةُ: الشُّقرةُ في شَعْر الرأس. و«أشقَرُ سِلَّغْدٌ» وهو الذي خَلَصَتْ شُقْرتُه، والأنثى سِلَّغْدَةٌ، والجمعِ سلَّغْدَاتٌ، قال شاعرٌ:

أَشْـقَـرُ سِـلَّـغْـدٌ وأَحْـوَى أدعَـجُ أَصَـكُّ أَظْـمَـى وحِـيَـفْـسٌ أفْـلَـجُ[١]

و«أشقَرُ قَرِفٌ» والأنثى قَرِفَةٌ، والجمع قُروفٌ وقِرَافٌ وأقرافٌ وهو كالسَّلَّغْد. و«أشقَرُ مُدَمًّى»، وهو الشديدُ الحمرة. و«أشقَرُ أَقْهَبُ». والقُهبة غُبرةٌ إلى سوادٍ. وقال ابن الأعرابيّ[٢]: الأَقْهَبُ: الذي فيه حُمرةٌ فيها غُبرةٌ. و«أشقَرُ أمغَرُ»، وهو الذي تعلو شُقْرَتَه مُغْرةٌ، أي كَدرةٌ، و«أشقَرُ أفضَحُ»: بيّن الفُضْحَة، وهي البياض ليس بالشديد.

ومنها الصُّفرُ ـ وهي أربعةٌ: «أصفَرُ فاقعٌ». و«أصفَرُ أعفَرُ» وهو بياضٌ تَعلُوه حمرةٌ. و«أصفَرُ ناصِعٌ». و«أصفَرُ ذَهَبِيٌّ» وهو الذي يَضْرِبُ إلى البياض، وهو السَّوْسَنِيُّ[٣].

ومنها الشُّهبُ ـ وهي خمسةٌ. والأشهَبُ: كلُّ فرس تكونُ شَعْرتُه على لونين ثم تفترق شعراتُه فلا تَجمع واحداً من اللّونين شعراتٌ تَخلُصُ بلون كقَدرِ النُّكتة[٤] فما فوقها. وقيل: الأشهَبُ الأبيضُ الشَّعْرَةِ ليس بالبياض الصَّافِي القِرطَاسِيّ وجلدُه أسودُ يقال له «أشهبُ أبيضُ»، والشُّهبةُ في الألوان: البياضُ الذي يَغلب على السَّواد. ويقال للأشهب أيضاً: أَضحَى، والأنثى ضحياء. وأسماء ألوانه: «أشهبُ ناصِعٌ»، و«أشهبُ أحمُّ» وهو أسودُ تَنفُذُه شَعَراتٌ بيضٌ. و«أشهبُ زُرْزُورِيّ»، وهو الذي اعتدل فيه السواد والبياض. و«أشهبُ مُفَلَّسٌ» وهو الذي خالط بياضَه سوادٌ أو حُمرة. و«أشهبُ سامِري»، وهو الذي شُهْبته بسواد أَوْرَق.

ومنها الجَوْن ـ وهو اختلاط بياض بحُمْرة الأشقر أو الكُمَيت.

ومنها الصِّنَابِيّ ـ وهو دُهْمَة فيها شُهْبة، أو كُمْتة فيها شُهْبة أقلّ من بياض الأشهب. نُسِبَ إلى الصِّنَابِ وهو الخَرْدَل بالزبيب.

---

(١) الأظمى: الذي ليس به رهل ـ والحيفس: القصير الغليظ.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابي الكوفي صاحب اللغة، وهو من موالي بني هاشم. . . وكان أبوه زياد عبداً سندياً، وقيل إنه من موالي بني شيبان. . وكان أحول، راوية لأشعار القبائل ناسباً. (وفيات الأعيان ٤: ٣٠٦).

(٣) السوسني: نسبة إلى السوسن، وهو نبات طيب الرائحة وأجناسه كثيرة وأطيبه الأبيض.

(٤) النكتة: النقطة في الشيء تخالف لونه.

ومنها الأغبرُ ـ وهو أشقرُ شَمِلَت شُقرتَه شُهبةٌ.

ومنها الأبرشُ ـ وهو الذي فيه لُمَع بياض كالرُّقْط[١]، وقيل: وهو الذي يكون في شَعْره نُكتٌ صِغارٌ تُخالفُ سائر لَوْنه، وإنما يكون ذلك في الدُّهم والشُّقر خاصّةً، وربما أصابها ذلك من شدّة العطش. فإذا عَظُمَت النُّكت فهو «مُدَنَّر». وإذا كان في جسده بقعٌ متفرقةٌ مخالفةٌ للونه فهو «مُلَمَّعٌ» و«أبقَعُ»، و«أشيمُ». وقيل: الأَشيَمُ: أن تكون فيه شامةٌ بيضاءُ؛ وقيل: قد تكون الشّامةُ غيرَ بَيْضاء. وإذا كان في الشامة ٱستطالةٌ فهو «مُوَلَّعٌ»، وقال ٱبن بنين[٢]: إذا كان في الدابّة عدّةُ ألوان من غير بَلَقٍ فذلك التوليعُ، يقال: بِرْذَوْنٌ مُوَلَّعٌ، وإذا كانت الشامة في مُؤَخّره أو شِقّه الأيمن كُرِهَت.

ومنها العِرْسيّ ـ وهو الذي يشبه لَوْنَ ٱبنِ عِرْس.

ومنها الأنمرُ ـ وهو الذي يكون فيه بقعةٌ بيضاءُ وبقعةٌ أخرى من أيّ لَوْن كان.

ومنها الأبلقُ ـ وهو ما يكون نصفُ لَوْنِهِ أو ما قارب النصفَ أبيضَ، والنصفُ الآخر أسودَ أو أحمرَ.

ومنها الأغشَى (بالغين المعجمة) ـ وهو ما ٱبيضَ رأسُه دون جسده مثل الأرخم[٣].

ومنها الأبيضُ ـ وهو الذي ٱبيضَّ شعرُه بياضاً مثلَ بياض الأوضاح أشدّ ما يكون من البياض وأصفاه لا يخالطه شيءٌ من الألوان فيقال: فيه: أبيض قرطاسيّ. وربما كان أزرقَ العين أو أسودَ أو أكحلَ. ويدعى بما في عينيه من زُرْقة وسَوَاد وكَحَلٍ؛ ولا يكون أكحلَ حتى تسودَّ أشفارُ عينيه وجفونُه.

قال الشيخ[٤] رحمه الله تعالى في كتابه «فضل الخيل»: «وألوانُ الخيل أدهمُ، وأخضرُ، وأَحْوَى، وكُمَيت، وأشقرُ، وأصفرُ، وأشهبُ، وأبرشُ، ومُلَمّع، ومُوَلَّع، وأشيمُ». هذا قول أبي عُبيدة[٥]. وقال الأَبِيَوَرْدِيّ[٦] في رسالته: الدُّهْمةُ، ثم الحُوَّةُ،

---

(١) الرقط: جمع أرقط، والرقطة: سواد يشوبه نقط بياض أو بياض يشوبه نقط سواد.

(٢) هو سليمان بن بنين بن خلف النحوي المصري. كانت وفاته سنة ٦١٤هـ.

(٣) الأرخم: الذي ابيض رأسه واسود سائره.

(٤) هو الحافظ الدمياطي.

(٥) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى، التيمي بالولاء، تيم قريش، البصري النحوي العلامة... (وفيات الأعيان ٥: ٢٣٥).

(٦) هو أبو المظفر بن أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي العباس أحمد بن إسحاق بن أبي العباس الإمام محمد بن إسحاق... قرشي أموي، نسابة شاعر ظريف..، كان من أخبر الناس بعلم الأنساب، نقل عنه الحفاظ الأثبات الثبات... (وفيات الأعيان ٤: ٤٤٤).

ثم الصُّدْأَةُ، ثم الخُضْرَةُ، ثم الكُمْتَةُ، ثم الوُرْدَةُ، ثم الشُّقْرَةُ، ثم الصُّفْرةُ، ثم العُفْرةُ، ثم الشُّهْبة. هذا ما وقفنا عليه من ألوانها. والله أعلم.

وأما الشِّيَة وجمعها شيَات ـ فقالوا: كلّ لَوْن يُخالفُ مُعظَمَ لَوْنِ الفَرَس فهو «شيةٌ». فإذا لم يكن فيه شِية فهو «أصمّ»، و«بَهيمٌ» من أيّ الألوان كان، والأنثى أيضاً بهِيم. وكذلك فرسٌ «مُصْمَتٌ» بمنزلة البهِيم من أيّ لون كان، والأنثى مُصْمَتة، والجمع مَصامِتُ. وقد تقدّم ذكر ذلك. فلنذكر الشِّيَات.

من الشِّية ـ: الغُرَّةُ، والقُرْحةُ، والرُّثْمةُ، والتَّحجِيلُ، والسَّعَفُ، والنَّبَطُ، والصَّبَغ، والشَّعَلُ، واللَّمَظُ، واليعسوبُ، والتعميمُ، والبَلَق.

فٱلغُرَّةُ ـ: البياضُ في الوجه؛ وهي أنواع: لَطِيمٌ، وشادخةٌ، وسائلةٌ، وشِمراخ، ومُتَقَطِّعة، وشَهْباء.

فـ «ٱللَطِيمُ»: الذي يُصيب البياضُ عينيه أو إحداهما أو خدّيه أو أحدهما، والأنثى أيضاً لَطِيم. فإذا فَشَت في الوجه ولم تُصب العينَ فهي «شادِخةٌ». فإذا ٱعتدلت على قَصَبة الأنف وإن عَرُضت في الجَبْهة فهي «سائلَةٌ». وإذا دَقَّت وسالت في الجبهة وعلى قَصَبة الأنف ولم تَبْلُغ الجحفلةَ فهي «شِمْراخٌ»، وكلّ بياض في جبهة الفرس فَشا أو قلّ ينحدر حتى يبلُغَ المَرْسِن[١] ثم ينقطع فهي غُرَّة «مُتقَطعةٌ»، وإذا كان البياضُ في مَنخَرَيه ثم ارتفع مُصعِداً حتى يبلُغَ بين عَيْنيه ما لم يَبلُغ جَبْهته فهي أيضاً غرَّة متقطعة.

وإذا كان في الغرّة شعر يخالف البياضَ فهي غُرَّة «شهباء». وقال ٱبن قتيبة[٢]: «إن سالت غُرّته ودَقَّت فلم تُجاوز العينين فهي «العُصفُورُ»، وإن أَخَذَتْ جميعَ وجهه غير أنه يَنظُر في سوادٍ فهي «المبرقِعةُ»، فإن فَشَتْ حتى تأخذ العينين فتبيضّ أشفارُهما فهو «مُغْرَبٌ». فإن كانت إحدى عَيْنيه زرقاء والأخرى كحلاء فهو «أخْيَفُ».

وأما القُرْحةُ ـ وهي دُون الغُرَّة؛ فقال ٱبن قتيبة: الغُرَّة: ما فوق الدِّرهم، والقُرْحة: قدرُ الدرهم فما دونه. قالوا: والقَرَح: كلّ بياض كان في جَبْهة الفرس ثم ٱنقطع قبلَ أن يبلُغ المَرْسِن. وتُنْسَبُ القُرْحَة إلى خِلْقَتها في الاستدارة والتثليث والتربيع والاستطالة والقلّة؛ فإذا قَلّتْ قيل: «خَفِيّة». وإذا كان في القُرْحة شَعر يخالفُ البياضَ فهي «قُرحةٌ شهباء».

(١) المرسن: موضع الرسن من أنف الفرس.

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وقيل المروزي، النحوي، اللغوي صاحب كتاب «أدب الكاتب» و«المعارف»: كان ثقة فاضلاً، سكن بغداد، وحدث بها عن إسحاق بن راهويه وغيره... (وفيات الأعيان ٣: ٤٢).

وأما الرُّثْمة (بالثاء المثلثة) ـ فكلُّ بياض أصاب الجَحْفَلة[١] العُلْيا قَلَّ أو كَثُر فهو «رَثَمٌ» إلى أن يبلُغ المَرْسِن، وتُنسَب الرُّثْمة إذا هي فَشَت إلى الشُّدُوخ. وإذا لم تُجاوز المَنْخَرين نُسِبت إلى الاعتدال. وإذا قَلَّت وٱشتدّ بياضُها نُسِبت إلى الاستنارة. وإذا لم يظهر بياضُها للناظر حتى يدنو نُسبت إلى الخِفْية.

واللُّمْظَة ـ كلّ بياض أصابَ الجَحفَلة السُّفْلى قَلّ أو كثر فهو «لَمَظٌ» والفرس ألمظ.

واليعسوب ـ: كلّ بياض يكون على قَصَبة الأنف قَلَّ أو كَثُر ما لم يبلغُ العينين. وإذا شاب الناصيةَ بياضٌ فهو «أسعَفُ». فإذا خَلَص البياضُ في الناصية فهو «أصبغ»، فإذا ٱنحدر البياضُ إلى مَنبِت الناصية فهو «المعَمَّم». وإذا كان في عرْض الذَّنَب بياضٌ فهو «أشعل». والعرب تكره شُعْلة الذَّنَب. وإذا كان في قَمَعة[٢] الذَّنَب، وهي طَرَفه، بياض فهو «أصبَغُ». وإذا ٱرتفع البياضُ حتى يبلغُ البطنَ فهو «أنبط». وإذا ظهر البياضُ وزاد فهو «أبلَقُ». وقال ٱبن قُتَيبةَ وٱبن الأجدابي[٣]: إذا كان الفرس أبيضَ الظَّهْر فهو «أَرْحَلُ»، وإن كان أبيضَ البطن فهو «أَنْبَط». وقال غيرهما: «الأدرَع» من الخيل والشاء: الذي ٱسودّ رأسُه ولونُ سائره أبيضُ، والأنثى «دَرْعَاءُ»، من الدُّرْعة[٤]. و«الأَخْصَفُ» من الخيل والغنم: الأبيضُ الخاصرتين الذي ٱرتفَع البَلَقُ من بطنه إلى جنبيه، ولونَهُ كلون الرّماد فيه سوادٌ وبياضٌ. وقيل: كلُّ ذي لَونينِ مجتمعين فهو خصيفٌ وأخصفُ؛ وأكثر ذلك السوادُ والبياضُ. ويقال: فرسٌ «آزرُ» إذا كان أبيضَ العَجُز.

ومن الشِّية التحجِيلُ ـ وهو البياضُ في قوائم الفرس الأربع، أو في ثلاث منها، أو في رجليه قلّ أو كثُر إذا استدار حتى يُطِيفَ بها. وأصل الحُجْلة من الحجْلِ (بفتح الحاء وكسرها) وهو القيدُ والخلخالُ. قال ٱبنُ الأجدابيّ: فإن كانت قوائمُه الأربعُ بيضاءَ لا يبلغُ البياضُ منها الركبتين فهو «مُحَجَّلٌ»، وطَليقُ اليدِ وطلق اليدِ (بفتح الطاء وإسكان اللام وبضمهما أيضاً): إذا كانت على لون البدن ولم يكن بها بياضٌ. فإذا أصاب البياضُ القوائمَ كلها فهو «مُحَجَّلُ أربع». وإن كان في ثلاثِ قوائمَ فهو «مُحجَّلُ ثَلاثٍ»، مُطلقُ يدٍ أو رجلٍ يُمنى أو يُسرى. وكلّ قائمة بها بياضٌ فهي «مُمَسكَةٌ». وكل قائمة ليس بها وضحٌ فهي «مُطلَقَةٌ». فإن كان البياض في الرجلين جميعاً فهو «مُحجَّلُ

---

(١) الجحفلة لذوات الحافر من الخيل والبغال والحمير، كالشفة للإنسان.
(٢) قمعة الذنب: طرفه.
(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن عبد الله المعروف بابن الأجدابي الطرابلسي.
(٤) الدرعة: هو سواد مقدم الفرس أو الشاة وبياض سائرها.

الرجلين»، وإن كان في إحداهما فهو «الأَرْجَلُ»؛ وقد ذكرناه.

ولا يكون التَّحجِيلُ واقعاً بيدٍ ما لم يكن معها رجلٌ أو رِجلانِ، ولا بيدَين ما لم يكن معهما رِجلٌ أو رجلان أو وَضَحٌ بالوجه. فإن كان التحجيلُ في يد ورجل من شِقٍّ واحدٍ فهو مُمَسكُ الأيامن مُطلَقُ الأياسر، أو مُمسَكُ الأياسرِ مُطلَقُ الأيامِن، ويقال: الأيمَنينِ والأيسَرينِ، وإن كان من خلافٍ قلَّ أو كثر فهو «مَشكُولٌ»؛ وهو مكروه في الحديث. وقد تقدّم ذكره.

ومنها العَصَمُ ـ وهو إذا كان البياض بإحدى يديه قلَّ أو كثُر فهو «أعْصمُ» اليمنى أو اليسرى. وٱسم العُصمةِ مأخوذٌ من المِعْصَم وهو مَوضِعُ السُّوار من الساعد. فإن كان البياضُ في يده اليسرى قيل: «مَنكُوسٌ»؛ وهو مكروه. وإن كان البياضُ بيديه جميعاً فهو أعصمُ اليدينِ، إلا أن يكون بوجهه وَضَحٌ فهو «مُحجَّلٌ» ذهب عنه العَصَمُ. فإن كان بوجهه وضحٌ وبإحدى يديه بياضٌ فهو أعصَمُ، لا يُوقِعُ عليه وَضَحُ الوجه ٱسمَ التّحجيل إذا كان البياضُ بيد واحدة.

وَوَضَحُ القوائم: الخاتمُ، والإنعالُ، والتَّخدِيمُ، والصَّبَغُ، والتَّجبيبُ، والمُسَرْوَلُ والأَخْرَجُ، والتَّسريحُ. فأقلُّ وَضَحِ القوائمِ «الخاتَمُ» وهو شَعَرَاتٌ بيضٌ. فإذا جاوز ذلك حتى يكون البياضُ واضحاً فهو «إنْعَالٌ» ما دام في مؤخّر رُسْغِهِ مما يلي الحافرَ. فإذا جاوز الأرساغَ فهو «تَخْدِيمٌ». وإذا ٱبيضَّتِ الثُّنَّةُ[١] كلُّها ولم يَتَّصِلْ بياضُها ببياض التحجيل فهو «أصبَغُ»، وإذا ارتفعَ البياضُ في القوائم إلى الجُبَبِ[٢] فما فوق ذلك ما لم يَبلُغِ الركبتينِ والعُرقوبَينِ فهو «التّجبيبُ»، فإذا بلغ التجبيبُ الركبتين والعرقوبين فهو «مُسَرْوَلٌ» حتى يَخرُجَ من الذراعين والسّاقينِ. فإذا خرج من الذراعين والساقين فهو «أخرَجُ». وكلّ بياضٍ في التحجيلُ مستطيلٍ فهو «تَسْريحٌ»، والله أعلم.

وأما ما في الفرس من الدوائر ـ فمنها: «دَائِرةُ المحيا» وهي اللّاصقة بأسفلِ الناصية. و«دائرةُ اللَّطْمَةِ» في وسَط الجبهة، فإن كانت دائرتان في الجبهة قيل: فَرسٌ نَطيحٌ. و«دائرةُ اللّاهِزِ»: التي تكون في اللِّهْزِمَةِ[٣]. و«دائرةُ العَمُودِ» وتُسَمّى المعوَّذَ أيضاً وهي في موضع القلادة. و«دائرةُ السَّمَامة» في وسَط العنق. و«دائرتا البَنيقَينْ» وهما اللّتان في نَحْر الفرس. و«دائرةُ النَّاحِرِ»[٤]: التي في الجران[٥] إلى أسفل من

(١) الثنّة: الشعرات التي في مؤخر رسغ الدابة.
(٢) الجبب واحدتها الجبة، وهي مغرز الوظيف في الحافر.
(٣) اللهزمة: عظم ناتىء في اللحى تحت الحنك.
(٤) الناحر: عرق في صدر الفرس.
(٥) الجران: باطن العنق.

ذلك. و«دائرةُ القالِع»: التي تكون تحت اللِّبْد. و«دائرةُ الهَقْعَة» في الشِّقَّيْن، وتُدعى النافذَة أيضاً، وقيل: هي التي تكون في عُرْض زَوْرِه. و«دائرةُ النّافِذة» وهي دائرة الحِزام. و«دائرتا الصَّقْرين» في الحَجَبَتَيْن والقُصْرَيَيْن ـ والحَجَبَةُ: رأس الوَرِك. والقُصْرَى: الضِّلَع التي تلي الشاكلة ـ و«دائرةُ الخَرَب» تكون تحت الصَّقْرين. و«دائرةُ الناخِس» تكون تحت الجَاعِرتين إلى الفَائلَين. وهما عِرْقان في الفَخِذ. والجاعرتان: حَرْفا الوَرِكين المُشرفان على الفخِذَيْن، وهما مَضْرِبُ الفرس بذنبه على فخِذيه، وهما موضع الرَّقْمتين من أَسْتِ الحمار.

وكانت العرب تَستَحِبّ من هذه الدوائر: المُعَوَّذ، والسَّمَامةَ، والهَقْعةَ. وقيل: أستحبّوا الهقعةَ ثم كرهوها. يقال: إن المهقوع لا يَسْبِق أبداً. وكانوا يكرهون النَّطيحَ واللاّهِزَ، والقالِعَ، وقيل: الناخس أيضاً. وما سوى هذه الدوائر فغير مكروه.

وقال أبن قُتَيْبة: «والدوائر ثمانيَ عشرةَ دائرةً، تُكره منها «الهقعة» وهي التي تكون في عُرْض زوره، ويقال: إنّ أبقى الخيل المهقوع. و«دائرة القَالِع» هي التي تكون تحت اللِّبد. و«دائرة النّاخِس» هي التي تكون تحت الجَاعِرتين إلى الفائلين. و«دائرة اللَّطَاة»، في وسط الجَبهة، وليست تُكره إذا كانت واحدةً؛ فإذا كانت هناك دائرتان قالوا: فرس نَطِيحٌ؛ وذلك مكروه. وما سوى هذه الدوائر غير مكروهة».

ومن الدوائر التي ذكرتها الهند في البركة والشؤم ـ قالوا: إذا كان في موضع حَكَمَته[١] دائرةٌ أو على جَحْفَلته[٢] العُليا دائرةٌ كان ممّا يُرتَبط. وما كان منها ليس في وجهه ولا في صدره دارةٌ[٣] فمكروه أرتباطُه. وما كان في صدره دارةٌ إلى التّربيع، أو كان في رأسه دَارَتَان، أو على خاصِرته أو على مَذْبَحه دارة، أو في عنقه أو على خَطْمه[٤] أو على أُذُنه شَعَرٌ نابت كزهرة النبات، كان ذلك مما يُرتبط وتُقضى عليه الحوائجُ، ويكون صاحبُه مظفَّراً في الحروب ولا يرَى في أموره إلاّ خيراً.

وذكروا أيضاً: أنه لا ينبغي أن يُرتبطَ من الدَّوابّ ما كان منها في مُقَدّم يده دارةٌ، وما كان أسفل من عينيه دارة، أو في أصل أُذنيه من الجانبين دَارَتان، أو على مَأْبِضِه[٥] دارة، أو على مَحْجِره[٦] دارة، أو في خدّه أو في جَحفَلته السُّفلى أو على ملتقى لَحْييه

(١) الحكمة: حكم اللجام: حديدته التي تكون في فم الفرس ويتصل بها العذاران.
(٢) الجحفلة: لذوات الحافر كالشفة للإنسان.
(٣) المراد بالدارة: الدائرة.
(٤) الخطم: الأنف أو مقدمه.
(٥) المأبض: باطن الركبة.
(٦) محجر العين: ما يبدو من النقاب.

دارة، أو في بطنه شعر منتشرٌ، أو على سُرّته دارة، أو كانت أسنانه طالعةً على جحفلته، أو له سنّان ناتئان بمنزلة أنياب الخنزير، أو في لسانه خُطَط سُودٌ لا خُضر، وما كان منها أدْبَس[١] أو أبيض أو أصفر أو أشهب تعلوه حمرةٌ وداخل جَحَافِله ولَهَواته[٢] وخارج لَحْيَيه سواد. وما كان منها أدهم وداخل جحافله أبيض، أو في لهواته وداخِل شِدْقه نُقَطٌ سُود وجَحْفَلَتُه خارجُها مُنَقط كحبّ السمسم، أو على مِنْسَجِه دارَتان، أو على خُصْيَيْه وَبَرٌ أسودُ مخالِفٌ للونه، أو كان في جَبْهتِه شَعَراتٌ مُخَالفةٌ للوْنه، أو ما كان منها حين يُنتَج يُرى خُصْياه ظاهرين ـ فهذه العلامات زعم حنّة الهنديّ أنه لا ينبغي لأحد أن يرتبط دابّةً بها شيءٌ منها. وزَعم أنه يُستحبّ أن يُرتبطَ ما كان في صدره أربعُ نُقَطٍ في أربعة مواضع، أو شَعَر ملتفّ عَرْضاً وطولاً، أو شعر ملتوٍ.

وأما ما قيل في طبائعها، وعاداتها، والمحمودِ من صفاتها، ومحاسنها، والعلاماتِ الدالّة على جَوْدة الفرس ونجابته

قالت العرب: والخيل نوعان: عتيقٌ وهو المسمى فرساً، وهجين وهو المسمّى بِرذوناً، والفرق بينهما أنّ عَظْم البرذون أغلظُ من عظم الفرس؛ وعظم الفرس أصلب وأثقلُ من عظم البرذون، والبرذون أحملُ من الفرس، والفرس أسرعُ من البرذون؛ والعتيق بمنزلة الغزال، والبرذون بمنزلة الشاة.

وفي طبع الفرس: الزَّهْو، والخُيَلاء، والعُجْب، والسرورُ بنفسه، والمحبَّةُ لصاحبه. وفي طبعه: أنه لا يشرب الماءَ إلا كَدِراً؛ حتى إنه يرد الماءَ وهو صافٍ فيضرب بيده فيه حتى يُكَدِّره ويعكّره. وربما ورد الماءَ الصافي وهو عطشان فيرى خيالَه فيه فيتحاماه ويأباه، وذلك لفزعه من الخيال الذي يراه في الماء. وهو يُوصف بحدّة البصر. وفي طبعه: أنه متى وطِىء أثر الذنبَ خَدِرت قوائمُه حتى لا يكاد يتحرَّك، ويخرج الدُّخانُ من جلده؛ وإذا وطِئَته الأُنثى وهي حامل أزْلَقَتْ[٣]. والأنثى من الخيل تحمِل سنةً كاملةً؛ هذا هو المعروف من عادتها. وأخبرني بعضُ من أثق إلى قوله إنه كان يملك حِجْراً[٤] تحمل ثلاثةَ عشر شهراً. وسمعتُ أن عند التَّتَر جنساً من خيلها تحمل الفرسُ منها تسعةَ أشهر وتَضَعُ. وقال لي الناقلُ: إنّ هذا أمر مشهور عندهم معروف مألوف لا ينكرونه ولا يتعجبون.

---

(١) الدبسة: حمرة مشربة سواداً.

(٢) اللهوات واحدتها اللهاة، وهي لحمة حمراء معلقة على عكدة اللسان.

(٣) يقال: أزلقت الفرس: إذا أسقطت حملها لغير تمامه.

(٤) الحجر: الأنثى من الخيل.

فصل ـ والعلامات الجامعة لنجابة الفرس الدالّة على جَوْدته، ما ذكره أيّوب ابن القِرِّيّة[١] وقد سأله الحجّاجُ عن صفة الجَوَاد من الخيل فقال: القصيرُ الثلاث، الطويلُ الثلاث، الرَّحْب الثلاث، الصافي الثلاث. فقال: صِفْهنّ؛ فقال: أمّا الثّلاث الطِّوال فالأُذن والعُنُق والذِّراع. وأما الثلاث القصار فالظَّهْر والسّاق والعَسيب[٢]. وأما الثلاث الرَّحبة فالجَبْهة والمنخر والجوف. وأما الثلاث الصافية فالأديمُ والعَيْنان والحافر. وقد جمع بعضُ الشعراء ذلك في بيت واحد فقال: [من المتقارب]

وقد أغتدي قبل ضوء الصّباح ووِرْد القَطَا في الغَطَاط الحثَّاث[٣]

بصافي الثّلاث عريض الثلاث قصيرِ الثلاث طويلِ الثلاث

وهذه الحكاية أيضاً نُقِلت عن صَعْصَعَةَ بن صُوحَان وقد سأله معاوية: أيّ الخيل أفضل؟ فقال: الطويلُ الثلاث، العريضُ الثلاث، القصيرُ الثلاث، الصافي الثلاث. قال معاوية: فسِّرْ لنا؛ قال: أما الطويل الثلاث فالأذن والعنق والحِزَام. وأما القصير الثلاث فالصُّلب والعسيب والقضيب. وأما العريض الثلاث فالجبهة والمِنْخَر والوَرِك. وأما الصافي الثلاث فالأديم والعين والحافر.

وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لعمرو بن مَعْدِ يَكرِب: كيف معرفتُك بعِرَاب الخيل؟ قال: معرفة الإنسان بنفسهِ وأهلِه وولده؛ فأمَر بأفراسٍ فعُرِضَتْ عليه؛ فقال: قدِّموا إليها الماء في التِّراس[٤]، فمن شرب ولم يَكْتِفْ[٥] فهو من العراب، وما ثَنَى سُنْبُكَه فليس منها.

وقيل: أهدى عمرو بن العاص لمعاوية بن أبي سفيان ثلاثين فرساً من خيل مصر؛ فعُرِضَتْ عليه وعنده عُتْبة بن سفيان بن يزيد الحارثي؛ فقال له معاوية: كيف ترى هذه يا أبا سفيان؟ فإن عمراً قد أطنب في وصفها؛ فقال: أراها يا أمير المؤمنين كما وصَف؛ وإنها لساميةُ العيون، لاحقةُ البطون؛ مُصْغِيةُ الآذان، قَبَّاء[٦] الأسنان؛ ضِخَامُ الرُّكبات، مُشْرِفات الحَجَبات؛ رِحابُ المناخر، صِلابُ الحوافر؛ وضعُها تحليل، ورفعُها تقليل؛ فهي إن طُلِبَتْ سَبَقَتْ، وإن طَلَبت لَحقتْ. فقال معاوية:

---

(١) هو أيوب بن زيد بن قيس والقريّة أمه، وكان خطيباً، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي لاتهامه بالميل لابن الأشعث.

(٢) العسيب: عسيب الذنب: عظمه، أو منبت الشعر منه.

(٣) الغطاط: واحدتها غطاطة، وهي ضرب من القطا.

(٤) التراس: جمع ترس، وهو معروف.

(٥) يقال: كتفت الخيل: إذا ارتفعت فروع أكتافها.

(٦) يقال: قبت نابه: إذا صوتت وقعقعت.

اضْرِفها إلى دارك، فإن بنا عنها غنًى، وبفتيانك إليها حاجة.

وقال أبو عبيدة: يُستدلّ على عِتق الفرس برقّة جحافله وأرْنَبَته، وسَعَةِ مِنْخَرَيْه، وعُرْي نواهقه، ودِقّة حَقْويه وما ظهر من أعالي أُذُنيه، ورقّة سالفتيه وأديمه، ولِين شعره؛ وأبينُ من ذلك كلّه لِينُ شَكِيرِ[١] ناصيته وعُرْفه.

وكانوا يقولون: إذا اشتدّ نَفَسُه، ورَحُب مُتَنَفَّسُه، وطال عنقه، واْشتدّ حِقْوه، واْنْهَرَتَ[٢] شِدْقُه، وعظُمَتْ فَخذَاه، واْنشنجَتْ[٣] أنساؤه[٤]، وعَظُمت فصوصُه، وصَلُبت حوافره ووقَحتْ[٥]، لحِق بجياد الخيل، والله أعلم.

ومما يستحبّ من أوصافها في الخَلْق ـ الأُذُن المؤلَّلة، والناصية المعتدلة التي ليست بسَفْواء ولا غَمّاء، والجبهةُ الواسعة، والعين الطامحة السامية، والخدّ الأسيل، ورُحْب المَنْخرين، وهَرَت الشِّدقين ـ قال الشاعر[٦]:

هَـرِيـتٌ قـصـيـرُ عِـذَارِ الـلِّـجـام   أسـيـلٌ طـويـلُ عِـذَارِ الـرَّسَـنْ[٧]

قوله: «قصير عِذار اللجام»: لم يُرِد به قِصَرَ خدّه، وإنما أراد طولَ شَقّ الفَمِ. ويدلُّ على ذلك قولُه في البيت:

* أسـيـلٌ طـويـلُ عِـذَارِ الـرَّسَـنُ *

يريد طولَ خَدّه ـ وَقَوَدُ العنق (لينها حتى لا تكون جاسئةً)[٨]، ورِقّة الجَحْفَلَتَيْن، واْرتفاع الكَتِفين والحارك والكاهل.

قالوا: ويستحبّ أن يشتدّ مُرَكّبُ عنقه في كاهله لأنه يتساند إليه إذا أحْضَر[٩] وعِرَضُ الصدر، وضيق الزَّوْر، واْرتفاع اللسان، وأن يشتدّ حَقْوه لأنه مُعَلّق وَرِكَيْه ورجليه في صُلْبه، وعِظَمُ جوفه وجنبيه، واْنطواء كَشْحه، وإشراف القَطَاه، وقصر العَسِيب، وطول الذنب، وشَنَج النَّسا، واْستواء الكَفَل حتى لا يكون أقرنَ، وملاسَةُ

(١) الشكير: ما أطاف بالناصية من قصير الشعر، وهو ما يستدل به على العتق.
(٢) انهرت: وسعت.
(٣) انشنجت: تقلصت.
(٤) الأنساء: جمع نسء، وهو اللبن الرقيق الكثير الماء.
(٥) وقحت: صلبت.
(٦) هو تميم بن أبيّ بن مقبل، أحد شعراء الجاهلية، مخضرم.
(٧) الهريت: الواسع الشدقين الطويل شق الفم.
(٨) الجاسئة: الصلبة الخشنة.
(٩) أحضر الفرس: أي وثب في عدوه.

الكَفَل، وقصر الساقين، وطول الفَخِذَيْن، وتوتير الرِّجلين حتى لا يكون أقسطَ، وتأنِيف[1] العرقوبين حتى لا يكون أقمعَ، وغلظَ الرُّسْغ، وأن تكون الحوافر صلاباً سوداً أو خُضراً.

وحكي أن هارون الرشيد ركِب في سنة خمس وثمانين ومائة إلى المَيدان لشهود الحَلْبة، قال الأصمعيّ: فدخلت الميدانَ لشهودها، فجاء فرسٌ أدهمُ لهارون الرشيد سابقاً يقال له «الرّبد»؛ فُسّر به الرشيد وابتهج وقال: عليّ بالأصمعي، فنُودِيتُ من كل جانب، فأقبلتُ سريعاً حتى مَثَلْتُ بين يديه، فقال: يا أصمعيّ، خذ بناصيةِ «الرّبد» ثم صِفْه من قَوْنَسِه إلى سُنْبُكه، فإنه يقال: إن فيه عشرين اسماً من أسماء الطير؛ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، وأُنشدك شعراً جامعاً لها من قول أبي حَزْرَة[2]؛ قال: فأنشدنا لله أبوك؛ فأنشدته:

وأقبّ كالسِّرحان تَمّ له ... ما بين هامته إلى النَّسْر[3]

الهامَةُ: أعلى الرأس. والنّسر: ما ارتفع من بطن الحافر من أعلاه. وهما من أسماء الطير.

رَحُبَتْ نَعامتُه وَوُفِّرَ فَرْخُه ... وتمكّن الصُّرَدانِ في النَّحرِ[4]

النعامة: جلدة الرأس التي تُغَطّي الدِّماغَ. والفرخ: الدِّماغُ، والصُّرَدَان: عِرْقان في أصل اللسان، ويقال: إنهما عرقان يكتنفان باطنَ اللسان. وفي الظهر أيضاً صُرَد يكون في موضع السَّرج من أثر الدَّبَر. والنعامة والفرخ والصُّرَدان من أسماء الطير:

وأناف بالعصفور في سَعَفٍ ... هام أشمّ موثّق الجِذْر[5]

العصفور: أصلُ مَنْبِت شعر الناصية، وهو أيضاً عظم ناتىء في كل جبين، وهو أيضاً من الغُرَر. والسَّعَف: يقال: فرس أسعف إذا سالت ناصيتُه. وهام أي سائل. والشَّمَمُ: ارتفاع قصبة الأنف. وموثق الجذر أي شديد. والجذر: الأصل من كل شيء.

وأزدان بالدِّيكين صَلْصَلهُ ... ونَبَتْ دَجاجتُه عن الصَّدْر

الديكان: واحدهما ديك وهو العظم الناتىء خلف الأذن، وهو الذي يقال له

(١) تأنيف العرقوبين: تحديد طرفيهما.
(٢) أبو حزرة: هي كنية جرير بن عطية الخطفي الشاعر المشهور.
(٣) الأقب: الضامر ـ والسرحان: الذئب.
(٤) رحب: اتسع ـ ووفر: تم وكمل.
(٥) أناف: أشرف.

الخُشّاء والخُشَشَاءُ. والصلْصل: بياض في طرَف الناصية، ويقال: هو أصل الناصية. والدَّجاجة: اللّحمُ الذي على زَوْره بين يديه. والدِّيكُ والصّلصلُ والدّجاجةُ من الطير.

والنَّاهِضَان أُمِرّ جَلْزُهما فكأنما عُثِما على كَسْر

الناهضان: واحدهما ناهض، وهو لحم المنكبين، ويقال: هو اللحم الذي يلي العَضُدَين من أعلاهما. والناهض: فرخ العُقّاب. وقوله: «أُمِرّ جَلْزهما» أي فُتل وأُحْكِم، يقال: أمررتُ الحبل أي فتلته. والجَلْز: الشدّ. وقوله:

* فكأنما عُثِما على كسر *

أي كأنهما كُسِرا ثم جُبِرا. والعَثْم: الجبر على عُقْدة وعَوَج.

مُسْحَنْفِر الجنبين مُلتئم ما بين شيمته إلى الغُرّ

قوله: «مسحنفر الجنبين» أي منتفخهما. ملتئم أي معتدل. والشيمة: من قولك: فرس أشيم: بيّن الشامَة. والغرّ في الطير الأغلب الذي يسمّى الرَّخَمة. وهي من الفرس عَضَلةُ السّاق.

وصَفَتْ سُمَانَاه وحافِرُه وأديمُه ومنابتُ الشعر

السُّمَانَى: طائر وهو موضع من الفرس ربما أراد به السَّمَامَة، وهي دائرة تكون في سالِفة الفرس. والسَّمَامة أيضاً من الطير. وأدِيمهُ: جِلدُه.

وسما الغرابُ لموْقعيْه معاً فأُبِينَ بينهما على قَدْر

الغراب: رأس الوَرِك، ويقال للصَّلَوَيْن الغرابان، وهما مُكْتَنِفَا عَجْم[1] الذنب، ويقال: هما ملتقى أعلى الوَرِكين. والموقعان: ما في أعالي الخاصرتَيْن. وقوله:

* فأُبِين بينهما على قدر *

أي فُرّق بينما على ٱستواء وٱعتدال.

وٱكتنّ دون قَبِيحِه خُطّافُه ونأت سَمَامتُه على الصَّقر

قوله: وٱكتنّ أي ٱستتر. والقبيحُ: ملتقى الساقين، ويقال: إنه مُرَكّب الذراعين في العَضُدَيْن. والخطّاف: هو حيث أدركتْ عَقِبُ[2] الفارِس إذا حَرّك رجليه؛ ويقال لهذين الموضعين من الفرس المَرْكَلاَن. ونأت أي بَعُدَت. والسَّمامةُ: دائرة تكون في عنق الفرس. والصقر: دائرة في الرأس. والخُطّاف والسّمامة والصقر من أسماء الطير.

---

(١) عجم الذنب: أصله، أي العصعص.
(٢) العقب: مؤخر القدم.

وتـقـدَّمَـت عـنـه الـقَـطـاةُ لـه فـنـأتْ بـمـوْقِـعـهـا عـن الـحُـرّ

القَطاة: مَقْعَدُ الردف. والحُرّ: سوادٌ في ظاهر أذني الفرس. وهما من الطير. يقال: إن الحُرّ ذَكَر الحمام.

وسـمـا عـلـى نِـقْـويـه دون حِـداتـه خَـرِبـانِ بـيـنـهـمـا مَـدَى الـشِّـبْـر

النِّقْوان: واحدهما نِقْو والجمع أنْقاء، وهو عظم ذو مُخّ. وعَنَى هنا عظامَ الوَرِكين، لأن الخَرَب هو الذي تراه مثل المُدْهُن[1] في ورِك الفرس. وهو من الطير ذكَر الحُبَارى. والحِدَأةُ: سالفة الفرس. وهي من الطير.

يـدع الـرَّضِـيـمَ إذا جَـرى فِـلَـقـاً بـتَـوائـم كـمـواسـم سُـمْـرِ

الرَّضيم: الحجارة، يَفْلِقها بَتوائم أي بحوافره. والمواسم: جمع مِيسَم الحديد؛ أي أنها كمواسم الحديد في صلابتها. وقول: سُمْر أي لون الحافر. والحافر الأسمر هو الصُّلْب.

رُكِّـبْـن فـي مَـحْـضِ الـشَّـوَى سَـبِـط كَـفْـتِ الـوثـوب مُـشَـدَّدِ الأَسْـر

الشوى ها هنا: القوائم، يقال: فرس مَحْضُ الشَّوى إذا كانت قوائمه معصوبة. سبِط: سهل. كَفْت الوثوب أي مُجْتَمِعٌ. مشدّد الأَسْر أي الخَلْق.

قال الأصمعيّ: فأمر لي بعشرة آلاف درهم.

فهذه جُمَلٌ من أوصاف محاسنها. وسنذكر إن شاء الله تعالى ما وصفها به الشعراء في أشعارها والفضلاءُ في رسائلها، على ما تقف على ذلك في موضعه. فلنذكر عيوب الخيل:

وأما عيوبها التي تكون في خِلْقتها، وفي جَرْيها، والتي تطرَأ عليها وتَحدُث فيها ـ فهي مائة نذكرها:

فأما التي في خِلْقتها ـ فهي أن يكون الفرس «أخْذَى» وهو المُستَرْخي أصول الأُذُنين. و«أمْعَر»، وهو الذي ذهب شعر ناصيته. و«أسْفَى» وهو الخفيف الناصية، وهو محمود في البغال. و«أغَمَّ» وهو الذي غَطّتْ ناصيتُه عينيه. و«أَسْعَفَ» وهو الذي في ناصيته بياض. و«أحْوَلَ» وهو الذي أبيضّ مُؤخّر عينه وغار السوادُ من قِبَل مآقِيه. و«أزْرَقَ» وهو الذي في إحدى عينيْه بياضٌ أو زُرْقة. و«أَقْنَى» وهو الذي في أنفه أحدِيدَابٌ. و«مُغْرَباً» وهو الذي أشفارُ عينيه بِيضٌ مع زُرْقتها. و«أدَنَّ» وهو الذي أطْمأن عُنُقه من أصله. و«أهْنَعَ» وهو الذي أطمأنت عنقه من وسطها. و«أوْقَصَ» وهو الذي في

(١) المدهن: ما يجعل فيه الدهن.

عنقه قِصَرٌ ويُبْسُ مَعْطَف. و«أَكْتَفَ» وهو الذي في أعالي كتفيْه انفراج. و«أَزْوَرَ» وهو الذي تدخل إحدى فَهْدَتَيْ صدره وتخرج الأخرى. و«أَقْعَصَ»، وهو المطمئن الصُّلْبِ من الصهوة المرتفعُ القَطَاةِ. و«مُخْطَفاً» وهو الذي لَحِق ما خَلْف مَحْزِمه من بطنه. و«أَهْضَمَ» وهو المستقيم الضلوع الذي دخلت أعاليه. و«صَقِلاً» وهو الطويل الصُّقْلةِ[١]. و«أَنْجَلَ» وهو الذي خرجت خاصِرته ورقّ صِفَاقُه[٢]. و«أَفْرَقَ» وهو الذي قد أشرفت إحدى وركَيْه على الأُخرى. و«أَرْسَحَ»، وهو قليل لحم الصَّلاَ[٣]. و«أعْزَلَ» وهو المُلْتَوِي عسيب الذَّنَب حتى يبرُزَ بعضُ باطنه. و«أَكْشَفَ» وهو الذي التوى عسيبُ ذنبه. و«أَصْبَغَ» وهو المُبَيّض الذَّنَب. و«أَشْعَلَ» وهو الذي في عُرْض ذنبه بياض. و«أَشْرَجَ» وهو الذي ببَيْضة واحدة. و«أَفْحَجَ»، وهو الذي تَبَاعَد كَعْباه. و«أَبَدَّ» وهو الذي تباعدت يَداه. و«أَصَكَّ» وهو الذي تَصَكُّ كَعْباه إذا مشى. و«أَحَلَّ» وهو مُتَمسِّحُ[٤] النَّسا رِخْوُ الكَعْب. و«أَقْفَدَ» وهو المُنْتَصِبُ الرُّسْغ المُقْبل على الحافر ويكون في الرِّجل خاصَّةً. و«أَصْدَفَ» وهو الذي تدانى ذِرَاعاه وتباعد حافِراه. و«مُوَجَّهاً» وهو الذي به صَدَفٌ يسير. و«أَقْسَطَ» وهو الذي رجلاه منتصبتان غير منحنيتين. و«أَمْدَشَ» وهو المُصْطَكّ بواطن الرُّسغين. و«أَحْنَفَ» وهو المُلتوي الحافرين يُقْبِل كلٌّ منهما على صاحبه. و«مُتَلَفِّقاً»، وهو الذي يَخْبِط بيده. و«أَرْجَزَ» وهو المضطرب الرِّجل والكَفَل فإذا قام اضطربت فَخِذُه. و«شَخْتاً» وهو القليل اللحم الحَميش[٥] العظام. و«رَطِلاً» وهو الضعيف الخفيف. و«مَكْبُوناً» وهو القصير الدّوارج[٦] القريب من الأرض الرحيب الجوف. و«عَشًّا» وهو الضاحي[٧] العظام لقلّة لحمه. و«سَغِلاً»، وهو الصغير الجِرْم. قال الواسانيّ[٨] رحمه الله:

ليس بأسفى ولا أحقّ ولا أهضمَ طاوي الحَشا ولا سَغِلِ[٩]

---

(١) الصقلة: الخاصرة.

(٢) الصفاق: جلد البطن.

(٣) الصّلا: جانب الذنب عن يمينه وشماله: أو الفرجة بين الجاعرة والذنب؛ أو وسط الظهر من الإنسان والدواب.

(٤) متمسح النسا: ضعيف النسا.

(٥) الحميش العظام: دقيقها.

(٦) دوارج الدابة: قوائمها.

(٧) الضاحي العظام: الذي برزت عظامه.

(٨) هو أبو القاسم الحسين بن الحسين بن واسانة بن محمد المعروف بالواساني، وهو أحد الفضلاء المجيدين في الهجاء، وكان في زمانه كابن الرومي في أوانه... (يتيمة الدهر للثعالبي).

(٩) الأحق: الذي يصنع حافر رجله موضع يده.

و«جَأْباً»، وهو القصير الغليظ. و«مِلْواحاً»، وهو السريعُ العَطَش. و«صَلُوداً» وهو البطيءِ العَرَق. و«ضَاوِيّاً» وهو الذي أضواه[١] أبواه. و«مُقْرِفاً» وهو الذي أُمُّه عتيقة وأبوه غير عتيق. و«هَجِيناً» وهو الذي أبوه عتيق وأمه بِرْذَوْنَة. و«مُخْمِقاً» وهو الذي لا يُنْتَج منه إلا أحمق. و«كُوسِيّاً» وهو الذي إذا جرى نَكّس كالحمار. و«جَاسِئاً» وهو الذي تُرى معاقِدُه وفَقارُ ظهره وعنقُه جاسِئةً غيرَ لَيِّنَةٍ. والله أعلم.

وأما العيوب التي في جريها ـ فمنها: «الطَّمُوحُ» وهو السامي ببصره صُعُداً. و«المُنَكِّسُ» وهو الذي يُطأطىء رأسَه إذا جرى. و«المُعْتَزِمُ» وهو الذي يَجْمَحُ أحياناً. و«الجَمُوح»: الصُّلْبُ الرأس. و«الغَرْبُ»: المدّاد المَرَامي. و«الشَّمُوس»: الذي يمنع السرجَ والمسَّ. و«الحَرُون»: الذي إذا أُدرّ جَرْيُه قام لا عن كلال[٢]. و«البَالحُ» إذا قطَع جَرْيه ضَعْفاً. و«الضَّغِنُ» هو الذي يَتَلكأ في الحُضْر ويَقْصُر عن الجِرَان. و«الحَفّاش»، هو الذي يَشِبّ حُضراً ثم يرجع القَهْقَرى. و«الرَّوّاغُ» هو الذي يَحيد في حُضره يميناً وشمالاً. و«الفَيُوش» هو الذي يُظَنّ به الجريُ وليس عنده شيء منه. و«الحَيُوص» وهو الذي يَعْدِل يميناً وشمالاً في استقامة حُضْره. و«المُشْتَقّ» هو الذي يدَع طريقَه ويعدِل ثم يمضي على عُدوله لا يَروغُ. و«الشَّبُوبُ»؛ الذي يقوم على رجليه ويرفع يديه. و«العاجِر»، و«المُعَاجِر»: الذي يَعجِرُ[٣] برجليْه كقُماصُ[٤] الحمار. و«العَدُومُ»، و«العَضُوضُ»: الذي يَعَضُّ ما سَايَره. و«الشَّادِخُ»: يَعدِل عن طريقه ولا يُبالي ما رَكِب. و«الجَرُور»: البَطِيءُ. و«المُنْعَثِلُ»: الذي يفرّق بين قوائمه، فإذا رفعها فكأنما يَنزِعها من وَحَل يَخْفق برأسه ولا تتبعه رِجْلاه. و«المُجَرْبِذُ»: الذي يُقارِب الخطوَ يقرّب سنابكه من الأرض ولا يرفعها رفعاً شديداً. و«المُسَاعِرُ»: الذي يُطيح قوائمَه جميعاً متفرّقة ولا ضَبْر[٥] له. و«المتراذّ»: الذي ينقص حُضْرُه من ابتداء جريه. و«الفاتِرُ» إذا فتَر في حُضْره ولم تساعده قوائمُه على ما تطالبه به نفسُه. و«المُواكِلُ»: الذي لا يسير إلا بسير غيره. و«الخَرُوطُ»: الذي يَخْرِط[٦] رَسَنَه عن رأسه. و«الرَّمُوحُ»: الذي يَرْمَح[٧] بإحدى رجليه. و«الضَّروحُ»: الذي يَرْمح بكلتيهما. قال: وهذه الزيادة على الأربعة

---

(١) ضوي: ضعف وهزل، وأضواه أبواه: أي أتيا به ضاوٍ.

(٢) المراد بقوله قام: أي وقف ـ والكلال: التعب والإعياء. أي أنه إذا طلب منه الجري وقف عصياناً لا إعياء.

(٣) عجر الفرس: مرّ سريعاً من خوف أو غيره.

(٤) قمصت الدابة: أي نفرت وضربت برجليها.

(٥) الضبر: الوثب مع جمع القوائم.

(٦) خرطت الدابة: جمعت وجذبت رسنها من يد ممسكها ثم مضت.

(٧) يرمح بإحدى رجليه: يضرب بها.

والعشرين إنما هي من سوء العادة وفساد الرياضة.

وأما العيوبُ التي تَطْرَأ عليها وتحدُثُ فيها ـ فمنها: «الانتِشارُ» وهو انتفاع العَصَب. و«الشَّظَى»: تحرّك العظم اللاّصق بالرُّكبة. و«الفُتُوق»: انفتاق من العصب على الأرْضفة[1]. و«الدَّخَسُ»: ورم في أُطْرة[2] الحافر. و«الزوائد»: أطراف عصب تفرّق عند العُجّاية[3] وتنقطع عندها وتَلْصَق بها. و«العَرَنُ»: جُسُوءٌ[4] في رُسْغ الرِّجل خاصّة لشُقاقٍ أو مشقة. و«الشُّقَاق»: يصيبه في أرساغه وربما ارتفع إلى أوظفته، وهو تشقق يصيبها، وتسمى الحلامة. و«الجَرَدُ»، ما حدّث في عُرْض عُرْقُوبَيْه ظاهراً وباطناً من تزيّد وانتفاخ عَصَبٍ ويكون مع المِفْصل طولاً كالمَوْزة. و«المَلَحُ»: انفتاقٌ من العَصَب أسفلَ العُرقوب لمادّة تَنصَبّ إليه كالبَلّوطة[5]. و«القَمَع» هو عِظَم قَمَعة العُرقوب. و«المَشَشُ»: كلّ ما شخص في الوظيف وله حَجْمٌ وليست له صلابةُ العظم. و«الارْتهاشُ»: أن يَصُكَّ بعُرض حافره عُرْضَ عُجايته من اليَدِ الأخرى. و«الرَّهْصةُ»[6]: ما يَصير في الحافر. و«الوَجَا»: ما يُصيب الحافرَ من الخشونة. و«الرَّقَقُ»: ضَعْفٌ ورِقّة في الحافر. و«النَّمْلَة»: شقّ في الحافر من الأَشْعَر[7] إلى طرف السُّنْبُك. و«السَّرَطان»: داءٌ يأخذ في الرُّسغ فيُيَبِّس عروقَه حتى يقلب حافرَه. و«العَزَل»: أن يعزِل ذنبَه في شقٍّ عادةً. و«الخِفَاق»: صوت من ظبية[8] الأنثى. و«البَجَر»: أن تكون الرُّهَابة[9] غيرَ مُلْتَئمةٍ فيعظم ما والاها من جلد السُّرَّة.

وحيث ذكرنا العيوبَ فلنَذْكُر الخيلَ النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة والسّلام.

ذكر أسماء خيل رسول الله ﷺ

أوّلُ فرس مَلكه رسولُ الله ﷺ، فرسٌ ابتاعه بالمدينة من رجل من بني فَزَارة بعشر أواقٍ، وكان اسمُه عند الأعرابيّ «الضَّرِسَ»، فسمّاه النبيّ ﷺ «السَّكْبَ». فكان أوّل ما غزَا عليه أُحُداً، ليس مع المسلمين فرسٌ غيرُه وفرس لأبي بُرْدة بن نِيَار يقال له

(١) الأرضفة: جمع رضف أو رضاف، وهو عظم يموج فوق رأس الركبة.
(٢) أطرة الحافر: ما أحاط بها من اللحم.
(٣) العجاية: عصبة باطن الوظيف من الدابة.
(٤) جسأ جسوءاً: يبس وصلب وخشن.
(٥) البلوط: ثمر شجر يؤكل ويدبغ بقشره.
(٦) الرهصة: أنه يصيب باطن حافر الدابة شيء يوهنه أو ينزل فيه الماء من الإعياء.
(٧) أشعر الفرس: ما بين حافره إلى منتهى شعر أرساغه.
(٨) الظبية: الحياء من المرأة وغيرها.
(٩) الرهابة: غضروف كاللسان معلق في أسفل الصدر مشرف على البطن.

مُلاوح. وكان السَّكْبُ كُمَيْتاً أغَرَّ مُحجَّلاً مُطْلَق اليمنى، وقيل: إنه أدهم. رواه الطَّبَراني[(١)] في المعجم الكبير.

وعن عُمَارة بن خُزَيْمة الأنصاريّ أن عمّه حدّثه ـ وهو من أصحاب النبيّ ﷺ ـ: أن النبيّ ﷺ ٱبتاع فرساً من أعرابيّ، فٱستتبعه النبيُّ ﷺ ليُقْبِضَه ثمنَ فرسه، فأسرع النبيّ ﷺ المَشْيَ وأبطأ الأعرابيُّ؛ فطفِق رجالٌ يعترضون الأعرابيَّ فيُساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبيّ ﷺ ٱبتاعه، حتى زاد بعضُهم الأعرابيَّ في السَّوْم على ثمن الفرس الذي ٱبتاعه به النبيّ ﷺ؛ فنادَى الأعرابيُّ النبيَّ ﷺ فقال: إن كنتَ مبتاعاً هذا الفرسَ فٱبتعه وإلا بعتُه؛ فقال النبيّ ﷺ: «بَلَى قد ٱبتعتُه»؛ فطفِق الناسُ يَلُوذون بالنبيّ ﷺ وبالأعرابيّ، وهما يَتَراجَعان[(٢)]، وطفِق الأعرابيُّ يقول: هَلُمَّ شهيداً يشهد أني قد بايعتُك. فمن جاء من الناس قال للأعرابيّ: ويلك! إن النبيّ ﷺ لم يكن ليقول إلا حقّاً! حتى جاء خُزَيْمةُ بن ثابت فٱستَمع لمُرَاجَعَة النبيّ ﷺ ومراجعةِ الأعرابيّ؛ فطفِق الأعرابيُّ يقول: هَلُمَّ شهيداً يشهد أني قد بايعتُك؛ فقال خُزَيمةُ بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعتَه. فأقبل النبيّ ﷺ على خزيمة فقال: «بِمَ تَشْهَدُ»؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل النبيّ ﷺ يقول: «شهادةُ خزيمة بن ثابت بشهادةِ رجلين». وفي لفظٍ: فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنه قد باعك الفرسَ يا رسول الله؛ فقال النبيّ ﷺ: «وهل حَضَرْتنا يا خزيمة»؟ فقال: لا؛ فقال: «فكيف شهدت بذلك»؟؛ فقال خزيمة: بأبي أنت وأمّي! يا رسول الله، أصَدِّقك على أخبار السماء وما يكون في غَدٍ ولا أصدّقك في ٱبتياعك هذا الفرس!. فقال النبيّ ﷺ: «إنك لذو الشهادَتَيْن يا خزيمة».

وقد ٱخْتُلِف في ٱسم هذا الفرس، فقال محمد بن يحيى بن سَهْل بن أبي حَثْمَةَ: هو «المُرْتَجِزُ»؛ وعن ٱبن عباس رضي الله عنهما أنه المُرْتَجِزُ. قال ٱبنُ الأثير[(٣)]: وكان أبيضَ. وقال ٱبنُ قتيبة في المعارف: المرتجز، وفي أخرى: «الطِّرْف»، وفي أخرى: «النّجيب».

ومنها «البحر»، وهو الذي سبقَ الخيلَ لمّا سابَق به رسولُ الله ﷺ؛ فسمّاه البحرَ

---

(١) هو الإمام أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني الحافظ، كان ثقة صدوقاً واسع الحفظ بصير بالعلل، كانت وفاته سنة ٣٦٠هـ.

(٢) يتراجعان: أي يتحاوران.

(٣) هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب ضياء الدين كان مولده بجزيرة ابني عمر ونشأ بها. . . حصل العلوم وحفظ كتاب الله الكريم وكثيراً من الأحاديث النبوية وطرفاً صالحاً من النحو واللغة وعلم البيان. . . (وفيات الأعيان ٥ : ٣٨٩).

في ذلك اليوم. وكان النبيّ ﷺ قد اشتراه من تَجْرٍ قدموا من اليمن، فسبَق عليه مرّات. قال ابنُ الأثير: وكان كُمَيْتاً، وقيل: كان أدهمَ.

ومنها «سَبْحَة»، ذكرها ابن بنين فقال: وكانت فرساً شقراءَ ابتاعها النبيّ ﷺ من أعرابيّ من جُهينة بعشر من الإبل، وسابَق عليها يوم خميسٍ ومدّ الحبلَ بيده ثم خلّى عنها وسُبِحَ عليها؛ فأقبلت الشقراءُ حتى أخذ صاحبُها العَلَمَ وهي تغبر[١] في وجوه الخيل؛ فسمِّيت سبحةَ. وسبحة من قولهم: فرس سابح إذا كان حسَن مَدّ اليدين في الجري. وسَبْحُ الفرس: جَرْيُه.

ومنها «ذو اللِّمَّة»، ذكره ابنُ حبيب في أفراس النبيّ ﷺ.

ومنها «ذو العُقَّال»، قال بعضُ العلماء: كان للنبيّ ﷺ فرس يقال له ذو العُقَّال. وكان له ﷺ فرس يقال له: «اللَّحِيف» وقيل: «اللَّخيف» بالخاء، وقيل فيه: «النّحيف». أهداه له فَرْوَةُ بن عمرو من أرض البَلْقاء، وقيل: أهداه له ابن أبي البَرَاء[٢]، وكان ﷺ يركبه في مَذَاهبه. وسمّي اللَّحيفَ لطول ذَنَبِه.

وروى ابنُ مَنْدَه من حديث عبد المهيمن بن عباس بن سهل عن أبيه عن جدّه قال: كان لرسول الله ﷺ ثلاثة أفراس يسميهنّ: «اللِّزاز» و«اللَّحيف» و«الظَّرِب». فأمّا لزَاز فأهداه له المُقَوْقِس. وأما اللَّحيف فأهداه له رَبيعة بن أبي البَرَاء، فأثابه عليه فرائضَ[٣] من نَعَم بني كلب. وأما الظَّرِبُ فأهداه له فَرْوة بن عمرو بن النافرة الجُذَاميّ. الظَّرِبُ واحد الظِّراب وهي الرَّوابي الصغار. سمّي به لكبره وسِمَنه، وقيل: لقوّته وصلابة حافره.

وأهدى تميمٌ الدَّاريّ لرسول الله ﷺ فرساً يقال له «الوَرْدُ»؛ فأعطاه عمَر، فحمَل عليه عمرُ رضي الله عنه في سبيل الله.

وذكر عليّ بن محمد بن حُنين بن عَبْدُوس الكوفيّ في أسماء خيل النبيّ ﷺ قال: وكانت له أربعة أفراس: أحدُها يقال له «السَّكْبُ» و«المُرْتَجِزُ» و«السِّجْل» و«البحرُ». وقال ابن الأثير: وكان له أفراس: «المرتجز» وذو العُقَّال و«السَّكْب» و«اللَّحيف»، و«اللِّزَاز»، و«الظَّرِب» و«سَبْحَة» و«البحرُ» و«الشَّحَاء» (بالشين المعجمة والحاء المهملة).

(١) تغبر في وجوه الخيل: تسبقها.
(٢) أبو البراء: كنية ملاعب الأسنة عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب.
(٣) فرائض: جمع فريضة، وهي ما فرض في السائمة من الصدقة.

وحكى ٱبنُ بَنين عن ٱبن خالويْه[١] قال: كان للنبيّ ﷺ من الخيل: «سَبْحَة» و«اللَّحيف» و«لِزاز» و«الظَّرِب»، و«السَّكْب» و«ذو اللِّمَّة» و«السِّرْحان» و«المُرْتجِل» و«الأَدْهَم»، و«المُرْتَجز». وذكر في موضع آخر: و«مُلاوِح» و«الورد» و«اليَعْسوب».

وذكر قاسم بن ثابت[٢] في كتاب الدلائل: «اليعسوب»، و«اليَعْبوب» فرسين لرسول الله ﷺ. وذكر ٱبن سعد في وفادات العرب عن محمد بن عمر قال: حدّثني أُسامة بن زيد عن زيد بن طَلْحة التَّيْميّ قال: قدِم خمسة عشر رجلاً من الرُّهَاويين (وهم حيّ من مَذْحِج) على رسول الله ﷺ، فنزلوا دارَ رَمْلَةَ بنت الحارث؛ فأتاهم رسولُ الله ﷺ فتحدّث عندهم طويلاً؛ فأهدَوْا لرسول الله ﷺ هدايا، منها فرس يقال له: «المِرُواح»؛ فأمر به فشُوِّر[٣] بين يديه فأعجبه؛ فأسلموا وتعلّموا القرآن والفرائضَ؛ وأجازهم كما يُجيز الوفد: أرفعَهم ثنتي عشرة أوقيّة ونَشّاً[٤] وأخفضَهم خمسَ أواق.

فقد ظهر من مجموع هذه الروايات أن خيل رسول الله ﷺ كانت تسعةَ عشرَ فرساً، وهي: «السَّكْب» و«المرتجز» و«البحر» و«سَبْحة» و«ذو اللِّمَّة»، و«ذو العُقّال» و«اللَّحيف» ـ وقيل فيه بالخاء المعجمة، وقيل: «النحيف» بالنون ـ و«اللِّزاز» و«الظَّرِب» و«الوَرْد» و«السَّجْل» و«الشَّحَاء» و«السِّرْحان» و«المُرْتجِل» و«الأدهم» و«مُلاوِح» و«اليَعْسوب» و«اليَعْبوب»، و«المِرْواح». وقد يكون الأدهم هو السكب أو البحر، فتكون ثمانية عشر فرساً. والله عز وجل أعلم.

ذكرُ أسماء كرام الخيلِ المشهورةِ عندَ العربِ

من أقدم خيل العرب: «زادُ الرَّاكب»؛ وكان من خيل سليمان بن داود عليهما السلام. حكى محمد بن السائب الكلبيّ[٥]: أن الصافِنات الجِياد المعروضة على

---

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه النحوي اللغوي؛ أصله من همذان ولكنه دخل بغداد وأدرك جلة العلماء بها مثل أبي بكر بن الأنباري وابن مجاهد المقرىء وأبي عمر الزاهد وابن دريد؛ وقرأ على أبي سعيد السيرافي... (وفيات الأعيان ٢: ١٧٨).

(٢) هو قاسم بن ثابت بن حزم بن عبد الرحمٰن بن مطرف سليمان بن يحيى العوفي السرقسطي (أبو محمد) محدث، لغوي، نحوي، رحل من الأندلس إلى مصر، فقدم مصر ومكة وسمع بهما... وكانت وفاته سنة ٣٠٢هـ... (معجم المؤلفين ٨: ٩٦).

(٣) شوّر الدابة: أي عرضها أو أجراها ليعرف قوتها.

(٤) النشّ: نصف أوقية، والأوقية أربعون درهماً.

(٥) هو أبو النضر محمد بن السائب بن بشر بن عمرو الكلبي، صاحب التفسير وعلم النسب، كان إماماً في هذين العلمين... وكان الكلبي من أصحاب عبد الله بن سبأ الذي يقول: إن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لم يمت وإنه رجع إلى الدنيا... (الوفيات ٤: ٣٠٩).

سليمان بن داود ﷺ كانت ألف فرس ورِثها عن أبيه؛ فلما عُرِضَت عليه ألْهَتْه عن صلاة العصر حتى توارت الشمسُ بالحجاب، فردّها وعَرْقَبها إلاّ أفراساً لم تُعرَض عليه؛ فوفَد عليه قوم من الأَزْدِ، وكانوا أصهارَه، فلما فرغوا من حوائجهم قالوا: يا نبيّ الله، إنّ أرضنا شاسعة فزوِّدنا زاداً يبلِّغنا؛ فأعطاهُم فرساً من تلك الخيل وقال: إذا نزلتم منزلاً فاْحملوا عليه غلاماً واْحتطبوا، فإنكم لا تُورُون نارَكم حتى يأتيكم بطعام؛ فساروا بالفرس، فكانوا لا ينزلون منزلاً إلا ركِبه أحدُهم للقَنْص، فلا يُفلِت شيءٌ تقع عينُه عليه من ظبي أو بقرة أو حمار، إلى أن قدِموا بلادَهم؛ فقالوا: ما لفرسنا هذا اْسم إلا «زاد الراكب» فسمّوْه به. فأصلُ فحول العرب من نتاجه. ويقال: إن «أعوج» منها. قال اْمرؤ القيس[1]:

إذا مـا ركِـبـنـا قـال وِلْـدانُ أهـلـنـا تعالَوْا إلى أن يأتيَ الصيدُ نَحْطِبُ

وقال عُمارة:

وأرى الـوحـشَ عـن يـمـيـنـي إذا مـا كـان يـومـاً عِـنـانُـه فـي شـمـالـي

ومن خيل العرب المشهورة ما حكاه أبو عليّ الحسن بن رَشيق الأَزْدِيّ في كتابه المترجم بالعمدة عن اْبن حَبيب عن أبي عُبيدة قال: «الغُرَاب» و«الوَجيه» و«لاحِق» و«المُذْهَب» و«مكتوم» كانت كلّها لغَنِيّ.

وقال أحمد بن سعد[2] الكاتب: كان «أعوجُ» أوّلاً لِكِنْدَةَ، ثم أخذتْه سُلَيْم، وصار لبني عامر ثم لبني هلال. قال اْبن حَبيب: رِكُبَ رَطْباً فاْعوجّت قوائمُه، وكان من أجود خيل العرب. وأمّه «سَبَل» لغَنِيّ. وأمّ سبل «سَوَادة»، وأم سوادة «القَسَامة»، وكانت لجَعْدة.

وحكى أحمد بن محمد بن عبد ربّه صاحب العقد في كتابه: أنه لما أنتجتْه أُمُّه ببعض بيوت الحيّ نظروا إلى طِرْف يضع جَحْفَلَته على كاذَتها (على الفَخِذ مما يلي الحَيَاء) فقالوا: أدركوا ذلك الفرس لا يَنزو فرسَكم؛ لعظم «أعوج» وطول قوائمه؛ فقاموا إليه فإذا هم بالمهر؛ فَسمّوه «أعوج». ولهم أيضاً «الفيّاض».

قال اْبن سعد: «الوجيه» و«لاحق» لبني أسد، «وقَيْد» و«حَلاّب» لبني تغلِب. و«الصَّريح» لبني نَهْشَل ـ وزعم غيره أنه كان لآل المنذر ـ و«جَلْوَى» لبني ثَعْلبة بن

---

(١) هو امرىء القيس بن حجر بن عمرو الكندي، وهو من أهل نجد من الطبقة الأولى وهذه الديار التي وصفها في شعره كلها ديار بني أسد. . . شاعر جاهلي مشهور (طبقات الشعراء ص ٣٦).

(٢) هو أحمد بن سعد الكاتب الأصبهاني (أبو الحسين) أديب. له من الكتب كتاب الأخبار عن الرسائل، كتاب آخر في الرسائل، سماه فقر البلغاء، كتاب الحلي والثياب، كتاب المنطق، كتاب الهجاء، وله شعر. . . كانت وفاته حوالي سنة ٣٥٠هـ. (معجم المؤلفين ١ : ٢٣٢).

يَرْبوع[١]، و«ذو العُقّال» لبني رِياح بن يَرْبوع، وهو أبو «داحِس». وكان «داحِسٌ»، و«الغَبْراء» لبني زُهَير. والغبراء خالة داحس وأخته من أبيه. و«ذو العُقّال» و«قُرْزُل» و«الخَطّار» و«الحَنْفاء» لحُذَيْفَة بن بَدْر. والحَنْفَاء هي أخت داحِس من أبيه وأمه. و«قُرْزُل» آخَرُ للطُّفَيْل بن مالك. و«حَذْفَة» لخالد بن جعفر بن كِلاَب. و«حَذْفَة» أيضاً لصَخْر بن عمرو بن الشَّريد[٢]. و«الشَّقْرَاء» لزُهَير بن جَذِيمة العَبْسِيّ. و«الزَّعْفَران» لبِسْطَام[٣] بنِ قَيْس. و«الوَرِيعةُ»، و«نِصاب» و«ذو الخِمَار» لمالك بن نُوَيْرَة[٤]. و«الشَّقْرَاء» أخرى لأَسِيدِ بنِ حِنَّاءة. و«الشَّيِّط» لأَنيف بن جَبلة الضَّبّيّ. و«الوُحَيف» لعامر بن الطُّفَيْل[٥]. و«الكَلْب» و«المَزْنُوق» و«الوَرْد» له أيضاً. و«خُنْثَى» لعمرو بن عمرو بن عُدَس. و«الهَدَّاج» فرس[٦] الرَّيْب ابن شَرِيق السَّعْدي و«وَجْزَة» فرس يزيد بنِ سنان المُرّي فارس غَطَفان. و«النَّعَامة» للحارث بن عُبَاد[٧]. و«ابن النَّعَامَة» لعَنْتَرَة. و«النَّحّام»، فرسٌ للسُّلَيْك بن السُّلَكة السَّعْدي[٨]. و«العَصَا» فرس جَذِيمة بنِ[٩] مالك الأَزْدِيّ. و«الهِراوة» لعبد القَيْس بن أَفْصَى. و«اليَحْمُوم» فرس النُّعْمَان بن المنذر. و«كامِل» فرس زَيْد الخيل[١٠]. و«الزَّبِد» فرس الحَوْفَزَان وهو أبو «الزَّعْفَران» فرس

---

(١) بنو ثعلبة بن يربوع: منهم بنو الكباس. وبنو الحمرة، وبنو جعفر... (الاشتقاق لابن دريد).

(٢) هو أخو الخنساء، وإخوته عمرو ومعاوية وكلهم فرسان شعراء أشراف... (الاشتقاق لابن دريد).

(٣) هو فارس من فرسان بني شيبان قتلته بنو ضبَّة ورثاه عبد الله بن عثمة الشاعر... (الاشتقاق).

(٤) مالك ومتمم ابنا نويرة: هما من ثعلبة بن يربوع، وكان مالك فارس ذي الخمار، وذو الخمار فرسه، قتله خالد بن الوليد في الردة، وتزوج امرأته... (طبقات الشعراء ص ١٥٧).

(٥) هو عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامريّ وهو ابن عم لبيد الشاعر، فارس قيس، وكان أعور عقيماً لا يولد له ولم يعقب... (الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٥).

(٦) هو فارس بني دارم في الجاهلية.

(٧) وفي النعامة يقول الحارث:

قربا مربط النعامة مني ... وائل أصبحت على بلبال

والحارث بن عباد هو الذي قتل من قتل من بني تغلب بابن أخيه، بجير بن عباد وكان الحارث فارساً في الجاهلية... (الاشتقاق لابن دريد).

(٨) هو منسوب إلى أمه سلكة وكانت سوداء واسم أبيه عمرو بن يثربي، وهو من بني كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم وهو أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم، وكان له بأس ونجدة، وكان أدل الناس بالأرض وأجودهم عدداً على رجليه... (طبقات الشعراء ١٧٣).

(٩) هو جذيمة بن مالك الأبرش الملك، الذي قتلته الزباء، وكان أبرص فتهيبت العرب أن تقول أبرص فقال: أبرش، ووضاح... (الاشتقاق).

(١٠) هو زيد الخيل بن مهلهل من طيىء، جاهلي وأدرك الإسلام ووفد على النبي ﷺ في وفد طيىء وأسلم وسماه زيد الخير... (طبقات الشعراء ١٢٩).

بِسْطام. و«الحِمَالة»، فرس الكَلْحَبة اليَرْبُوعي. هذا ما أورده أحمد بن سعد.

وقال ابن دُرَيد[١]: «القَطِيب» و«البَطِين»، فرسان كانا للعرب. و«اللَّعَّاب»، و«العَبَاية» فرساً حَرِّيّ بن ضَمْرة. و«المِذْعاس» فرس النَّوّاس بن عامر المُجَاشِعيّ، و«صُهْبَى» فرس النَّمِر بن تَوْلَب[٢]. و«حافل» فرس مشهور. و«العَسْجَدِي» لبني أسد. و«الشَّمُوس» فرس يزيد بن خَذَاق العَبْدي[٣]. و«الضَّيْف» لبني تَغْلب. و«هِرَاوة العُزَّاب» فرس الرَّيّان بن حُوَيْص العَبْدِيّ، يقال إنها جاءت سابقةً طولَ أربعَ عشرةَ سنة، فتصدّق بها على العُزّاب يتكسّبون عليها في السِّباق والغارات. و«الحَرُون» فرس تنسب إليه الخيلُ، وكان لمسلم بن عمرو بن أسد الباهليّ. و«الزائد» فرس مشهور وهو من نسل الحرون. و«مُنَاهِب» فرس تُنسب إليه الخيل أيضاً، قال الشَّمَردل[٤]:

تَلْقَى الجِيَادَ المُقْرَباتِ فِينا لأَفْحُلٍ ثلاثةٍ يَنْمِينا[٥]

* «مُناهبا» و«الضَّيْفَ» و«الحَرُونا» *

و«العَلْهَان» فرس أبي مُلَيْلٍ عبد الله بن الحارث اليَرْبُوعي.

هذا ما اتّفق إيرادُه من أسماءِ كرام الخيل ومشهورها. فلنذكر ما ورد في أوصافها وتشبيهها.

ذكر ما قيل في أوصاف الخيل وتشبيهها نظماً ونثراً

أوّلُ من شبّه الفرسَ بالظبي والسِّرْحان والنَّعَامة، ثم اتّبعه الشعراء وحَذَوْا مثالَه واقتَدَوْا به، هو امرؤ القيس بن حُجْر حيث قال: [من الطويل]

لـه أيْطَلا ظَبْيٍ وساقا نعامةٍ وإرْخاءُ سِرْحَانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ[٦]

(١) هو محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية بن خيثم بن حمامي بن جرو بن واسع بن وهب. . . يعود في نسبه إلى يعرب بن قحطان، فهو من الأزد الذين كان مسكنهم في مأرب في أرض اليمن. .

(٢) هو من عكل وكان شاعراً جواداً ويسمى الكيّس لحسن شعره وهو جاهلي وأدرك الإسلام فأسلم. . . (طبقات الشعراء ١٤١).

(٣) هو أخو سويد، وكلاهما شاعر معروف وهما من بني ربيعة بن نزار.

(٤) هو الشمردل بن شريك يربوعي وكان يقال له ابن الخريطة، وذلك أنه جعل وهو صبي في خريطة. (الشعر والشعراء لابن قتيبة).

(٥) المقربات من الخيل: التي ضمرت للركوب.

(٦) الأيطل: الخاصرة، وهي ما بين الأضلاع إلى الورك ـ والإرخاء: السير دون الخصر الشديد ـ والسرحان: الذئب ـ والتقريب: ضرب من العدو ـ والتنفل: ولد الثعلب.

كأن على المَتْنَيْن منه إذا انْتحَى ... مَدَاكَ عَرُوسٍ أو صَرَايَةَ حَنْظَلِ[١]
مِكَرٌّ مفَرٌّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حطَّه السَّيْلُ من عَلِ
دَرِيرٍ كَخُذْرُوفِ الوَلِيدِ أمَرّه ... تَقَلُّبُ كَفَّيْه بخَيطٍ مُوَصَّلِ[٢]
كُمَيْتٍ يَزِلّ اللِّبْدُ عن حال مَتْنِه ... كما زلَّت الصَّفواءُ بالمُتَنَزَّلِ[٣]

وقال أيضاً: [من المتقارب]

وَأَرْكَبُ في الرَّوْع خَيْفَانَةً ... كَسَا وجهَها سَعَفٌ مُنْتشِرْ[٤]
لها حافِرٌ مثلُ قَعْب الوليـ ... ـد رُكِّب فيه وَظِيفٌ عَجُرْ[٥]
لها عَجُزٌ كصَفَاةِ المَسِيـ ... ـل أبْرَز عنها جُحَافٌ مُضِرْ[٦]
لها ذَنَبٌ مثلُ ذيل العرو ... س تَسُدُّ به فرجَها من دُبُرْ
لها جَبْهةٌ كسَرَاةِ المِجَنّ ... حَذَّفه الصانعُ المُقْتَدِرْ[٧]
إذا أقبلتْ قلتَ دُبّاءَةٌ ... من الخُضْرِ مغموسةٌ في الغُدُرْ[٨]
وإذا أعْرَضَتْ قلتَ سُرْعُوفَةٌ ... لها ذَنَبٌ خلفَها مُسْبَطِرْ[٩]
وإن أدبرتْ قلتَ أُثْفِيَّةٌ ... مُلَمْلَمَةٌ ليس فيها أُثُرْ[١٠]

وقال أبو دُوَاد الإيَادي[١١] يصف فرساً:

---

(١) المتنان: ما اكتنفا فقار الظهر ـ والانتحاء: الاعتماد والقصد ـ والمداك: الحجر الذي يسحق عليه الطيب ـ والصراية: الحنظلة الخضراء البراقة.
(٢) الدرير: الفرس السريع العدو ـ والخذروف: لعبة يلعب بها الأولاد وتسمى «البلبل» وأمره: قلبه ثم أداره بين كفيه.
(٣) الحال: وسط الظهر ـ والصفراء: الصخرة الملساء التي لا ينبت فيها شيء ـ والمتنزل: الذي ينزل عليها فينزلق عنها.
(٤) الخيفانة: الجرادة ـ والسعف: يراد به الناصية.
(٥) القعب: القدح ـ والوظيف: عظم الساق والرجل ـ والعجر: الصلب الشديد.
(٦) صفاة المسيل: الحجارة التي تكون في الماء وهي أصلب من غيرها ـ وأبرز: كشف. والجحاف: السيل الذي لا يمر بشيء إلا حمله ونشره.
(٧) السراة: الظهر ـ والمجن: الترس ـ وجذفه: أي هيأه وصنعه.
(٨) الدباءة: واحدة الدباء: وهو القرع ـ مغموسة في الغدر: أي أنها ريا.
(٩) السرعوفة: الجرادة ـ والمسبطر: الطويل.
(١٠) الأثفية: الحجر المدور الصلب الذي يوضع عليه القدر ـ والململمة: المستديرة الصلبة ـ والأثر: أي أثر الجرح.
(١١) هو شاعر من رجالات بني كعب.

لــــه ســـاقـــا ظَــلــيـــم خَــا ... ضِــبٍ فُــوجِــيءَ بــالــرُّغْــبِ[١]
حــديــدُ الــطَّــرْف والــمَــنْــكِــ ... ـب والــعُــرْقــوب والــقــلــب

وقال آخر:

لــه صــدرُ طـاوُسٍ وفَـخْـذُ نـعـامـةٍ ... ووَثْــبــةُ نــمــرٍ وٱلــتــفــاتُ غــزالِ
وأعـجـب مـن ذا كـلـمـا حَطّ حـافـراً ... يَــخُــطُّ هــلالاً مــن وراء هــلال

وقال البُحتريّ وكان وَصّافاً للخيل: [من الكامل]

وأغـرَّ فـي الـزمـن الـبَـهـيـم مُـحَـجَّـلِ ... قـد رُحْـتُ منه على أغَـرَّ مُـحَـجَّـلِ
كـالـهَـيْـكـل الـمَـبْـنِـيّ إلا أنـه ... في الحسن جاء كصورة في هيكلِ
ذَنَـبٌ كـمـا سُـحِـبَ الـرِّدَاءُ يَـذُبّ عـن ... عُـرفٍ وعُـرْفٌ كـالـقِـنـاع الـمُـسْـبَـلِ
جَـذْلانَ يَـنْـفُـضُ عُـذْرةً فـي غُـرّةٍ ... يَقَقٍ تَسيل حُجُولُها في جَنْدَلِ[٢]
كـالـرائـح الـنَّـشْـوانِ أكـثـرُ مَـشْـيـه ... عرضاً على السَّنَن البعيد الأطولِ[٣]
تَـتـوهَّـمُ الـجـوزاءَ فـي أَرْسَـاغـه ... والـبـدرَ غُـرَّةً وجـهـه الـمُـتـهـلِّـلِ
صـافـي الأَديـم كـأنّـمـا عُـنِـيَـتْ بـه ... لِـصَـفـاء نُـقْـبَـتِـه مَـدَاوسُ صَـيْـقَـلِ[٤]
وكـأنـمـا نَـفَـضـتْ عـلـيـه صِـبْـغَـهـا ... صَـهْـبَـاءُ لـلـبَـرَدانِ أو قُـطْـرَبُـلِّ[٥]
وتَـخَـالـه كُـسِـيَ الـخـدودَ نـواعـمـاً ... مـهـمـا تـواصِـلْـهـا بِـلَـحْـظٍ تَـخْـجَـلِ
وتـراه يَـسْـطَـع فـي الـغُـبـار لـهـيـبُـه ... لـونـاً وشَـدًّا كـالـحـريـق الـمُـشْـعَـلِ[٦]
هَـزِجُ الـصَّـهـيـلِ كـأن فـي نَـغَـمـاتِـه ... نـبـرات مَـعْـبَـد فـي الـثَّـقـيـل الأوّلِ[٧]
مـلَـكَ الـعـيـونَ فـإن بـدا أعـطـيْـنَـه ... نَظَرَ المحِبّ إلى الحبيب المُقبِلِ

وكتب إلى محمد بن حُمَيْد بن عبد الحميد الطُّوسِيّ يَستهديه فرساً، ووصف له أنواعاً من الخيل؛ فقال من أبيات: [من الكامل]

---

(١) الخاضب: الظليم الذي اختلم فاحمرت ساقاه.
(٢) العذرة: عرف الفرس وناصيته ـ واليقق: المتناحي في البياض.
(٣) العرض: (بضم أوله): السير في جانب، و(بفتح أوله): هو أن يعدو عارضاً صدره ورأسه مائلاً من النخوة والنشاط.
(٤) النقبة: اللون ـ والمدوس: المصقلة ـ والصيقل: شحاذ السيوف وجلاؤها.
(٥) البردان: قرية من قرى بغداد ـ وقطربل: قرية بين بغداد وعكبرا تنسب إليها الخمر.
(٦) يقال: شدت النار: أي ارتفعت.
(٧) معبد: اسم مغن عاش في العصر العباسي.

فأَعِنْ على غزو العدوّ بِمُنْطَوِ أحشاؤه طَيَّ الرِّداءِ المُدْرَجِ
إمّا بِأشقرَ ساطع أغشى الوَغَى منه بمثل الكوكب المُتَأجِّجِ[(١)]
مُتَسربِلٍ شِيَةً طَلَتْ أعطافَه بِدَمٍ فما تلقاه غيرَ مُضرَّجِ
أو أدهمٍ صافي الأديم كأنه تحتَ الكَمِيِّ مُظَهَّرٌ بِيَرَنْدَجِ[(٢)]
ضَرِمٍ يَهيج السّوطُ من شُؤْبُوبه هَيْجَ الجَنائِب من حَرِيقِ العَرْفَجِ[(٣)]
خَفَّتْ مَواقِعُ وطْئِه فَلَوَ انّه يَجْري بِرَمْلَةِ عالج لم يُرْهِجِ[(٤)]
أو أشْهَبٍ يَقَقٍ يُضيء وراءَه مَتْنٌ كَمَتن اللُّجَّةِ المُتَرَجْرِجِ
تَخْفَى الحُجُولُ ولو بَلَغْن لَبَانَه في أبيضٍ مُتَالِّق كالدُّمْلُجِ[(٥)]
أَوْفَى بِعُرْفٍ أسودٍ متفردٍ فيما يَلِيه وحافرٍ فَيْرُوزَجي
أو أبلقٍ ملأ العيونَ إذا بدا من كلّ لونٍ مُعْجِب بنَمُوذَجِ
جَذْلانَ تحسُده الجيادُ إذا مشى عَنقاً بأحسن حُلَّةٍ لم تُنْسَجِ[(٦)]
وعريض أعْلَى المَتْن لو علَّيتَه بالزِّئْبَق المُنْهال لَمْ يَتَدَحْرَجِ
خاضتْ قوائمُه الوَثيقُ بناؤُها أمواجَ تَحنيب بهنّ مُدَرَّجِ[(٧)]
ولأَنْتَ أبعدُ في السماحةِ هِمّةً من أن تَضِنّ بمُلْجَمٍ أو مُسْرَجِ[(٨)]

وقال أيضاً يصف فرساً أدهم:

بأدهمَ كالظلام أغرَّ يَحْلُو بغُرَّته دَياجيرَ الظلامِ
ترى أَحْجالَه يَصْعَدن فيه صعودَ البرق في جَوْن الغمامِ[(٩)]

(١) المتأجج: الملتهب.
(٢) اليرندج: السواد يسود به الخف أو هو الزاج يسوّد به.
(٣) الشؤبوب: شدة العدو ـ الخبائب: جميع الجنوب، وهي الريح التي تهب من الجنوب ـ والعرفج: ضرب من النبات سهل طيب الريح.
(٤) عالج: رمال بين فيد والقريات ينزلها بنو بحتر من طيىء ـ ولم يرجح: أي لم يثر الغبار من خفة وطئه.
(٥) اللبان: الصدر ـ والدملج: حلي يلبس في المعصم.
(٦) العنق: (بفتح أوله وثانيه) ضرب من السير فسيح سريع.
(٧) التحنيب: احديداب في وظيفي يدي الفرس.
(٨) الموكف: ما وضع عليه الوكاف، وهو البرذعة.
(٩) الجون: الأسود.

وقال أيضاً في أدهم: [من الكامل]

أمّا الجَوَادُ فقد بَلَوْنا يومَه ... وكفى بيومٍ مخبِراً عن عامِهِ
جارَى الجيادَ فطار عن أوهامها ... سَبْقاً وكاد يطيرُ عن أوهامِه
جذلان تَلْطِمه جوانبُ غُرّةٍ ... جاءتْ مَجيءَ البدرِ عند تَمامِه(١)
وأسودّ ثم صَفَتْ لعَيْنَيْ ناظرٍ ... جَنَباتُهُ فأضاء في إظلامِهِ
مالتْ نواحي عُرْفِه فكأنّها ... عَذَباتُ أَثْلٍ مال تحتَ حَمامِهِ(٢)
ومقدّم الأُذُنَيْن تحسَب أنّه ... بهما يرى الشخصَ الذي لأمامِه
وكأنّ فارسَه وراء قَذَالِه ... رِدْفٌ فلستَ تراه من قُدّامِه
لانَتْ معاطِفُه فخيّل أنه ... للخَيْزُرَان مَناسِبٌ لعِظامه
في شُغْلَةٍ كالشَّيْب مرّ بمفرِقَيْ ... غَزِلٍ لها عن شَيْبه بغرامِه(٣)
وكأن صَهْلتَه إذا ٱستعلَى بها ... رَعْدٌ يُقَعْقِع في ٱزدحام غَمَامِه(٤)
مثل الغراب غَدا يُبارِي صَحْبَه ... بسوادِ صِبْغته وحسنِ قَوامِهِ
والطِّرْفُ أجلبُ زائرٍ لمؤونةٍ ... ما لم تُزِرْه بسرجه ولِجامِه

وقال عليّ بن الجَهْم(٥):

فوق طِرْفٍ كالطَّرْف في سرعة الطَّرْ ... فِ وكالقلب قلبُه في الذكاءِ(٦)
لا تراه العيونُ إلاّ خيالاً ... وهو مثل الخيالِ في الانطواءِ

وقال العباس بن مِرْداس(٧):

جاء كلمع البرق سام ناظرُهُ ... تَسْبَح أولاَه ويَطْفو آخِرُهْ

---

(١) لطمت الغرة الفرس: سالت في أحد شقي وجهه فهو لطيم.
(٢) الأثل: شجر من الفصيلة الطرفاوية طويل مستقيم يعمر. جيد الخشب، كثير الأغصان متعقدها.
(٣) لها: من اللهو.
(٤) قعقع: أحدث صوتاً عند التحريك أو التحرك.
(٥) علي بن الجهم: هو أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر بن الجهم بن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كرار بن كعب بن جابر... يعود نسبه إلى لؤي بن غالب القرشي السامي الشاعر؛ أحد الشعراء المجيدين... (وفيات الأعيان ٣: ٣٥٥).
(٦) الطّرف: (بكسر أوله): الكريم العتيق من الخيل.
(٧) المرداس: الحصاة التي يرمى بها في البئر ليظهر هل فيها ماء أو لا... (طبقات الشعراء ص ١٣٦).

* فـمـا يَـمَـسّ الأرضَ مـنـه حـافِـرُهْ *

وقال أبو الطيّب المتنبّي: [من الطويل]

وجُـرْداً مَـدَدْنـا بـيـن آذانِـهـا الـقَـنَـا ... فـبِـتْـنَ خِـفـافـاً يَـتَّـبِـعـن الـعَـوَالِـيَـا[١]

تَـمَـاشَـى بـأيْـدٍ كـلّـمـا وافـتِ الـصَّـفَـا ... نَـقَـشْـنَ بـه صـدرَ الـبُـزَاةِ حـوافِـيَـا[٢]

ويَنْظُرن من سُودٍ صوادقَ في الدُّجى ... يَرَيْن بعيداتِ الشُّخوصِ كما هيا[٣]

وتَـنْـصِـبُ لـلـجَـرْس الـخـفـيّ سـوامِـعـاً ... يَـخَـلْـنَ مُـنـاجـاةَ الـضـمـيـرِ تَـنَـادِيـا[٤]

تُـجـاذِبُ فُـرْسـانَ الـصَّـبـاح أعـنّـةً ... كـأن عـلـى الأعـنـاق مـنـهـا أفـاعـيـا[٥]

وقال أيضاً:

وجِـيَـادٍ يَـدْخـلـن فـي الـحـرب أغْـرا ... ويَـخْـرجـن فـي دمٍ فـي جِـلاَلِ[٦]

واسـتـعـار الـحـديـدُ لـونـاً وألْـقَـى ... لـونَـه فـي ذوائـب الأطـفـالِ[٧]

وقال أبو الطيّب أيضاً: [من الطويل]

ويـوم كـلـيـلِ الـعـاشـقـيـن كَـمَـنْـتُـه ... أُراقِـبُ فـيـه الـشـمـسَ أيّـانَ تـغـرُبُ

وعَـيْـنـي عـلـى أُذُنَـيْ أغـرَّ كـأنـه ... من الـلـيـل باقٍ بين عـيـنيه كـوكـبُ

لـه فـضـلـةٌ عـن جـسـمـه فـي إهـابِـه ... تَجيء على صدرٍ رَحيبٍ وتذهبُ[٨]

شَـقَـقْـتُ بـه الـظَّـلْـمـاءَ أدْنـى عِـنـانَـه ... فـيَـطْـغَـى وأُرْخِـيـه مِـراراً فـيـلـعـبُ[٩]

وأَصْـرَعُ أيَّ الـوحـش قَـفَّـيْـتُـه بـه ... وأنْـزِل عـنـه مـثـلَـه حـيـن أركـبُ[١٠]

وقال أيضاً يصف فرساً:

---

(١) الجرد من الخيل: القصار الشعر ـ والقنا: الرماح ـ والعوالي: جمع عالية، وهي صدر الرمح مما يلي السنان.

(٢) الصفا: الصخر ـ والبزاة: جمع باز.

(٣) المراد بقوله: من سواد: أي من أعين سود.

(٤) الجرس: الصوت أو الخفي منه، والسوامع: الآذان.

(٥) يراد بالصباح: القارة، والأعنة: سيور اللجم.

(٦) الجلال: ما يوضع على الدابة من غطاء.

(٧) المراد: أنهم يشيبون من شدة ما ينالهم من الفزع.

(٨) الإهاب: الجلد ما لم يدبغ.

(٩) يطغى: أي ينشط ويمرح.

(١٠) قفيته: أتبعته.

إن أدبرتْ قلتَ لا تَليلَ لها   أو أقبلتْ قلتَ ما لها كَفَلُ[١]

وقال أبو الفَرَج البَبَّغاء[٢]: [من الكامل]

إن لاحَ قلتَ أَدْمِيَةٌ أم هيكلُ   أو عَن قلتَ أسابح أم أَجْدَلُ[٣]
تتخاذل الألحاظُ في إدراكه   ويَحار فيه الناظرُ المتأمِّلُ
فكأنه في اللطف فَهْمٌ ثاقِبٌ   وكأنه في الحسن حظٌّ مُقْبِلُ

وقال أيضاً من أبيات: [من الطويل]

رماهم بألحاظ الجِيَادِ ولم تكن   لِيَنْأى عليها المَنْزِلُ المتباعِدُ
من الّلاءِ يَهْجُرن المياهَ لدى السُّرَى   ويَغْتَضْن شَمَّ الجوّ والجوُّ راكدُ
مَرَنَّ على لَذْع القَنَا فكأنما   عليهن من صبغ الدّماء مَجَاسِدُ[٤]
نَسَجْنَ مُلاَءَ النَّقْع ثم خَرَقْنَه   بكَرٍّ لها منه إلى النصر قائدُ[٥]
عليهنّ مِن نَسْج الغُبار غلائلٌ   رِقاقٌ ومن نَضْح الدماء قلائدُ

وقال أبو الفَتْح كُشَاجِم[٦]: [من الكامل]

ماءٌ تَدَفَّق طاعةً وسَلاِسةً   فإذا ٱسْتُدِرّ الحُضْرُ منه فنارُ
وإذا عَطَفْتَ به على نَاوَرْدِه   لتُدِيرَه فكأنه بِرْكَارُ[٧]
قَصُرَتْ قلادةُ نحره وعذارُه   والرُّسْغُ، وهي من العَتيقِ قصارُ
يَرِدُ الضَّحاضِحَ غيرَ ثانٍ سُنْبُكاً   ويَرُودُ طرفُك خَلْفَه فيَحارُ[٨]
لو لم تكن للخيل نسبةُ خَلْقِه   خالَتْه من أشكالها الأطيارُ

---

(١) التليل: العنق.
(٢) هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي الشاعر المعروف بالببغاء؛ ذكره الثعالبي في «يتيمة الدهر» وقال: هو من أهل نصيبين، وبالغ في الثناء عليه... (وفيات الأعيان ٣: ١٩٩).
(٣) الأجدل: الصقر.
(٤) المجاسد: الثياب المصبوغة بالزعفران.
(٥) النقع: الأرض الحرة الطين المستوية ليس فيها حزونة.
(٦) هو محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك المعروف بكشاجم (أبو الفتح، أبو النصر). أديب شاعر، منجم من كتاب الإنشاء من أهل الرملة بفلسطين، فارسي الأصل... كانت وفاته سنة ٣٦٠ هـ (معجم المؤلفين ١٢: ٥٩).
(٧) بركار: آلة ذات ساقين، ترسم بها الدوائر.
(٨) الضحاضح: جمع ضحضح وهو الماء القليل يكون في الغدير وغيره، والسنبك: طرف الحافر وجانباه من قدم.

وقال آخر: [من الكامل]

وأقبَّ تحمله رياحٌ أربعٌ ... لولا اللِّجَامُ لطار في المَيْدان[1]

من جُمْلة العِقْبان إلاّ أنّه ... من حُسْنه في طلعة الغِزْلانِ

يمشي إلى مَيْدانه متبختراً ... من تِيهه كَتَبَخْتُر النَّشْوانِ

وقال ٱبنُ المعتز:

وخَيلٍ طواها القَوْدُ حتى كأنّها ... أنابيبُ سُمْرٌ مِن قَنَا الخَطّ ذُبّلُ[2]

صَببْنا عليها ظالمينِ سياطَنا ... فطارتْ بها أيْدٍ سِراعٌ وأرجُلُ

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِيّ[3]: [من الرجز]

طِرْفٌ نأتْ سماؤه عن أرضه ... وما نأى كاهلُه عن الكَفَلْ[4]

ذو أربعٍ من أربعٍ من القَبُو ... لِ والدَّبُور والجَنُوبِ والشَّمَلْ

وهْو إذا أعملها ألفى لها ... فوق الذي يطلبه من العملْ

كالبرقِ إن أوْمضَ أو كالرّعد إن ... أجلبَ أو صوبِ الحَيَا إذا ٱحتَملْ[5]

وقال آخر:

يَجْري فَيبْعُدُ من مَدًى متقاربٍ ... أبداً ويدنو من مدًى مُتَباعِدِ

إن سار فهو غديرُ ماءٍ مائجٍ ... أو قام فهو غديرُ ماءٍ جامدِ[6]

وقال أبو الفضل المِيكَالي[7]:

خيرُ ما ٱستطرفَ الفوارسُ طِرفٌ ... كلُّ طَرْف بحسنه مبهوتُ

هو فوق الجِبَال وَعْلٌ وفي السه ... لِ نَعامٌ وفي المَعَابر حُوتُ

---

(١) الأقب من الخيل: الدقيق الخصر الضامر البطن.

(٢) القود: نقيض السوق ـ والأنابيب: الرماح ـ والخط: موضع باليمامة تنسب إليه الرماح الخطية ـ وذبل: دقاق.

(٣) هو أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار الضبي، الحلبي، الإنطاكي، المعروف بالصنوبري (أبو بكر) شاعر. سكن حلب ودمشق وتوفي في رجب سنة ٣٣٤هـ... (معجم المؤلفين ٢ : ٩١).

(٤) الطرف من الخيل: الكريم العتيق.

(٥) الحيا: المطر. (٦) قام: أي وقف.

(٧) هو عبيد الله بن أحمد بن علي بن إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن ميكال الميكالي (أبو الفضل) أديب، شاعر، أمير، من أهل نيسابور. من آثاره: ديوان شعر، ومخزن البلاغة وغيرهما... كانت وفاته سنة ٤٣٦هـ. (معجم المؤلفين ٦ : ٢٣٨).

وقال آخر: [من المتقارب]

وطِـرْفٍ إذا مـا جـرى خـلْـتـه عُـقـاباً مـن الـوَكْـر يَبْـغِـي الـمـزَارا
تـرى فـي الـجَـبـيـن لـه سَـوْسـناً وتَـلْـمَـح فـي لـونـه الـجُـلَّـنَـارا[1]
ويـمـشـي عـلـى الـمـاء من خِـفَّـةٍ ويَقْدَح في الجَلْمَد الصخر نـارا
فـلـو كـان يَـبْـغِـي بـه راكـبٌ إلى مـطـلـع الـشـمـس سَيْراً لـطـارا

وقال عبد الجبّار بن حَمْدِيس[2]: [من الكامل]

ومُـجَـرِّرٍ فـي الأرض ذيـلَ عـسِـيـبِـه حَـمـل الزبرجَـد مـنه جسمُ عَقيقِ
يَـجـري ولَـمْـعُ الـبـرق فـي آثـاره مـن كـثـرة الـكَـبَـوات غـيـرُ مُـفـيـق
ويـكـاد يَـخْـرُجُ سُـرْعـةً مـن ظِـلّـه لـو كـان يـرغـب فـي فِـراقِ رفـيـق

وقال ٱبن طَبَاطَبا[3]: [من الكامل]

عجباً لـشـمسٍ أشرقتْ في وجهه لـم تَـمْـحُ منه دُجَى الظلام المُطْبِقِ
وإذا تـمـطَّـر فـي الـرِّهَـان رأيـتَـه يَـجْـرِي أمام الـريحِ مـثلَ مُطَـرِّقِ[4]

وقال تاج الملوك بن أيّوب[5]:

وخيـل كـأمـثـالِ الـسَّـعَـالِـي شَـوازِب تـكـاد بـنـا قـبـل الـمَـجَـال تَـجُـولُ[6]
سـوابـق تَـكْـبـو الـريـحُ قـبـل لَـحَـاقِـهـا لـهـا مَـرَحٌ مـن تـحـتـنـا وصَـهِـيـلُ[7]

وقال إبراهيم بن خَفَاجة[8] يصف فرساً أشهبَ: [من الخفيف]

---

(١) السوسن: نبات طيب الرائحة ـ والجلنار: زهر الرمان.
(٢) هو عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الأزدي الصقلي، السرقوسي (أبو محمد) شاعر، مؤرخ ولد حوالي ٤٧٧هـ، وكانت وفاته سنة ٥٣٧هـ. (معجم المؤلفين ٥: ٧٩).
(٣) هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا (أبو الحسن) عالم، أديب، شاعر... (معجم المؤلفين ٨: ٣١٢).
(٤) تمطرت الخيل: ذهبت مسرعة ـ والمطرق: الذي يمهد الطريق ليسلك.
(٥) هو عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شادي الأيوبي (الملك المعظم شرف الدين أبو الغنائم) فقيه، أديب، نحوي، لغوي، شاعر... كانت وفاته سنة ٦٢٤هـ (معجم المؤلفين ٨: ٢٢).
(٦) السعالي: الغيلان أو سحرة الجن ـ والشوازب: الضوامر من الخيل.
(٧) المرح: التبختر والاختيال.
(٨) هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي (أبو إسحاق) شاعر. ولد وتوفي بجزيرة سقر من أعمال بلنسية. له ديوان شعر، ومصنفات لغوية.. كانت وفاته سنة ٥٣٣هـ.. (معجم المؤلفين ١: ٧٤).

رُبَّ طِرْفٍ كالطَّرْف ساعةَ عَدْوٍ ... ليس يَسْري سُرَاه طيفُ الخيالِ
إن سَرى في الدُّجَى فبعضُ الدَّرَارِي ... أو سَعَى في الفَلاَ فإحدى السَّعَالِي
لستُ أدْري إن قِيدَ ليلةَ أسْري ... أو تَمَطَّيتُه غداةَ قِتالِ
أجَنوبٌ تُقتادُ لي أم جَنِيبٌ ... أم شَمالٌ عِنانُها بشِمالي[1]
أشهبُ اللّون أثقلته حُليٌّ ... خَبَّ فيهن وهو مُلْقَى الجِلالِ[2]
فبدا الصبحُ مُلْجَماً بالثُّرَيَّا ... وجَرى البرقُ مُسْرَجاً بالهلال

وقال أيضاً في أشهب: [من الكامل]

وظلام ليلٍ لا شِهابَ بأُفْقِه ... إلاّ لنَصْلٍ مُهَنَّدٍ أو لَهْذَم[3]
لاطَمتُ لُجّته بموجةِ أشهبٍ ... يَرمي بها بحرَ الظلام فيَرْتَمِي
قد سال في وجه الدُّجُنَّةِ غُرَّةً ... فالليلُ في شِبْهِ الأغرّ الأدْهَم
أطلعتُ منه ومن سِنانٍ أزرقٍ ... ومهنَّد عَضْبٍ ثلاثةَ أنْجُمِ

وقال أبو الصَّلْتِ[4] يصف فرساً أشهب: [من مخلّع البسيط]

وأشهبٍ كالشِّهاب أضحى ... يَجُول في مُذْهَبِ الجِلالِ
قال حسودي وقد رآه ... يُجْنَبُ خَلْفي إلى القتال
من ألْجَم الصبحَ بالثريّا ... وأسرجَ البرقَ بالهلالِ

وقال ابن خَفَاجة وقد أهدى مُهراً بهيماً: [من المنسرح]

تَقَبّلِ المُهْرَ من أخي ثقةٍ ... أرسل ريحاً به إلى المَطَرِ
مُشتَمِلاً بالظلام من شِيَةٍ ... لم يَشْتمل ليلُها على سَحَرِ
مُنتسِباً لونُه وغُرّتُه ... إلى سوادِ الفؤاد والبصر
تَخْسِبَه من عُلاك مُسترِقاً ... بهجةَ مَرْأى وحسنَ مُخْتَبَرِ
حَنّ إلى راحةٍ تَفِيضُ ندًى ... فمالَ ظَلٌّ به على نَهَرِ
ترى به والنشاطُ يَخْفِزُه ... ما شِئتَ من فَخْمةٍ ومن شَرَرِ

---

(١) الجنيب: الفرس الذي قاد إلى جنب الراكب.
(٢) الجلال: ما تلبسه الدابة لتصان به.
(٣) اللهزم: كل شيء قاطع، من سنان، أو سيف أو ناب.
(٤) هو أبو الصلت بن أبي ربيعة بن عبد عوف بن عقدة بن غيرة بن قسي، وقسيّ هو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان...

لو حمَل الليلُ حسنَ دُهْمتِهِ أَمْتع طَرْفَ المحِبِّ بالسَّهَرِ
أحمى من النجم يومَ مَعْرَكَةٍ ظَهْراً وأَجْرَى به من القَدَرِ
اسْوَدَّ، وٱبيضّ فعلُه كَرَماً فٱلتفتَ الحسنُ فيه عن حَوَرِ
فازْدَدْ سَنَا بهجةٍ بدُهْمتِه فاللّيلُ أذْكَى لِغُرَّةِ القمرِ
ومثلُ شكري على تَقَبُّله يجمع بين النسيم والزَّهَرِ

وقال في فرس أَشْقَر: [من الكامل]

ومُطَهَّم شَرِق الأديم كأنما أَلِفتْ مَعَاطِفُه النّجيعَ خِضَابا[1]
طَرِبٌ إذا غنّى الحُسَامُ، مُمَزِّقٌ ثَوْبَ العَجَاجةِ جَيئةً وذَهابا[2]
قَدَحتْ يد الهيجاءِ منه بارقاً متلهِّباً يُزْجِي القَتام سحَابا
ورمى الحِفَاظُ به شياطينَ العِدَا فٱنقضّ في ليل الغُبارِ شهابا
بَسَّامُ ثغرِ الحَلْيِ تحسب أنّه كأسٌ أثار بها المِزاجُ حَبَابا

وقال في أدهمَ أغرَّ محجَّل: [من الكامل]

وكأنما لَطَم الصباحُ جَبِينَه فٱقتصّ منه فخاض في أحشائِه

وقال ٱبن نُبَاتَة السَّعْديّ[3] في أدهم:

وأدهمَ يستمِدّ الليلُ منه وتطلعُ بين عينيه الثريّا
سَرى خلفَ الصباحِ يطير مشيا ويَطْوي خَلْفَه الأفلاكَ طَيّا
فلمّا خاف وَشْكَ الفَوْتِ منه تَعَلّق بالقوائم والمُحَيَّا

وقال في فرس أدهم أغرّ محجّل أُهدِي له: [من الوافر]

قد جاءنا الطِّرْفُ الذي أَهديتَه هادِيهِ يَعقِد أرضَه بسمائهِ
أوِلايةً ولَّيتنا فبعثتَه رُمْحاً سَبِيبُ العُرْفِ عقدُ لوائه[4]
تختال منه على أغرَّ محجَّل ماء الدَّياجي قطرةٌ من مائه

---

(١) النجيع: الدم.
(٢) العجاجة: الغبار.
(٣) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة بن حميد بن نباتة بن الحجاج بن مطر بن خالد... التيمي السعدي، كان شاعراً مجيداً، جمع بين حسن السبك وجودة المعنى، وله في سيف الدولة بن حمدان غرر القصائد ونخب المدائح... (وفيات الأعيان ٣: ١٩٠).
(٤) العرف: شعر عنق الفرس.

وكأنما لَطَم الصباحُ جبينَه فاْقتصّ منه فخاض في أحشائِهِ
مُتَمَهِّلاً والبرقُ من أسمائه مُتَبرقِعاً والحسنُ من أكفائه(١)
ما كانت النيران يكمُن حرُّها لو أن للنيران بعضَ ذكائِه
لا تَعْلَق الألحاظُ في أعطافه إلا إذا كفكفتَ من غُلَوائِه

وقال محمد بن الحسين(٢) الفارسيّ النحويّ أحد شعراء اليتيمة في فرس أدهمَ أغرّ: [من الكامل]

ومطّهم ما كنت أحسِب قبله أنّ السروجَ على البوارقُ تُوضَعُ
وكأنما الجوزاءُ حين تَصَوّبتْ لَبَبٌ عليه والثريّا بُرقُعُ

طرائفُ في ذمِّ الخيلِ بالهُزالِ والعجزِ عن الحركةِ

كتب بعضهم إلى صديق له: [من السريع]

ما فعلتْ حِجْرُك تلك التي أفضلُ من فارسها الرّاجِلُ(٣)
عَهْدِي بها تبكي وتشكو الضنَى لِما اْحتشاه البدن الناحِلُ(٤)
وهو تغنّيني غِنا صَبّةٍ غايتُهَا وِجْدانُ ما تَاكُلُ
يا ربِّ لا أقوَى على كلّ ذا موتٌ وإلاّ فَرَجٌ عاجِلُ

وقال آخر: [من البسيط]

يا نصر حجْرُك أبلَى الجوعُ جِدّتَها وأصبحتْ شبحاً تشكو تَجافِيكا
إذا رأتْ تِبنةً قالت مُجاهرةً يا تِبْنُ لي حسرةٌ ما تنقضي فيكا
ترجوه طَوْراً وتبكي منه آيسة حتى إذا عرَضتْ باتت تغنّيكا
هذي ـ فديتُك ـ حالي قد علمتَ بها فلِمْ يكون الجفا أَفْديك أَفْديكا

وقال آخر: [من السريع]

أعطيتَني شَهْبَاء مَهْلُوبةً تُذْكِرُ نُمْرُوذَ بنَ كَنْعانِ(٥)

---

(١) تبرقع: غطى وجهه بالبرقع، والبرقع: قناع النساء والدواب.
(٢) هو أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوي؛ كان إماماً في النحو بعد خاله أبي علي الحسن بن أحمد الفارسي ومنه أخذ وعليه درس. . . (معجم الأدباء لياقوت ج ٧: ٣).
(٣) الحجر: الأنثى من الخيل.
(٤) الناحل: الضعيف الضامر.
(٥) فرس مهلوب: أي مستأصل شعر الذنب ـ ونمروذ: اسم ملك من الجبابرة.

سفينةُ الحَشْر إلى عَدْوِهَا أَسْبَقُ من أَشْقَرِ مَرْوانِ(١)
كأنني منها على زَوْرَقٍ بلا مَجاديفَ وسُكَّانِ(٢)
فانظر إلى حِجْرِي ترى شهرةً أخبارُها جامعُ سُفْيانِ(٣)

وقال آخر: [من المنسرح]

حملتني فوق مُقْرِفٍ زَمِنٍ ليس لذي رَحْلة بنَفَّاعِ
جِلْدٌ على أعظُمٍ محلَّلةٍ فليس يمشي إلاّ بدَفَّاعِ
كأنني إذ علوتُ صَهْوَتَه ركبتُ منه سريرَ فُقَّاعِ(٤)

وكتب زُهَير بن محمد(٥) الكاتب: [من مجزوء الرجز]

وفرسٍ على المَسَا وِي كلُّها مُحْتَوِيَهْ
راكبُها في خَجْلة كأنه في مُخْزِيَهْ
مُسْتَقبِحاً ركوبَها مثلَ ركوبِ المَعْصِيَهْ
فما مَسَاوِيها لمَنْ عدّدها مستويَهْ
يا قُبْحَها مُقْبِلةً وقبحَها مولِّيهْ

وقال برهان الدين ابن الفقيه نصر: [من السريع]

لصاحبِ الديوانِ بِرْذَوْنةٌ بعيدةُ العهدِ من القُرْطِ(٦)
إذا رأت خيلاً على مَرْبَطٍ تقول سُبْحانَك يا مُعْطِي
تمشي إلى خَلْف إذا ما مشت كأنها تكتب بالقِبْطِي

هذا ما اتّفق إيرادُه مما قيل في أوصاف الخيل من النظم. فلنذكرْ ما وُصِفتْ به في الرسائل المنثورة، والفِقَر المسجوعة، والألفاظ المزدوجة؛ مع ما يتصل بذلك من الأبيات في ضمنها.

فمن ذلك ما حُكي أن المهديّ سأل مَطَرَ بن دَرَّاج عن أيّ الخيل أفضل؛ فقال:

---

(١) أشقر مروان: فرس مشهور كان لمروان بن محمد آخر ملوك بني مروان.
(٢) السكان: ذنب السفينة الذي به تعدل.
(٣) جامع سفيان: يراد به كتاب في الفقه لسفيان الثوري.
(٤) الفقاع: نبات يابس.
(٥) هو أبو الفضل زهير بن محمد بن علي الملقب بهاء الدين الكاتب، من فضلاء عصره وأحسنهم نظماً ونثراً وخطاً... (وفيات الأعيان ١: ٢٧٢).
(٦) القرط: نبات تألفه الدواب، وهو شبيه بالرطبة، إلا أنه أعظم ورقاً.

الذي إذا استقبلتَه قلتَ: نافِر، وإذا ٱستدبرتَه قلتَ: زاخِر، وإذا ٱستعرضتَه قلتَ: زافر. قال: فأيّ هذه أفضل؟ قال: الذي طَرْفه أمامُه، وسَوْطُه عِنانُه. ومن هذا أخَذ المتنبي وعليّ بن جَبلة[١] والعسكري[٢]. فقال المتنبي:

* إن أدْبـرتْ قـلـتَ لا تَـلِـيـلَ لـهـا *

وقد تقدّم.

وقال عليّ بن جَبَلة:

تـحـسَبُـه أُقْـعِـد فـي ٱسـتـقـبـالِـهِ   حـتـى إذا ٱسـتـدبـرتَـه قـلـتَ أَكَـبّ

وقال أبو هلال العسكريّ:

طِـرْفٌ إذا ٱسـتـقـبـلـتَـه قـلـتَ حَـبَـا   حـتـى إذا ٱسـتـدبـرتَـه قـلـتَ كَـبَـا

ووصف أعرابيّ فرساً أُجْرِيَ في حَلْبة فقال: لما أُرْسِلت الخيلُ: جاؤوا بشيطان، في أَشْطان[٣]؛ فأرسلوه فلمَع لَمْعَ البرق، وٱستَهَلّ ٱستهلالَ الوَدْق[٤]؛ فكان أقربُ الخيلِ إليه، تقع عينُه من بُعْدٍ عليه.

ووصف محمد بن الحسين بن الحَرُون فرساً فقال: هو حَسَن القميص، جيِّد الفُصوصِ[٥]؛ وَثِيقُ القَصَب، نقيّ العَصَب، يبصر بأذنيه، ويتبوّع[٦] بيديه، ويداخل رجليه.

ووصف آخرُ فرساً فقال: الريح أَسيرةُ يديه، والظَّلِيم[٧] فَريسة رجليه، إن حَرّ ٱستعَرَ في ٱلتهابه، وإن جَدّ مَرق من إهَابه.

وكتب عبد الله بن طاهر إلى المأمون مع فرس أهداه إليه: قد بعثت إلى أمير المؤمنين فرساً يَلْحَق الأرنبَ في الصَّعْداء، ويُجَاوِز الظباءَ في الاستواء، ويَسْبِق في الحدُور جَرْيَ الماء؛ إن عُطِف حار، وإن أُرْسِل طار؛ وإن حُبِس صَفَن[٨]، وإن

---

(١) كان علي بن جبلة ضريراً وكان يمدح أبا دلف القاسم بن عيسى. . . وكان يمدح حميد بن عبد الحميد. . . أورد له ابن قتيبة شعراً كثيراً. . . (الشعر والشعراء ٤٥٠).

(٢) هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (أبو هلال) لغوي، أديب، شاعر، مفسر. . كانت وفاته سنة ٣٩٥هـ (معجم المؤلفين ٣: ٢٤٠).

(٣) أشطان: جمع شطن، وهو الحبل الطويل الشديد الفتل، يستقى به.

(٤) الودق: المطر كله، شديده وهينه.

(٥) الفصوص من الفرس: مفاصل ركبتيه وأرساغه.

(٦) تبوع الفرس في جريه: أبعد الخطو بيديه.

(٧) الظليم: الذكر من النعام.

(٨) صفن الفرس: قلب أحد حوافره وقام على ثلاث قوائم.

أَستُوقِفَ فَطِن؛ فهو كما قال تأبَّطَ شَرّاً[١]:

ويَسْبِق وَفْدَ الريح من حيث يَنْتَحِي   بِمُنْخَرِقٍ من شَدِّه المتتابِعِ

ووصف آخر فرساً فقال: كأنه إذا علا دعاء، وإذا هبَط قضاء. كأنه محلولٌ من قول الشاعر في صفة فرس:

مِثلُ دعاء مُستجابٍ إن علا   أو كقضاءٍ نازلٍ إذا هبَطْ

ووصف أيّوب ابن القِرِّيَّة فرساً فقال: أَسِيل الخدّ، حَسَن القَدّ، يَسْبِق الطَّرْف، ويَسْتغرِق الوصف.

وقال محمد بن عبد الملك لصديق له: ابْغِ لي فرساً بِرْذَوْناً، وَثيق اليدين، قائم الأذنين، ذَكَر العينين، يأنَف من تحريك الرجلين.

ومن الكلام الجيِّد في وصف الخيل ما أنشأه الشيخ ضياء الدين بن القُرْطُبيّ من رسالته التي كتبها إلى الصاحب الوزير شرف الدين الفائِزِيّ، وقد تقدّم ذكرها في باب الكتاب في الرسائل، فلا فائدة في إعادتها؛ وإنما أوردنا ذكرَ الخيلَ هناك لأن الرسالة تشتمل على أوصاف الخيل والعساكر والسلاح وغير ذلك، فأردنا بإيرادها بجملتها ثمّ أن يكون الكلام فيها سياقُه يتلو بعضُه بعضًا. وهذه الرسالة في السِّفْر السابع من هذه النسخة.

ومن إنشاء المولى الفاضل العالم الأديب البليغ شهاب الدين أبي الثَّناء محمود[٢] بن سليمان الحَلَبي الكاتب رسالةٌ في الخيل عمِلَها تجربةً، ورياضةً لخاطره، ولم يكتب بها؛ سمعتُها من لفظه، ونقلتُها من خطّه؛ وهي:

أدام الله إحسان الجناب الفلاني، ولا زالت الآمال في أمواله مُحَكَّمة، والأماني كالمحامِدِ في أبوابه مخيِّمة، والمعالي كالعوالي إليه دون غيره مسلَّمة، والمكارم تُغريه في الندى حتى يبذُل ما حُبِّبَ إليه من الخيل المسوَّمة. المملوك يقبِّل اليد التي ما زالت بَسْطتُها في الكرم عَلِيّه، وقَبْضَتُها بتصريف أعِنَّة الزمن مَلِيّة؛ ومواهبُها تتنوع في النَّدى، ومذاهبُها في الكرم تَهَب الأولياء ما تهابه العِدا. ويُنْهِي وصولَ ما أَنْعَم به من الخيل التي وُجِد الخيرُ في نَوَاصيها، وادُّخِرتْ صَهَواتُها حصوناً يعتَصَم في الوَغَى بَصَياصِيها[٣]:

---

(١) هو ثابت بن عمسل، وهو من فهم، وفهم وعدوان، أخوان، وكان شاعراً بئيساً يغزو على رجليه، وكانت تؤخذ بوله إذا غزا، فأخذت بوله وقد قتل بحي، فعرفت أنه قد قتل... (الشعر والشعراء لابن قتيبة).

(٢) هو محمود بن سليمان بن فهد الحلبي، ثم الدمشقي، الحنبلي، (أبو الثناء شهاب الدين) أديب، لغوي، كاتب، ناظم، شاعر... كانت وفاته سنة ٧٢٥هـ. (معجم المؤلفين ١٢: ١٦٧).

(٣) الصياصي: قرون البقرة ونحوها.

فمن أشهبَ غطّاه النهار بحُلّته وأوطأه الليلُ على أَهِلّته كأنّ أذنه جِلْفَة[١] قَلَم، أو شَقّهُ جَلَم، يُدْرِك بها الوَهْم، ويحقّق في الليل البَهيم مواقعَ السهم؛ يتموّج أدِيمُه ريّا[٢]؛ ويتأرّج رَيّا، ويقول مَن آستقبله في حَلْي لجامه: هذا الفجر قد طلعَ بالثريّا؛ إن آلتفت المَضايِقُ آنساب آنسِيَابَ الأيْم، وإن آنفرجت المسالِكُ مَرّ مرورَ الغَيْم؛ كم أبصر فارسُه يوماً أبيض بطلعتِه، وكم عاين طَرْفُ السِّنان مقاتِلَ العِدا في ظلام النَّقْع بنور أشِعَّتِه؛ لا يَسْتَنُّ داحِسٌ في مضماره، ولا تطمَع الغَبْراءُ في شَقّ غُباره، ولا يظفر لاحِقٌ[٣] من لَحاقه بِسِوى آثارِه، تُسابِق يداه مَراميَ طَرْفِهِ، ويُدرك شَوارِدَ البروق ثانياً من عِطفِه.

ومن أدهمَ حالي الشَّكِيم، حالِكِ الأَدِيم، له مقلةُ غانِيةٍ وسالفةُ رِيم، قد ألبسه الليلُ بُرْدَه، وأطلع بين عينيه سعدَه، يظنّ مَنْ نظر إلى سواد طُرّتِه، وبياض حُجوله وغُرّته؛ أنه توهّم النهارَ نهراً فخاضه، وألقى بين عينه نقطةً من رَشَاش تلك المَخَاضَة؛ ليّن الأعطاف؛ سريع الانعطاف؛ يُقْبِل كالليل، ويَكُرّ كجُلْمود صخرٍ حَطّه السَّيْل؛ يكاد يَسبِق ظِلَّه، وإذا جارَى السهمَ إلى غَرَضٍ بلغَه قبله.

ومن أشقرَ غَشّاه البرقُ بلَهَبِه، ووشّاه الأصيلُ بذَهَبِه؛ يتوجّس ما لديه بَرقَيقَتَين، وينفُضُ وَفْرَتيه عن عَقيقتين، ويُنزل عذارَ لجامه من سالِفَتَيْه على شَقيقتين؛ له من الرّاح لونُها، ومن الرياح لِينُها؛ إن جرى فَبرْقٌ خَفَق، وإن أسرع فَهِلالٌ على شَفَق؛ لو أدركَ أوائلَ حرب آبنيْ وائلٍ لم يكن للنَّعامَة نباهه[٤]، ولا للوَجِيهِ وجَاهه، ولكن تركُ إعارة سَكَاب[٥] لؤماً وتحريمُ بيعها سَفَاهه؛ يركُض ما وجد أرضاً، ولو آعترض به راكبُه بحراً وثَبه عَرْضاً.

ومن كُمَيْتٍ نَهْد، كأنّ راكبَه في مَهْد؛ عَنْدَمِيّ[٦] الإهاب، شَمَاليّ الذَّهاب؛ «يَزِلّ الغلامُ الخفُّ عن صَهَواتِهِ»[٧]، وكأن نَغَمَ الغَرِيضِ ومَعْبَدٍ في لَهَواتِه؛ قصير المَطَا[٨]،

---

(١) الجلفة من العلم: من مبراه إلى سنه.

(٢) الريا: الريح الطيبة.

(٣) لاحق: اسم فرس.

(٤) النعامة: فرس الحارث بن عباد.

(٥) سكاب: فرس عبيدة بين ربيعة.

(٦) العندم: دم الأخوين، وقيل: هو صبغ الداربرنيان، وقيل: العندم: شجر أحمر، وقيل: هو دم الغزال... وقيل: هو صبغ زعم أهل البحرين أن جواريهم يختضبن به.

(٧) إشارة إلى بيت من معلقة امرىء القيس.

(٨) المطا: الظهر.

فَسيح الخُطَا؛ إن رُكِب لصَيْدٍ قَيَّدَ الأوابِد، وأعجَلَ عن الوثوب الوَحْشَ اللّوابِد؛ وإن جُنِبَ إلى حربٍ لم يَزْوَرَّ من وَقْع القَنَا بلَبَانِه[1]، ولم يَشْكُ لو عُلِّم الكلامَ بلسانه[2]، ولم يُر دون بُلوغ الغاية ـ وهي ظَفَرُ راكِبِه ـ ثانياً من عِنَانِه؛ وإن سار في سَهْلٍ ٱختال براكبِه كالثَّمِل، وإن أَصْعَدَ في جبل طار في عقَابِه كالعُقَاب وٱنحطّ في مجارِيه كالوَعِل؛ متى ما تَرَقّ العينُ فيه تَسَهّل، ومتى أراد البرقُ مجاراتَه قال له الوقوفُ عند قَدْرِه: ما أنت هناك فتَمهّل.

ومن حبشِيّ أصفرَ يروقُ العَيْن، ويَشُوق القلبَ بمشابهته العَيْن[3]؛ كأنَّ الشمس ألقتْ عليه من أشِعَّتِها جِلالاً، وكأنه نَفَر من الدُّجَى فٱعتنقَ منه عُرْفاً وٱعتلق أحْجالاً؛ ذي كَفَلٍ يزين سَرْجَه، وذَيْلٍ يَسُدّ إذا ٱستدبرتَه منه فَرْجَه؛ قد أطلعْته الرياضةُ على مُرَاد فارِسِه، وأغناه نُضَارُ لونِه ونَضَارته عن ترصيع قَلائِدِه وتوشِيع مَلابسه؛ له من البَرْق خفّةُ وطْئه وخَطْفُه؛ ومن النسيم لِينُ طُرُوقه ولُطْفُه، ومن الريح هَزِيزُها[4] إذا ما جرى شأوَين وٱبتَلّ عِطْفُه؛ يطير بالغَمْز، ويُدْرِك بالرِّياضة مَواقِعَ الرَّمْز، ويغدو كألِف الوصل في ٱستغنائه مِثلَها عن الهمْز.

ومن أخضَرَ له من الروضِ تَفْويفُه، ومن الوَشْي تقسيمُه وتأليفُه؛ قد كساه الليلُ والنهارُ حُلّتَيْ وَقَارٍ وسَنَا، وٱجتمع فيه من البياض والسواد ضِدّانِ لمّا ٱستَجْمَعَا حَسُنَا، ومَنَحه البازِي حُلّةَ وَشْيِه، وأعْطته نُفُوحُ الرياح ونَسَماتُها قوّةَ رَكْضِه وخِفَّةَ مَشْيِه، يُعطِيكَ أفانينَ الجري قبل سُؤاله، ولمّا لم يُسَابِقْه شيء من الخيل أغراه حبُّ الظَّفَر بمسابقة خَيالِه؛ كأنه تَفاريقُ شيب في سَوادِ عِذَار، أو طلائعُ فجرٍ خالط بياضُه الدُّجَى، فما سَجَى[5] ومازج ظلامُه النهار، فما أنار، يختال لمشاركة ٱسم الجري بينه وبين الماءِ في شدّة السَّيْر كالسيل، ويَدُلّ بسَبْقه على المعنى المشترك بين البروق اللّوامِع وبين البَرْقِيةِ من الخيل، ويُكَذِّب المَانَوِيّة[6] لتَوَلُّد اليُمْنِ فيه بين إضاءةِ النهارِ وظُلْمة الليل.

ومن أبلَقَ ظَهْرُهُ حَرَم، وجَرْيُه ضَرَم[7]؛ إن قَصَد غايةً فوجودُ القضاء بينه وبينها

---

(١) اللبان: الصدر.

(٢) إشارة إلى بيت من معلقة عنترة بن شداد العبسي.

(٣) العين: الذهب المضروب.

(٤) هزيز الريح: ودويها عند هزها الشجر.

(٥) سجى: سكن.

(٦) المانوية: قوم ينسبون إلى ماني، وهو من الثنويين الذين يقولون بالنور والظلمة...

(٧) ضرم: جدّ في سيره وأسرع.

عَدَم، وإن صُرِّف في حربٍ فَعَملُه ما يشاء البَنانُ والعِنانُ وفِعلُه ما تريد الكَفُّ والقَدَم؛ قد طابَقَ الحسنُ البَديعُ بين ضِدّي لونِه، ودلّت على اجتماع النَّقِيضَيْنِ عِلّةُ كَوْنِهِ؛ وأشبَهَ زَمَنَ الرَّبيع باعتدال الليلِ فيه والنهار، وأخذَ وَصْفَ حُلَّتَي الدُّجَى في حالَتَي الإبدارِ[١] والسِّرار[٢]؛ لا تَكِلُّ مَنَاكِبُه، ولا يَضِلّ في حَجَرات[٣] الجيوش راكِبُه، ولا يحتاج ليلُه المشرِقُ بمجاورة نهارِه إلى أن تُستَرشَدَ فيه كواكِبُه؛ ولا يُجارِيه الخيال فضلاً عن الخيل، ولا يَمَلّ السُّرَى إلاّ إذا ملّ مُشبِهاه: النهارُ والليل، ولا تَتَمَسَّك البروق اللوامع من لَحاقِه بسوى الأثرِ فإنْ جهدتْ فبالذَّيل، فهو الأَبْلَق الفَرْد، والجواد الذي لمُجاريه العكسُ وله الطَّرْد؛ قد أغنته شُهْرَةُ نَوْعِهِ في جِنسه عن الأوصاف، وعَدَل بالرياح عن مباراته سلوكُها له في الاعتِراف جادّةَ الإنصاف.

فتَرَقَّى المملوكُ إلى رُتَب العِزّ من ظهورها، وأعدّها لخِطْبَة الجنان إذ الجِهادُ على مثلها من أنفس مُهُورِها، وكَلِفَ بركوبها فكلما أكمله عاد، وكلمّا أمّله شَرِهَ إليه فلو أنه زَيْدُ الخيلِ لمَا زاد؛ ورأى من آدابها ما دل على أنها من أكرم الأصائل، وعَلم أنها ليومَيْ سِلْمه وحَرْبِه حَنيّة[٤] الصائد وجُنَّةُ[٥] الصائل؛ وقابلَ إحسانَ مُهْدِيها بثنائه ودُعائِه، وأعدّها في الجهاد لمقارعة أعداء الله تعالى عليها وأعدائه؛ والله تعالى يشكر بِرّه الذي أفرده في الندى بمَذاهِبِه، وجعل الصَّافِنَاتِ الجِيَادَ من بعض مواهبِه، والله أعلم بالصواب.

ومن إنشاء المولى الفاضل تاج الدين عبد الباقي[٦] بن عبد المجيد اليماني رسالةً في مثل ذلك أنشأها في سنة ستٍّ أو خمسٍ وسبعمائة. وسمعتُها من لفظه، ونقلتها من إملائه؛ وهي:

يقبِّل اليد العاليةَ الفلانيّة، لا زالت تُرْسِل إلى الأولياء سحائبَ كرمها، وتقلّد الأَوِدّاءَ قلائدَ نَعِمِها، ولا بَرِحَ المُرْهَفانِ طِرازَيّ حاشِيتها وخَدَمِها، حتى يَنُوبَ القلمُ عن صَلِيل مُرْهَفِها والصَّمْصَامُ عن صَرِير قَلَمِها، لتتساوى في الإنفاذ مواقِعُ كَلْمها ومَرَاسِمُ كَلِمِها؛ ولا فتيء ظاهِرُها قِبْلَةَ القُبَل وغايةَ الآمال، وباطنُهَا مَوْرِد الكرمِ ومصدَر الأموال.

---

(١) الابدار: امتلاء القمر وكماله.
(٢) السرار: الليلة التي يستسر فيها القمر، أي يغيب.
(٣) الحجرة: الناحية.
(٤) الحنية: القوس.
(٥) الجنة: كل ما وقى من سلاح وغيره.
(٦) هو تاج الدين أبو المحاسن عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله، ولد بمكة المشرفة سنة ٦٨٠هـ، وكان إماماً فاضلاً أديباً بليغاً. . .

ويُنْهي أنه لما كانت العزائم الفلانيّة طامحةً إلى أَسْنَى المَعَالي، مُطْلِعةً من مناقبها أهلّةً تُخْجِل بدورَ الليالي؛ متيّمةً باكتساب المَفاخر، عميدةً بتشييد المآثر، مائلةً إلى ما يزيِّن المَقَانِب[١]، ويطرِّز الكتائب، مُصْغِيةً إلى ما يرد جنابها من جنايتها لا غير، وكيف لا تكون كذلك وحبُ الخيل من الخير؛ ناظرةً إلى ما يصل من كرائمها، مهتدية بنجوم غُرَرها مشغوفةً بتحجيل قوائمها؛ عاشقةً لاتساع صدورها، ورِقَّة نحورها.

خدَم المملوكُ الرِّكابَ العالي بإنفاذ خيلٍ اتّحدتْ في الصفات، وتباينت في الشِّيات؛ وصدَرتْ كروضةٍ تفتَّحتْ أزهارُها، وزها نُوَّارُها، وأشرقتْ أنوارُها؛ بل كعرائسَ تَخْتالُ في بُرُودِها[٢]، أو كجواهرَ تنافستْ في عقودِها؛ ملكتْها يمينُ المملوك فكانت كعدد أصابعها، وأحرزتْها همّتُه فنزعتْ في الحزم إلى مَنَازِعها؛ لها من الظباء أعناقُها، ومن النعام أسواقُها[٣]؛ ومن البأس قوةُ جَنَانِها، ومن الظفر مَثْنَى عِنَانِها، ومن الإقبال غُرَر نَوَاصِيها، ومن إدراك الغرض جُلُّ أمانيها، ذَوَاتُ ضَبْح[٤]، ومُورياتُ[٥] قَدْح؛ تَكْبُو الريحُ في غاياتها، ويُقِرّ البرقُ بمُعْجزاتِها، مداخَلةُ الخَلْق رَحْبة اللَّبَان[٦]، مستغنيةٌ عن الهَمْز بتحريك العِنان، تَقَارَب ما بين قَطَاها[٧] ومَطَاها[٨]، وتَبَاعَد ما بين قَذَالِها[٩] وصَلاَها[١٠]؛ سما عنقُها وأطرق جبينها، وتنزَّهَتْ عن المعايب فلا صَكَكَ[١١] يَشِينُها؛ يا حَبَّذا أَشْهَبُها، وقد تجلَّلَتْ بالشُّهُب ذاتُه، وادّرَعتْ أَشْهَبَ الصبح شِيَاتُه؛ زَبَرْجَدِيّ الحافرِ لؤلؤيّ الأَدِيم، له أَيْطَلا ظبيٍ وساقا ظَليم؛ كغمامةٍ بارِقُها قَدْحُ سَنَابِكِه، أو كَسَيْلٍ طَمَّ مُفْعِمُه واسِعَ مسالِكِه؛ استغنى بجَوْهرِ شِيَاتِهِ عن كل مُذْهَب، فما لمُذْهَب في الانتساب عنه مَذْهب؛ إن امْتطَى الفارسُ قَطَاتَه طار بنَسْر حافِرِه، وإن أشار إلى غَرَضٍ أدركه بمجرّد الوَهْم لا بِالنظر إلى ناظره؛ أميالُ البَيْداءِ كمِيلٍ بين عينيه، وترادُفُ رِمالِها كذَرُورٍ بين جفنيهِ؛ استولَى على السَّبَق[١٢] وأَحْرزَ خَصْلَة، وكيف لا وقد حاز اثنتيْ عشرةَ خَصْلة.

يتلوها أشقرُها وقد نُجِّد عَقِيقاً، أو الْتحَف شَقِيقاً[١٣]؛ أو كوَجْنة قد احمرّتْ من

---

(١) المقانب: جمع مقنب، وهو من الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين.
(٢) البرود: واحدتها البرد، وهو كساء مخطط يلتحف به.
(٣) أسواق النعام: سيقانها.
(٤) الضبح: صوت الفرس.
(٥) الموريات: التي تخرج النار، والقدح: الضرب.
(٦) اللبان: الصدر.
(٧) القطا: العجز.
(٨) المطا: الظهر.
(٩) القذال: جماع مؤخر الرأس.
(١٠) الصلا: وسط الظهر.
(١١) الصكك: اضطراب الركبتين والعرقوبين.
(١٢) السبق: هو ما يتراهن عليه أهل السباق.
(١٣) الشقيق: نور أحمر.

الخجل، أو كوردة ناظرَت بخَفَرِها نَرْجِسَ المُقَل، تناسبتْ أجزاؤه في المَلاَحة، وتساوت مراتبُه في الصَّبَاحة؛ وجاهةُ الوجيه ناطقة من المُحَيّا، ومَسيلُ غُرّته كتصويب الثريّا، وحُجِّل بالجَوْزَاء وأُسْرِج بالهِلال، وأُلْجِمَ بالمَجَرّة فما لابن ذُكَاء[1] في الإشراق عليه مَجَال؛ إن أُطْلِق والريحَ في سَنَن مَيْدان، رأيتَ الريحَ ككُمَيْتٍ خَلّفته الجيادُ يومَ الرِّهان؛ تَنْهَب الفَلاَة حوافره، وتُحْرِز قَصَبَ السبقِ بَوادِرُه. يَتْبعه كُمَيت كقطعة جمر، أو ككأس خمر، اسودَّ ذَنَبُه وعُرْفُه، واْختال كالنَّشْوان فكأنما أسكره وصفُه، حَكتْ أُذُناه قادمَتَيْ حَمَامَة، أو المحرَّفَ من أقلام قُدَامَة؛ قصرتْ عن سعيه الخيول فسابَق الظِّلال، ونشأ مع النَّعَام فلا يألَف غيرَ الرِّئال[2]؛ كأنّ الصَّبا ألقتْ إليه عِنَانَها قَسْراً، فتَخُبّ بسَرْجه مرّةً وتُناقِلِ أُخرى. مقروناً بأصفرَ كالدِّينار، قد أُفْرِغتْ عليه حُلَّةُ نُورٍ لا نار؛ طال منه الذيلُ واتّسع اللَّبَان، فكأنما هو نارٌ على يَفَاع[3] شُبّت للضِّيفان؛ جلَّلته الشمس بأنوارها، وأهدتْ إليه الرِّياضُ اْصفرارَ أزهارِها؛ تُشهدك عند رؤيته يومَ العَرْض، فروجُ قوائمه سماءً على أرض؛ إن هَمْلَجَ[4] لاذتِ الريحُ بالشّجر، وإن عدا قَصُر عن إدراكه رؤيةُ البصر، نَجَاشِيّ النِّجَار[5]، وحَليف الوِجَار[6]؛ كأنما خُلق من الحَزْم شطرُه، ومن العِزِّ ظهرُه؛ ومن الإقبال غُرّتُه، ومن كنوزِ المفَاخِر سُرَّتُه؛ يُقِرّ أعوَجُ بني هِلالٍ بفضله، ويَقْفو حَرُونُ[7] مُسْلم أثَر ظِلّه. مختوماً بأدهم كَصَخْرةِ سَيْل، أو كقِطْعةِ ليل؛ خاض في أحشاء الصَّباح فلطَم جَبِينَه، وسابَقَ الفلكَ فقيّد بالجَوْزاء رِجْليْه ويسارَه وأطلقَ يمينَه؛ عَرِيضُ الكَفَلَ والمَنْخَرَيْن، دقيقُ القَوائم والساقَيْن؛ كأنما أُشْرِب لونُه سوادَ القلب والبصر، وكأنما النصرُ قَيْسٌ وهو ليلي[8] يحضُره حيث حضَر؛ لو كُتِب اْسمُه على رايةٍ لم تَزَلْ تَقْدُم فتوحاً، أو لمَعَتْ بوارقُ سَنَابِكه رأيتَ زِنْجِيّاً جَرِيحاً؛ طابقتْ أخبارُه لمَخْبَره، وسبقتْ رِجلاه في العدْوِ مَوَاقِعَ نَظَره؛ لا يَعْلَق غُرَابٌ[9] بغباره، ولا تستنّ النَّعَامة[10] في مضْماره.

(١) ابن ذكاء: يراد به الصبح.
(٢) الرئال: جمع الرأل، وهو فرخ النعام.
(٣) اليفاع: المرتفع من كل شيء، يكون في المشرف من الأرض والجبل والرمل وغيرها.
(٤) هملجت الدابة: إذا سارت سيراً حسناً في سرعة.
(٥) النجار: اللون، ويطلق على الأصل والحسب.
(٦) الوجار: الجحر للضبع والأسد ونحوهما من الوحوش.
(٧) حرون: هو فرس مسلم بن عمرو الباهلي.
(٨) هي ليلى صاحبة قيس بن الملوح.
(٩) غراب: اسم فرس لغني.
(١٠) تستن النعامة في مضماره: أي تجري في نشاط.

ولنختم هذا الباب بذكر فائدة، وهي دواء للخُلْد[١]: يؤخذ خمسون طائراً من الذَّراريحُ تُسحَق بحجر ولا تُمَسّ باليد، وتجعل في قِدْر صغيرة جديدة، ويُصَبّ عليها من الماء والزيت ما يغمرُه، ويُغْلَى عليه حتى ينعقد، ويُضاف إليه يسيرٌ من القَطِران الأسود، ويوضع على النار، فإذا فتَر فتُلَفّ مُشَاقةٌ[٢] على عُود ويُدْهَن به أمّ الخُلْد قبل قطعه بالنار، ثم يدهن بعد ثلاثة أيام بالشَّيْرَج[٣] والصَّيْلَقون وماء الورد؛ فإنه مجرّب.

البابُ الثاني
من القسم الثالثِ منَ الفنِّ الثالثِ
فيَ البغَالِ وَالحَميرِ

ذكرُ ما قيلَ في البغالِ

قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: إنّ البغل لا يعيش له ولد، وليس بعَقِيم؛ ولا يبقى للبغلة ولد، وليست بعاقِر، وهو أطول عمراً من أبويه وأصبر. ويقال: إنّ أوّل من نَتَج البغالَ «قارون»، وقيل: «أفرِيدُون»[٤] أحد ملوك الفرس الأُوَل. والبغلُ يوصفُ برداءة الأخلاقِ والتلوّن. ومن أخلاقِ البغالِ الإلْف لكلِّ دابّة. ويقال: إنّ أبوال الإناث تنقية لأجسادها. والإناثُ أجملُ من الذكورِ. قال بعض الشعراء: [من الرجز]

عليكَ بالبغلةِ دون البَغْلِ ... فإنها جامعةٌ للشَّمْلِ

مَركبُ قاضٍ وإمامِ عدلِ ... وعالمٍ وسيِّدٍ وكَهْلِ

* تصلُح للرَّحْل وغيرِ الرحلِ *

والبغال من مراكب الرؤساء، والسادة النجباء، والقضاة والعلماء. وهم يُرَجِّحون إناثَها على ذكورها؛ حتى إن المغاربة لا يركبون البغال الذكور ألبتة وإنَّما يجعلونها برسم حمل الزِّبْل. أخبرني قاضي القضاة جمال الدين أبو محمد بن سليمان بذلك، وقال: وإذا طلب وليّ الأمر البغل لأحدٍ كان ذلك دلالةً على إشهاره[٥]. وتجريسه[٦] عليه. قال: فلا يركب البغلِ الذكرَ عندنا إلا زبّالٌ أو مُجَرَّس. وأعظم ما تُفضّل به إناث

(١) الخلد: داء في الفرس بمنزلة الجذام في الإنسان.
(٢) المشاقة: ما سقط من الشعر ونحوهما عند المشط.
(٣) الشيرج: زيت السمسم.
(٤) هو سادس ملوك الطبقة الأولى من الفرس.
(٥) إشهاره: إعلانه وإذاعته.
(٦) التجريس بالقوم: التسميع بهم والتشهير.

البغال على ذكورها أنّ رسول الله ﷺ ركبها وملكها؛ وما ورد أنه ملك بغلاً ولا ركِبه.

ولنذكرْ بَغَلاتِ رسول الله ﷺ تفضيلاً لهذا الحيوان وتشريفاً؛ وتنويهاً بذكره وتعريفاً؛ والله أعلم.

ذكر بَغَلات رسولِ الله ﷺ

كان لرسول الله ﷺ بغلةٌ شَهْباء يقال لها «دُلْدل»، أهداها له المُقَوْقِس. ذكر ذلك ابن قُتَيْبة وابن سعد[١]؛ فقال ابن سعد ما هذا نصه: «وبعث رسول الله ﷺ حاطبَ بن أبي بَلْتَعَةَ اللَّخْمِي، وهو أحد الستة، إلى المُقَوْقِس صاحب الإسكندريّة عظيم القِبط يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتاباً، فأوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرأه وقال له خيراً؛ وأخذ الكتابَ فجعله في حُقٍّ[٢] من عاج وختمَ عليه ودفَعه إلى جاريته؛ وكتب إلى النبيّ ﷺ: قد علمتُ أن نبيّاً قد بَقِيَ، وكنتُ أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثتُ إليك بجاريتين لهما مكان في القِبْط عظيم، وقد أهديت إليك كُسْوة وبغلة تركبها». ولم يَزِدْ على هذا ولم يُسْلِم. فقبِل رسول الله ﷺ هدِيَّتَه، وأخذ الجاريتَيْن: ماريَةَ أمَّ إبراهيمَ ابنَ رسول الله ﷺ، وأختَها سِيرينَ. وبغلةً بيضاءَ لم يكن في العرب يومئذٍ غيرُها وهي «دُلْدُل». وقال رسول الله ﷺ: «ضَنّ الخبيثُ بمُلْكه ولا بقاءَ لمُلْكِه».

وذكر ابن سعد أيضاً قال: «دُلْدُل» بغلةُ رسول الله ﷺ أوّلَ بغلة رُئِيَتْ في الإسلام، أهداها له المُقَوْقِس وأَهْدى معها حماراً يقال له: «عُفَير»؛ فكانت البغلة قد بقيت حتى كان زمنُ معاوية. وفي لفظ: وكانت شهباءَ، وكانت بيَنْبُع حتى ماتت ثَمَّ. وفي لفظ: وكانت قد كَبِرَتْ حتى زالت أسنانها، وكان يُجَشّ[٣] لها الشعير.

وروى ابن سعد أيضاً عن محمد بن عمر الأَسْلَمِيّ قال: حدّثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سَبْرة عن زامِل بن عمرو قال: أَهْدى فَرْوة بن عمرو إلى النبيّ ﷺ بغلة يقال لها: «فِضّة» فوهبها لأبي بكر. وكذلك قال البَلاَذُرِيّ[٤]. وقد يقال: إن «دُلْدُل» من هديّة فَرْوة، وإن «فِضّة»، من هدية المُقَوْقِس.

---

(١) هو محمد بن سعد كاتب الواقدي وصاحب الطبقات.

(٢) الحقّ: وعاء صغير ذو عطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما.

(٣) جشّ الحب: جرشه.

(٤) هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي البلاذري، أديب، شاعر، مؤرخ من أهل بغداد. سمع بدمشق وبإنطاكية، وكان أحد النقلة من الفارسية إلى العربية... كانت وفاته سنة ٢٧٩ هجرية... (معجم المؤلفين ٢: ٢٠١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أُهْدِي للنبيّ ﷺ بغلة أهداها له كِسْرَى؛ فركبها بجُلٍّ[1] من شعر ثم أرْدَفنِي خَلْفَه. رواه الثَّعَالِبِي. في تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]. قال الشيخ شرف الدين عبد المؤمن الدِّمياطي رحمه الله: قوله: «أهداها له كسرى» بعيدٌ؛ لأنه مزَّق كتاب النبيّ ﷺ وأمر عاملَه باليمن بقتله وبعثِ رأسِه إليه؛ فأهلكه الله بكفره وطغيانه.

وروى مسلم بن الحَجّاج[2] رحمه الله من حديث أبي حُمَيد الساعِديّ قال: غزونا مع رسول الله ﷺ تَبُوكَ؛ فذكر الحديثَ؛ وقال فيه: وجاء رسول ابن العَلْماء صاحب أَيْلَةَ إلى رسول الله ﷺ بكتاب وأهدى له بغلة بيضاء؛ فكتب إليه رسول الله ﷺ وأهدى له بُرْداً. رواه البخاريّ في كتاب الجِزْية والمُوَادعةِ بعد الجهاد؛ ورواه أبو نُعَيم في المستخرج. ولفظهما: «وأهْدَى مَلِكُ أَيْلة إلى رسول الله ﷺ بغلة بيضاء فكساه بُرْداً»؛ وقال أبو نعيم: بُرْدَةً.

وقال ابن سعد: وبعث صاحب[3] دُومةِ الجَنْدَلِ[4] لرسول الله ﷺ ببغلة وجُبة من سُنْدُس.

وروى إبراهيم[5] الحَرْبيّ في كتاب الهدايا عن عليّ رضي الله عنه قال: وأَهْدى يُحَنَّةُ بنُ رُوبَةَ إلى رسول الله ﷺ بغلته البيضاء.

وروى يوسف بن صُهَيب عن ابن بُرَيدة[6] عن أبيه قال: انكشف الناسُ عن النبيّ ﷺ يومَ حُنَين ورسول الله ﷺ على بغلته الشَّهْباء التي أهداها له النَّجاشِيّ وزيدٌ آخذٌ بِرِكاب بغلته، وذكر عليّ بن محمد بن حُنَيْن بن عَبْدُوس الكُوفيّ في أسماء خيله وسلاحه وأَثَاثه: وكان اسم بغلته «دُلْدُل» أهداها إليه المُقَوْقِس صاحب الإسكندريّة وكانت شَهْباء؛ وهي التي قال لها يوم حنين: «ارْبِضِي» فربَضتْ. ويقال: إن علياً رِكبها بعد النبيّ ﷺ ثم ركبها الحسن ثم ركبها الحسين ثم ركبها محمد ابن الحنفيّة رضي الله عنهم، ثم كبِرتْ وعَميتْ، فوقعتْ في مَبْطَخة[7] لبعض بني مُدْلج فخبَطتْ

(١) الجلّ: ما تلبسه الدابة لتصان به.

(٢) أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري، صاحب الصحيح (الوفيات ٥: ١٩٤).

(٣) هو أكيدر بن عبد الملك.

(٤) موضع على سبع مراحل من دمشق، وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبنيّ بالجندل.

(٥) هو إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبد الله الحربي (أبو إسحاق)، محدث، فقيه، أديب، أصله من مرو، ومات ببغداد، لتسع ليال بقين من ذي الحجة سنة ٢٨٥هـ. . . (معجم المؤلفين ١: ١٢).

(٦) هو عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمي.

(٧) المبطخة: منبت البطيخ.

فيها[1]، فرماها بسهم فقتلها.

وكانت له بغلة يقال لها: «الأَيْلِيّة»؛ أهداها إليه ملكُ أَيْلَة، وكانت طويلة مُخَنْدِفَةً[2] كأنما تقوم على رِمال حسنةَ السير، فأعجبتْه ووقعتْ منه. وهي التي قال له فيها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حين خرج عليها: كأنّ هذه البغلة قد أعجبتْك يا رسول الله؟ قال: «نعم» قال: لو شئنا لكان لك مثلُها؛ قال: «وكيف»؛ قال: هذه أمّها فرس عربيّة وأبوها حمار، ولو أَنْزَيْنا حماراً على فرس لجاءت بمثل هذه؛ فقال: «إنما يَفعل ذلك الذين لا يعلمون».

وعن دِحْية بن خَليفة[3] الكَلْبِيّ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ألا أَحْمِل لك حماراً على فرس فتُنْتَج لك بغلة؟ فقال: «إنما يفعل ذلك الذين لا يعقلون». رواه ابن مَنْده في كتاب الصحابة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ عبداً مأموراً، ما اختصَّنا دونَ الناسِ بشيء إلا بثلاث: أَمَرَنا أن نُسْبغ الوُضوء، وألاّ نأكل الصَّدَقة، وألا نُنْزِيَ حماراً على فرس. رواه التِّرْمِذيّ في الجهاد. وفي لفظ آخر عنه رضي الله عنه: كان عبداً مأموراً بَلَّغ ما أُرْسل به، وما اختصَّنا دون الناس بشيء إلا بثلاث خصال: أمرَنا أن نُسْبِغ الوضوء، وألاّ نأكلَ الصَّدَقة، وإلا نُنْزِيَ الحمارَ على الفرس. وهذا على هذين الحديثين يختصّ بآل النبي ﷺ دون غيرهم.

والذي يظهر من مجموع هذه الأحاديث المَرْوِيّة التي أوردناها أن بَغَلاتِ رسول الله ﷺ كانت سبعاً، وهي: «الدُّلْدُل» التي أهداها له المُقَوْقِس، و«فِضّة» التي أهداها له فَرْوة بن عمرو، وبغلة أهداها له كسْرَى، وبغلته الأَيْلِيّة التي أهداها له ابن العَلْماء صاحب أيلة، وبغلة بعثها له صاحب دومة الجَنْدَل، وبغلة أهداها له يُحَنَّةُ بن رُوبَةَ، وبغلة أهداها له النَّجَاشِيّ صاحب الحَبَشة. والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكرُ شيء ممّا وُصفتْ بهِ البغالُ

قد ألّف الجاحظ كتاباً في البغال مفرداً عن كتاب الحيوان، قال فيه ما نصه: «نبدأ إن شاء الله بما وَصف الأشرافُ من شأن البغلة في حسن سِيرتها، وتمامُ خِلقتها، والأمورِ الدّالة على السرّ في جوهرها، وعلى وجوه الارتِفاق بها، وعلى تصرّفها في

(١) خبطت الدابة: أي مشت على غير هدى.
(٢) الخندفة: مشي كالهرولة.
(٣) هو صحابي مشهور شهد أحد والخندق واليرموك وكان رجلاً جميلاً... وعاش إلى خلافة معاوية. وقد جاء جبريل على صورته في غزوة بني قريظة...

منافعها، وعلى خِفّة مؤونتها في التنقُّل في أمكنتها وأزمنتها، ولِمَ كَلِفَ الأشرافُ بٱرتباطها مع كثرة ما يزعمُون من عيوبها، ولِمَ آثَرُوها على ما هو أدومُ طهارةَ خَلْقٍ منها، وكيف ظهر فضلها مع النقص الذي هو فيها، وكيف ٱغتفروا مكروهَ ما فيها لِمَا وجَدوا من خصال المحبوبِ فيها».

قال: ولقد كَلِفَ بٱرتباطها الأشرافُ حتى لُقِّب بعضهم من أجل ٱشتهاره بها بـ «رَوّاض البِغال»، ولقّبوا آخر بـ «عاشِق البغل». فبسَط القول في الترجمة ثم لم يأتِ من أخبار البغال بطائلٍ، بل ٱقتصر على حكاياتٍ وٱستطرد منها إلى غيرها، على عادته في مصنَّفاته. فكان مما حكاه من ذلك:

قال مَسْلَمَةُ بن عبد الملك: ما ركِب الناسُ مثلَ بغلةٍ طويلةِ العِنَان، قصيرةِ العِذَار، سَفْواءِ[1] العُرْف، حَصّاءِ[2] الذَّنَب.

قال: وكتب رَوْحُ بن عبد الملك إلى وكيل له: ابْغِني بغلةً حَصّاءَ الذنَب، عظيمةَ المَحْزِم، طويلةَ العُنُق، سَوْطُها عِنانُها، وهواها إمامُها.

قال: وعاتب صَفْوان بن عبد الله بن الأَهْتَم عبدَ الرحمٰن بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب في ركوب البغال، وكان رَكّاباً للبغلة، فقال له: ما لك ولهذا المَرْكَب الذي لا يُدرَك عليه الثار، ولا يُنَجِّيك يومَ الفِرار؟! فقال: إنها نَزلتْ عن خُيَلاء الخيل، وارتفعتْ عن ذِلَّة العَيْر، وخيرُ الأمور أوساطُها. فقال صَفْوان: إنا نعلِّمكم، فإذا عَلِمْتُم تعلَّمنا منكم. وهو الذي يلقَّب «رَوَّاضَ البَغال»، لحِذْقِه بركوبها، ولشَغَفِه بها، وحُسْن قيامه عليها. وكان يقول: أُريدها واسعة الجُفْرة[3]، مُنْدَحَّةَ[4] السُّرَّة، شديدة الغَلْوة[5] بعيدةَ الخَطْوة، ليِّنةَ الظهر، مَلْوِيَّةَ الرُّسْغ، سَفْوَاء جَرْداء عَنْقاء، طويلةَ الأنقاء[6].

قال: وقال ابن كُتَامَة: سمعتُ رجلاً يقول: إذا ٱشْتَريتَ بغلةً، فاشْتَرِها طويلةَ العُنُق، تجده في نجائها، مُشْرِفَةَ الهادِي، تجده في طباعها؛ ضَخْمة الجوف، تجده في صَبْرِها.

قال: ولما خرج قَطَرِيّ بن الفُجَاءة[7] أحبَّ أن يجمع إلى رأيه رأيَ غيره؛ فدَسّ

(١) السفواء: الخفيفة شهر الناصية.
(٢) حصّاء الذنب: قليلة شعره.
(٣) الجفرة: وسط الفرس.
(٤) مندحة: متسعة.
(٥) الغلوة: أمد جري الفرس وشوطه.
(٦) الأنقاء: العظام ذوات المخ.
(٧) قطري بن الفجاءة من رجالات بني كابية، كان رئيساً للأزارقة، ودعي أمير المؤمنين عشرين سنة وقتل بالريّ في آخر أيام الحجاج. . . (الاشتقاق).

إلى الأَحْنَفَ بن قَيْس[١] رجلاً يُجْرِي ذكرَه في مجلسه ويحفظ عنه ما يقول؛ فلمّا قعد قال الأحنف: أمَا إنهم إن جنبوا بَناتِ الصَّهَّال[٢]، وركِبوا بناتِ النَّهَّاق[٣]، وأمسَوْا بأرضٍ وأصبحوا بأرض، طال أمرُهم.

قال الجاحظ: فلا ترى صاحبَ الحربِ يَسْتغني عن البغال، كما لا ترى صاحبَ السّلْم يستغني عنها، وترى صاحبَ السفر كصاحب الحَضَر. انتهى كلام الجاحظ.

وحُكي أنّ عبد الحميد الكاتب سايَر مَرْوانَ بن محمد الجَعْديّ على بغلة؛ فقال له: لقد طالت صحبةُ هذه الدابّة لك!؛ فقال: يا أمير المؤمنين، من بركة الدابّة طولُ صحبتها. فقال: صِفْها؛ فقال: همُّها إمامُها، وسَوْطُها زِمامُها، وما ضُرِبتْ قطُّ إلاّ ظلماً.

وقال بعضُ الكتّاب من رسالة: «قد آخترتُ لسيّدي بغلةً وَثيقة الخَلْق، لَطيفة الخَرْط[٤]، رَشيقة القَدّ، موصوفة السير، ميمونة الطير، مُشْرِفةَ العُنُق، كريمةَ النِّجار، حميدةَ الآثار.

إن أدْبرتْ قلتَ لا تَليلَ لها ... أو أقبلتْ قلتَ ما لها كَفَلُ[٥]

قد جمعتْ إلى حسن القميص، سلامةَ الفُصُوص[٦]؛ فسُمِّيَتْ قَيْدَ الأَوَابِد، وقرّةَ عين الساهدِ؛ تُزْرِي في آنطلاقها، بالبروق في آئتلافها».

قال البُحْتُرِيّ يصف بغلاً:

وأقبَّ نَهْدٍ للصَّوَاهِل شَطْرُه ... يومَ الفَخار وشطرُه للشُّحَّجِ[٧]

خَرِق يَتِيهُ على أبيه ويدَّعي ... عصبيّةً لبني الضُّبَيْب وأَعْوَج[٨]

مثل المُذَرَّع جاء بين عُمُومةٍ ... في غَافِقٍ وخُؤولة للخَزرَج[٩]

---

(١) هو أبو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة بن النزال بن مرة بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن زيد مناة بن تميم التميمي المعروف بالأحنف، وقيل: اسمه صخر، وهو الذي يضرب به المثل في الحلم... (الوفيات ٢: ٤٩٩).

(٢) ثبات الصهال: الخيل.

(٣) ثبات النهاق: الحمير.

(٤) خرطت الدابة: سلحت.

(٥) التليل: العنق.

(٦) الفصوص في الفرس: مفاصيل ركبتيه وأرساغه.

(٧) الصواهل: الخيل ـ والشحج، أو نبات الشحاج: البغال.

(٨) الضبيب: فرس حسان بن حنظلة الطائي.

(٩) المذرع: الذي أمه أشرف من أبيه ـ وغافق: قبيلة من الأزد.

وقال أبو الفرج الوَأْوَاء من قصيدة يشكر بعضَ أصحابه وقد أَهْدى له بغلةً: [من البسيط]

قد جاءت البغلةُ السَّفواء يَجْنُبُها ... للبرق غيثٌ بدا ينهلُّ ماطِرُهُ
عَريقةٌ ناسبتْ أخوالَها فلها ... بالعتْق من أكرم الجنسين فاخرُهُ
ملءُ الحِزام وملء العينِ مُسْفِرةٌ ... يُريك غائبَها في الحسن حاضِرُهُ
أَهْدَى لها الرَّوْضُ من أوصافه شِيَةً ... خَضْراء ناضرةً إن زال ناضرُهُ
ليست بأوّل حُمْلانٍ شَرَيْتَ به ... حمدي ولا هي يا ذا الجودِ آخِرُهُ[1]
كما قد تقدَّمها من سابح بيدِي ... عِنانُه وعلى الجَوْزا حوافِرُهُ

وقال أبو المَكَارِم بن عبد السّلام: [من البسيط]

كأنها النارُ في الحَلْفاء إن رَكضتْ ... كأنها السيلُ إن وافتْكَ من جبلِ
كأنها الأرضُ إن قامت لمُغْتَلفٍ ... كأنها الريح إن مرّتْ على القُلَلِ
ما يعرِف الفكرُ منها منتهَى حُضُرٍ ... ما صوَّر الوهمُ فيها وصْمةَ الكَسَلِ
إذا اقتعدتَ مَطَاها وهي ماشيةٌ ... ثَهْلانُ تُبْصِره في زِيّ مُنْتقِلِ

هذا ما اتّفق إيراده من صفات البغال التي تقتضي المدح.

فأمّا ما جاء في ذمها فالمثل المضروب في بغلة أبي دُلاَمة. وقال أبو دلامة[2] في بغلته: [من الوافر]

أبعدَ الخَيْلِ أركبُها ورَاداً ... وشُقْراً في الرَّعِيل إلى القتالِ[3]
رُزِقتُ بُغيلةً فيها وَكَالٌ ... وخيرُ خِصالِها فَرْطُ الوَكَالِ[4]
رأيتُ عيوبَها كثُرتْ وعالتْ ... ولو أَفْنيتُ مجتهِداً مقالِي
تقوم فما تَرِيم إذا اسْتُحِثَّتْ ... وتَرْمَحُ باليمين والشِّمالِ[5]
رياضة جاهلٍ وعُلَيجِ سَوْءٍ ... من الأَكْراد أَحْبَنَ ذي سُعَالِ[6]

---

(١) الحملان: ما يحمل على الدواب في الهبة خاصة.
(٢) أبو دلامة: هو زيد بن الجون مولى بني أسد، وكان منقطعاً إلى أبي العباس السفاح... (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٠٠).
(٣) الرعيل: القطعة المتقدمة من الخيل.
(٤) الوكال: البطء والبلادة.
(٥) فما تريم: أي فما تبرح مكانها.
(٦) الأحبن: العظيم البطن.

شَتِيمِ الوجهِ هِلْبَاجٍ هِدَانٍ نَعُوسٍ يومَ حِلٍّ وٱرتحالِ[١]
فأدّبَها بأخلاقٍ سِمَاجٍ جزاه الله شرّاً عن عِيَالِي
فلمّا هَدّني ونفى رُقَادي وطال لذاك همّي واشتغالي
أتيتُ بها الكُنَاسة مستغيثاً أُفكّر دائباً كيف ٱحتِيَالي[٢]
بعُهْدةِ سِلْعةٍ رُدّتْ قديماً أَطُمُّ بها على الداء العُضَالِ[٣]
فبينما فِكْرتي في القوم تُسْدَى إذا ما سُمْتُ أُرْخِصُ أم أُغَالي
أتاني خائِبٌ حَمِقٌ شقيٌّ قديمٌ في الخَسَارة والضَّلَالِ
ورَاوَغَني ليَخْلُوَ بي خِدَاعاً ولا يَدْرِي الشَّقِيُّ بمن يُخَالي
فقلتُ بأربعين فقال أحسِن فإن البيع مرتخَصٌ وغالي
فلما ٱبتاعها منّي وبُتَّتْ له في البيع غير المستقالِ
أخذتُ بثوبه وبَرِئتُ مما أَعُدُّ عليك من شَنِعِ الخِصَالِ
بَرِئتُ إليكَ من مَشَشٍ قديم ومن جَرَدٍ وتخريقِ الجِلَالِ[٤]
ومن فَرْط الحِرَانِ ومن جِمَاحٍ ومن ضعفِ الأسافلِ والأعالي[٥]
ومن عَقْرِ اللسان ومن بياضٍ بناظرها ومن حلِّ الحِبَالِ
وعُقَّالٍ يُلازِمُها شديدٍ ومن هَدْمِ المَعَالِفِ والرِّكَالِ[٦]
تُقَطِّع جِلْدَها جَرَباً وحَكّاً إذا هُزِلَتْ وفي غير الهُزَالِ
ومن شَدِّ العِضَاض ومن شِبَابٍ إذا ما هَمَّ صَحْبُك بالرِّقَالِ[٧]
وأَقْطَفُ من دَبِيبِ الذَّرّ مَشياً وتَنْحَطُّ من مُتابعةِ السُّعَالِ[٨]

---

(١) الهلباج: الوخم الأكول الشروب ـ والهدان: الوخم الثقيل في الحرب.
(٢) الكناسة: اسم موضع بالكوفة.
(٣) العهدة: الرجعة.
(٤) المشش: ورم يأخذ في مقدم عظم الوظيف أو باطن الساق في أنسيه ـ والجرد في الدواب: ورم في مؤخرة عرقوب الفرس.
(٥) الحران: وقوف الدابة حين يطلب جريها ورجوعها القهقرى.
(٦) العقال: داء يأخذ في قوائم الدابة ـ والركال: أن يضرب برجله الأرض.
(٧) الشباب: رفع الفرس يديه جميعاً من الأرض.
(٨) القطوف من الدواب: البطيء السير ـ وتنحط: تصوّت من الثقل والإعياء.

وتـكـسِـر سـرجَـهـا أبـداً شِـمَـاسـاً وتسقط في الوُحول وفي الرمالِ[١]
ويَـهْـزِلُـهـا الـجَـمَـام إذا خَـصِـبْـنـا ويُـدْبِـرُ ظَـهـرَهـا مَسُّ الـجِـلاَلِ[٢]
تَـظَـلُّ لِـرَكْـبَـةٍ مِـنـهـا وَقـيـذاً يُخاف عليك من وَرَمِ الطِّحَالِ[٣]
وتَـضْـرِط أربـعـيـن إذا وَقَـفْـنـا عـلـى أهـلِ الـمـجـالـس لـلـسؤال
فتُـخْـرِس مـنـطقي وتَـحُـول بـيـنـي وبـيـن كـلامـهـم مـمّـا تُـوَالِـي
وقـد أعيـتْ سياسـتُـهـا الـمُـكَـارِي وبَـيْـطَـاراً يُـعَـقِّـل بـالـشُّـكَـالِ[٤]
حُـرونٌ حـيـن تـركـبُـهـا لـحُـضْـرِ جَـمُـوحٌ حـيـن تَـعْـزِم لـلـنُّـزَالِ
وذئـبٌ حـيـن تُـدْنِـيـهـا لـسَـرْجِ وَلَـيْـثٌ عـنـد خَـشْـخَـشَـةِ الـمَـخَـالِـي
وفِـيـلٌ إن أردتَ بـهـا بُـكُـوراً خَـذُولٌ عـنـد حـاجـاتِ الـرِّجَـالِ
وألـفُ عـصـاً وسَـوْطٍ أَصْـبَـحِـيٍّ ألَـذُّ لـهـا مـن الـشُّـرْبِ الـزُّلاَلِ[٥]
وتُـضْـعَـقُ من صِيَاحِ الدِّيك شهراً وتُـذْعَـر لـلـصَّـفـيـر ولـلـخَـيَـالِ
إذا اسْـتَـعْـجَـلْـتَـهـا رائـثٌ وبـالـتْ وقـامـت سـاعـةً عـنـد الـمَـبَـالِ
ومِـشْـفـارٌ تـقـدُّمُ كـلَّ سَـرْجِ تـصـيِّـر دَفَّـتَـيْـه عـلـى الـقَـذَالِ[٦]
وتَـخْـفَـى فـي الـوقـوف إذا أقَـمْـنَـا كـمـا تَـخْـفَـى الـبـغـال مـن الـكَـلاَل
ولـو جَـمَّـعْـتَ مـن هَـنـا وهَـنـا ومـن الأَتْـبَـان أمـثـالَ الـجـبـالِ
فـإنـك لـسـتَ عـالـفَـهـا ثـلاثـاً وعـنـدك مـنـه عُـودٌ لـلـخِـلاَلِ
وكـانـت قـارِحـاً أيّـام كِـسْـرَى وتـذكـر تُـبَّـعـاً قـبـلَ الـفِـصَـالِ[٧]
وقـد قَـرَحـتْ ولُـقْـمَـان فَـطِـيـمٌ وذو الأَكْتَافِ في الحِجَجِ الخَوَالِي[٨]
وقـد أُبْـلِـي بـهـا قَـرْنٌ وقَـرْنٌ وآخِـرُ يـومِـهـا لِـهَـلاَكِ مـالِـي
فـأَبْـدِلْـنِـي بـهـا يـا رَبِّ بَـغْـلاً يَـزِيـن جَـمَـالُ مَـرْكَـبِـه جَـمَـالِـي

(١) شماس الدابة: شرودها وجماحها.
(٢) الجمام: الراحة.
(٣) الوقيذ: الشديد المرض.
(٤) الشكال: القيد.
(٥) السوط الأصبحي: نسبة إلى ذي أصبح، ملك من ملوك حمير.
(٦) المثفار: الدابة ترمي بسرجها إلى الوراء والقذال: جماع مؤخر الرأس.
(٧) القارح: الذي شق نابه وطلع. والفصال: الفطام من الرضاع.
(٨) ذو الأكتاف: ملك من ملوك فارس واسمه سابور بن هرمز.

كـريـمٌ حـيـن يُـنْـسَـب والـداه إلـى كَـرَم الـمَـنَـاسِـب فـي الـبِـغَـالِ

وقال القاضي بهاء الدين(١) زهير الكاتب: [من مجزوء الكامل]

لـك يـا صـديـقـي بـغـلـةٌ لـيـسـت تُـسـاوِي خَـرْدَلَـهْ
مـقـدار خُـطْـوتـهـا الـطـويـلـة حـيـن تُـسْـرِع أنْـمُـلَـهْ
وتُـخَـال مُـدْبِـرةً إذا مـا أقـبـلـت مـسـتـعـجـلَـهْ
تـمشي فـتـحـسَـبـهـا الـعـيـوُنُ عـلـى الـطـريـق مـشـكّـلَـهْ
تـهـتـزُّ وهـي مـكـانَـهـا فـكـأنـمـا هـي زَلْـزَلَـهْ

ذكر ما قيل في الحمر الأهلية

قال المتكلمون في طبائع الحيوان: إنّ الحمار لا يولد له قبل أن تتمّ له ثلاثُ سنين ونصف. قالوا: والحمار إذا شمّ رائحةَ الأسد رمى بنفسه عليه لشدّة خوفه منه. ولذلك قال أبو تمّام يخاطب عبد الصمد بن المعذّل(٢) وقد هجاه:

أقدمتَ ويلكَ من هَجْوِي على خَطَرٍ والعَيْرُ يُقْدِمُ من خوفٍ على الأَسَدِ

والحمار يُوصف بحدّة حاسّة السمع. وهو إذا نَهَق أضرّ بالكلب؛ قالوا: حتى إنّه يُحدِث له مَغْساً؛ فلذلك يطول نُباحه. والبرد يضرّ الحمارَ ويُؤذيه؛ ولهذا لا يوجد في بلاد الصَّقَالبة. وقال الجاحظ: وحلف أحمد بن عبد العزيز أن الحمار ما ينام. فقيل له: ولم ذلك؟ قال: لأنّي أجدُ صِيَاحَه ليس بِصِياح من نام وأَنتبَه في تلك الساعة، ولا هو صياحُ من يريد أن ينام بعد أنقضاء صياحه.

وأجود الحمير المصريّةُ، وأهلُ مصر يعتنون بتربيتها، ويحتفلون بأمرها ويُسابقون عليها، ويسمّون مكانَ سِبَاقها «الطابق»، والجيِّد منها يُباع بالثمن الكثير. نقل صاحب كتاب مَبَاهج الفِكَر ومناهج العِبَر في كتابه قال: لقد بيع منها حمارٌ بمائة دينار وعشرة دنانير. وأمّا الذي رأيناه نحن منها فأُبيع بألف درهم، وربما زاد بعضها على ألف. وكثيرٌ من أهل مصر يركبونها ويتركون الخيل والبغال. فَمَن ركِبها من الأعيان مع وجود

---

(١) هو أبو الفضل، زهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن منصور بن عاصم المهلبي العتكيّ المقلب بهاء الدين الكاتب، من فضلاء عصره، وأحسنهم نظماً ونثراً وخطاً، ومن أكبرهم مروءة... (وفيات الأعيان ٢: ٣٣٢).

(٢) هو عبد الصمد بن المعدل، من شعراء الدولة العباسية. ولد بالبصرة ونشأ بها. له شعر المائة وخمسين ورقة. ذكره ابن شاكر في التواريخ، وابن النديم في الفهرست... كانت وفاته سنة ٢٤٠ هجرية... (معجم المؤلفين ٥: ٢٣٧).

القدرة والإمكان على ركوب الخيل والبغال، يَقصِد بذلك التواضعَ وعدم الكبرياء، ومَنْ ركبها من ذوي الأموال وترك الخيلَ والبغالَ ربما يفعل ذلك توفيراً لماله وضِنَّةً به. ومَنْ ركبها من الشباب والسُّوقة يقصِد بذلك التنزّه عليها لفَراهَتها وسرعة مشيتها.

وقد كان لرسول الله ﷺ حمارٌ من حمير مصر اسمه «يَعْفُور» وقيل: «عُفَير»؛ أهداه له المُقَوْقِس صاحب الإسكندرية مع ما أهدى. وقد ورد أيضاً في الحديث أنه كان لرسول الله ﷺ حماران: «يَعْفُور» و«عُفَيْر». فأما «عُفَيْر» فأهداه له المقوقس. وأمّا «يَعْفُور» فأهداه له فَرْوة بن عمرو الجُذَاميّ. ويقال: إنّ حمار المقوقس «يَعْفُور» وحمار فَرْوة «عُفَيْر».

قال الواقديّ[١]: مات «يعفور» عند مُنْصَرف النبيّ ﷺ من حِجَّة الوَدَاع. وذكر السُّهَيْلِيّ[٢]: أن «يعفوراً» طرح نفسه في بئرٍ يوم مات النبي ﷺ فمات. وذكر ابن فُورَك[٣] في كتاب الفصول أنه كان في مَغَانم خَيْبَر، وأنّه كلّم النبيَّ ﷺ وقال: يا رسولَ الله، أنا زِياد بن شِهاب، وقد كان في آبائي ستّون حماراً كلُّهم ركِبهم نبيٌّ، فأرْكَبْني أنت. وزاد الجُوَيْنيّ[٤] في كتاب الشامل: أن النبيّ ﷺ كان إذا أراد أحداً من أصحابه أرسل هذا الحمارَ إليه، فذهب حتى يضرِب برأسه الباب؛ فيخرج ذلك الرجل، فيعلم أنه أرسل إليه، فيأتي النبيّ ﷺ.

وفي الحمار منافعُ طبّية ذكرها الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا، قال: رمادُ كَبِدِ الحمال بالزّيت ينفع من الخنازير[٥]، قال: ويُبرىءُ من الجُذَام. وهذا دواءٌ رخيص إن صحّ. قال: وكَبِدُه مَشْويّةً على الرِّيق تنفع من عِلّة الصَّرْع. قال: والمَكْروز[٦] من اليُبُوسة يجلس في مرقة لحمه. وقيل: إنّ بوله نافع من وَجَع الكُلَى. قال: وبولُ الحمار الوحشِيّ يُفَتِّت الحصاةَ في المَثَانَة.

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم، وقيل مولى بني سهم بن أسلم، كان إماماً عالماً له التصانيف في المغازي وغيرها، وله كتاب «الردة»... (الوفيات ٤: ٣٤٨).

(٢) هو أبو القاسم عبد الرحمٰن بن عبد الله بن الخطيب الخثعمي السهيلي.

(٣) هو الأستاذ أبو بكر محمد بن الحسن فورك المتكلم الأصلي النحوي الواعظ الأصبهاني، كانت وفاته سنة ٤٠٦هـ...

(٤) هو محمد بن المؤيد بن محمد بن حمويه الحموي الجويني (سعد الدين) صوفي. سكن سفح قاسيون بدمشق، وعاد إلى خراسان وتوفي بها سنة ٥٦٠ هجرية... (معجم المؤلفين ١٢: ٧٠).

(٥) الخنازير: علة معروفة، وهي قروح صلبة تحدث في الرقبة.

(٦) المكزوز: الذي أصابه الكزاز، وهو تشنج يصيب الإنسان من البرد الشديد أو من خروج دم كثير.

ذكرُ ما يتمثلُ بهِ ممّا فيهِ ذكرُ الحمارِ

تقول العرب: «العَيْرُ أوقَى لدَمِهِ»[١]. وقالوا: «نَجّى عَيْراً سَمِنُه»[٢]. وقالوا: «الجحشَ إذا فاتك الأَعْيَارُ»[٣]، وقالوا: «أصَحّ من عَيْرِ أبي سَيّارة»[٤]؛ لأنه كان دفع بأهل المَوْسِم على ذلك العَيْر أربعين عاماً. وقالوا: «إنْ ذهبَ عَيْرٌ فعَيْرٌ في الرِّبَاط»[٥]. وقالوا: «العَيْرُ يَضْرِط والمِكْوَاةُ في النار»، وقالوا: «حمارٌ يحمل سِفْراً».

ومن أنصاف الأبيات:

* وقـد حِيـل بيـن الـعَيْـر والـنَّـزَوان *[٦]

ذكرُ شيء ممّا وُصفتْ بهِ الحميرُ علَى طريقي المُدحِ والذّمِّ

قال أبو العَيْناء[٧] لبعض سماسرة الحمير: اشْتَرِ لي حماراً لا بالطويل اللاّحق، ولا بالقَصِير اللاصِق، إنْ خَلاَ الطريقُ تَدَفّق، وإن كثُر الزِّحامُ تَرَفَّق؛ لا يُصادِم بي السَّوَاري، ولا يدخل تحت البَوَاري[٨]، إن كثرتْ علفه شَكَر، وإن قلّلْتُه صَبَر، وإنْ رَكِبتُه هام، وإن ركبه غيري قام[٩]. فقال له السمسار: إنْ مَسَخَ الله بعضَ قُضَاتِنا حِمَاراً أصبتُ حاجتك، وإلاّ فليستْ موجودة.

قيل للفَضْل الرَّقَاشِي[١٠]: إنك لَتُؤْثِر الحمير على جميع الدوابّ؛ قال: لأنها أرفق وأوفق؛ قيل: ولِمَ ذاك؟ قال: لأنها لا تَسْتَبدِل بالمكان، على طول الزمان؛ ثم قال: هي أقلُّ داءً، وأيسرُ دواءً، وأخفضُ مَهْوَى، وأسْلَم صَرْعاً؛ وأقلُّ جِمَاعاً، وأشهرُ فَرَهاً، وأقلُّ بَطَراً، يُزْهَى راكِبُه وقد تَوَاضَعَ بركوبه، ويُعَدّ مقتصداً وقد أسرف في ثمنه.

---

(١) هذا المثل يضرب للموصوف بالحذر.

(٢) مثل يضرب لمن خلصه ماله من مكروه.

(٣) مثل يضرب في قناعة الرجل ببعض حاجته دون بعض.

(٤) أبو سيارة: هو رجل من بني عدوان.

(٥) الرباط: يراد بها حبالة الصائد.

(٦) عجز بيت من قصيدة لصخر بن عمرو وأخو الخنساء.

(٧) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد الضرير مولى أبي جعفر المنصور. كان ظريفاً ماجناً... (الوفيات ١: ٧١٩).

(٨) البواري: جمع بارية؛ وهي الحصير المنسوج من القصب.

(٩) قام: أي وقف.

(١٠) هو الفضل بن عبد الصمد الرقاشي، وهو شاعر أديب، وليس من الرقاشيين بل من مواليهم... (الأغاني ١٥: ٣٤).

وقال أحمد بن طاهر[(١)] يصف حماراً: [من الكامل]

شِيَةٌ كأنّ الشمسَ فيها أشرقتْ … وأضاء فيها البدرُ عند تَمَامِهِ
وكأنّه من تحت راكبه إذا … ما لاحَ بَرْقٌ لاحَ تحت غَمَامِهِ
ظَهْرٌ كجرْيِ الماءِ لِينُ ركُوبِهِ … في حالَتيْ إتعابِه وجَمَامِهِ
سَفِهَتْ يداه على الثّرَى فتلاعبتْ … في جَرْيِهِ بسُهُولِهِ وإكامِهِ
عن حافِرٍ كالصَّخْرِ إلاّ أنّه … أقوى وأصلَبُ منه في ٱستحكامِهِ
ما الخَيْزُرَانُ إذا ٱنثنتْ أعطافُه … في لِينِ مَعْطِفِهِ ولِينِ عظامِهِ
عُنُقٌ يطولُ بها فضولَ عِنَانِهِ … ومُحَزَّمٌ يَغْتالُ فضلَ حِزَامِهِ
وكأنّه بالرِّيح مُنْتَعِلٌ، وما … جَرْيُ الرياحِ كجَرْيِهِ ودَوَامِهِ
أخذ المَحَاسِنَ آمِناً من عَيْبِهِ … وحوَى الكمالَ مُبَرّأً من ذامِهِ[(٢)]

وقال آخر: [من الكامل]

لا تَنْظُرنّ هُزَال حماري … وٱنظُرْ إلى مَجْراهُ في الأَخْطارِ[(٣)]
مُتَوَقِّدٌ جعل الذكاءَ إمامَه … فكأنما هو شُعْلَةٌ من نارِ
عادتْ عليه الريحُ عند هُبُوبِها … فكأنه رِيحَ الدَّبُورِ يُبَارِي[(٤)]

هذا ما ورد في مدحها.

وأما مَا جَاءَ فيهَا علَى سبيلِ الذمِّ ـ فمن ذلك قولهم: «أَضَلُّ من حمارِ أهلِه». وقولهم: أخزَى الله الحمارَ مالاً، لا يُزَكَّى ولا يُذَكَّى. ومنه قول جَرير بن عبد الله: لا تَرَكَبْ حماراً، فإن إن كان حديداً أتعب يَدَيْك، وإن كان بليداً أتعب رِجْلَيْك.

والمثلُ مضروبٌ في الحمير المهزولة بحمار طَيّاب[(٥)]، كما يُضْرَبَ المثلُ ببغلة أبي دُلاَمة.

قال شاعر: [من الخفيف]

وحمارٍ بكتْ عليه الحَمِيرُ … دَقّ حتى به الرياحُ تَطِيرُ

---

(١) هو أحمد بن محمد بن الطاهر الأزدي المراكشي. . .
(٢) الذام: العيب والذم.
(٣) الأخطار: جمع خطر، وهو ما يتراهن عليه.
(٤) الدبور: ريح تهب من المغرب، وتقابل القبول، وهي ريح الصَّبا.
(٥) هو الشاعر طياب السقاء.

كـانَ فـيـمـا مَـضَـى يَـسِـيـرُ بـضـعـفٍ وَهُـوَ الـيـومَ واقِـفٌ لا يَـسِـيـرُ
كـيـف يـمـشـي ولـيـس شـيءٌ يـراه وهـو شـيـخٌ مـن الـحـمـيـر كـبـيـرُ
لَـمَـح الـقَـتَّ مـرّةً فَـتَـغَـنَّـى بـحَـنِـيـنٍ وفـي الـفـؤادِ زَفـيـرُ[1]
ليس لي منك يا ظلومُ نصيبٌ أنـا عـبـدُ الـهـوى وأنـت أمـيـرُ

وقال خالد الكاتب[2]: [من السريع]

وقـائـلٍ إنّ حـمـارِي غَـدَا يـمـشِـي إذا صَـوَّبَ أو أَصْـعَـدا
فـقـلـتُ لـكـنّ حـمـاري إذا أَحْـثَـثْـتُـه لا يَـلْـحَـق الـمُـقْـعَـدا
يَـسـتـعـذِبُ الـضـربَ فـإنْ زدْتُـه كـاد مـن الـلَّـذّةِ أنْ يَـرْقُـدا

وقال أبو الحُسَين الجَزّار[3]:

هـذا حِـمَـارِي فـي الـحَـمـيـر حـمـارُ فـي كـلّ خَـطْـوٍ كَـبْـوةٌ وعِـثـارُ
قـنـطـارُ تِـبْـنٍ فـي حَـشَـاه شَـعِـيـرةٌ وشَـعِـيـرةٌ فـي ظَـهْـرِه قِـنْـطَـارُ

ولمّا مات حمار هذا الشاعر داعبه شعراءُ عصره بمراثٍ وهَزْليّات؛ فقال بعضهم:

مـات حـمـارُ الأديـبِ قـلـتُ قَـضَـى وفـات مـن أمـره الـذي فـاتـا
مـات وقـد خـلّـف الأديـبَ ومَـنْ خَـلّـف مـثـلَ الأديـبِ مـا مـاتـا

ونحو هذين البيتين قولُ الآخر:

قـال حـمـارُ الـحـكـيـم تُـومَـا لـو أنـصـفـونـي لـكـنـتُ أركَـبْ
لأنـنـي جـاهـلٌ بـسـيـطٌ وصـاحـبـي جـاهـلٌ مُـرَكَّـبْ

وكتب أبو الحسن بن نَصْر الكاتب إلى صديق له آشترى حماراً، يُداعبه. قال من رسالة: «قد عرفتَ ـ أبقاك الله ـ حين وجدت من سَكْرة الأيّام إفاقة، وآنستَ من وجهها العَبُوسِ طَلاقة كيف أجبتَ داعِيَ همّتك، وأطعتَ أمرَ مُرُوءتك؛ فسُرِرْتَ بكُمُونِ هذه المَنْقَبةِ التي أضمرها الإعدام، ونَمّ على كريم سِرِّها الإمكان؛ وآستدللتُ منها على خَبَايا فَضْل، وتَنَبّهْتُ منها على مَزَايا نُبْل؛ كانت مأسورةً في قَبْضة الإعسار، وكاسِفةً

(١) القت: علف الدواب.

(٢) هو خالد بن يزيد ويكنى أبا الهيثم، من أهل بغداد، وأصله من خراسان، وكان أحد كتاب الجيش. ووسوس في آخر عمره. . . (الأغاني ٢١: ٤٥).

(٣) هو أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزار المصري، ختمت به دولة شعراء الفسطاط. كان في أول أمره قصاباً مثل أبيه وقومه، ثم اشتغل بالأدب والشعر ففاق أهل عصره. . .

عن سُدْفة[١] الأقتار؛ وقلت: أيُّ قَدَم أحقُّ بولوج الرَّكْب من قَدَمَيْهِ، وحاذٍ[٢] أولَى ببطُون القُبّ[٣] من حاذَيه؛ وأيُّ أناملَ أبهَى من أنامله إذا تَصَرَّفتْ في الأعِنَّةِ يسراها، وتحتّمتْ بالمَخَاصر يُمْناها؛ وكيف يكون ذلك الخلق العظيم، والوجهُ الوسيم، وقد بهرَ جالساً، إذا طلعَ فارساً! ثم اتّهمت آمالي بالغلوّ فيك، وٱستبعدتُ مناقضةَ الزمان بإنصاف معاليك؛ فقبضتُ ما ٱنبسط من عنانها، وأخمدتُ ما ٱشتعل من نيرانها؛ حتى وقفتُ على صحيحة الشك. أرجو عُلُوَّ همّتك بحسن ٱختيارِك، وأخشَى منافسةَ الأيّام في دَرْك أوطارِك؛ فإنها كالظّانّة في ولدها، والمجاذَبَةِ بالسُّوء في واحدها، يُدني الأملُ مَسَارَّها، ويُرجىء القَلَقُ حِذَارَها؛ حتى أتتنا الأنباءُ تَنْعَى رأيَك الفائل[٤]، وتَفُلّ عَزْمَك الآفِل، بوقوع ٱختيارك على فاضِح صاحِبه، ومُسْلِم راكِبه؛ الجامِد في حَلْبة الجِياد، والحاذِقِ بالحِران[٥] والكِياد[٦]؛ السَّوْم دينُه ودأبه، والبلادة طبيعته وشأنه؛ لا يُصلحه التأديب، ولا تُقْرَع له الظَّنَابيب[٧]؛ إن لَحظَ عَيْراً نَهَقَ، أو لَمَح أتاناً شَبِق، أو وجدَ رَوْثاً شمّ وٱنتشق؛ فكم هَشَم سِنّاً لصاحبه، وكم سَعط أنفَ راكبِه؛ وكم ٱستردّه خائفاً فلم يَرْدُدْه، وكم رامَه خاطباً فلم يُسْعِدْه؛ يعجَل إن أحبَّ الأناةَ والإبطاء، ويرسَخ[٨] إن حاول الحثَّ والنَّجاء، مطبوعٌ على الكَيْد والخلاف، موضوع للضَّعَة والاستخفاف، عزيزٌ حتى تُهِينَه السِّياط، كسولٌ ولو أبطره النَّشاط؛ ما عرَف في النّجابة أباً، ولا أفاد من الوَغْي أدَباً، الطالبُ به محصور، والهارِبُ عليه مأسور؛ والممتطِي له راجِل، والمستعلي بِذروتِه نازِل؛ له من الأخلاق أسوؤها، ومن الأسماء أشنؤها[٩]، ومن الأذهان أصدؤها، ومن القُدود أحقرُها؛ تجحَده المَرَاكِب، وتجهله المَوَاكب؛ وتعرفه ظهورُ السوابك، وتألفه سُبَاطات[١٠] المَبَارك. والله الموفّق».

---

(١) السدفة: الظلمة (في لغة تميم)؛ وفي لغة قيس: الضوء، والمعنى الأول هو المراد.
(٢) الحاذ: لحمة في ظاهر الفخذ تكون في الإنسان وغيره.
(٣) الأقب: هو الدقيق الخصر الضامر البطن من الخيل.
(٤) الرأي القائل: الرأي الضعيف.
(٥) الحران: المصدر من حرنت الدابة.
(٦) الكياد: المكر والخبث.
(٧) الظنابيب: جمع ظنبوب، وهو حرف الساق من قدم.
(٨) رسخ: ثبت في موضعه متمكناً.
(٩) أشنؤها: أبغضها.
(١٠) السباطات: واحدتها السباطة، وهي الموضع الذي يرمى فيه التراب والأوساخ وما يكنس من المنازل.

البابُ الثالثُ
منَ القُسم الثالثِ منَ الفنّ الثالثِ
في الإبلِ والبقَرِ والغنمِ

ذكرُ ما قيلَ في الإبلِ

الإبل جمع لا واحدَ لها من لفظها. والذَّكر منها جَمَل، والأنثى ناقة. والبعير يقع عليهما. ودليل ذلك قول بعض الشعراء:

لا نَشْتَهِي لَبنَ البعيرِ وعندنا عَرَقُ الزُّجاجة واكفُ المِعصارِ(١)

والإبل من منن الله الجسيمة على خلقه، ومما منحهم به من إرفاقه ورزقه. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [النحل: ٥ ـ ٧]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣].

ولنذكر ما جاء من لغة العرب في الإبل من تسميتها من حين تُولد إلى أن تتناهى سِنُّها، وأسماء ما يُرْكَب منها ويُحمل عليه، وما اختصت به النوقُ من الأسماء والصِّفات؛ ونذكر ألوان الإبل وما قالوه في ترتيب سَيْرها، وفي المَسير عليها والنزول؛ ثم نذكر بعد ذلك أصناف الإبل وما قيل في عاداتها وطبائعها. فإذا أوردنا ذلك، ذكرنا ما ملكه رسول الله ﷺ منها، وما جاء في أوصاف الإبل من الشعر؛ فنقول وبالله التوفيق.

أمّا تسميتُها من حين تُولَد إلى أن تتناهى سنُّها ـ فقد قالت العرب: ولدُها حين يُسَلّ من أُمّه «سَلِيلٌ» ثم «سَقْب»، و«حُوَار» إلى سنة، وجمعه أحْوِرة وحِيران. وهو «فصيل» إذا فُصِل عن أمّه. وهو في السنة الثانية «ابنُ مَخاضٍ» ـ لأن أمّه تَلْقَح فَتَلْحق بالمَخاض وهي الحوامل، وواحدتها من غير لفظها «خَلِفَة» ـ والأنثى «بنت مخاض». فإذا دخل في الثالثة فهو «ابنُ لَبُون»، والأنثى «بنتُ لَبُون»؛ لأنّ أمّه صارت ذاتَ لبنٍ. وهو في الرابعة «حِقٌّ»؛ لأنه استحق أن يُحمل عليه. وهو في السنة الخامسة «جَذَعٌ». وفي السادسة «ثَنِيٌّ» لأنّه يُلقي ثَنِيَّته؛ والأنثى «ثَنِيَّة»، وهو في السابعة «رَبَاعٌ». وفي

(١) عرق الزجاجة: ما نتج من الشراب وغيره مما فيها، والمراد هنا الخمر.

السنة الثامنة «سَدِيس» و«سَدَس» للذكر والأنثى. وهو في التاسعة «بازلٌ» إذا فَطَر نابه، أي طلعَ. قال الشاعر(١):

وابنُ اللَّبون إذا ما لُزّ في قَرَنٍ لم يستطع صولةَ البُزْل القَناعِيس(٢)

ثم هو بعدها بسنة «مُخْلِفُ عام»، و«بازلُ عامٍ»، ثم «مُخْلِفُ عامين»، و«بازلُ عامين»؛ ثم يُعَوِّد، أي يصير عَوْدا وهَرِماً وماجّاً(٣).

قالوا: والقَلُوص(٤) منها كالجارية من الناس، والقَعُود كالغلام، والجمع قلائصُ وقعْدانٌ. والبَكْر: الفَتِيُّ، والبِكَارةُ جمع، والأنثى بَكْرَةٌ. ويقال: جملٌ رَاشٌ وناقة راشَةٌ إذا كثُر الشّعر في آذانهما.

وأمّا أسماءُ ما يُرْكَبُ منها ويُحمل عليه ـ فقد قالوا: المطيّةُ اسمٌ جامع لكل ما يُمْتَطَى من الإبل. فإذا اختارها الرجلُ لمَرْكبه لتمامِ خِلْقتها ونجابتها فهي راحلة.

وفي الحديث النبويّ صلوات الله تعالى وسلامه على قائله: «الناسُ كإبلٍ مائةٍ لا يكاد يوجد فيها راحلة»، فإذا آستَظْهر(٥) صاحبُها بها وحَمَل عليها فهي «زاملة» ـ والناس يقولون في الرجل العاقل الثابت في أموره: رجل زاملةٌ، يريدون بذلك مدحه. ووصف ابنَ بشير رجل فقال: ليس ذلك من الرّواحل إنما هو من الزَّوَامِل ـ فإذا وجّهها مع قوم ليَمْتَاروا(٦) عليها فهي «عَلِيقةٌ».

وأمّا ما آختصّت به النوقُ من الأسماء والصّفات ـ فإنهم يقولون فيها: «كَهَاةٌ»، و«جُلاَلَةٌ» وهي العظيمة، و«عُطْمُوس» و«دِعْبِلة» وهي الحسنة الخلقة التامّة الجسم، و«كَوْمَاء» وهي الطويلة السّنام، «وَجْنَاء» وهي الشديدة القويّةُ اللحم. وآشتقاقُه من الوَجِين، وهي الحجارة: فإن آزدادت شدّتُها فهي «عِرْمِسٌ» و«عَيْرَانَةٌ». فإذا كانت شديدةَ كثيرةَ اللحم فهي «عَنْتَرِيسٌ» و«عَرَنْدَسٌ» و«مُتَلاحِكَةٌ». فإذا كانت ضخمة شديدةَ فهي «دَوْسَرَةٌ» و«عُذَافِرَةٌ»، فإذا كانت حسنةَ جميلةَ فهي «شَمَرْدَلَةٌ». فإذا كانت عظيمة الجوف فهي «مُجْفِرةٌ»، فإذا كانت قليلة اللَّحم فهي «حُرْجُوجٌ» و«حَرْفٌ» و«رَهْبٌ».

ومن أوصافها في السَّيْر ـ إذا كانت ليِّنَة اليدين في سيرها فهي «خَنُوفٌ»، فإذا كان

---

(١) هو جرير بن عطية الخطفي الشاعر الإسلامي المشهور.

(٢) لزّ: قرن وشُد ـ والقرن: الحبل يجمع بين البعيران ـ والقنعاس: الناقة العظيمة الطويلة السنمة.

(٣) الماج: الذي سال لعابه من الكبر.

(٤) القلوص: أول ما يركب من إناث الإبل إلى أن تثنى.

(٥) استظهر: استعان.

(٦) امتار: جمع الميرة.

بها هَوَجٌ من سرعتها فهي «هوجاء» و«هَوْجَلٌ». فإذا كانت تُقارِبُ الخَطْو فهي «حاتِكةٌ». فإذا كانت تَمشي وكأنها مقيّدةُ الرِّجل وهي تضرب بيديها فهي «راتِكةٌ»، فإذا كانت سريعة فهي «عَصُوفٌ» و«مُشْمَعِلّةٌ» و«عَيْهَلٌ» و«شِمْلالٌ» و«يَعْمَلَة»، و«هَمَرْجَلَة»، و«شَمْذَر» و«شِمِلّة»، و«شَمَرْدَلَةٌ». فإذا كانت تجرّ رِجليْها في المشي فهي «مِزْحافٌ» و«زَحُوفٌ»، فإذا كانت لا تقصِد في سيرها من نشاطها فهي «عَجْرَفيّة». قال الأعشى:

وفيـها إذا ما هَـجَّـرتْ عَـجـرِفـيـة إذا خِلْتَ حِرْبَاءَ الظَّهيرة أصْيَدَا[1]

وأمّا ألوانُ الإبلِ ـ فإنهم قالوا: إذا لم يُخالط حمرةَ البعير شيءٌ فهو «أحمرُ». فإن خالطَها السوادُ فهو «أرْمَكُ»، فإذا كان أسودَ يخالِط سوادَه بياضٌ كدُخانِ الرِّمْثِ[2] فهو «أوْرَقَ». فإذا اشتدّ سوادُه فهو «جَوْنٌ». فإن كان أبيضَ فهو «آدَمُ»، فإن خالطَ بياضَه حمرةٌ فهو «أَصْهَبُ». فإن خالطته شُقْرةٌ فهو «أَعْيَسُ». فإن خالطت خُضْرته صفرةٌ وسوادٌ فهو «أَحْوَى». فإذا كان أحمرَ يخالطِ حمرتَه سوادٌ فهو «أَكْلفُ».

وأمّا ترتيبُ سَيْرها ـ «فالعَنَقُ» وهو السير المُسْبَطِرّ[3]. فإذا ارتفع عنه قليلاً فهو «التَّزيّدُ». فإذا ارتفع عن ذلك فهو «الذَّمِيلُ». فإذا ارتفع فهو «الرَّسيمُ»، فإذا دَارَك المشيَ وفيه قَرْمَطَةٌ[4] فهو «الحَفْدُ»، فإذا ارتفع عن ذلك وضرب بقوائمه كلِّها فذاك «الارْتِباعُ» و«الالْتِبَاطُ». فإذا لم يَدَعْ جُهْداً فذاك «الاذْرِنْفَاقُ».

وأمّا ما قيلَ في المسيرِ عَلَيها والنزولِ للرّاحَةِ والإراحَةِ ـ فقد قالوا: إذا سار القومُ نهاراً ونزلوا ليلاً فذاك «التَّأْوِيبُ». فإذا ساروا ليلاً ونهاراً فذاك «الإِسْآدُ»، فإذا ساروا من أوّل الليل فهو «الإدْلاَجُ»، فإذا ساروا من آخر الليل فهو «الإدّلاَجُ»، فإذا ساروا مع الصبح فهو «التَّغْلِيسُ». فإذا نزلوا للاستراحة في نصف النهار فهو «التَّغْوِيرُ». فإذا نزلوا في نصف الليل فهو «التَّعْرِيسُ».

ذكرُ أَصنافِ الإبلِ وَعَادَاتِها وَمَا قيلَ في طَبَائِعِهَا

والإبلُ ثلاثةُ أصنافٍ: يَمانيٌّ، وعرابيٌّ، وبُخْتِيٌّ[5]. فاليمانيُّ هو النَّجيبُ، ويُنَزَّل

(١) هجرت: سارت في الهاجرة ـ والعجرفية: لفظ يطلق على الناقة التي لا تقصد في سيرها من نشاطها ـ والحرباء: دويبة أكبر من العظاءة شيئاً، ويتلون ألواناً بحر الشمس والأصيد: الذي لا يستطيع الالتفات.

(٢) الرمث: شجر بشبه الغضن لا يطول ولكنه ينبسط ورقه، وله هدب طوال دقاق، وله خشب وحطب، وينتفع بدخانه من الزكام.

(٣) المسبطر: السريع؛ واسبطرت: إذا أسرعت.

(٤) القرامطة: مقاربة الخطو.

(٥) البختي: واحد البخت، وهي الإبل الخراسانية.

بمنزلة العتيق من الخيل. والعِرَابِيُّ كالبِرْذونَ. والبُخْتِيُّ كالبغل. ويقال: البُخْتُ ضأنُ الإبلِ. وهي متولِّدةٌ عن فساد منيّ العِراب. وحكى الجاحظُ أنّ منهم من يزعمُ أنّ في الإبلِ ما هو وَحْشِيٌّ وأنها تسكن أرضَ وَبَارٍ[١]، وهي غير مسكونة بالناس. وقالوا: ربما نَدّ الجملُ منها في الهِياج[٢] فيحمِلُه ما يَعْرِض له منه على أن يأتي أرض عُمانَ، فَيَضْرِبَ في أدنى هَجْمةٍ[٣] من الإبل، فالإبل المَهْرِيّةُ من ذلك النِّتاج. وتُسمّى الإبلُ الوحشيّةُ «الحُوشَ»، ويقولون: إنها بقايا إبلِ عادٍ وثمود ومَنْ أهلكَه اللّٰهُ من العرب. والمَهْرِيّةُ منسوبة إلى مَهْرَة (قبيلة باليمن)، وهي سريعة العَدْو، ويعلِفونها من قَديد سمكٍ يُصاد من بحر عُمَان.

وأمّا البُخْتُ - فمنها ما يُرَهْوِكُ[٤] مثلَ البَراذِين، ومنها ما يَجْمِزُ[٥] جَمْزاً ويُرْقِلُ[٦] إرْقالاً. وفي البُخت ما له سَنامانِ في طول ظهره كالسَّرْج، ولبعضها سَنامان في العَرْض عن اليمين وعن الشمال، وتسمَّى «الخُراسانيةَ».

قالوا: والجملُ لا يَنْزو إلاّ مرّةً واحدةً يُقيم فيها النهار أجمع ويُنْزِل فيها مِراراً كثيرة، فيجيء منها ولدٌ واحدٌ. وهو يخلو في البراري حالةَ النَّزْو، ولا يدنو منه أحدٌ من الناس إلا راعِيه المُلازِم له. وذَكَرهُ صُلْبٌ جدّاً؛ لأنه من عَصَبٍ. والأنثى تحمل سنة كاملة؛ وتَلْقَح لِمُضِيّ ثلاثِ سنين، وكذلك الذكر يَنْزو في هذه المدّة، ولا ينزو عليها إلا بعد سنةٍ من يوم وضْعها. وفيه من كرم الطِّباع أنه لا ينزو على أمّهاته ولا أخواته. ومتى حُمِل على أن يَفعل حقَد على من أَلْزَمه؛ وربما قتله. وليس في الحيوان من يحقِد حِقدَه. وقد قالوا: إنّ العرب إنما اكتسبت الأحقادَ لأكلها لحوم الجمال ومداومتها.

وفي طبع الجمل الاهتِداءُ بالنَّجم، ومعرفةُ الطُّرُقِ، والغَيْرَةُ، والصولةُ، والصبرُ على الحِمْل الثقيل وعلى العطش. والإبلُ تَميل إلى شُرب المياه الكَدِرة الغليظةِ؛ وهي إذا وردت ماءَ الأنهار حرّكته بأرجُلِها حتى يتكدّر. وهي من عشّاق الشمس. وهي تتعرّف النباتَ المسمومَ بالشّمّ من مرّة واحدةٍ فتتجنّبه عند رَعْيه ولا تَغْلَط إلا في اليَبِيس[٧] خاصّةً. وزعم أرسطو: أنها تعِيش ثلاثين سنة في الغالب. وقال صاحبُ

---

(١) وبار: أرض ما بين الشحر إلى صنعاء.
(٢) يقال: هاج الفحل: إذا هدر وأراد الضراب.
(٣) الهجمة من الإبل: أولها أربعون ما زادت.
(٤) الرهوكة: مشي الذي كأنه يموج في مشيته.
(٥) يجمز: يعدو ويسرع.
(٦) يرقل: يسرع.
(٧) اليبيس: ما يبس من العشب.

كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر ينقل عن غيره: وقد رُئي منها ما عاش مائة سنةٍ. وكان للعرب عوائدُ في إبلها أنها إذا أصاب إبلَهم العرّ[١] كَوَوُا السليمَ ليذهبَ العرُّ عن السقيم. وكانوا إذا كثُرت إبلهم فبلغتِ الألف فقؤوا عين الفحل؛ فإذا زادت على الألف فقؤوا عينه الأخرى. وقد ذكرنا ذلك في أوابد العرب، وهو في الباب الثاني من الفن الثاني من هذا الكتاب في السفر الثالث من هذه النسخة. والله أعلم بالصواب.

ذكرُ مَا ملكَهُ رسُولُ اللّهِ ﷺ مِنَ الإبلِ

كانت ناقةُ رسول الله ﷺ يقال لها: «القَصْواءُ». ذكر ٱبن سعد عن محمد بن عمر قال: حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم التَّيْميّ عن أبيه قال: كانت القصواء من نَعَم بني الحَريش، ابتاعها أبو بكر رضي الله عنه وأخرى معها بثمانمائة درهم فأخذها رسول الله ﷺ بأربعمائة؛ فكانت عنده حتى نَفَقَتْ[٢]. وهي التي هاجر عليها ﷺ. وكانت حين قدِم المدينةِ رَبَاعيةً، وكان ٱسمها «القَصْواء» و«الجَدْعاء»، و«العَضْباء»، وكان في طَرَف أذُنها جَدْع[٣]، وكانت لا تُسبَق كلما دُفِعَتْ في سِباق. فلما كان في سنة ستٍّ من الهجرة سابقَ رسولُ الله ﷺ بين الرّواحل، فسبق قَعُودٌ لأعرابيّ «القَصْواءَ»، ولم تكن تُسْبَق قبلها؛ فشَقّ ذلك على المسلمين؛ فقال رسول الله ﷺ: «حقٌّ على الله ألاّ يرفعَ شيئاً من الدنيا إلاّ وضعه». وعن قُدامة بن عبد الله قال: رأيتُ رسول الله ﷺ في حِجّته يرمي على ناقةً صَهْباء. وعن سَلَمة بن نُبَيْط عن أبيه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ في حِجَّته بعرفةَ على جمل أحمرَ. وذكر أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثَّعْلبيّ في تفسيره: أنّ النبيّ ﷺ بعث يوم الحدَيْبِيَةِ خِرَاشُ بنُ أُمَيَّة الخُزَاعِيّ قَبْل عثمانَ إلى قريشٍ بمكة، وحمَله على جمل له يقال له «الثَّعْلَب»؛ ليبلِّغ أشرافَهم عنه ما جاء له؛ فعَقَروا جملَ رسول الله ﷺ وأرادوا قتلَه؛ فمنعته الأَحَابيشُ[٤]، فخَلَّوْا سبيلَه. وكان للنبيّ ﷺ عشرون لَقْحَة[٥] بالغابة (وهي على بَريد من المدينة من طريق الشام) وكان فيها أبو ذَرّ وكان فيها لقائحُ غُزْرٌ[٦]: «الحَنَّاء» و«السَّمْراءُ» و«العُرَيْسُ» و«السَّعْدِيّةُ» و«البَغُوم» و«اليُسَيْرَةُ» و«الرَّيَّا». وكان رسول الله ﷺ فرّقها على نسائه؛ فكانت «السَّمْراء» لقحةَ

(١) العر: الجرب.
(٢) نفقت: هلكت.
(٣) الجدع: القطع البائن في الأنف أو الأذن أو الشفة أو اليد.
(٤) الأحابيش: هم بنو الهون بن خزيمة وبنو الحارث بن عبد مناة وبنو المصطلق من خزاعة.
(٥) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.
(٦) الغزر: وهي الكثيرة الدر من الإبل وغيرها من ذوات اللبن.

غزيرة لعائشة؛ وكانت العُرَيْس لأمّ «سَلَمَة»؛ فأغار عليها عُيَيْنَةُ بنُ حِصْن في أربعين فارساً فاستاقوها وقتلوا ابنَ أبي ذَرٍّ، ثم ركِب رسولُ الله ﷺ وأصحابُه حتى انتهَوْا إلى ذي قَرَد[١] فاستنقذوا منها عَشراً وأَفْلت القومُ بما بقي، وقيل: بل استنقذها كلَّها منهم سَلَمَةُ بن الأكْوَع[٢] حين يقول: ما خلَق اللّهُ شيئاً من ظَهْر[٣] النبيّ ﷺ إلا خلّفتُه وراء ظهري، واستنقذتُه منهم؛ وذلك في شهر ربيع الأوّل سنة ستّ.

وكانت لِقاحه ﷺ، التي كان يرعاها يَسارٌ مولاه بذي الجَدْر ناحية قُبَاءَ قريباً من عَيْر على ستة أميال من المدينة، خمسَ عَشْرَةَ لَقْحةً غِزَاراً استاقها العُرَنِيّون[٤] وقتلوا يَساراً وقطعوا يَدَه ورِجْله وغرزُوا الشوكَ في لسانه وعينيه حتى مات. فبعث رسولُ الله ﷺ في إثْرهم كُرْزَ بن جابر الفِهْريّ في عشرين فارساً؛ فأدركوهم وربطوهم وأرْدَفوهم على الخيل حتى قدِموا بهم المدينةَ، فقُطِّعت أيديهم وأرجلهم وسُمِلَت أعينُهم وصُلِبوا. وفيهم نَزل: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية؛ وذلك في شوّال سنةَ ستّ. وفقَد النبيُّ ﷺ منها لِقْحةً تُدْعى «الحَنّاء»؛ فسأل عنها فقيل: نحروها.

وقيل: كانت لرسول الله ﷺ سبع لقائحَ تكون بذي الجَدْر؛ وتكون بالجَمّاءِ[٥]: لِقْحةً تدعى «مُهْرَة» وكان غزيرةً، أرسل بها سعدُ بن عُبادَةَ من نَعَم بني عُقَيل، ولِقْحة تدعى «بُرْدَة» تُحلَب كما تُحلَب لِقْحتان غزيرتان، أهداها له الضحّاك بن سُفْيان الكِلابيّ، «والشَّقْراء»، و«الرَّيّا» و«السَّمْراء» و«العُرَيْس» و«اليُسَيرة» و«الحَنّاء» يُحْلَبن ويُراح إليه بلبنهنّ كلَّ ليلة.

وفي غَزَاة بدر غَنِم رسول الله ﷺ جَمَلَ أبي جَهْل وكان مَهْرِيّاً يغزو عليه ويضرب في لِقاحه. ذكره الطبريّ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ أهدى عام الحُدَيْبية في هداياه جملاً[٦] لأبي جهل في رأسه بُرَةٌ[٧] من فضّة؛ ليغيظَ بذلك المشركين. ذكره ابن إسحاق.

---

(١) ذو قرد: ماء على ليلتين من المدينة، بينها وبين خيبر.
(٢) هو سلمة بن عمرو، والأكوع لقب جده واسمه سنان.
(٣) الظهر: الإبل والغنم.
(٤) العرنيون: قوم ارتدوا، ينسبون إلى عرنية، قبيلة من العرب في بجيلة.
(٥) الجماء: اسم لمواضع كثيرة بجوار المدينة.
(٦) الهدايا: يراد بها ما يقدم إلى البيت الحرام من النعم لتنحر.
(٧) البرة: حلقة تكون في أنف البعير.

وقيل: كانت للنبي ﷺ لِقْحة اسمها «مَرْوَة».

وقال ٱبن الكلبيّ: إن عِيَاض بن حَمّاد أهدى لرسول الله ﷺ نَجيبة، وكان صديقاً له إذا قدِم عليه مكةَ لا يطوف إلا في ثيابه، فقال: له: «أسْلَمْتَ»؟ قال: لا؛ قال: «إن الله نهاني عن زَبْد[1] المشركين». فأسلم؛ فقبِلها.

ذكرُ شيءٍ ممّا وُصِفَتْ بِهِ الإبلُ نَظْماً ونثْراً

قال بعض من عظّم شأنَ الإبل: إن الله تعالى لم يخلق نَعَماً خيراً من الإبل؛ إن حَملت أَثْقَلَتْ، وإن سارت أَبْعَدَتْ، وإن حُلِبت أَرْوَتْ، وإن نُحِرَتْ أشبعتْ. وقال بَشَامَةُ[2] يصف ناقةً:

كـأن يـديـهـا إذا أرْقَـلَـتْ ... وقد حزنَ ثم ٱهتَدَيْنَ السَّبيلا[3]
يَـدا سـابـح خَـرّ فـي غَـمْـرةٍ ... وقـد شـارَف الـموت إلا قـلـيـلا
إذا أقـبـلـتْ قـلـتَ مـشـحـونـةٌ ... أطـاعـت لـهـا الـرِّيحُ قِـلْعـاً جَفُولا
وإنْ أدْبَـرتْ قـلـتَ مـذعـورةٌ ... مـن الـرُّبْـد تَـتْـبَـعُ هَـيْـقـاً ذَمُـولا[4]

وقال أبو تَمّام:

وبـدّلـهـا الـسُّرَى بـالـجـهـلِ حِـلْـمـاً ... وقَـدّ أديـمَـهـا قـدَّ الأديـم
بـدَتْ كـالـبـدر فـي لـيـلٍ بـهـيـمٍ ... وآبَـتْ مـثـلَ عُـرجُـونٍ قـديـم[5]

وقال الخَطِيمُ الخَزرَجِيُّ:

وقـد ضَـمُـرتْ حـتـى كـأن وَضِـيـنَـهـا ... وِشاحُ عَروسٍ جالَ منها على خَصْرِ[6]

وقال ٱبن دُرَيْد:

خُـوصٌ كـأشـبـاح الـحَـنَـايَـا ضُـمَّـرٌ ... يَرْعُفْنَ بالأَمْشَاجِ من جَذْبِ البُرَى[7]

---

(١) الزبد: أي الرفد والعطاء.
(٢) هو بشامة بن القدير.
(٣) ارقل في سيره: أسرع.
(٤) الربد: النعام ـ والهيق: الظليم، وهو ذكر النعام ـ والذمول: السريع.
(٥) العرجون: أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ.
(٦) الوضين: بطان عريض منسوج من شعر، وهو بمنزلة الحزام للسرج.
(٧) الخوصاء: التي غارت عيناها ـ والحنايا: جمع حنية، وهي القوس ـ ويرعفن: أي ينبعث الدم من الأنف ـ والأمشاج: ما يسيل من أنوفها من المخاط المتغير اللون ـ والبرى: جمع برة، وهي حلقة تكون في أنف البعير.

يَرْسُبْن في بحر الدُّجَى، وفي الضُّحَى يَطْفونَ في الآلِ إذا الآلُ طفا[١]

وقال عبد الجبّار بن حَمْدِيس[٢]: [من المتقارب]

ومِن سُفُنِ البَرّ سَبّاحةٌ من الآل بحراً إذا ما اعترضْ
لها شِرّةٌ لا تُبالي بها أطالَ بها سَبْسَبٌ أم عَرُضْ[٣]
إذا خفَق البُرْدُ بي خِلْتَني على كُورِها طائراً يَنْتفِضْ
وإن يَعْرِضِ البعضُ من سَيرها تَرى العِيسَ من خلفها تَنْقَرِضْ
هي القوسُ إنّي لَسَهْمٌ لها أُصِيبُ بكل فلاة غَرَضْ

وقال الشريف البَياضِيّ[٤]: [من مجزوء الكامل]

نُوقٌ تَراها كالسَّفِيـ ـن إذا رأيتَ الآلَ بَحْرا
كَتَبَ الوَجَا بدمائها في مُهْرق البَيْداء سَطْرا[٥]
لا تَستَكِينُ من اللُّغو ب إذاً ولا يَعْرِفْنَ زَجْرا[٦]
وكأن أرْجُلَهن تطـ ـلب عند أيديهنّ وِتْرا

وقال أبو عُبَادة البُحْتريّ: [من الخفيف]

وخَدَانَ القِلَاصِ حُولاً إذا قا بَلْنَ حُولاً من أَنْجُم الأسْحارِ[٧]
يَتَرَقْرَقْنَ كالسَّراب وقد خُضْـ ـن غِماراً من السَّراب الجَارِي
كالقِسِيّ المُعَطَّفَات بل الأسْـ ـهُم مَبْرِيَّةً بل الأوتارِ

وقال ذو الرُّمَّة[٨] يصف ناقةً:

---

(١) الآل: السراب.
(٢) هو عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الأزدي الصقلي، السرقوسي، (أبو محمد). . كانت وفاته سنة ٥٣٧ هجرية. (معجم المؤلفين ٥ : ٧٩).
(٣) السبسب: القفر والمفازة.
(٤) هو مسعود بن عبد العزيز بن المحسن الهاشمي، العباسي (أبو جعفر) شاعر. توفي في بغداد سنة ٤٦٨ هجرية. . . من آثاره ديوان شعر صغير. (معجم المؤلفين ١٢ : ٢٢٧).
(٥) الوجا: هو أن يشتكي البعير باطن خفه ـ والمهرق: الصحيفة البيضاء يكتب فيها.
(٦) اللغوب: الضعيف الأحمق.
(٧) وخد البغير: أسرع ووسع الخطو.
(٨) هو غيلان بن عقبة بن بهيش ويكنى أبا الحارث وهو من بني صعب بن ملكان بن عدي بن عبد مناة. . . (الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٦٥).

رَجيعةُ أسفارٍ كأن زِمامَها ... شُجاعٌ على يُسرى الذّراعين مُطْرِقُ[(١)]

ومنه أخذ المتنبي فقال:

* كأنّ على الأعناق منها الأفاعِيَا *

وقال أبو نُوَاس يصفها بالسرعة:

وتَجَشَّمتْ بي هولَ كل تَّنُوفَةٍ ... هوجاءُ فيها جُرْأَةٌ إقْدامُ[(٢)]

تَذَرُ المَطِيِّ وراءَها وكأنها ... صفٌّ تَقَدَّمُهُنَّ وهي إمامُ

وقال الفرزدقُ منشداً:

تَنفي يَدَاها الحَصَى في كلّ هاجرة ... نَفْيَ الدَّرَاهيم تَنْقَادُ الصَّيَارِيفِ[(٣)]

وقال آخر:

تطيرُ مَنَاسِمُها بالحَصَى ... كما نَقَدَ الدرهمَ الصَّيْرَفُ

وقال الغَطَمَّشُ[(٤)]:

كأن يَدَيْهَا حين جَدّ نَجاؤها ... يَدا سابح في غَمرة يَتَبوّعُ[(٥)]

وقال آخر في نُوقٍ:

خُوضٌ نَواجٍ إذا حثّ الحُداةُ بها ... حَسِبتَ أرْجُلَها قُدَّامَ أيدِيها

وقال القَطاميُّ[(٦)]:

يَمْشِين رَهْواً فلا الأعجازُ خاذلةٌ ... ولا الصدورُ على الأعجاز تَتَّكِلُ[(٧)]

فهنّ مُعْتَرِضَاتٌ والحصى رَمِضٌ ... والرّيحُ ساكِنةٌ والظّلّ مُعْتَدِلُ[(٨)]

وقال أبو نُوَاس:

ولقد تَجوب بيَ الفلاةَ إذا ... صام النهارُ وقالَتِ العُفْرُ[(٩)]

---

(١) رجيعة أسفار: معاودة أسفار.
(٢) التنوفة: الأرض القفر، وقيل: البعيدة الماء.
(٣) الصياريف: الصيارفة، وقد جيء بهذا الجمع للضرورة الشعرية.
(٤) هو الغطمش بن عمرو بن عطية من بني شقرة بن كعب بن ثعلبة بن سعد بن ضبة.
(٥) يتبوّع: يمد باعه.
(٦) هو عمير بن شييم من بني تغلب وكان حسن التشبيب رقيقه.
(٧) الرهو: السير السهل المستقيم.
(٨) الاعتراض: الأرن والنشاط ـ والرمض: حر الحجارة من شدة حر الشمس.
(٩) صام النهار: اعتدل وقام قائم الظهيرة، وقالت: سكنت ـ والعفر من الظباء: ما يعلو بياضها حمرة.

شَـدَنِـيّـةٌ رَعَـتِ الـحِـمـى فـأتَـتْ ... مـثـلَ الـجـبـال كـأنـهـا قـصـرُ[١]

وقال الأحمر:

حمراءُ من نَسل المهاريَ نَسْلُها ... إذا تـرامَـت يَـدُهـا ورجـلُـهـا

حسبتَها غَيْرَى آستُفِزّ عقلُها ... أتى الـتي كـانـت تـخـاف بـعـلُـهـا

ذكرُ ما قيلَ في البَقَرِ الأَهْليّةِ

عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «بينا رجل يسوق بقرةً إذ ركِبها فضربَها فقالت: إنّا لم نخلق لهذا إنما خُلِقْنا للحرث»؛ فقال الناس: سبحان الله بقرةٌ تَكَلَّم! قال: «فإني أومِن بهذا أنا وأبو بكر وعمر»، وما هما ثَمّ[٢].

وقال أصحابُ الكلام في طبائع الحيوان: إنّ الفحل من البقر ينزو إذا تمّت له سنةٌ من عمره، وقد ينزو لعشرة أشهرٍ. والبقرة إذا ولَدت تَحَدَّر لبنُها من يومها، ولا يوجد لها لبنٌ قبل أن تضع. وهي تحمل تسعةَ أشهر وتَضَعُ في العاشر؛ فإن وضعت قبل ذلك لا يعيش ولدها. وربما وضعت آثنين، وهو نادر. وهم يتشاءمون بها إذا وضعت آثنين. وإذا مات ولدها أو ذُبح لا يَسكُن خُوارُها ولا يدرّ لبنُها؛ ولذلك الرِّعاءُ يسلخون جلدَ ولَدِها ويحشونه لتدِرّ له وتسكُنَ، ويسمونه «البَوّ». والبقرُ يحبّ الماء الصافيَ، بضدّ الخيل والجمال. وقال المسعوديّ في كتابه المترجم بمروج الذهب: رأيت بالرَّيّ نوعاً من البقر تَبْرُك كما تبرُك الإبلُ وتحمل فتثور بحملها، والغالب عليها حمرةُ الحَدَقِ. وحكى أُسَامةُ بن مُنْقِذ[٣] في كتابه أن في بعض البلدان بقراً لها أعرافٌ كالخيل. ولعلّها الأبقار التي توجد فيها البَراجِم. والبَراجم في أطراف أذنابها وفي أكتافها. ويقال: إنّ أبقار البراجم تخرج من بحر الصّين وهي تَلد وتُرْضِع؛ ولذلك يقال البراجم البحريّة. وبأرض مصر بناحيتي دمْياط وتِنّيس[٤] بقر تُسمى بقر الخَيس، ضخامٌ حسانُ الصُّوَر والشِّيات، ولها قرون كالأَهِلّة، وفيها نفورٌ وتوحّشٌ، لا ينتفع بها في العمل وإنما يُنتفع بألبانها. وهي لا تُعْلَف الحَبَّ، ومأواها حيث يكون العُشْبُ والماءُ الدائمُ؛ ولها أسماء يدعونها بها إذا أرادوا حَلْبها، فتتقدّم إليهم.

وقد وصف الشعراءُ البقرَ في أشعارها؛ فمن ذلك قولُ أحمد بن عَلّوية

---

(١) الشدنية: نوق تنسب إلى شدن، وشدن: موضع باليمن.

(٢) المراد بقوله: وما هما ثَمّ، أي: أنهما لم يكونا حاضرين هناك.

(٣) هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، كان من مشهوري الكتاب والشعراء.. وكان وفاته سنة ٥٨٤ هجرية في دمشق.

(٤) تنيس: جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط.. (معجم البلدان).

الأَصْبَهانِيّ[١]: [من المنسرح]

يـا حـبَّـذا مَـحْـضُـهـا ورائِـبُـهـا وحبّذا في الرّجال صاحِبُـها[٢]
عـجَّـوْلـةٌ سَـمْـحـةٌ مـبـارَكـةٌ مـيـمـونـةٌ طُـفَّـحٌ مـحـالِـبُـهـا[٣]
تُـقـبِـل لـلـحَـلْـب كـلـمـا دُعِـيَـتْ ورامَـهـا لـلـحِـلاب حـالِـبُـهـا
فـتـيّـةٌ سِـنُّـهـا، مـهـذَّبـةٌ مُـعَـنَّـفٌ فـي الـنَّـدِي عـائِـبُـهـا
كـأنـهـا لُـعْـبَـةٌ مُـزَيَّـنـةٌ يَـطِـيـر عُـجْـباً بـهـا مُـلاعِـبُـهـا
كـأنّ ألـبـانَـهـا جَـنَـى عَـسَـلٍ يَـلَـذُّهـا فـي الإنـاء شـارِبُـهـا
عَـرُوس بـاقُـورةٍ إذا بَـرَزَتْ مـن بـيـن أحـبـالـهـا تـرائِـبُـهـا[٤]
كـأنـهـا هَـضْـبَـةٌ إذا انْـتـسـبـت أو بَـكْـرةٌ قـد أنـاف غـارِبُـهـا[٥]
تُـزْهَـى بـرَوْقَـيْـن كـالـلُّـجَـيْـن إذا مـسَّـهـمـا بـالـبـنـان طـالِـبُـهـا
لـو أنـهـا مُـهـرَةٌ لـمـا عَـدِمـت مـن أن يَـضُـمّ الـسـرورَ راكِـبُـهـا

وأنشدني شمس الدين بن دانيال[٦] لنفسه: [من المجتث]

لـلَّـهِ عِـجْـلـةُ خَـيْـسٍ صـفـراءُ ذاتُ دِلال
تُـريـك عَـيْـنَـي مَـهـاةٍ مـن تـحـت قَـرْنَـيْ غـزال
قـد سُـرْبِـلَـتْ بـأصـيـلٍ وتُـوِّجـت بـهـلال

وقال شاعر يصف صوت الحَلْب: [من الرجز]

كـأنّ صـوت شَـخْـبِـها الـمُـرْفَـضِّ كَـشِيـشُ أَفْعَى أَجْـمَـعـتْ لـعَـضِّ[٧]
* وهـي تَـحُـكُّ بـعـضَـهـا بـبـعـض *

وقال:

كـأنّ صـوت شَـخْـبِـهـا غُـدَيَّـه هـفـيـفُ ريـح أو كَـشـيـشُ حـيّـه

(١) كان من شعراء أصبهان في القرن الثالث للهجرة، وكان يقول الشعر الجيد.
(٢) المحض: اللبن الخالص بلا رغوة.
(٣) العجولة: أنثى العجول، وهو ولد البقرة.
(٤) الباقورة: جماعة البقر.
(٥) أناف: ارتفع وأشرف.
(٦) هو محمد بن دانيال بن يوسف الموصلي (شمس الدين، أبو عبد الله)، حكيم، كحال، أديب، شاعر ولد بالموصل وأقام بالقاهرة. كانت وفاته سنة ٧١٠ هجرية. (معجم المؤلفين ٩: ٢٩٥).
(٧) الشخب: ما يخرج من الضرع من اللبن إذا احتلب ـ واللشيش: صوت جلد الأفعى.

ذكر ما قيل في الجاموس

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ:

والجواميسُ هي ضأنُ البقرِ. والجاموسُ أجزعُ الحيوان من البعوض وأشدُّها هَرباً منه إلى الماء؛ وهو يمشي إلى الأسد رَخِيَّ البال، رابطَ الجأش، ثابتَ الجنَان. وقد حُكي عن المعتصم بالله العباسيّ أنه أبرز للأسد جاموستيْن فَغَلَبتاه، ثم أبرز له جاموسةً ومعها ولدُها فغَلَبتْه وحَمتْ ولدَها، ثم أبرز له جاموساً مفرداً فواثبه ثم أدبر عنه. هذا على ما في الأسد من القوّة في فمه وكَفِّه والجرأةِ العظيمة والوَثْبة وشدّة البطش والصبرِ والحُضْرِ والطَّلَب والهَرَب؛ وليس ذلك في الجاموس، ولا يَستطيل بغير قرنه، وليس في قرنه حِدّةُ قرنِ بقرِ الوحش؛ فإذا قوِي الجاموسُ مع ذلك حتى يقاوم الأسدَ دَلّ على قوّة عظيمة. ولذلك قدَّم الجاحظُ الجاموسَ على الأسد، وعلَّل تقديمَه عليه بهذه العِلّة. وليس ما حُكِي عن المعتصم في أمر الجاموس وغَلَبته للأسد بعجيب؛ فإنّ الجواميس بالأَغْوَار تُقاتِلُ الأسدَ وتُمانِعه وتَدْفَعُه فلا يقدِر على قهرها. وأصحابُ الجواميس هناك منهم مَنْ يُغلِّف قُرونَها بالنُّحاس ويحُدِّدون أطرافَه، يقصدون بذلك إعانتَه على حرب الأسد وقتالِه.

والجاموسُ عندنا بالديار المصرية يقاتل التِّمساحَ الذي هو أسد البَحر ويتمكّن منه ويَقْهَره في الماء؛ فهو قد جمع بين قِتال أسد البَرّ وأسد البحر. وله قُدرةٌ عظيمة على طول المُكث في قعر البحر. والتماسيحُ لا تَكاد تأوِي مواردَ الجواميس من بحر النيل وتَتجنّبُ أماكنَها.

والجواميسُ في أرض الشأم من الأغوار والسواحل والأماكن الحارّة الكثيرة المياهُ يُنْتَفع بها في الحرث والحُمُولة وجَرِّ العَجَل وحَلْب ألبانها. وأمّا في الدّيار المصرية فلا يستعملونها ألبَتّةَ ولا يَنتفعون بها إلا بما يَتَحَصَّل من ألبانها ونتاجها.

وفُحولُ الجواميس يكون بينها قتالٌ شديدٌ ومحاربةٌ، فأيُّما فحلٍ غُلب وقَهَره خَصْمُه، لا يأوِي ذلك المُراحَ، بل ينفرد بنفسه في الجزائر الكثيرة العُشْب شهوراً وهو يأكل من تلك الأعشاب ويشرب من ماء النيل، وينفرد خصمُه بالإناث؛ فإذا علم الهاربُ من نفسه القوّةَ والجَلَدَ، رجع إلى المُراح وقد توحّش وأستطال، ويكون خَصمُه قد ضَعُفَتْ قواه فلا يقوم بمحاربته؛ ولكنه لا يُوَلّي عنه إلا بعد محاربته، فإذا قَهَره ترك الآخرُ المُراحَ وتوجّه إلى جزيرة وفعَل كما فعل الأوّلُ وعاد إلى خَصْمه.

ولبنُ الجاموس من أَلَذّ الألبان وأَدْسَمِها. والرِّعاءُ يُسمُّون كلَّ جاموسة بأسم تعرفه إذا دُعيت به إلى الحَلْب، فتُجِيب وتأتيه وتقِف حتى يَحْلُبَها.

ذكرُ ما قيلَ في الغَنَم الضَّأْنِ والمَعزْ

رُوِيَ عن أَنَس بن مالك وعَطَاء رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ قال: «الغَنَمُ بَرَكَةٌ موضوعةٌ». وعن أبي سعيدِ الخُدْرِيّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوشِك أن يكون خيرُ مالِ المُسلم غنماً يتبع بها شَعَفَ[(١)] الجِبال ومواقِعَ القَطْر يَفرّ بدينه من الفِتَن». وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «رأسُ الكفر نحو المشرقِ والفخرُ والخُيَلاءُ في أهل الخيلِ والإبلِ والفَدَّادِين[(٢)] أهل الوبر والسكينةُ في أهل الغَنَم».

ومن فضل الغنم ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أَنّ النبيّ ﷺ قال: «ما بعث اللّهُ نبيّاً إلا وَرَعَى الغَنَم». فقال له أصحابه: وأنت يا رسول اللّهِ؟ قال: «نعم كنت أرْعاها على قَرَارِيطَ لأهل مكة». وكان لرسول الله ﷺ من الغنم مائةُ شاةٍ لا يريد أن تزيدَ كلّما وَلّد الراعي بهمةً ذبح مكانها شاةً. وقال ابن الأثير في تاريخه: وكان له شاةٌ تُسمى «غَوْثَة»، وقيل: «غَيْثَة»، وعنزٌ تسمى «اليَمَن». وذكر بعض المتأخِّرين من أهل الحديث أنّ مكحولاً سُئل عن جِلد المَيْتة، فقال: كانت لرسول الله ﷺ شاة تسمى «قَمَرَ»؛ ففقَدَها فقال: «ما فعلتْ قمرُ»؟ فقالوا: ماتت يا رسول الله؛ قال: «ما فعلتم بإهابها»[(٣)]؟ قالوا: مَيْتة؛ قال: «دِباغُها طُهُورُها».

قال الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدِّمياطي رحمه الله تعالى في كتاب فضل الخيل: وكانت منائح رسول الله ﷺ من الغنم سَبْعاً: «عَجْرَة» و«زَمْزَم» و«سُقْيا» و«بَرَكَة» و«وَرْشَة» و«أَطْلال» و«أطراف». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت لرسول الله ﷺ سبعُ أَعْنُز مَنائح ترعاهُنّ أُمُّ أَيمن. قال: والمَنِيحةُ: الناقةُ والشاةُ تُعطيها غيرَك فيحْلُبها ثم يردّها عليك. قال أبو عُبَيدٍ: للعرب أربعةُ أسماء تَضَعُها مواضعَ العاريةِ، وهي: المَنيحةُ، والعَرِيَّةُ، والإفقارُ[(٤)]، والإخْبَال[(٥)].

ذِكرُ ترتيبِ سِنّ الغَنَمُ

ولَدُ الشاةِ حين تَضَعُه ذكراً كان أو أنثى «سَخْلَةٌ» و«بَهْمَةٌ». فإذا فُصِل عن أمّه فهو

---

(١) شعف الجبال: رؤوسها.

(٢) الفدادون: أصحاب الوبر لغلظ أصواتهم وجفائهم؛ وأصحاب الوبر: هم أهل البادية.

(٣) الإهاب: الجلد المغلف لجسم الحيوان قبل أن يدبغ.

(٤) الإفقار: هو أن يعير الرجل بعيره غيره للحمل أو للركوب حتى إذا ما انتهى منه رده.

(٥) الإخبال: أن تعطي الرجل البعير أو الناقة ليركبها ويجتز وبرها ثم يردها.

«حَمَلٌ» و«خَرُوفٌ». فإذا أكل وٱجْتَرّ فهو «بَذَجٌ» و«فُرْفُورٌ». فإذا بلغ النَّزْوَ فهو «عُمْروسٌ»، وكلّ أولاد الضأن والمعز في السنة الثانية «جَذَعٌ»؛ وفي الثالثة «ثَنِيٌّ»؛ وفي الرابعة «رَبَاع»؛ وفي الخامسة «سَدِيسٌ»؛ وفي السادسة «سالِغٌ». وليس له بعد هذا ٱسم. ويقال لولد المعز: «جَفْر» ثم «عَرِيضٌ» و«عَتُود» و«عَنَاقٌ»، والغنم، الضأن والمَعز، تضع حملَها في خمسة أشهر. وتِلِد النعجةُ رأساً إلى ثلاثة، والعنز من الرأس إلى أربعة. وينزو الذكرُ بعد مضيّ ستة شهور من ميلاده. وتحمل الأنثى بعد مضيّ خمسة أشهر من يومِ وُلِدَت. ويُجَزّ صوف الضأن عنها في كل سنة. ولحومُ الضأن من أطيب اللُّحمانِ؛ وكذلك ألبانُها. وقد أطنب الجاحظُ في المفاخرة بين الضأن والمعز وأطال وأتى بالغثّ والسّمين.

وكتب أبو الخَطّاب الصابِي إلى الحسين بن صَبْرة جواباً عن رقعة أرسلها إليه في وصف حَمَلٍ أهداه إليه، جاء منها:

«وصلَتْ رقعتُك؛ ففضضتُها عن خَطٍّ مشرق، ولفظٍ مُؤنق؛ وعبارة مُصِيبة، ومعانٍ غريبة، وٱتّساع في البلاغة يَعجِزُ عنه عبد الحميد في كتابته، وسَحْبانُ في خَطابته. وذكرتَ فيها حَمَلا، جعلَته بصفتك جَمَلا؛ وكان كالمُعَيْدِي أسمع به ولا أراه. وحضر، فرأيتُ كبشاً مُتَقادِمَ المِيلاد، من نِتاج قوم عاد؛ قد أفنَتْه الدهور، وتعاقبت عليه العصور؛ فظننتُه أحَدَ الزوجينِ اللذين حملهما نوح في سفينته، وحِفظ بهما جنسَ الغنم لذريته. صَغُرَ عن الكبر، ولَطُف في القدر، فبانَت دَمامتُه، وتقاصرتْ قامتُه؛ وعاد نحيفاً ضئيلاً، بالياً هزيلاً؛ بادِيَ السَّقام، عارِيَ العِظام؛ جامعاً للمعايب، مُشتمِلاً على المثالب، يَعجَبُ العاقلُ من حلول الروح فيه، لأنه عظم مُجَلّد، وصوفٌ مُلَبّد، لا تَجد فوق عظامه سَلَبا[1]، ولا تَلْقَى اليدُ منه إلا خَشَبا؛ لو أُلْقِيَ للسَّبُع لأباه، أو طُرِح للذئب لعافه وقَلاه؛ وقد طال للكلأ فَقْدُه، وبَعدُ بالمرعى عَهْدُه؛ لم يَرَ القَتّ[2] إلا نائماً، ولا الشعيرَ إلا حالماً. وقد خيّرتني بين أن أقْتَنِيَه فيكون فيه غِنَى الدهر، أو أذبحَه فيكون فيه خِصْب الشَّهرِ؛ فمِلْتُ إلى ٱستبقائه؛ لِمَا تعلَمه من محبّتي في التوفير، ورغبتي في التَّثمِير؛ وجَمْعِي للولد، وادِّخاري لغَد؛ فلم أجد فيه مُسْتَمْتَعاً للبقاء، ولا مَدْفَعاً للفناء؛ لأنه ليس بأنثى فَيَحْمِل، ولا بِفَتِيٍّ فيَنْسُل، ولا بصحيح فيَرْعَى، ولا بسليم فيَبْقى، فملتُ إلى الثاني من رأيك، وعملت بالآخر من قوليك؛ وقلتُ: أذبحه فيكون وظيفة للعيال، وأُقيمه رَطْباً مُقَامَ قديدِ الغزال؛ فأنشدني وقد أضرمت النار وحُدِّدتِ الشِّفار، وشمَّر الجزّار:

---

(١) السلب: ما على الرجل من اللباس، ويراد به هنا اللحم لأنه يكسو العظم ويستره.

(٢) القت: نبات رطب تعلفه الدواب.

أعِيذُها نظراتٍ منك صادقةً   أن تَحْسَبَ الشَّحمَ فيمن شحمُه وَرَمُ

وما الفائدة لك في ذبحي! وإنما أنا كما قيل:

لم يَبْقَ إلاّ نَفَسٌ خافِتُ   ومُقلةٌ إنسانُها باهِتُ[(١)]

ليس لي لحم يَصلح للأكل، فإنّ الدهرَ أكلَ لحمي؛ ولا جلْدٌ يصلحُ للدَّبْغ، فإن الأيام مزّقَتْ أديمي، ولا صوفٌ يصلُح للغَزْل، فإن الحوادثَ حَصَّت[(٢)] وبَري. وإن أردتني للوَقُود فكَفُّ بَعَر أذفأ من ناري، ولم تَفِ حرارةُ جَمْري برائحة قُتَاري[(٣)] ولم يَبْق إلاّ أنّ تُطالبني بذَحْل[(٤)] أو بيني وبينك دَم. فوجدْته صادقاً في مقالته، ناصحاً في مشورته. ولم أعلم من أيِّ أموره أعْجَب: أمِن مُماطَلَته الدّهرَ على البقاء، أم من صبره على الضُّر والبلاء، أم مِن قُدْرتِك عليه مع عَوَزِ مثله، أم من أتحافك الصديقَ به على خَسَاسة قَدْره. ويا ليت شعري إذا كنتَ واليَ سوق الأغنام، وأمْرُك ينفُذُ في المَعَز والضأن؛ وكلُّ حَمَلٍ سمِين، وكَبْش بطين؛ مجلوبٌ إليك، وموقوفٌ عليك، تقول فيه فلا تُرَدّ، وتُريد فلا تُصَدّ؛ وكانت هديّتُك هذا الذي كأنه انْشر من القبور، أو أُقيم عند النَّفخ في الصُّور؛ فما كنتَ مُهْدِياً لو أنك رجل من عُرْض الكُتّاب، كأبي عليّ وأبي الخطّاب! ما تُهدي إلاّ كلباً أجرب، أو قرداً أحْدَب.

وقال شاعرٌ في هذا المعنى: [من الخفيف]

ليت شِعْري عن الخروفِ الهَزيلِ   ألَكَ الذَّنْبُ فيه أم للوَكِيلِ

لم أجِدْ فيه غيرَ جِلْدٍ وعَظْمٍ   وذُنَيْبٍ له دَقِيقٍ طويلِ

ما أراني أراه يَصلُحُ إذ أصـ   ـبَح رَسْماً على رسوم الطُّلولِ

لا لِشَيٍّ ولا لِطَبْخ ولا بيـ   ـع ولا بِرِّ صاحب وخليل

أعجفٌ لو مُطَفِّلٌ نال منه   لغدا تائباً عن التَّطْفِيلِ[(٥)]

وقال شرفُ الدّين بن عَيْن وقد أهدى له بعضُ أصدقائه خروفاً بعد ما مَطَلَه به: [من الطويل]

أتاني خروفٌ ما شككت أنّه   حليفُ جَوًى قد شَفَّه الهجرُ والمَطْلُ

---

(١) إنسان العين: ناظرها.

(٢) حصت وبري: حلقته وأذهبته.

(٣) القتار: الدخان من المطبوخ.

(٤) الذحل: الثأر.

(٥) الأعجف: المهزول ـ والتطفيل: التطفّل.

إذا قام في شمس الظهيرةِ خلتَه خيالاً سَرَى في ظُلْمَةٍ ما له ظلُّ
فَناشدته: ما تَشتهي؟ قال: قَتَّةً وقاسمتُه: ما شفُّه؟ قال لي: الأَكْلُ[1]
فأحضرتُها خَضْراء مَجّاجَةَ الثرى مُنَعَّمةً ما خَصّ أطرافَها فَتْلُ
وظَلّ يُراعيها بعينٍ ضعيفةٍ ويُنْشدها والدّمعُ في الخَدّ مُنْهَلُّ
«أتَت وحِياضُ الموت بيني وبينها وجادت بوصلٍ حين لا ينفع الوصلُ»

وقال الحمْدونيّ في المِعْزَى: [من البسيط]

أبا سعيدٍ لنا في شَاتِك العِبَر جاءت وما إن بها بَوْلٌ ولا بَعَرُ
وكيف تَبْعَرُ شاةٌ عندكم مَكَثتْ طَعامُها الأبيضان: الشمسُ والقمرُ
لو أنّها أبصرتْ في نومها عَلَفاً غنّت له ودموعُ العين تَنْحدِرُ
«يا مانعي لذّةَ الدنيا بما رَحُبَتْ إني ليُقْنِعُني من وجهك النظرُ»

وقال أيضاً:

ما أُرَى إنْ ذبحتُ شاةَ سعيدٍ حاصِلاً في يَدَيّ غيرُ الإهاب
ليس إلاّ عظامها، لو تَراها قلتَ هذي أرَازِنٌ في جِراب[2]

وقال فيها: [من مجزوء الخفيف]

لِسَعيدٍ شُوَيْهَةٌ سَلّها الضُّرُ والعَجَفْ
قد تغنّتْ وأبصرتْ رجلاً حامِلاً عَلَفْ
بأبي مَنْ بكفّه بُرْءُ دائي من الدَّنَفْ[3]
فأتاها مُطَمِّعاً فأتَتْهُ لتَعْتَلِفْ
فتولّى وأقبلتْ تَتَغَنّى من الأَسَفْ
ليته لم يكن وقَفْ عذّبَ القلبَ وانصرفْ

---

(١) قاسمته: أحلفته.
(٢) الأرزان: شجر صلب تتخذ منه عصي صلبة.
(٣) الدنف: المريض الذي لزمه المرض الشديد.

القسمُ الرابعُ

منَ الفَنِّ الثَالِثِ
في ذواتِ السّمُومِ

وفِيه بابانِ

البَابُ الأوّلُ

من هذا القسم في ذوات السموم القَوَاتل. ويَشتمل هذا البابُ على ما قيل في الحيّات والعقارِبِ.

ذكرُ مَا قيلَ في الحَيّاتِ

الحيّاتُ مختلفاتُ الجهاتِ جِدّاً. وهي من الأمم التي يكثُر ٱختلافُ أجناسها في الصُورِ والشِّيَم، والصِّغَرِ والعظَم، وفي التعرّض للناس وفي الهرب منهم. فمنها ما لا يُؤذي إلا أن تَطَأَهَا. ومنها ما يؤذي إذا وُطِئَتْ في حِماها. ومنها ما لا يؤذي في تلك الحال إلا أن تكون على بَيْضها أو فراخِها. ومنها ما لا يؤذي إلاّ أن يكون الناسُ قد آذَوْها مرّة. فأمّا «الأسودُ» فإنه يَحقِدُ ويُطالِب ويَكمُن في المتاع حتى يُدركَ؛ وله زمانٌ يقتلُ فيه كلَّ شيء نَهَشه. وأما «الأفعى» فليس ذلك عندها، ولكنها تظهر في الصيف مع أوائل الليل إذا سكنَ وَهَجُ الرَّمل أو ظاهرُ الأرض، فتأتي قارعةَ الطريق حتى تَستديرَ كالرَّحى[1] وتُشْخِصَ رأسَها؛ فمَنْ وَطِيء عليها أو مسَّها نَهَشَتْه. وهي من الحيّات التي تَرصُد؛ وهي تقتُل في كل زمان وعلى كل حال. و«الشُجاع» يُواثِب ويقوم على ذَنَبه. والحيّاتُ أصنافٌ كثيرة سنذكر ما أمكن ذكره منها إن شاء الله.

والعرب تضرب المثلَ في الظلم بالحيّة فيقولون: «أَظْلَمُ من حَيَّةٍ»، لأنها لا تتخذ لنفسها بيتاً، وكل بيت قَصدتْ نحوَه هرب أهلهُ منه وأخلَوْه لها.

(١) الرحى: الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب.

والحيّةُ مشقوقةُ اللسان، ولسانُها أسودُ، وزعم بعض المفسرين لكتاب الله عز وجل أن الله تعالى عاقَب الحيّة، حين أدخلتْ إبليسَ في فمها حتى خاطب آدمَ وحواءَ وخدعهما، بعشرة أشياء: منها شَقُّ لسانها؛ فلذلك تَرى الحيَّةَ إذا ضُرِبَتْ لِتُقْتَلَ كيف تُخرِج لسانَها لتُرِيَ الضاربَ لها عقوبةَ الله تعالى، كأنها تَستَرحِمُ. ويقال: إن من خصائص الحَيّة أنّ عينها إذا قُلِعَتْ عادت، وكذلك نابُها إذا قُلِعَ أو قُطِع بالكاز[1] عاد بعد ثلاث ليالٍ؛ وكذلك ذنَبُها إذا قُطع عاد. وفي طباعها أنها تهرب من الرجل العُرْيان، وتَفرَح بالنار وتطلبُها وتُعجَب بها، وباللبن والبطيخ واللُّفَّاح[2] والخَرْدل. وهي لا تَضْبِط نفسَها عن الشَراب إذا شمّته، وإذا وجدَتْهُ شربت منه حتى تسكَرَ؛ فربما كان السُّكر سببَ حتفها؛ لأنها إذا سَكِرتْ خَدِرتْ، وتَكرهُ ريحَ السَّذَاب[3] ولا تملِكُ نفسَها معه، وربما اصْطِيدَتْ به؛ وتَكرهُ ريحَ الشِّيح[4]. والحيّةُ تُذبَح حتى تُفْرَى أوداجُها فتبقى أياماً لا تموت. ومتى ضُربت بالقَصَب الفارسيّ ماتت، وإن ضُرِبت بسوط قد مسّه عَرَقُ الخيل ماتت. ويقال: إنها لا تموت حَتْفَ أنفها إلا أن تُقْتَل.

ومن أعجب ما شاهدتُه أنا من الأفاعي أنها قطِّعت بحضوري بالبِيمَارِستان[5] المنصوري بالقاهرة المُعِزِّيّة في شهور سنة ستٍّ وسبعمائةٍ بسبب عمل الدِّرْياق[6] الفَاروق وقُطِع من رأسها وذنبها ما جرتِ العادةُ بقطعه، وسُلِختْ وشُقَّ بطنُها ونُظِّفَتْ وهي تختلج، ثم سُلِقَتْ وجُرّد لحمُها عن العظم، فنظرتُ إليه فإذا هو يختلج، فعَجِبتُ لذلك؛ وذكرته لرئيس الأطبّاء عَلَم الدِّين المعروف[7] بابن أبي حُلَيْقَة وهو حاضر في المجلس، فقال: ليس هذا بأعجبَ مما تراه الآن، وقال لي: استَدْعِ أقراص الأفاعي التي عُمِلت من أكثرَ من سنة؛ فاستدعيتُها، فأحضرها الخازنُ وهي في العسل وقد دُقّ

---

(١) الكاز: المغص (فارسي معرب).

(٢) اللفاح: خو المعروف في مصر بالشمام.

(٣) السذاب: وهو نوعان: بري وبستاني، فالبستاني يفرع فروعاً تطلع من ساق له قصيرة تتشعب عليه مثل الأغصان ويحمل أطراف أغصانه رؤوساً تتفتح عن ورد صغار الورق أصفر، وإذا انتشر سقط منه الحب، وأما البري فهو أصغر ورقاً.

(٤) الشيح: أنواعه كثيرة، أهمها النوع الأصفر وهو يحكي السذاب في ورقه وهو الأرمني وأحمر عريض الورق وهو التركي وكل طيب الرائحة إلى ثقل وحدة، لا يختص وجوده بزمن. . . (تذكرة داود الأنطاكي ص ٢٢٠).

(٥) البيمارسان: المستشفى.

(٦) الدرياق: أي الترياق.

(٧) هو علم الدين إبراهيم بن الرشيد بن أبي الوحش المعروف بابن أبي حليفة. . . كان بارعاً في الطب محفوظاً عند الملوك والأمراء. . كانت وفاته سنة ٧٠٨ هجرية.

لحم الأفاعي بعد سَلْقه وعُجِنَ بالسَّمِيذ وجُعل أقراصاً ووُضع في العسل من أكثر من سنة؛ فقال لي: تأمّل الأقراصَ، فتأملتُها فإذا هي تضطرب ٱضطراباً خفيفاً.

وقال الجاحظ: وزعم صاحب المَنْطِق أنّ الحيّات تَنسلخ عن جلودها في كل عام في أوّل الربيع أو الخريف؛ وتبتدىء بالسَّلْخ من عيونها ويتمّ سَلْخُها في يوم وليلة، ويصير داخلُ الجلد هو الخارج. وإذا هَرِمت وعَجَزت عن السلخ وٱرتخَى جسمُها أدجلت جسمَها بين عودين أو في صَدْعٍ ضيقٍ حتى تنسلخ، ثم تأتي إلى عين ماء فتنغمس فيها فيشتدّ لحمُها ويعود إلى قوّته وشدّته.

قال الجاحظ: وليس في الأرض مثل جسم الحيّة إلا والحيّة أقوى بدناً منه أضعافاً. ومن قوّتها أنها إذا أدخلتْ صدرَها في جُحْر أو صَدْع لم يستطع أقوى الناسِ وقد قبض على ذَنَبها بكلتا يديه أن يخرجها، لشدّة ٱعتمادِها وتعاون أجزائها؛ وربما ٱنقطعت في يد الجاذب لها. فإذا أراد أن يُخرجها أرسلها بعضَ إرسالٍ ثم يجذِبها كالمُخْتَطِف لها. قال: ومن أصناف الحيّات ما هو أزْعَر[1]، وما هو أزَبّ (ذو شعر) ومنها ذواتُ قرون. ومنها ما يسمى الأسود وهو ما إذا كان مع الأفاعي في جُونةٍ[2] وجاع ٱبتلَعها من قِبَل رؤوسها، ومتى رام ذلك من غير جِهة الرأس عضّته فقتلته. ومن أصنافها ما يسمى «الأَصَلَة»، وهو ثعبان عظيم جداً، وله وجه كوجه الإنسان؛ ويقال: إنه يصير كذلك إذا مرّت عليه ألوف من السنين. وهو يقتل بالنظر وبالنفخ. ومنهم من يسمِّي هذا النوعَ الصِّلّ، ويقول: إنّ أصل خِلْقته على هذه الصفة. قال: وفي البادية حيّة يقال لها «الحُفّاث» تأكل الفأرَ وأشباهَه. وهي عظيمةٌ، ولها وعيدٌ مُنْكَر ونفخٌ وإظهار للصولة، وليس وراء ذلك شيء؛ والجاهل ربما مات من الفزع منها.

قالوا: والثعبان والأفعى فإنه يقتل بما يُحدثه من الفزع؛ لأن الرجل إذا فَزِع تفتّحت مَسَامُه ومنافِسُه، فيتوغّل السمُّ في موضع الصميم[3] وأعماق البدن. فإن نهشَت النائمَ والمُغْمَى عليه والمجنونَ والطفلَ الصغير لم تقتله ألبتّة. وزعم صاحبُ المنطق أنّ بالحبشة حيّاتٍ لها أجنحةٌ. وأخبرني المولى شرفُ الدين أحمد بن البَزْدِيّ قال: كنت بمدينة الرَّمْلة[4] في شهور سنة ٱثنتين وسبعمائة صحبةَ الصاحب شرف الدين بن الخليل ومعه القاضي الحاكم وجماعةٌ كثيرة من الناس وفيهم عَدَوْلَى[5] وغيرهم؛ فنظرنا نحو

---

(١) الأزعر: الذي ساء خلقه وقلّ خيره.
(٢) الجونة: سليلة مستديرة مغشاة أدماً.
(٣) الصميم: العظم الذي به قوام العضو.
(٤) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين.
(٥) العدوليّ: الملاح.

السماء فإذا نحن بحيّتين عظيمتين طائرتين في الهواء قاصدتين صوبَ البحر، كلّ منهما في غَلِظ الثنيانة[١]، وإن إحداهما مستقيمة في طيرانها والأخرى تَتَعوّج من قِبَل رأسها ووسَطِها وذَنَبها، وكانتا من الأرض بحيث لا يبلغهما السهم، قال: فسطّرنا بذلك محضراً على عدّة نسخ.

وحكى بعضُ المؤرّخين: أنه وُجِد في خزائن المستنصر بالله[٢] العُبَيْدي أحدِ خلفاء مصر بَيْضَةٌ محلاّةٌ بالذّهب ظنّوا أنها بيضةُ نعامة، فجعل الناس يتعجّبون من تَخليتها بالذّهب؛ فذكروا ذلك للمُستكفي، فقال: إنها بيضةُ حيّة كان بعض الملوك أهداها لجَدّي القائم بأمر الله.

ومن كتاب نَسْوار المحاضرة قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن الورّاق قال: حدّثني عمي أبو الحسين: أن الحُصَيْنيّ حدّثه عن أبي العبّاس بن الفُرات قال: حدّثني أبي قال: قال لي جعفر الخَيّاط[٣]: أمرني المأمون ونحن بالروم أن أقْتَصّ[٤] الطريقَ لئلا يكون به جواسيس للعدوّ؛ فأخذتُ معي جماعةً من أصحابي فُرساناً ورَجّالةً وسلكتُ الطريقَ، فعَنّ لي شِعْب فقصدتُه لئلا يكون فيه كمينٌ من الجواسيس، وتقدّمني الرَّجالة فرأيتهم قد وقفوا؛ فأسرعت إليهم وسألتُهم عن خبرهم، فقالوا: انظر، فنظرتُ فإذا رجلٌ من الرجّالة قد قعد لقضاء حاجته، ومشى أصحابُه، فقصدتْه حيّةٌ من وراء ظهره فابتلعته من رجليه إلى صدره وهو يستغيث ويصيح، فلم يكن لنا فيه حيلةٌ وخفتُ أن آمُرَ الرجَالةَ برمي الحيّة بالنُّشّاب فيصيب الرجلَ فأكون أنا قتلتُه. فبسَط الرجلُ يديه وانتهى بَلْعُ الحيّة إلى إبْطَيْه، فرأيتُها وقد انضمّت على ما ابتلعته منه ضمّةً سمعنا تكسيرَ عظامه في جوفها، فمات وسقطت يداه فابتلعته حينئذٍ بأسْرِه. فقلت: الآن أَقْصِدوها بالنُّشّاب؛ فرشقْناها جميعاً فأثْبَتْناها في موضعها حتى قتلناها، فأمرتُ بشَق بطنها لأُعايِنَ جسمَ الرّجل، فلم نجد في بطنها من جِلْد ولا عَظْمٍ ولا غيرهما إلا شيئاً كالخيط الأسود، فإذا هي قد أحرقته في لحظةٍ واحدةٍ.

ويقال: إن بجزائر الصين حياتٍ تبتلع الإبلَ والبقرَ وشبهها.

قال الجاحظ: حدّثني أبو جعفر المكفوف النحويّ العَنْبريّ وأخوه رَوْح الكاتب

---

(١) الثنياية: يراد بها عقال البعير ونحوه من كل حبل مثنى.

(٢) هو أبو تميم معدّ بن الظاهر لإعزاز دين الله. . . كانت وفاته سنة ٤٨٧ هجرية بعد أن بويع له بالخلافة وأقام فيها ستين سنة وأشهراً. . . (الوفيات ٢: ١٥١).

(٣) هو جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط، كان من كبار القواد في عصر المأمون وابنه المعتصم. . وكان مع الأفشين في حرب بابك الخرمي وأبلى معه بلاء حسناً.

(٤) الاقتصاص: تتبع الأثر.

ورجالٌ من بَني العنبر: أنّ عندهم في رمال بَلْعَنْبَر[١] حيّةً تصيد العصافيرَ وصغارَ الطير بأعجب حيلةٍ؛ وزعموا أنها إذا ٱنتصفَ النهارُ وٱشتدّ الحرُّ في رمال بَلْعَنْبَر وٱمتنعت الأرضُ على الحافي والمُنْتَعِل، غمست هذه الحيّةُ ذَنَبها في الأرض ثم ٱنتصبت كأنها عُودٌ مركوزٌ، أو عود نابت، فَيَجيء الطائرُ الصغيرُ والجرادةُ، فإذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرّمل لشدّة حرّه وقع على رأس الحيّة على أنها عود، فإذا وقع على رأسها قَبَضَتْ عليه. فإذا كان جرادةً أو جُعَلاً[٢] أو بعضَ ما لا يُشبعها ٱبتلعته وبقيتْ على ٱنتصابها؛ وإن كان طائراً يُشبِعُها أكلتْه وٱنصرفتْ؛ وإن ذلك دأبُها ما منع الرملُ جانبَه في الصيف والقيظ.

قال: وزعم لي رجالٌ من الصَّقَالبة خِصْيانٌ وفحولٌ أنّ الحيّةَ في بلادهم تأتي البقرة المُحَفَّلة[٣] فتَنْطوي على فَخِذَيها وركبتيها إلى عَراقِيبها ثم تُشخِصُ صدرَها نحو أخلافِ ضَرْعها حتى تلتقمَ الخِلْفَ، فلا تستطيع البقرةُ مع قوّتها أن تترمرمَ[٤]؛ فلا تزال الحيّةُ تَمُصّ اللبَن، وكلما مصّت ٱسترخَتْ؛ فإذا كادت تَتْلَف أرساتها. وزعموا أنّ تلك البقرةَ إمّا أن تَتْلَف، وإما أن يُصيبها داءٌ في ضرعها وفسادٌ شديد يعسُر دواؤه.

وهذا الباب طويل؛ وقد أوردنا منه ما فيه غُنْيَةٌ. فلنذكر ما قيل في أصناف الحيّات وأوصافها.

ذِكرُ أسماء الحيّات وأوصافها ـ يقال: «الجانّ» و«الشيطان» هي الحيّة الخبيثة. و«الحَنَش»: ما يصاد من الحيّات. و«الحَيُوتُ»: الذكر منها. و«الحُفّاثُ» و«الحِضْبُ»: الضخم منها. و«الأسود»: العظيم وفيه سواد؛ ويقال: الأسود هو الداهية؛ وله خُصْيتان كخُصْيتي الجَدْي، وشعر أسود وعُرفٌ طويل، وصُنانٌ كصُنَانِ[٥] التَّيْس، و«الشُّجاعُ»: أسود أملسُ يضرِب إلى البياض، خبيث؛ ويقال: إنه دقيق لطيف. و«الأُعَيْرِج»: حيّةٌ صَمَّاءُ لا تَقْبَلُ الرُّقَى وتَطْفِر كما تَطفِر الأفعى. ويقال: الأُعَيْرِجُ: حيّةٌ أُرَيْقِط[٦] نحوٌ من ذراع، وهو أخبثُ من الأسود. وقال ٱبن الأعرابيّ: الأعيرجُ أخبثُ الحيّات، يقفِز على الفارس حتى يصيرَ معه في سَرْجه. وقال الليث عن الخليل:

---

(١) بلعنبر: ويقال لهم بنو العنبر، وهم من تميم من العدنانية.
(٢) الجعل: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية.
(٣) المحفلة: المثلثة الضرع التي تركت أياماً من غير حلب ليتجمع لبنها.
(٤) ترمرم: تتحرك.
(٥) الصنان: النتن، أو الريح الكريهة.
(٦) الأريقط: تصغير الأرقط، وهو ما كان لونه الرقطة من الحيوان، والرقطة: لون مؤلف من بياض وسواد، أو من حمرة وصفرة وغيرهما.

الأفعى التي لا تنفع معها رُقْيَةٌ ولا دِرْياقٌ، وهي دقيقة العنق عريضة الرأس. وقال غيره: هي التي إذا مشت مُنْثَنِيةً جَرَشَتْ[١] بعضَ أسنانها ببعض. وقال غيره: هي التي لها رأس عريضٌ ولها قَرْنَانِ. و«الأُفْعُوانُ»: الذكر من الأفاعي. و«العِرْبَدُّ» و«العِسْوَدُّ» حية تَنْفُخ ولا تُؤذي. و«الأَرْقَم»: الذي فيه سواد وبياض، و«الأرقش»، نحوه. و«ذو الطُّفْيَتَيْن»: الذي له خَطَّان أسودان. و«الأَبْتَرُ»: القصير الذنب. و«الخَشْخَاشُ»: الحية الخفيفة. و«الثعبان»: العظيم منها، وكذلك «الأَيْم» و«الأَيْنُ»، و«ٱبن قِتْرة»: حيَّة شبيهة بالقضيب من الفضّة في قَدْر الشِّبْر والفِتْرِ، وهي أخبثُ الحيّات، فإذا قَرُبَ من الإنسان تَراءَى في الهواء فوقَع عليه من أعلاه. و«ٱبنُ طَبَق»: حيَّةٌ صفراءُ، ومن طبعها أن تَنام ستةَ أيام ثم تنتبه في اليوم السابع. ولا تَنْفُخُ شيئاً إلا أهلكته قبل أن يتحرّك. وربما مرّ بها الرجلُ وهي نائمة فيأخذها كأنها سِوار من ذهب، فإن ٱستيقظت وهي في كفِّه خرّ ميتاً. ومن أمثال العرب «أصابته إحدى بنات طَبَق». قال الليث: «السِّفُّ»: الحيّةُ التي تطير في الهواء، وأنشد:

وحتى لَوَ أنَّ السِّفَّ ذا الريشِ عَضَّني لما ضرَّني من فِيه نابٌ ولا ثَغْرُ[٢]

و«النَّضْنَاضُ»: الذي لا يسكن في مكان.

ومن أسمائها «القُزَة»، و«الهِلال» و«الرَّعَاصَةُ».

ذكرُ مَا في لحُومِ الحيّاتِ مِنَ المَنافِعِ وَالأَدْوِيَةِ

قال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا: والحيّة يُستعمَل مطبوخُها بالماء والملح والشِّبْث[٣]، وقد يُزاد عليها الزَّيْت. قال: وأجودُ لحمه لحمُ الأُنثى؛ وأجودُ سِلْخِه سلخُ[٤] الذَّكر. وطبع الحيّة إلى التجفيف في لحمها قويّ؛ وأما التسخين فليس بشديد؛ وسِلْخُه شديد التجفيف أيضاً. وخاصيّةُ لحمه أنه يُنفِذ الفضولَ إلى الجِلْد، سيّما إذا كان الإنسانُ غيرَ نَقِيّ، قال: ولحمه إذا ٱستُعْمِل أطال العمرَ، وقوّى القوّة، وحفظ الحواس والشباب - أمّا قولُه: «أطال العمر» فيَرُدّ هذا القولَ ما ورد في الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فرغ ربُّك من أربَع خَلْقٍ وخُلُقٍ ورزقٍ وأجلٍ». وأما ما عدا ذلك فغيرُ مردودٍ عليه -. قال وأكلُه ينفع من الجُذَام نفعاً عظيماً، وإذا ٱستُعمل على داء الثعلب[٥] نفع نفعاً عظيماً. ولحمها ومرقُها بعد إسقاط طرفها

---

(١) جرجش الشيء: حكّه. (٢) الثغر: السم.

(٣) الشبث: نوع من العناكب يسميه العامة أبو شبث.

(٤) السلخ: الجلد.

(٥) داء الثعلب: علة معروفة يتناثر منها الشعر. وسمي داء الثعلب لأن الثعلب يتساقط شعره كل سنة.. (تذكرة دواد الأنطاكي).

يمنع تزيُّدَ الخنازير[١]، وكذلك سِلخها. ومرقتها إذا تُحُسِّيت وأُكِل لحمها نفع من أوجاع العصب، وكذلك سِلخها. قال: وسِلخُها إذا طُبخ في شراب وقُطِّر منه في الأُذُن سكَن وجعُها؛ ويُتَمَضْمَضُ بخلٍّ طُبخ فيه السِّلْخ لوجَع السِّن. قال: وزعم جالِينوس أنه إذا أُخِذت خيوط كثيرة، وخصوصاً المصبوغة بالأُرْجُوان، وخُنِقَ بها أفعى ولُفَّ واحدٌ منها على عنق صاحب أورام اللَّهاة والحَلْق ظهر نفعٌ عجيبٌ، ومرقتُه ولحمُه يقوِّيان البصرَ. قال: واتفقوا على أنّ شحم الأفعى يمنع نزول الماء إلى العين، ولكنّ الإنسان لا يجسُر على ذلك. وإذا شُقّت الحيّةُ ووُضِعت على نهش الأفاعي سكَن الوجعُ.

ذكرُ شَيء مِمَّا وُصِفَتْ بِهِ الأَفَاعِي

قال بعضُ الشعراء يصِف حيَّةً: [من البسيط]

لا يَنْبُتُ العُشْبُ في وادٍ تكون به ... ولا يُجاوِرُها وَحْشٌ ولا شَجَرُ
جَرْدَاءُ شابِكةُ الأنياب ذابِلَةٌ ... ينبو من اليُبْس عن يافُوخِها الحجَرُ[٢]
لو شُرِّحَتْ بالمُدَى ما مَسَّها بَلَلٌ ... ولو تَكنّفها الحاوُون ما قَدَروا[٣]
قد جاهدوها فما قام الرُّقاةُ لها ... وخاتَلوها فما نالوا ولا ظَفِروا[٤]
يكبو لها الوَرَل العادي إذا نَفَخَتْ ... جُبْناً ويهربُ منها الحيّة الذَّكر[٥]

وقال خَلَفٌ الأحمر[٦]:

وكأنّما لَبِسَتْ بأعلَى جِسْمِها ... بُرْداً من الأثواب أَنْهَجَه البِلى[٧]
في عينها قَبَلٌ وفي خَيْشُومِها ... فَطَسٌ وفي أنيابها مثلُ المُدَى[٨]

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

أرْقَمُ كالدِّرع فيه وَشْمٌ ... مُنَمْنَمُ الظَّهْرِ واللَّبانِ[٩]

---

(١) الخنازير: قروح صلبة تحدث في الرقبة وأكثر ما تصيب الخنازير.
(٢) اليافوخ: الموضع الذي يتحرك من رأس الطفل.
(٣) الحاوون: جمع الحاوي، وهو الذي يرقي الحيات ويجمعها.
(٤) الرقاة: جمع الرقي، وهو الذي يرقي الحيات.
(٥) الورل: دابة على خلقة الضب إلا أنه أعظم منه.
(٦) هو خلف بن حيان أبو محرز وكان عالماً بالغريب والنحو والنسب والأخبار، كثير الشعر جيده ولم يكن في نظرائه من أهل العلم أكثر شعراً منه. . . . (الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٠٨).
(٧) أنهجه: أخلقه وأبلاه.
(٨) القبل في العين: إقبال السواد على الأنف؛ وقيل: هو إقبال إحدى الحدقتين على الأخرى.
(٩) اللبان: الصدر.

يَـزْحَـفُ كـالـسَّـيْـلِ مـن تِـلاعِ   كـأن عـيـنـيـه كـوكـبـانِ
يَـهـشِـم مـا مـسَّ مـن نَـبَـاتِ   ويَـجـذِبُ الـنـفـسَ بـالـعِـنـانِ

وقال ٱبن المعتزّ:

أَنْعَتُ رَقْشَاءَ لا تَحْيا لَدِيغتُها   لو قَدّها السيفُ لم يَعْلَقْ به بَلَلُ
تُلْقِي إذا ٱنسلختْ في الأرض جلدتَها   كـأنـهـا كُـمُّ دِرْعٍ قـدّه بـطـلُ

وقال الظاهر البصريّ[1] شاعر اليتيمة: [من الرجز]

سِرْتُ وصَحْبي وسط قاعٍ صَفْصَفِ   إذ أَشْرَفَتْ من فوق طَوْدٍ مُشْرِفِ
رَقْشَاءُ تَـرْنـو مـن قَـلِـيـبٍ أجْـوفِ   تُومي برأس مثلِ رأسِ المِجْرَفِ[2]
وذَنَـبٍ مُـنْـدَمِـجٍ مُـعَـقَّـفِ   حتى إذا أبصرتُها لا تَنْكَفِي[3]
علوتُها بحدّ سيفٍ مُرْهَفِ   فظلّ يَجري دَمُها كالقَرْقِفِ[4]
* أتـلـفـتُـهـا لـمـا أرادتْ تَـلَـفـي *

وقال خَلَفٌ الأَحْمر:

لـه عُـنُـقٌ مـخـضـرّةٌ مـدّ ظـهـرِه   وُشُومٌ كتحبير اليَماني المُرَقَّمِ[5]
إلى هامةٍ مثلِ الرَّحَى مستديرةٍ   بـهـا نُـقَـطٌ سُـودٌ وعـيـنـانِ كـالـدَّمِ

وقال آخر:

وَحَـنَـشٍ كَـحَـلْـقَـةِ الـسِّـوارِ   غـايـتُـه شِـبْـرٌ مـن الأَشْـبـارِ
كـأنـه قـضـيـبُ مـاءٍ جـارِي   يَـفْـتَـرّ عـن مِـثْـلِ تَـلَـظِّـي الـنَّـارِ

وقال خلف الأحمر:

صَلٌّ صَفاً لا تَنْطَوي من القِصَرْ   طويلةُ الأطْرافِ من غير خَسَرْ
داهيةٌ قد صَغُرَتْ من الكِبَرْ   مَهْروتَةُ الشِّدْقَيْن حولاءُ النَّظَرْ[6]
* تَـفْـتَـرّ عـن عُـوجٍ حِـدادٍ كـالإبَـرْ *

---

(١) هو الظاهر البصري المكنى بأبي الحسين كما في يتيمة الدهر للثعالبي، ص ٣٦٩.
(٢) ترنو: تديم النظر في سكون طرف.
(٣) لا تنكفي: لا ترجع.
(٤) القرقف: الخمر.
(٥) رقم الكتاب: كتبه.
(٦) مهروتة الشدقين: التي اتسع شدقاها.

وقال أبو هلال العسكري: [من الكامل]

وخفيفة الحركات تَفْتَرِعُ الرُّبَى كالبرق يلمَعُ في الغمام الرّائِح
منقُوطةٌ تَحكي صدورَ صحائفِ إبّانَ تبدو من بطون صفائِح
تَرضى من الدنيا بَظلّ صُخَيرةٍ ومن المعيشة بٱشتمامِ روائِح

وقال ٱبن المعتز:

كأنني ساورَتْنِي يوم بَيْنهمُ رقشاءُ مجدولةٌ في لونها برقُ
كأنها حين تبدو من مكامنها غصن تفتح فيه النَّوْرُ والورق
ينسلّ منها لسان تستغيثُ به كما تعوّذ بالسبّابة الفَرِقُ(١)

وقال الهذليّ(٢) في مَزَاحِف الحَيّات:

كأنّ مزاحفَ الحيّاتِ وَهْناً قُبيلَ الصبح آثارُ السِّياط(٣)

وقال آخرُ:

كأنّ مزاحِفَه أَنْسُعٌ جُررنَ فُرَادَى ومنها ثُنَى(٤)

ذكرُ مَا قيلَ في العَقَارِبِ

قال الجاحظ: والعقاربُ أصنافٌ: منها الجرّارة، والطيَّارةُ، وما له ذَنبٌ كالحربة، وما له ذنب معقَّفٌ، وفيها السُّودُ، والخُضر، والصُّفْر. وهي من ذوات الذَّرْو(٥). ويقال: إنّ الأنثى من هذا النوع إذا حَملتْ يكون حتفُها في ولادتها؛ لأن أولادَها إذا ٱستوى خَلْقُها أكلَتْ بطونَ الأُمّهات حتى تَنقُبَها، وتكون الولادة من ذلك النَّقب، فتخرجُ والأمهاتُ ميتةٌ. وفي ذلك يقول الشاعرُ:

وحامِلةٍ لا تحمِل الدّهرَ حملَها تموت ويحيا حمْلها حين تَعطَبُ

وقال أيضاً: إنها تَلِدُ من فيها مرّتين، وتحمل أولادَها على ظهرها وهي في قَدْرِ

(١) الفرق: الفزع، وقد يراد بها المصلي الخاشع.
(٢) هو المتنخل، واسمه مالك بن عويمر بن عثمان بن سويد بن حنيس بن ضباعة بن غادية بن صعصعة بن كعب بن طابخة بن لحيان بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر. وقد ورد هذا البيت في الصفحة ١٢٧٣ من شرح أشعار الهذليين لأبي سعيد السكري م ٣.
(٣) الوهن: جزء من الليل.
(٤) الأنسع: جمع نسع، وهو سير مضفور يجعل زماماً للبعير وغيره.
(٥) الذرو: أي الذرية، أو هي بعدد الذرية.

القمل كثيرة العدد. قال: والعقرب شرُّ ما تكون إذا كانت حبلى؛ ولها ثمانُ أرجلٍ لها أظلافٌ مثل أظلافِ الثور، وعيناها في ظهرها، ومن عجيب أمرها أنها لا تضرِبُ الميتَ ولا المغشِيَّ عليه ولا النائمَ، إلا أن يَتحركَ شيء من بدنه؛ فإنها عند ذلك تَضربه؛ وضربُها له إنما هو من خوفها منه. وهي تأوِي إلى الخنافس وتُسالِمِها، وتُصادِق من الحيّات كلَّ أسودَ سالخ. وربما لسَعتِ الأفعى فتموت. وفيها ما يلسع بعضُه بعضاً فيموتُ الملسوعُ. ويقالُ: إنها تُستَخرجُ من بيوتها بالجراد؛ لأنها تحرِص على أكله. ومتى أُدخِلَ الكُرّاثُ[١] في جُحْرها وأخرج تبَعته وما معها من نوعها. وهي إذا خرجت من جُحرها تضرِب كلَّ ما لقِيَته من حيوانٍ أو نباتٍ أو جمادٍ.

وقيل لبعض الأطبّاء: إنّ فلاناً يقول: إنما أنا مثلُ العقربِ أضرُّ ولا أنفعُ؛ فقال: ما أقلّ علمه بها إنها تنفع إذا شُقَّ بطنُها ووُضِعَتْ على مكان اللَّسعة. وقد تُجعَلُ في جوفِ فَخّارٍ مسدودِ الرأسِ مطيَّنِ الجوانب، ثم توضع الفَخّارة في تَنُّورٍ، فإذا صارت العقربُ رماداً سُقي من ذلك الرمَادِ من به حصاةٌ نصفَ دانِقٍ[٢] فَتُفَتِّتُها من غير أن تَضُرَّ شيئاً من الأعضاء. وقد تلسَعُ مَنْ به حُمَّى عتيقةٌ فتُقلِعُ عنه. وقد تلسع المفلوجَ فيذهبُ عنه الفالجُ. وقد تُلقَى العقربُ في الدُّهْنِ وتترك فيه حتى يأخذَ منها ويَجتَذِبَ قُواها، فيكون ذلك الدُّهن مُصَرِّفاً للأورام الغليظة. وقال الشيخ الرئيس: زَيتُ العقارب نافعٌ من أوجاع الأذن. فهذه منافعها.

وقال الجاحظ: ومن أعاجيب العقرب أنها لا تسبَحُ ولا تتحرّكُ إذا أُلقيت في الماء، كان الماء جارياً أو ساكناً. قال: وهي تطلُب الإنسان وتَقصِده؛ فإذا قصدها فرّتْ منه. وهي إذا ضربتِ الإنسانَ هَربتْ هَرَبَ مَنْ قد أساء. قال: ومن أعاجيب ما في العقرب أنا وجدنا عقارب القاطول[٣] يموت بعضُها من لَسْع بعضٍ، ثم لا يموتُ عن لسعتها شيء غير العقارب، ونجدُ العقربَ تلسعُ إنساناً فيموتُ وتَلسعُ آخرَ فتموتُ هي؛ فدلّ ذلك على أنها كما تعطِي تأخُذ. ويقال: إن الذي تموت هي إذا لَسعَتْه تكون أُمّه قد لُسِعَتْ وهي حامِلٌ به. قال: ومن أعاجيبها أنها تَضربُ الطَّسْتَ والقُمْقُمَ النّحاسَ فتَخرقُه، وربما ضربتْه فثبتَتْ إبرتُها فيه. قال: والعقاربُ القاتلةُ تكون في موضعين: بشَهْرَزُور[٤] من

---

(١) الكراث: عشب معمر من الفصيلة الزنبقية، ذو بصلة أرضية، تخرج منها أوراق مفلطحة ليست جوفاء، وفي وسطها شمراخ يحمل أزهاراً كثيرة، وله رائحة قوية.

(٢) الدانق: سدس الدرهم.

(٣) القاطول: اسم نهر كأنه مقطوع من دجلة.

(٤) شهرزور: هي كورة واسعة في الجبال بين إربل همذان أحدثها زور بن الضحاك (معجم البلدان لياقوت).

بلاد الجبل، وعَسْكَرِ مُكْرَم[١] من بلاد الأهواز، وهي جرَّاراتٌ؛ وإذا لَسَعَت قتلَت؛ روبما تناثر لحمُ من لسعته أو تعفّن ويسترخي حتى لا يدنو منه أحدٌ إلا وهو يُمسِكُ أنفه مخافة إعدائه. وهي في غاية الصغر؛ فإن أكبرَ ما يُوجد منها تكون زِنته دانِقاً واحداً؛ والذي يوجد منها كبيراً تكون زِنته ثلاثَ حبّاتِ أرزٍ؛ فإن وُزِنَت بشعيرةٍ رَجَحَت الشعيرةُ عنها. وهي مع نزارتها تقتل الفيلَ والبعيرَ بلسعتها. قال: وبِنَصِيبِينَ[٢] عقاربُ قتّالةٌ يقال: إن أصلَها من شَهْرَزُورَ، وإن بعضَ الملوك حاصر نَصِيبِينَ فأتى بالعقارب من شهرزور ورمى بها في كيزانٍ بالمجانيق إلى البلد، فأعطى القومُ بأيديهم[٣].

وقد وصف الشعراء العقرب وشبّهوها في أشعارهم، فمِن ذلك قولُ السَّرِيّ الرفَّاء[٤]:

سـاريـةٌ فـي الـظَّـلامُ مُـهـدِيـةٌ   إلـى الـنـفـوس الـرَّدَى بـلا حَـرَجِ
شـائـلَـةٌ، فـي ذُنَـيْـبِـهـا حُـمَـةٌ   كـأنـهـا سَـبْـجَـةٌ مـن الـسَّـبَـجِ[٥]

وقال آخر: [من الرجز]

ونِـضْـوةٍ تُـعـرَفُ بـاْسـم ولَـقَـبْ   ما بين عينيها هِلالٌ مُنتَصِبْ[٦]
مـوجـودةٌ مـعـدومـةٌ عـنـد الـطـلـبْ   تَطعَنُ من لاقته من غير سبَبْ
بِـخَـنْـجَـرٍ تَـسُـلُّـه عـنـد الـغـضـبْ   كـأنـه شُـعـلـةُ نـارٍ تَـلـتـهِـبْ

وقال آخر:

تـحـملُ رمـحاً ذات كُـعوبٍ مُشْتَهِرْ   فـيـه سِـنَـانٌ بـالـحـريـق مُـسـتَـعِـرْ
أُنُـفَ تـأنـيـفـاً عـلـى حـيـنَ قُـدِرْ   تأنيفَ أنِف القوسِ شُدَّتْ بالوَتْر[٧]

---

(١) عسكر مكرم: بلد مشهور بنواحي خوزستان.

(٢) نصيبين: هي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها وفي قراها أربعون ألف بستان. (معجم البلدان لياقوت).

(٣) أعطى القوم بأيديهم: أي ذلوا وخفضوا.

(٤) هو السري بن أحمد بن السري الكندي، الموصلي، المعروف بالسريّ الرفاء (أبو الحسن) شاعر، أديب، مدح سيف الدولة ثم المهلبي، وتوفي ببغداد سنة ٣١٢ هجرية. (معجم المؤلفين ٤: ٢٠٨).

(٥) السبج: خرز أسود ـ وشائلة: رافعة ذنبها.

(٦) نضوة: مهزولة ضعيفة.

(٧) أنف: حدد وسوى؛ وأنف القوس حدها الذي في باطن سيتها.

وقال عبد الصمد بن المعذَّل[١]: يدعو بها على عدوٍّ له: [من الرجز]

يا رُبَّ ذي إفكٍ كثيرٍ خُدَعُهْ مُستجهَلِ الحِلم خبيثٍ مَرتَعُهْ
يَسْرِي إلى عِرْض الصديق قَذَعه صُبَّتْ عليه حين جَمَّتْ بِدَعه
ذاتُ ذُنَابَى مُتْلِفٍ مَنْ يَلسعه تَخفِضُه طوراً وطوراً ترفَعُه
أسوَدُ كالسَّبْجة فيهِ مِبضَعُهْ يَنطُفِ منه سُمُّه وسَلْمَعُهْ[٢]
تُسرِعُ فيه الحتفَ حين تشرَعه يَبرُزُ كالقَرْنين حين تُطلِعُه
في مثل صدر السِّبت حين تَقطعُه لا تَصنعَ الرقشاءُ ما قد تصنَعُه[٣]

وقال ابن حَمْدِيس: [من الطويل]

ومُشرِعَةً بالموت للطعن صَعْدَةً فلا قِرنَ إن نادتْه يوماً يجيبها[٤]
تُذِيقُك حرَّ السّمّ من وَخزِ إبرةٍ إذا لَسَبتْ ماذا يلاقي لسيبُها[٥]
إذا لم يكن لونَ البَهارَةِ لونُها فمن يَرَقَانٍ دَبّ فيها شُحوبُها
لها سَوْرةٌ خُصَّتْ بمُنْكَرِ صورةٍ ترى العينُ فيها كلَّ شيء يَريبُها
لها طَعنةٌ لا تَستبِينُ لناظرٍ ولا يرسِلُ المِسْبار فيها طبيبُها[٦]
نَسِيتُ بها قَيْساً وذكرَى طَعِينِه وقد دقّ معناها وجلّ نُدوبُها[٧]
تجِيء كأُمِّ الشِّبْلِ غَضبَى تَوَقَّدتْ وقد تَوَّجَ اليأفوخَ منها عَسيبُها[٨]
عدوٌّ مع الإنسان يعمرُ بيتَه فكيف يُوالي رقدةً يَستطيبها
ولولا دِفاعُ الله عنّا بلُطفه لصُبّتْ من الدنيا علينا خطوبُها

---

(١) تقدمت ترجمة ابن المعذل.
(٢) السلمع: ضرب من السم.
(٣) السبت: الجلد المدبوغ.
(٤) الصعدة: الرمح.
(٥) لسبت: لدغت.
(٦) المسبار: ما يسبر به الجرح.
(٧) الندوب: آثار الجرح.
(٨) العسيب: عظم الذنب، وقيل: هو منبت الشعر منه.

البَابُ الثَّاني
مِنَ القِسْم الرَّابع مِنَ الفَنِّ الثَّالِثِ
فيمَا هوَ ليسَ قاتلاً بفَعلِه مِنْ دَوَابِّ السَّمُومِ

ويشتمل هذا الباب على ما قيل في الخنافس، والوزَغ، والضبّ، وابن عِرْس، والحِرْباء، والقَنَافذ، والفئران، والقُرَاد، والنمل، والذرّ، والقَمْل، والصُّؤاب.

فأمّا الخنافس وما قيل فيها ـ قالوا: والخنافس تتولّد من عفونة الأرض. وهي أصناف، منها الخُنْفُس المعروف؛ ومنها «الجُعَل» ويسمّى «الكَبَرْتَل». وهو يتولّد من أَخْثَاء[١] البقر، وهو يموت إذا شمّ رائحة الطِّيبِ، وإذا دُفِنَ في الورد مات، وإذا أُخرج منه ودُفِن في الرَّوْث عاش. والغالبُ أنه لا يموت حقيقةً وإنما يَخْدَر وتبطُل حركته؛ فإذا عُولج بما نشأ منه قَوِي. والله أعلم. وله سِتُّ أرجلٍ، وسَنامٌ مرتفع. وهو لا يصير كَبَرْتَلاً حتى يصير له جناحان. وجناحاه يظهران إذا أراد الطيران ويَخفَيان إذا مشى. ومن عادة الجُعَل أن يحرُسَ النِّيام؛ فمن قام منهم لقضاء الحاجةِ تَبِعه طمعاً أنه إنما يُريد الغائط، والغائطُ قوت الجُعَل.

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر: وزعم الأعراب أنّ بين ذُكور الخنافِسِ وإناثِ الجِعْلان تَسَافُداً، وأنهما يُنتجان خَلْقاً يَنزع إليهما جميعاً. قال: وأنشد سيبويه لبعض الأعراب يهجو عدّواً له:

عَـادَيـتـنـا يـا خُـنْـفُـسـا أمّ الـجُـعَـلْ عـداوةَ الأوعـالِ حَـيّـات الـجَـبَـلْ

ويقال: إنّ الجُعَل يظلّ دهراً لا جَناحَ له، ثم ينبُت له جناحان، والعرب تقول في أمثالها: «ألَجّ من خنفساء» و«أفحش من فاسِيةٍ» وهي الخنفساء. وفي لجاجةِ الخنفساء يقول الأحمر:

لـنـا صـاحـبٌ مُـولَـعٌ بـالـخِـلافِ كـثـيـرُ الـخَـطَـاءِ قـلـيـل الـصـوابِ
ألَـجُّ لَـجَـاجـاً مـن الـخـنـفـسـاءِ وأزهَـى إذا مـا مـشـى مـن غُـرابِ

ومن أصناف الخَنَافِس صنفٌ يقال له: «حمَارٌ قَبَّان». وهو يتولّد في الأماكن النديّة على ظهره شبْهُ المِجَنِّ[٢]. ومنها صنفٌ يسمَّى «بنَاتِ وَرْدَان»، وهي أيضاً تتولّد

---

(١) أخثاء البقر: واحدتها الخثي: وهو من البقر مارس بذي بطنه. وخص به أبو عبيد الثور وحده دون البقر. وخثي البقر: روثها. (اللسان مادة خثا).

(٢) المجن: الترس.

في الأماكن الندية، وأكثر ما تكون في الحَمّامات والسِّقَايات. وفيها من الألوان الأسودُ، والأصهب، والأبيض. قال بعض الشعراء يصف بناتِ وَرْدان:

بـنـاتُ وَرْدَانَ جـنـسٌ لـيـس يَـنْـعَـتـه خَلْقٌ كنعتِي في وصفي وتشبِيهي

كـمـثْل أنصافِ بُسْرِ أحمرٍ تُركتْ من بـعـد تـشـقِـيقِـه أقـمـاعُـه فِـيـهِ[١]

ومنها «الصَّرَاصِر والجَنَادِب». ولها صوتٌ لا يفترُ بالليل، فإذا طلعَ الفجر فُقِدَ. وفيه من الألوان الأسودُ وهو جُنْدَب الجبال والآكام السُّود؛ والأبرق وهو جندب الطلح[٢] والسَّمُر والغضا؛ والأبيض وهو جندب الصحارَى، قال السَّرِيّ الرَّفَّاء يصف جُنْدَبَةً:

وجُـنْـدَبـةٍ تـمـشي بـسـاقٍ كـأنّـهـا على فَخْذِ كالعُود مِنشارُ عَرْعَرِ[٣]

مُـمَـسَّـكـةٌ تـجـلـو الـجَـنـاحَ كـأنـهـا عَرُوسٌ تَجَلّتْ في عِطَافٍ مُعَنْبَرِ[٤]

وأمّا الوَزَغ وما قيل فيه ـ والوَزَغ يسمّى «سامَّ أَبْرَصَ». وزعموا أنه أصمُّ، وأنّ السبب في صَمَمِه وبَرَصِه أن الدوابَّ كلَّها حين أُلقِي إبراهيمُ عليه السلام في نار النُّمْرود كانت تُطْفِىءُ عنه، وأنّ هذا كان يُنفخ عليه، فصَمَّ وبَرِص. ورُوي عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها أنّها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وفي يدي عُكّاز فيه زُجٌّ[٥] فقال: «يا عائشةُ ما تصنعين بهذا»؟ قلتُ: أقتل به الوَزَغَ في بيتي قال: «إن تَفعَلي فإنّ الدوابَّ كلَّها حين أُلقِي إبراهيمُ في النار كانت تُطفِىءُ عنه وإنّ هذا كان ينفُخ عليه فصَمَّ وبَرِصَ». وفي حديث آخر عنها رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ قال للوَزَغ الفُوَيْسِقَ.

قالوا: وفي طبع الوَزَغ أنه لا يدخل إلى بيتٍ فيه زَعْفران. والحيّات تألف الوزغ، كما تألف العقاربُ الخنافِسَ. وهو يُطاعِم الحيّاتِ ويُزَاقُّها. وهو يَقْبَل اللِّقَاح بفيه، ويبيض كما تبيض الحيّة، وقيل: إنّ نصيبه من السمّ نصيبٌ متوسّط، لا يكمُل أن يقتل، ومتى دَبر جاء[٦] منه سمٌّ قاتل. ومتى قُتل ووُضع على جُحْر حيّة هَرَبت منه، وهو يُقيم في جُحْره أربعةَ أشهر الشتاء.

---

(١) البسر: تمر النخل قبل أن يرطب.
(٢) الطلح: شجر عظام من شجر العضاه ترعاه الإبل. والطلح: الموز.
(٣) العرعر: جنس أشجار وجنبات من الصنوبريات، فيه أنواع تصلح للأحراج والتزيين.
(٤) الممسكة: المطيبة بالمسك.
(٥) الزج: الحديدة في أسفل الرمح.
(٦) دبر: شاخ وولى.

وقال الشيخ الرئيس: إذا ضُمِد به على الشوك والسُّلاّء[١] جذَبه، وعلى الثآليل[٢] يقلَعها. قال: وقيل: إنّ المجفَّف منه إذا خُلط بالزيت أنبت الشعرَ على القَرَع. وبولُه ودمه عجيب النّفع من فَتْقِ الصِّبيانِ إذا جلسوا في طبيخه. وقد يُجعل في بولِه أو دمه شيء من المسك ويُجعل في إحْليل الصبيّ فيكون بالغَ النفعِ في الفتق. وقيل إنّ كبِده تُسَكِّن وجعَ الضِّرْس، وتُشَقّ وتوضع على لَسْعِ العقرب فيسكُن.

وأمّا الضبّ وما قيل فيه ـ قال الجاحظ في كتاب الحيوان: إنّ من أعاجيب الضبّ أنّ له أيرين وللضبّةِ حِرَيْن؛ قال: وهذا شيء لا يُعرف إلاّ لهما. هذا قول الأعراب في تخصيصهما بذلك. وقالت الحكماء: إنّ السَّقَنْقُور[٣] له أَيْرانِ، والحِرْذَوْن[٤] كذلك. قال: وقال جالينوس: الضب الذي له لسانان يصلحُ لحمه لكذا وكذا. ومما يستدلّ به على أنّ للضبّ أيرين قولُ الفَزَاريّ:

سِبَحْلٌ له نزْكانِ كانا فَضِيلةً على كل حافٍ في البلاد وناعلِ[٥]

واسم أير الضبّ: النِّزْكُ. وسئل أبو حَيَّة النُّمَيْرِيّ[٦] عن ذلك، فزعم أن أير الضبّ كلسان الحيّة، الأصلُ واحد والفرع اثنان. وللأنثى مَدْخَلان. وعلى ذلك أنشد الكِسائيّ[٧] رحمه الله تعالى:

تَفَرَّقتُم لا زِلتُم قِرْنَ واحدٍ تَفرُّقَ أيرِ الضبِّ والأصلُ واحدُ

ويقال: إنّ الضبّة إذا أرادت أن تبيض حفَرتْ في الأرض حفرةً ثم رمتْ بالبيض فيها وطمّته بالتراب، وتتعاهده كل يوم حتى يخرج، وذلك في أربعين يوماً. وهي تبيض سبعين بيضةً وأكثر. وبيضها يُشبه بيضَ الحمام. ويخرجُ الحِسْلُ وهو مُطِيقٌ للكسب.

قالوا: والضبّ يخرج من جُحْره كَليلَ البصر، فيجلوه بالتحدُّق في الشمس. وهو يغتذي بالنسيم، ويعيش ببرد الهواء، وذلك عند الهَرَم.

قال الجاحظ: وزعم عمرو بن مُسَافِر: أنّ الضبّة تبيض ستين بيضةً وتَسُدّ عليهنّ

(١) السلاء: شوك النخل.
(٢) الثآليل: واحدتها ثؤلول، وهو خراج يكون بجسم الإنسان ناتىء صلب.
(٣) السقنقور: حيوان في الماء شديد الشبه بالورل وهو مما يسعى في البر ويدخل في الماء.
(٤) الحرذون: دويبة تشبه الضب.
(٥) السجل: الضخم من الضب والبعير والسقاء.
(٦) هو الهيثم بن الربيع وكان يروي عن الفرزدق وكان كذاباً. (الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٩٩).
(٧) هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكوفي، المعروف بالكسائي (أبو الحسن) مقرىء، مجود، نحوي. شاعر، توفي سنة ١٨٠ هجرية (معجم المؤلفين ٧: ٨٤).

باب الجُحْر ثم تَدَعهنّ أربعين يوماً، فيتفقص[١] البيضُ ويظهر ما فيه، فتَحْفِر عنهن عند ذلك. فإذا كشفتْ عنهن أَحْضَرنَ وأَحْضَرتْ[٢] في أثَرهنّ، فتأكل ما أدركتْ منهنّ. ويحفِر المُنفلِتُ منها لنفسه جُحْراً، ويرعَى من البَقْل فلذلك توصف بالعقوق. ويُضرب به المثلُ في أكل حُسُولِه. وفي ذلك يقول الشاعر:

أكلت بَنِيك أكْلَ الضبِّ حتى تركت بَنيك ليس لهم عَدِيدُ

قالوا: في ذَنَب الضبّ من القوّة ما يَضرِب به الحيّةَ فربما قطعها. والضبّ طويل العمر. وفي طبعه أنه يَرجِع في قَيْئه. وهو شديد الإعجاب بالتمر. ويقال: إنه يمكث ليلةً بعد الذَّبح ثم يُقَرَّب إلى النار فيتحرّك.

قال الجاحظ: وزعمت العرب أنّ الضبّ يُعِدُّ العقربَ في جُحْره؛ فإذا سمع صوتَ الحَرْش[٣] اَستثفرَها[٤] فألزقها بأصل عَجْب[٥] ذنبه وضمّه عليها، فإذا أدخل الحارش يدَه ليقبض على أصل ذنبه لسعتْه. وقيل: بل العقارب تألَف الضِّبَاب وتُسالمها وتأوِي إليها. قال التّميميّ:

أتأنَس بي ونَجْرُكَ غيرُ نَجْري كما أَنِسَ العَقَاربُ والضِّبابُ[٦]

والضبّ من الحيوان المأكول، إلاّ أنّ العرب تعيِّر بني تميم بأكل لحم الضبّ. والدليل على إباحته ما جاء في الحديث الصحيح: أنّ رسول الله ﷺ كان في بيت ميمونة رضي الله عنها، فَقُدِّمتْ له مائدةٌ وعليها ضبٌّ مَشْوِيّ، فأَهْوَى بيده ليأكل منه؛ فقيل له: يا رسول الله، إنه ضبّ؛ فرفع يده. فقال له خالد بن الوليد: يا رسول الله، أحرامٌ هو؟ قال: «لا ولكنه ليس في بلاد قومي فأنا لا آكله»؛ فأكله خالد بن الوليد بحضرة رسول الله ﷺ فلم يَنْهَه؛ ولو كان حراماً لنهاه ﷺ عن أكله ولأخبر بتحريمه لمّا سُئِلَ عنه.

وقال أبو نُوَاس يعيِّر بأكل الضبّ:

إذا ما تميميٌّ أتاك مُفَاخِراً فقُلْ عَدِّ عن ذا كيف أكلُكَ للضَّبِّ

---

(١) يقال: تفقصت البيضة عن الفرخ: إذا انفلقت عنه.
(٢) أحضرت: عدت.
(٣) حرش الضب: صيده.
(٤) ألزقه بالشيء: جعله يلزق به ـ وألزقها: اتصل بها دون أن يترك بينهما فجوة.
(٥) العجب: أصل الذنب وعظمه، وهو العصعص.
(٦) النجر: الأصل.

وقال عمرو بن الأَهْتم[١] من أبياتٍ:

وردَدْنـاهـمُ إلـى حَـرَّتـيـهـم حيث لا يأكلون غيرَ الضِّبابِ[٢]

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا: زِبْلُ الضبِّ نافع لبياض العين، وينفع من نزول الماء.

وقد وصفه الحِمَّانيّ فقال وذكر أرضاً: [من المتقارب]

تـرى ضَـبَّـهَـا مُـطْـلِـعـاً رأسَـه كـمـا مـدّ سـاعِـدَه الأقـطـعُ

لـه ظـاهـرٌ مـثـلُ بُـرْدَ مُـوَشّـى وبـطـنٌ كـمـا حَـسَـر الأصـلـعُ

هـو الـضـبّ مـا مـدّ سُـكّـانَـه وإن ضـمَّـه فـهـو الـضِّـفْـدِعُ[٣]

وأما الحِرْبَاءُ وما قيلَ فيهَا ـ والحِرْباء لها أصابع، وأظنها لنبش التراب. ولونها أسود وأصفر ومختلط الألوان كالفهد. وهذه التسمية تقع على ذكورها وإناثها. والحرباء إذا كان في الشمس كان كثير التلوّن، فإذا انتقل إلى الظل كان أقل تلوّناً. وإذا قارب الموت أو مات اَصفرّ. وهو أبداً يطلبُ الشمس، فإذا طلعتْ وجَّه وجهَه نحوَها. فمتى غاب عنه جِرْمُها فلا يراها أصابه نوع من الجنون. وإذا غابت الشمس ذهب ليطلب معاشَه ليلَه كلَّه حتى يُصبح. ولسانه طويل جدّاً، يقال: إنه مِقدار ذراع، فهو يبلغُ به ما بَعُد عنه من الذُّباب. والأنثى منه تُكنى أمّ حُبَيْنٍ. وهو يُوصف بالحَزْم لأنه حيث ينظر إلى الشمس يَقْبِض بيده على خُوطٍ[٤]، فإذا تقلّب نحوَ الشمس حيث ما مالت لا يُرسل ذلك الخُوط من يده حتى يَقْبِض بيده الأخرى خُوطاً آخر. وفيه يقول الشاعر:

أَنَّـى أُتِـيـحَ لـه حِـرْبـاءُ تَـنْـضُـبَـةٍ لا يُرسِلُ السّاقَ إلا مُمْسِكاً ساقا[٥]

وكتب بعض الفضلاء إلى بعض أصدقائه يلومه على مُقامه بوطنه حين نبا[٦] به؛ فقال من رسالة:

«أعَجَزْتَ في الإباء، عن خُلق الحِرْبَاء؛ أَدْلَى لساناً كالرِّشَاء، يبلغ به ما يشاء؛

---

(١) هو عمرو بن سنان بن سمي من بني هاشم. وهو جاهلي إسلامي، وكان في الجاهلية يدعى المكحل لجماله. (الشعر والشعراء ص ٣١٨).

(٢) الحرة: أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار.

(٣) السكان: الذنب.

(٤) الخوط: الغصن الناعم.

(٥) التنضب: شجر له شوك قصار.

(٦) نبا: لم يستوفي في مكانه المناسب له.

وناطَ همّته بالشمس، مع بُعدها عن اللمس، وأَنِف من ضِيق الوِجَار، ففَرَّخ في الأشجار؛ وسئم العيشَ المسخوط، فٱستبدل خُوطاً بخُوط؛ فهو كالخطيب، على الغصن الرَّطِيب».

وإنّ صوابَ الرَّأيِ والحَزْمِ لامرىءٍ ... إذا بلغتْه الشمسُ أن يَتحوّلا

وقال ذو الرُّمّة:

كأنّ يَدَيْ حِرْبائِها مُتَشَمِّساً ... يَدَا مُذْنِبٍ يَستغفِرُ اللَّهَ تائِبِ

وقال فيه أيضاً:

وقد جعل الحِرْبَاءُ يصفرّ لونُه ... وتَخْضَرّ من لَفْحِ الهَجير غَبَاغِبُه[١]

ويَشْبَح بالكَفَّيْن شَبْحاً كأنه ... أخو فَجرةٍ عَالَى به الجِذْعَ صالِبُهْ[٢]

وقال فيه أيضاً:

يُصَلِّي بها الحرباءُ للشمس ماثِلاً ... على الجِذْع إلاّ أنّه لا يُكبِّرُ

إذا حوّل الظِّلُّ العشِيَّ رأيتَه ... حَنيفاً وفي وقت الضُّحَى يَتنصَّرُ[٣]

وأمّا ابنُ عِرسٍ وما قيلَ فيهِ - وٱبنِ عِرْس من حيوان البيوت، وهو حديد النفْس شجيعٌ قَطِنٌ. وأكثرُ ما يكون بمصر في المنازل، وله صوت قويٌّ يُدلّ على شجاعته. وقيل: إنه الحيوان المسمَّى «بالدَّلَق»، وإنما يختلف وَبَره ولونُه بحَسَب البلاد. وفي طبعه أنه يَسرِق ما يظفَر به من الذَّهب والفِضّة، وإنه متى وجد حبوباً متفرقةً خَلطها، وهو عدوّ الفأرَ يَصيده ويقتله، والفأرُ يخافه.

وقال الجاحظ: وٱبنُ عِرْسٍ يُقاتل الحيّةَ؛ وإذا قاتَلها بدأ بأكل السَّذَاب؛ لأنّ الحَيّة تؤلمها رائحةُ السَّذَاب؛ كما قدّمنا. وٱبنُ عِرس يفعل في الطير ما يفعل الذئبُ في الغنم في الذَّبح. وهو إذا عَجز عن الوصول إليها ٱستدارَ بعجُزه وفسا إلى جهتها، فربما قتل الفراريجَ رائحةُ فُسائِه.

ومن ذكائه وفِطنته ما حُكِي: أنّ رجلاً صاد فرخاً منها فجعله في قفص؛ فرأته أُمُّه فذهبتْ وعادتْ بدينار في فمِها فألقتْه بين يَدَي الرجل كأنها تريد فِدَاء ولدِها منه به، فتركه ولم يَتناوله، فذهبت وأتت بدينارٍ آخرَ فلم يأخذه، فلم تزل تذهب وتعود في كل

(١) الغباغب: جمع غبغب، وهو ما تغضن من جلد منبت العثنون الأسفل. والعثنون: الذقن.

(٢) تشبح الحرباء على العود: امتد.

(٣) أي يتوجه الحرباء للقبلة عند العشي فهو خفيف، ويتوجه للشرق أول النهار، والنصارى تتوجه في صلاتها جهة المشرق.

مرّة بدينار إلى خمسة دنانير وهو لا يُمسك الذهبَ، فذهبتْ وعادت بُصّر فارغةٍ وألقتها بين يديه كأنها تقول: إنه لم يبق شيء؛ فلم يُطلق ولدَها ولا ضَمّ الدنانيرَ. فلمّا رأته على ذلك عَمدتْ إلى دينار منها فأخذته وعادت به إلى جحرها؛ فخشِي أن تفعل ذلك ببقيّة الدنانير، فأخذها وأطلق فرخَها؛ فأعادت إليه الدينار.

وقالت الحكماءُ: لحمُ ابن عرس نافعٌ من الصَّرْع. والله أعلم.

وأمّا القَنافِذُ وما قيلَ فيهَا - وواحدُها قُنفذٌ. وهي صِنفان: قنفذٌ ودُلْدُلٌ. فالقنفذ يكون بأرض مصر في قَدْر الفأر. والدلدل يكون بالشأم والعراق وخُرَاسان في قَدْر الكلب القَلَطِيّ[١]. ويقال: إنه يَسْفِدَ قائماً وبطنُ الأنثى لاصِقٌ ببطن الذكر. والأنثى تَبيض خمسَ بيضاتٍ؛ وليس هو كالبيض الذي له قِشر يابسٌ بل هو شبيه باللّحم. وتَصرُّفُ القنافذِ بالليل أكثرُ من تصرفها بالنهار. قال أيْمَنُ بن خُرَيم[٢]:

كقُنفُذِ الرَّملِ لا تَخفَى مَدَارِجُه حتى إذا نام عنه الناسُ لم يَنم

والقُنفذُ يَستأنِس في البيوت، ويختفي أياماً ثم يظهر. وهو إذا جاع صعِد إلى الكروم وقطعَ العناقيدَ ورَمى بها ثم ينزل فيأكل منها ما أطاق؛ فإن كان له فراخ تمرّغ على ما بَقي فيشتَبِك في شوكه، وذلك بعد تفريطِه من عُمْشُوشِه[٣]، ويذهب به إلى فراخه، وهو موَلعٌ بأكل الأفاعي، ولا يُبالي قَبَض على رأسها أو غيره من بَدَنها، فإنه إن قبض على رأسها أكلَها بغير كُلْفة عليه ولا مَشَقّةٍ؛ وإن قبض على وسطها أو ذنبها ٱستدار وتَجمع ونفَخ بدَنه، فمتى ضربتْه أصابها شوكُه، فهي تهربُ منه؛ وطلبُه لها بقدْرِ هَرَبها منه.

والدُّلْدُل إذا رأى ما يكرهه ٱنقبضَ فيخرج منه شوكٌ كالمَدَاري في طول الشِّبْر، فيجرَح ما يُصيبه من الحيوان. ويقال: إن شوكَه شَعَرٌ، وإنما لمّا غَلُظ وغلَب عليه اليُبْس صار شَوكاً.

وقال ٱبن سينا: في رماد القُنفُذِ جِلاءٌ وتَحليلٌ. ومِلْحه ينفع من داءِ الفِيل[٤] ولحمُه ينفع من الجُذام؛ لشدة تحليله وتجفيفه. ولحمُه المُملّح ينفع من الفالج والتَّشنُّج وأمراض العَصَب كلِّها وداءِ الفيل، وينفع من السّلّ ومن سوءِ المِزاج. ومملوحُه مع

(١) القلطي: القصير.

(٢) هو أيمن بن خريم بن فاتك من بني أسد وكان قد صحب النبي ﷺ وروى عنه الحديث وكان به برص وكان أثيراً عند عبد العزيز بن مروان (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧٣).

(٣) العمشوش: العنقود يؤكل ما عليه ويترك بعضه.

(٤) داء الفيل: وقد سمي بذلك لاعترائه الفيل أو يشبه الرجل فيه برجله وحقيقته انصباب أحد الباردين في الرجل متغلظ في مجاريها من لدن الركبة إلى نهايتها. (تذكرة داود الأنطاكي ص ٩٣).

السَّكْبِينَج[١] جيِّدٌ للاسْتِسْقَاء ووجَع الكُلَى، وينفع مَنْ يبول من الصبيان في الفراش؛ حتى إنّ إدمانَ أكلِه ربما عسَّر البوْلَ. ولحمُه ينفع من الحُمِّيَات المزمنة ومن نهش الهوامّ. والله أعلم.

وقد وصفَهُ البلغاءُ والشعراءُ في رسائلَها وأشعارِهَا ـ فمن ذلك ما قاله الأميرُ شمس[٢] المعَالي من رسالة كتَبها إلى بعض أصدقائه وقد أهدى له دُلْدُلاً: «قد أتحفتُك يا سيِّدي بِعلْقٍ نفيس، وتُحْفةٍ رئيس؛ يتعجّب المتأمِّلُ من أحواله، ويَحَار الناعتُ في أوصافه وأعماله؛ ويتبلّد المُعتَبِر في آياته، ويكِلّ الناظر في معجزاتِه؛ فما يَدري ببديهة النظر والفؤاد، أمِن الحيوانِ هو أم من الجَماد؛ حتى إذا أعطى مُتَدَبِّرُه النَظرَ أوْفَى حقوقِه، والفحصَ أكمل شروطه علِم أنه كميٌّ[٣] سلاحُه في حِضْنِه، ورامٍ سهامُه في ضِمْنه؛ ومُقاتِلٌ رِماحُه على ظهره، ومخاتِلٌ سِرُّه خلافُ جَهْره، ومحاربٌ حُصنُه من نفسه، يَلقاك بأخشنَ من حدّ السيف، ويستتِر بألْيَن من وبَرِ الخَيْف[٤]، متى جمّع أطرافَه، وضمّ إليه أطرافه؛ حسبتَه رابيةً ناتيَة، أو تَلْعةً باديَة، وهو أمضَى من الأجَل، وأَرْمَى من بني ثعل[٥]. إن رأتْه الأَراقمُ رأتْ حتفَ نفسها، أو عاينته الأساودُ أيقنَتْ بفناء جنسها؛ صعلوكُ ليلٍ لا يُحجم عن دَامِسِه، وفارسُ ظلام لا يخَاف من حنادِسِه[٦]؛ فيه من الضَّبّ مثَل، ومن الفأر شَكْل؛ ومن الوَرَل نَسَبٌ، ومن الدُّلْدُل سَبَب، ومن أوابده أنه يَسودّ إذا هَرِم وشاب، ويصير كأكبر ما يكون من الكلاب».

وقال أبو محمد[٧] اليزيديّ يذكر قنفذاً رآه، فأطعمه وسقاه: [من الطويل]

وطارِق ليلٍ جاءنا بعد هَجْعَةٍ ... من الليل إلاّ ما تحدّث سامرُ

قَرَيْناه صَفْوَ الزاد حين رأيتُه ... وقد جاء خَفّاق الحَشَى وهو سادِرُ[٨]

جميلُ المُحَيّا في الرِّضا فإذا أبى ... حَمَتْه من الضَّيْمِ الرِّماحُ الشَّواجِرُ[٩]

---

(١) السكبينج: صمغ شجرة بفارس لا نفع فيها سوى هذا الصمغ ويخرج منها في حزيران عند الورق وقيل بالشرط وأجوده الأبيض الطاهر الأحمر الباطن. (تذكرة داود الأنطاكي ص ١٩٥).

(٢) هو الأمير شمس المعالي أبو الحسن قابوس بن أبي ظاهر بن ورداه شاه الجبلي.

(٣) الكميّ: الفارس.

(٤) الخيف: جلد الضرع.

(٥) بنو ثعل: حي من طيىء.

(٦) الحندس: الليل الشديد الظلمة.

(٧) هو يحيى بن المبارك بن المغيرة أبو محمد مولى بني عدي بن عبد مناة. وكان من أكابر القراء وأديباً شاعراً مجيداً. (الوفيات ٢: ٣٤١).

(٨) السادر: المتحير.

(٩) رماح شواجر: مختلفة متداخلة.

ولستَ تراه واضِعاً لسلاحِه مَدَى الدّهر موتوراً ولا هو واترُ

وقال آخر من أبيات يرثيه فيها ويصفَه:

عجبتُ له من شَيْهَمٍ مُتَحَصِّنٍ بنَبْلٍ من السَّرْد المُضَاعَفِ تَبْرُق[١]
وأنّى اهتَدى سهمُ المنيّةِ نحوَه وفي كلّ عُضوٍ منه سَهْمٌ مُفَوَّقُ
ولو كان كفُّ الدهر تَسْتَخشِن الرّدَى لكان بكفّ الدّهر لا يتعلّق

وقال أبو بكر الخُوَارَزْمِيّ[٢] يصفه:

ومُدَجَّج وسلاحُه من نفسه شاكي الدَّوابِرِ أعْزَل الأقْبَالِ
يُمسِي ويُصبِح لم يُفَارِقْ بيتَه ولقد سَرى عدداً من الأميالِ
وتراه يكمنُ بعضُه في بعضه فتَطِيش عنه أسهمُ الأهوالِ
عيناه مثل النقطتين وخَطْمُه يَحكِي تُدِيَّ رِضَاعةِ الأطفالِ[٣]
وكأنّ أقلاماً غُرِزْنَ بظهره مَسّ المِدَادُ رُؤوسَها بِبِلالِ
تَتَهاربُ الحيّاتُ حين يَرَيْنَه هَرَبَ اللصوصِ رأتْ سوادَ الوالي
وكأنّه الخنزيرُ إلاّ جِلْدَه وصِيَاحَه وتقارُبَ الأوصال

وأمّا الفِئرانُ وما قيلَ فيهَا ـ قد سمّاها رسول الله ﷺ الفُوَيْسَقة. والفأر ضروب تقع على جميعها هذه التّسمِيةُ وهي «الجُرَذ» و«الفأر» معروفان ـ وهما كالجواميس والبقر ـ و«الزَّبَاب»، و«الخُلْد» و«اليَرْبوع» و«فأرة البِيشِ»[٤] و«فأرة المِسْك» و«فأرة الإبل».

فأمّا الجُرَذُ والفأرُ ـ وهما من حيوان البيوت والبرّ. قال المتكلمون في طبائع الحيوان: إنّ الفأرَ مما جُمِع له بين حاسّة السمع والبصر. وليس في الحيوان أفسدُ منه. ومن فساده أنه يجد قارورةَ الدُّهن وهي ضيّقة الفَم فيُدخِل ذَنَبه فيها ويَمْتصُّه، فإن قَصُر ذنبُه عن بلوغ الدُّهن عَمَد إلى النَّوَى والأحجار الصِّغار فيُلقيهما فيها، فيطفو ما فيها فيمتصُّهُ بذَنَبه، ولا يزال يتعاهد ذلك حتى يَنْفَد جميعُ ما فيها. وهو إذا سرقَ البيضَ يَعْجِز عن كَسْره بسِنِّه، فيُدحرج البيضةَ إلى أن تسقُطَ من مكان مرتفع إلى مُسْتَفِلٍ

---

(١) الشيهم: ذكر القنفذ.
(٢) هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي أحد العشراء المجيدين، كتب في اللغة والنحو والشعر، ويتكلم بكل نادرة.
(٣) الخطم: الأنف.
(٤) البيش: نبات سام.

فتنكسر؛ فإن عجَّزه ذلك استعان بفأر آخر فيدفعها أحدُهما بيديه ورجليه وينقلِب على قفاه؛ ويَقْبِض الآخرُ على ذَنبِه ويتسلق به في حائط؛ فإذا ارتفع به عن الأرض ألقاها الحاملُ لها فتنكسِر فيأكلانها جميعاً. أخبرني بذلك من شاهَدَه. والمثل يُضرب به في الفساد والسَّرِقة والنسيان والحذَر. وفي طبع الجُرَذ البَرِّيّ وعادته أنه لا يحفِر بيتَه على قارعة الطريق خوفاً من الحافر أن يهدِم عليه بيته. ويقال: إنه يُخْلَق من الطِّين، وإنه يتولّد بأرض مِصر إذا نَضب ماءُ النيل عنها. وقال صاحب كتاب مباهج الفِكر: إنه رأى ذلك عِياناً في سَفْط[١] مَيْدُومَ من جيزة مصر.

وقال الجاحظ: لعمري إن جِرْذانَ إِنْطاكِيّة لتُسَاجِل[٢] السَّنانِيرَ في الحرب، ولا تقوم لها ولا تَقْوَى عليها إلا الواحدَ بعد الواحد. قال: وهي بخُراسان قويةٌ جداً، وربما قطعت أُذُن النائِم. قال: ومن الفأر ما إذا عضَّ قتل. قال: ومن الأعاجيب في قرض الفأر أنّ قوماً من أهلِ الفِراسة ينظرون إلى قَرْضه ويتفرّسون منه أحوالاً. ويزعمون أنّ أبا جعفر المنصور نزل في بعض القُرَى فقرَض الفأرُ مِسْحاً[٣] له كان يجلس عليه، فبعث به ليُرفأ[٤]؛ فقال لهم الرَّفّاء: إنّ ها هنا أهلَ بيت يَعْرِفون بقرض الفأر ما ينال صاحبَ المتاع من خير وشرّ، فما عليكم أن تعرضوه عليهم قبل إصلاحه؟ فبعث المنصور إلى شيخهم؛ فلما نظر إلى موضع القَرْض وثبَ قائماً ثم قال: من صاحبُ هذا المِسْح؟ فقال المنصور: أنا؛ فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته؛ والله لَتَلِيَنّ الخلافةَ أو أكون جاهلاً أو كذّاباً.

وفي الفأر منافعُ ذكرها الشيخ الرئيس ٱبن سينا؛ فقال: دَمُ الفأر يقلع الثآلِيلَ، وزِبلُه نافع على داء الثعلب وخصوصاً لَطْخاً بالعسل، وخصوصاً المُحْرَق. قال: وإذا شُوِي الفأرُ وجفِّف وأُطعِم الصبيّ ٱنقطع سَيَلانُ اللُّعابِ من فمه. قال: وٱتّفق الناسُ أنّ الفأر إذا شُقّ ووضع على لَدْغ العقرب نفع. والله أعلم.

وقد وصف الشعراء الفأر وشبّهوه في أشعارهم وذكروا سوءَ فعله. فمن ذلك قولُ أعرابيّ، وقد دخل البصرةَ فٱشترى خبزاً فأكله الفأر: [من الرجز]

عَجَّلَ ربُّ الناسِ بالعِقابِ لعامِرَاتِ البيتِ بالخرابِ

(١) سفط ميدوم: قرية من مديرية بني سويف بقسم الزواية، واقعة غربي النيل بالقرب من الجبل الغربي.
(٢) تساجل: تباري وتفاخر.
(٣) المسح: الكساء من شعر.
(٤) رفأ الثوب: لأم خرقة بالخياطة وضم بعضه إلى بعض وأصلح ما يلي منه.

حـتـى يُـعَـجِّـلْـن إلـى الـتَّـبَـاب ... كُـحْـلَ الـعـيـون وُقُـصَ الـرِّقـابِ[١]
مُـــجَـــرِّراتِ فُـــضُـــلَ الأذنـــاب ... مـثـل مَـدَارِي الـطِّـفْـلـةِ الـكَـعَـابِ[٢]
كـيـف لـهـا بـأَنْـمَـرٍ وَثَّـاب ... مُـنْـهَـرِتِ الـشِّـدْق حَـدِيـدِ الـنَّـابِ
كـأنـمـا يَـكْـشِـرُ عـن حِـرابِ ... يَـفْـرِسُـهـا كـالأسـد الـوَثَّـابِ

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِيّ: [من الخفيف]

بـالـحُـدْبِ الـظُّـهـورِ قُـعْـسِ الـرِّقـابِ ... لـدِقَـاقِ الـخُـرْطـومِ والأذنـابِ[٣]
لِـلـطـافِ آذانُـهـا والـخـراطيـ ... ـمُ حـدَادِ الأظـفـارِ والأنـيـابِ
خُـلِـقـتْ لـلـفـساد مُـذْ خُـلِق الـخَـلْـ ... ـقُ ولِـلـعَـيْـثِ والأذى والـخـراب
ناقباتٍ في الأرض والسقفِ والحا ... ئِـط نَـقْـبـاً أعـيـا عـلـى الـنُّـقَّـابِ
آكـلاتٍ كـلَّ الـمـآكـل لا تَـشْـ ... ـأَمُـهـا شـاربـاتٍ كـلَّ الـشَّـرَاب
آلـفـاتٍ قـرضَ الـثـيـاب وقـد يَـعْـ ... ـدِل قـرضَ الـقـلـوب قـرضُ الـثـيـاب

وقال في فأرة بيضاء:

وفـأرةٍ بـيـضـاءَ لـم تُـبْـتَـذَلْ ... يـومـاً لإطـعـام الـسَّـنَـانـيـر
إذ فـأرةُ الـمـسـك سـمِـعـنـا بـهـا ... وهـــذه فـــأرةُ كـــافـــورِ

وأمّا الزَّبَابُ ـ فإنه فأرٌ أصمُّ، يكون في الرمل، والعرب تضرب به المثلَ في السرقة. يقولون: «أسرقُ من زَبَابة».

وأمّا الخُلْد ـ فهو أعمى لا يُدرِك شيئاً إلاّ بالشَّمِّ، إلا أن عينيه كاملتان، لكن الجفن مُلْتَحِمٌ على الناظر لا يَنْشَقّ. وهو تُرابِيٌّ مستقِرٌّ في باطن الأرض؛ وهي له كالماء للسمك. وليس له على ظهر الأرض قوةٌ ولا نشاط، بل يَبْقَى مطروحاً كالميّت فتخطفَه الجوارحُ أو يموت، وهو حديدُ حاسّةِ الشمّ. ومتى شمّ رائحةً طيّبةً هَرَب. وهو يحبّ رائحةَ الكُرّاث والبصل، وربما صِيد بهما. ومن دأبه طولُ الكَدّ ودوامُ الحَفْر. وفي تركيبه أنه لا يُفْرِط في الطّلب ولا يقصِّر عنه. وله وقت يظهر فيه لا يُخْطئه ولا يَغْلَط في المقدار. ويُضرب به المثلُ في حدّة السمع؛ فيقال: «أسمع من خُلْدٍ».

وأمّا اليَرْبُوع ـ فهو حيوان طويلُ الرِّجْلين، قصيرُ اليدين جدّاً. وله ذَنَبٌ كذنب

---

(١) الوقص: قصر العنق.
(٢) المداري: جمع مدراة، وهي شيء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه، يسرح به الشعر المتلبد.
(٣) قعس الرقاب: مائلتها نحو الظهر.

الجُرَذ، يرفعه صُعُداً، في طَرَفِه شبهُ النُّوّارة[١]. ولونُه لونُ الغزال. ويقال لولده: «دِرْصٌ»، والجمع أَدْراص. قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: كلُّ دابة حشاها الله خُبْثاً فهي قصيرةُ اليدين. وهو يسكنَ بطنَ الأرض لتقوم رطوبتُها له مقامَ الماء. وهو يُؤْثر النسيمَ ويكره البخار. وهو يَتّخذ جُحْره على نَشَزٍ[٢] من الأرض ويحفِره، ويفتح له أبواباً على مَهَبّ الرياح وتُسمَّى «النَّافِقَاء»، و«القَاصِعَاء» و«الدَّامّاء»، و«الرَّاهِطَاء». فإذا طُلِب من أحد هذه الأبواب خرج من الآخر. وهو يَجْتَرّ ويَبْعَر. وله كَرِشٌ وأسنان وأضراس. وهو من الحيوان الذي ينقاد إلى رئيس منه. والرئيسُ منها إذا كان فيها يرتفع عنها فيكون في مكان مُشْرِفٍ أو على صخرة ينظر منه إلى الطريق، فإن رأى ما يَخافه عليها صَرّ بأسنانه وصوّتَ، فتسمَعه فتنصرف إلى جِحرَتَها؛ وإن أغفل ذلك ورأتْ ما تخافه قبل أن يراه قتلتْه، لتضييعِه الحزمَ وغَفلته، ونصبت غيرَه لرياستها. وإذا أرادتِ اليرابيعُ الخروجَ من جِحرَتها لطلب المعاش خرج الرئيسُ قبلها وأشرف؛ فإذا لم ير ما يخافُه عليها صَرّ لها وصوّت فتخرج. قالوا: ويتولّد من اليربوع والفأرة ولدٌ يسمى «القَرْنَب».

وأما فأرةُ المسك ـ فقال الجاحظ: إنها دُوَيْبَّةٌ تكون في بلاد تُبَّت[٣] تصاد لِنَوَافِجها[٤] وسُرَرِها. فإذا اْصْطِيدَتْ عُصِبَتْ سُرّتُها بِعصابٍ وهي مُدَلاّة فيجتمع فيها دَمُها؛ فإذا اْجتمع ذُبِحتْ، ثم تُقَوَّر السُّرَّة المعصوبةُ وتدفنَ في الشَّعير حيناً فيستحيلُ ذلك الدّمُ المختنقُ الجامد مِسْكاً ذكِيّاً بعد أن كان مُنْتِناً. ويقال: إن هذه الفأرَةُ تُوجد في بلاد الزَّابج[٥] وتحمَل إلى السِّند، وإن المسك يَخرج من خُصْيَتَيْ ذكورها بالعصر، ومن ضُروع إناثِها بالحَلْب. ويقال: إن الفأرَ الفارسيّ أطيبُ رِيحاً من كل طِيبٍ، وربما ضاهَى ريحَ المسك. وهو أجْرَدُ أشقرُ، شَعَرُه إلى الصُّفْرة، شديدُ كَحَل العينين، طويلُ الأذنين، قصيرُ الذَّنَب.

وأمّا فأرةُ الإبلِ ـ فليست بحيوان، وإنما هي رائحةٌ تسطعَ من الإبل عند صدورها من الوِرْدِ يُنتجِها طيبُ الرِّعْي. قال الشاعر:

لـهـا فـأرةٌ ذَفْـراء كـلَّ عَـشِـيَّـةٍ ... كما فَتَقَ الكافورَ بالمسك فاتِقُهْ[٦]

---

(١) النوّارة: جمع النوار، أي الزهر، ونوّر الشجر: أزهر.
(٢) النشز: ما ارتفع وظهر من الأرض.
(٣) ثبت: إقليم ضمن الجمهورية الصينية متاخم للهند. وهي هضبة تخترقها الجبال تعتبر أعلى صقع في العالم.
(٤) النوافج: جمع النافجة، وهو وعاء المسك في جسم الحيوان.
(٥) الزابج: جزيرة في أقصى بلاد الهند وراء بحر هركند في حدود الصين.
(٦) ذفر الشيء: ظهرت رائحته واشتدت، طيبة كانت أو خبيثة.

وأمّا القُراد وما قيل فيه ـ فقد قالوا: أو ل ما يكون «قَمْقَامَة» وهو الذي لا يكادُ يُرَى من صِغَرِه، ثم يصير «حَمْنَانَة»، ثم يصير «قُراداً»، ثم يصير «حَلَماً»، ويقال للقراد: «العَلّ» و«الطلح» و«القَتِين» و«البُرَام» و«القِرْشَامُ».

والقراد يُخْلَق من عَرَقِ البعيرِ ومن الوَسخ والتَّلَطّخ بالثَّلْط[1] والأبْوَال، كما يُخلق القمل من عَرَق الإنسان. وفي طبع القُراد أنه يسمع رُغاءَ الإبل من فراسخ فيقصِدُها؛ حتى إنّ أصحاب الإبل يبعثون إلى الماء من يُصْلح لإبلهم الأرْشِيَة[2] وآلاتِ السَّقي، فتَبِيتُ الرجالُ عند البئر تنتظر مجيءَ الإبلِ، فيعرفونَ قربَها من القُوَاد بأنبعاثِه في جوف الليل وسُرعة حركته ومروره، فإذا رأَوْا ذلك منه تهيّؤوا للعمل.

ويقول من اعتنى بالحيوان وتكلّم في طبائعه: إنّ لكل حيوانٍ قُراداً يناسب مِزَاجَه.

وهم يَضرِبون المثل بالقراد في أشياء فيقولون: «أسمعُ من قُرَادٍ»، و«ألزقُ من قرادٍ»، وما هو إلا قراد ثُفْرٍ. وأنشد الجاحظُ لبعض الشعراء في القراد[3]:

ألاَ يـا عـبـادَ الله هـل لـقـبـيـلـةٍ ... إذا ظـهـرتْ فـي الأرض مُـغـيـرُهـا
فـلا الـدِّيـنُ يـنـهـاها ولا هـي تَـنْـتَـهِـي ... ولا ذو سـلاحٍ مـن مَـعَـدٍّ يَـضِـيـرُهـا

وأمّا النّملُ والذَّرُّ وما قيلَ فيهمَا ـ قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل: ١٧ ـ ١٨]. وجاء في الحديث أنّ رسول الله ﷺ نزل منزلاً فانطلق لحاجةٍ فجاء من حاجته وقد أوقَد رجلٌ على قرْيةِ نملٍ إما في شجرةٍ، وإمّا في الأرض؛ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ فَعَل هذا أطْفِئها أطفئها». وعن أبي هُرَيرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «نزل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرةٍ فعضّته نملةٌ فقام إلى نملٍ كثيرٍ تحت الشجرةِ فقتلهنّ فقيل له: أفَلاَ نملةً واحدةً». وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «نزل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرةٍ فقَرَصَتْه نملةٌ فأمر بجَهازه فأُخرِجَ من تحتها ثم أمر بقرية النّمل فأُحْرِقَت فأوحى الله إليه أنْ قَرَصَتْك نملةٌ أهلكتَ أُمّةً من الأمم يُسبِّحن الله فهلاّ نملةً واحدةً. وجاء في الأثر: أنّ سليمان بن دود عليهما السلام خرج يَسْتَسْقِي، فرأى نملةً مُستَلْقِيةً على ظهرها رافعةً قوائمَها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنّا خَلْقٌ من خَلْقك،

---

(١) الثلط: الرقيق من الرجيع.
(٢) الأرشية: واحدتها رشاء، وهو حبل الدلو.
(٣) القراد: دويبة متطفلة ذات أرجل كثيرة، تعيش على الدواب والطيور.

ليس لنا غِنًى على سَقْيك؛ فإما أن تَسْقِنَا وترزُقَنا، وإما أن تُمِتَنَا وتُهْلِكنا. فقال للناس: ارجِعوا، فقد سُقِيتم بدُعاء غيركم.

وقال الجاحظ: وكان ثُمَامَةُ يزعمُ أنّ النمل ضأنُ[١] الذَّرّ. قال: والذي عندي أن النمل والذَّر مثلُ الفأر والجُرَذ، والبقرِ والجواميسِ. قال: والذّرّ أجودُ فَهْماً وأصغرُ جثّةً.

وزعم ابن أبي الأشعث أنّ النملَ لا يَتَزاوجُ ولا يتوالَد ولا يتلاقَح، وإنما يسقط منه شيءٌ حقير في الأرض فينمو حتى يصير بَيْظاً[٢] فيتكوّن منه.

والنمل من الحيوان المحتال في طلب المعاش يتفرّق لذلك؛ فإذا وجد شيئاً أنذر الباقين فيأتِين إليه ويأخذن منه. وكلّ واحد مجتهد في إصلاح شأن العامّة غيرُ مختلسٍ لشيء من الرزق دون صحبه. ويقال: إنما يفعل ذلك منها رؤساؤها ومن تحيّله في طلب الرزق أنه ربما وُضِع بينه وبين ما يُخاف عليه منه ما يمنعه من الوصول إليه من ماءٍ أو شَعْرٍ، فيتسَلّق في الحائط ويمشي على جِذْع من السَّقف حتى يُسامِتَ[٣] ما حُفِظَ منه ثم يُلقِي نفسه عليه. وفي طبعه وعادته أن يحتكرَ في زمن الصيف لزمنِ الشتاءِ، وهو إذا خاف على ما يدَّخِره من الحبوب من العَفَن والسُّوس أو التَّنَدّي من مجاورهِ بطن الأرض، أخرجها إلى ظاهر الأرض حتى تَيْبَس ثم يُعيدها، وإن خاف على الحبّ أن يَنْبُتَ من نَداوةِ الأرض نقَر في موضِع القِطْمير من وسَط الحبّة (وهو الموضع الذي يبتدىء منه النَّباتُ)؛ ويَفْلِقُ جميعَ الحبِّ أنصافاً؛ فإن كان من حبّ الكُزْبَرَةُ فَلَقه أرْباعاً، لأن أنصاف حب الكُزْبَرَة تَنْبُت، فالنملُ من هذا الوجه في غاية الحزم. فسبحان المُلهِمِ لا إله غيرُه.

وليس شيءٌ من الحيوان يَقْوَى عَلى حمْل ما يكون ضِعْفَ وزْنه مراراً غير النملة. والنّملُ يَشمّ ما ليس له ريحٌ ممّا لو وضعه الإنسانُ عند أنفه لما وجد له ريحاً. ومن أسباب هلاك النملة نباتُ الأجنحةِ لها؛ فإذا صار النمل كذلك صادتْه العصافيرُ وأكلتْه. وفي ذلك يقول أبو العَتَاهِيَة[٤]:

وإذا اسْتَوَت لِلنَّمْلِ أجنحةٌ ... حتى يطيرَ فقد دنا عَطَبُهْ

(١) الضأن: ذو الصوف من الغنم.
(٢) البيظ: (بالظاء): بيض النمل.
(٣) يسامت: يقابل ويوازي ويواجه.
(٤) هو إسماعيل بن القاسم مولى لعنزة، ويكنى أبا إسحاق، وأبو العتاهية لقب، وكان جراراً ويرمى بالزندقة. (طبقات الشعراء لابن قتيبة ص ٤٠٩).

ومن أصناف النّمل صِنفٌ يسمّى «نمل الأسد»؛ سمّي بذلك لأن مُقَدَّمَ النملة يُشبه وجهَ الأسد ومؤخَّرها كالنّمل. وزعم بعضُ من تكلّم في طبائع الحيوان أنه متولِّد، وأن أباه أكل لحماً، وأمّه أكلت نباتاً، فَنُتج بينهما على هذه الصفة.

وقد وصَفه الشعراءُ، فمن ذلك قول شاعر: [من الطويل]

غُزَاةٌ يولِّي الليثُ عنهنّ هارباً ... وليست لها نَبْلٌ حدادٌ ولا عَمَدْ
قِصَارُ الخُطَا حُمْشُ القوائم ضُمَّرٌ ... مُشَمِّرَةٌ لا تَشْتَكِي الأيْنَ والحَرَدْ[١]
وتعدو على الأقران في حَوْمة الوَغَى ... نِشاطاً كما يعدو على صَيْده الأَسَدْ
إذا ذَكَرتْ طِيبَ الهياجِ تنفَّسَتْ ... تَنَفُّسَ ثَكْلَى قد أُصِيبَ لها وَلَدْ
كأكرادِ زنْجانٍ تريد قضاضةً ... وتلك الصَّعَاليك الغرائب في البلدْ[٢]
وفيهنّ أجناسٌ تَشابَهْنَ صورةً ... وبايَنَّ في الهِمَّاتِ واللون والجسدْ
فمِنهنّ كُمْتٌ كالعَناكيب أرْجُلاً ... وسَاعُ الخُطا قد زان أجيادَها الغَيَدْ
إذا انْتُهِرت طارتْ وإنْ هِي خَلَّدتْ ... رأت وِرْدَ أحواضِ المنايا من الرَّشَدْ
وسودٌ خِفَافُ الجسم ولو عَضْتِ الصَّفَا ... رأيتَ الصَّفا من وقع أسنانها قِدَدْ[٣]
يَفِدْنَ علينا مُفْسِدَاتٍ جِفانَنا ... وأزوادَنا أبغضْ إلينا بما وَفَدْ

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الطويل]

وحيٍّ أناخوا في المنازل باللِّوَى ... فصاروا به بعد القَطِين قَطِينا[٤]
إذا اختلفوا في الدار ظَلّت كأنها ... تُبَدِّد فيها الريحُ بِزْرَ قَطُونا[٥]
إذا طرقوا قِدْرِي مع الليل أصبحتْ ... بواطنُها مثلَ الظواهر جُونا
لهم نظرةٌ يُسْرَى ويُمْنَى إذا مَشَوْا ... كما مرّ مرعوبٌ يَخاف كَمِينا
ويَمشون صفّاً في الديار كأنما ... يَجُرّون خيطاً في التراب مَنِينا[٦]
وفي كل بيتٍ من بيوتيَ قَرْيةٌ ... تَضُمّ صنوفاً منهُم وفنونا

---

(١) حمش القوائم: دقاقها ـ والحرد: داء يصيب عصب يدي الدابة.
(٢) زنجان: بلد كبير قريب من أبهر وقزوين.
(٣) القدد: جمع قدرة، وهي القطعة من الشيء.
(٤) القطين: الخدم والأتباع ـ وقطين الدار: أهلها.
(٥) القطون: قد يراد بها القطن.
(٦) المنين: الضعيف من الحبال.

فيا مَنْ رأى بيتاً يَضيق بخمسةٍ وفيه قُرَيَّاتٌ يَسَعْنَ مِئينا

وأمّا القَمْلُ والصُّؤابُ ومَا قيلَ فيهمَا ـ قال الجاحظ: ذكروا عن إياس بن معاوية أنه يزعمُ أنّ الصِّئبان ذُكورةُ القمل، وأن القمل من الشكل الذي تكون إناثُه أعظمَ من ذُكورته.

قال الجاحظ: والقملُ يَعْتَري من العرَق والوَسَخ إذا علاهما ثوبٌ أو ريشٌ أو شعَر، حتى يكون لذلك المكانِ عَفَنٌ وخُمُوم. والقملةُ يكون لونُها بحسب لون الشعر في السَّوَادِ والبياض والشَّمَط[1] وفي لون الخِضاب، ويَنْصُل إذا نَصَل. قال: والقمل يَعْرِض لثياب كل إنسانٍ إذا عرَض لها الوسخُ أو العرقُ أو الخُمُومُ، إلا ثيابَ المُجذَّمين فإنهم لا يَقْمَلُون. وإذا قمِل إنسانٌ وأفرط عليه القملُ زَأْبَق[2] رأسَه فيتناثر القملُ. قال: وربما كان الإنسانُ قَمِلَ الطِّباع، وإن تنظّف وتعطّر وبدّل أثوابه، كما عَرض لعبد الرحمٰن بن عوف والزُّبير بن العَوّام رضي الله عنهما، حتى ٱستأذنا رسولَ الله ﷺ في لِباس الحرير، فأذِن لهما فيه لهذه الضرورةِ ولدَفْع هذا الضرر.

وقد وصف الشعراءُ القملَ في أشعارهم، فمن ذلك قولُ بعضِ العُقَيلِيِّين وقد مرّ بأبي العَلاَء العُقَيْلِيّ وهو يَتَفَلَّى، فقال:

وإذا مررتَ به مررتَ بقانِص مُتَصَيِّدٍ في شَرْقَةٍ مَقْرورِ[3]
للقمل حولَ أبي العَلاَءِ مَصارِعٌ ما بين مقتولٍ وبين عَقِيرِ[4]
فكأنهنّ إذا عَلَوْنَ قميصَه فَذٌّ وتَوْأَمُ سِمْسِمٍ مَقْشُورِ
ضَرِجَ الأناملَ من دماء قَتِيلِها حَنِقٌ على أُخرى بِعَدْوِ مُغِير

وقال الحسن بن هانيء[5] في رجل ٱسمه أيّوب: [من مجزوء الكامل]

مَنْ يَنْأَ عنه مَصَادُه فمَصَادُ أيّوب ثيابُهْ
يكفيه منها نظرةٌ فتُعَلّ من عَلَقٍ جِرابُهْ[6]
يا رُبّ مُحْتَرِزٍ بَجَيْـ ـبِ الرُّدْنِ تَكْنُفُه صُؤابُهْ
فاشِي النِّكاية غير مُعْـ ـلُومٍ إذا دَبّ ٱنسيابُهْ

(١) الشمط: اختلاط بياض الشعر بسواده.
(٢) زأبق الشيء: طلاه بالزئبق.
(٣) الشرقة: الشمس ـ والمقرور: من أصابه القر، وهو البرد.
(٤) العقير: الذي بقي مكانه لم يتقدم، أو يتأخر، لفزع أصابه.
(٥) هو مولى الحكم بن سعد العشيرة في اليمن وعرف بأبي نواس.
(٦) العلق: الدم.

أو طـــــامِـــــريٌّ واثِـــــبِ　　　لـم يُـنْـجِـه عـنـه وثـابُـهْ[1]
أهـــوى لـــه بـــمُـــزَلَّـــق الْـــ　　　ـعِـرْنِـيـنِ إصـبـعـه نِـصـابُـه[2]
لله درّك مـــــــن أخـــــــي　　　قَـــنَـــصٍ أصـــابِـــعُـــه كـــلابُـــه

(١) طاهر بن طاهر: هو البرغوث.
(٢) مزلق محدد: والعرنين: الأنف وعرنين كل شيء أوله. والنصاب: المقبض.

الْقِسْمُ الخَامِسُ

مِنَ الفَنِّ الثَالِثِ
في أجناسَ الطَّيرِ وأَنواعِ السَّمَكِ

وفيه سبعة أبواب: ستة منها في الطير، وباب في السمك، وذَيّلتُ عليه بباب ثامنٍ أوردتُ فيه ذكرَ شيء مما قيل في آلات صيد البرّ والبحر.

قال الجاحظ في كتاب الحيوان: إنّ الحيوان على أربعة أقسام: شيءٌ يطير، وشيء يعوم، وشيء يَنْساح[1]، وشيء يمشِي، إلاّ أنّ كل طائرٍ يمشي، وليس كلّ شيء، يمشِي طائراً. قال: واسم طائر يقع على ثلاثةِ أشياء: صورةٍ، وطبيعةٍ، وجَناحٍ؛ وليس بالرِّيش والقَوادم والأَبَاهِر[2] والخَوَافِي يسمى طائراً ولا بِعَدَمِهِ يسقُط ذلك عنه. أَلاَ تَرى أنّ الخُفّاشَ والوَطْواط من الطير وإن كانا أمْرَطَيْن لس لهما ريشٌ ولا زَغَب ولا شَكِير.

قال: والطيرُ كلُّه سَبُعٌ وبَهِيمةٌ وَهَمجٌ[3]. والسِّباع من الطير على ضربين: فمنها العتاقُ، والأحرارُ والجوارحُ. ومنها البُغاث، وهو كلّ ما عَظُم من الطير سَبُعاً كان أو بهيمة إذا لم يكن من ذوات السِّلاح والمخالب المُعَقَّفة كالنّسور والرَّخَم والغِرْبَانِ وما أشبهها من لئام السّباع، ثم الخِشَاشُ وهو ما لَطُف جِرْمُه وصغُر شخصُه وكان عديمَ السلاح.

وقال: إذا باض الطائرُ بيضاً لم تخرج البيضةُ من حدّ التحديد والتلطيف بل يكون الجانبُ الذي يبدأ بالخروج الجانبَ الأعظمَ. وما كان من البيض مستطيلاً محدّدَ الأطراف فهو للإناث، وما كان مستديراً عريض الأطراف فهو للذكور. والبيضةُ عند خروجها تكون ليِّنَةَ القشر غير جاسئةٍ[4] ولا يابسةٍ ولا جامدةٍ. قال: والبيض الذي

---

(١) انساح: سار في الأرض وبطنه تدنو منها لسمنه.

(٢) الأباهر: ما يلي الكلى من ريش الطائر. والكلى. آخر ما ينبت من الريش.

(٣) الهمج: ذباب صغير كالبعوض يقع على وجوه والحمير.

(٤) الجاسئة: الخشنة الصلبة.

يتولّد من الريح والتراب أصغرُ وألطفُ، وهو في الطِّيب دون الآخر، ويكون بيضُ الريح من الدّجاج والقَبج[١] والحمام والطاوس والإوَزّ. قال: وحَضْنُ الطائر وجُثومه على البيض يكون صلاحاً لبدن الطائر كما يكون صلاحاً لبدن البيض. قال: وزعم ناسٌ أنّ بيض الرِّيح إنما يكون عن سِفادٍ مُتَقَدِّم. وذلك خطأ من وجهين: أمّا أحدُهما، فإن ذلك قد عُرِف من فراريج لم تَرَ ديكاً قطُّ. والآخرُ أن بيض الرِّيح لم يكن منه فُرُوخٌ قطّ. وبيضُ الصَّيْفِ المحضونُ أسرعُ خروجاً منه في الشتاء.

فهذه جملٌ من أحوال الطير فرّقها الجاحظ في كتابه في عدة مواضع جمعناها وألّفنا بعضَها إلى بعض. فلنذكر كلَّ جنسٍ من الطير، ونشرح ما يخصّه من الكلام وما قيل فيه. وغيرُ الجاحظ قَسّم الطيرَ إلى أقسام، فجعل منها سِباعاً، وكلاباً، وبهائمَ، وبُغاثاً، ولَيْلِيّاً، وهَمَجاً؛ وعلى ذلك بوّبنا هذا القسم؛ على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى.

البَابُ الأَوّلُ
مِنَ القِسْمِ الخَامِسِ مِنَ الفَنِّ الثَّالِثِ
في سِبَاعِ الطَّيرِ

ويشتمل هذا البابُ على ما قيل في العُقاب والبُزَاة والصقور والشَّواهين، وأصناف ذلك، وما يتّصف به كلُّ طير منها وما فيه من الطبائع والعادة، وما يَصيد، وما فيه من الأمارات الدّالّة على نجابته وفَراهته، وغير ذلك مما تقف عليه إن شاء الله تعالى.

ذكرُ ما قيلَ في العُقَابِ

يقال: إنّ العُقَاب جميعه أنثى وليس فيه ذكر. ويُسمى عند أهل اللغة «العَنْقَاء». وهي «عُقَابٌ» و«زُمَّجٌ». فأما العُقاب فيقال: إنّ ذكورها من طيرٍ آخر لطيفِ الجِرْم. وهي تبيض في الغالب ثلاث بيضاتٍ فيخرج لها فرخان. قال الجاحظ: ثم أختلفوا، فقال بعضهم: لأنها لا تحضُن إلاّ بيضتين؛ وقال آخرون: قد تحضُن ويخرج لها ثلاثة أفراخ ولكنها ترمي بالواحد أستثقالاً للتكليف على ثلاثة؛ وقال آخرون: ليس ذلك إلاّ لما يعتريها من الضعف عند الصيد، كما يعتري النُّفَسَاءَ[٢] من الوَهْن والضعف. وهي

---

(١) القبج: طائر كالحجل يغير أصواته بأنواع شتى، ويعمر خمس عشرة سنة.
(٢) النفساء: المرأة التي ولدت. جمع نفساوات ونفاس.

تحضُن ثلاثين يوماً. وما عداها من الجوارح تبيض بيضتين في كل سنة وتحضُن عشرين يوماً.

قالوا: وفي طبع الذكر أنه يمتحن أُنثاه هل هي محافظة له أو مؤاتية لغيره من غير جنسه، بأن يصوّب نظر فرخيه إلى شُعَاع الشمس، فإن ثبت عليه تحقّق أنها فراخه وأمسكها، وإن نبا بصرُه عن شعاع الشمس ضرب الأنثى كما يضرب الرجلُ المرأة الزانيةَ وطردها من وكره ورمى بالفرخين.

والعُقاب خفيفة الجناح، سريعةُ الطيران، فهي إن شاءت اْرتفعت على كل شيء وإن شاءت كانت بقربه. يقال: إنها تتغذّى بالعراق وتتعشّى باليمن. وربما صادت حُمُرَ الوحش، وذلك أنها إذا نظرت الحمارَ رمتْ نفسها في الماء حتى يبتلّ جناحاها، ثم تتمرّغ في التراب وتطير حتى تقع على هامة الحمار، ثم تصفِّق على عينيه بجناحيها فتملؤها تراباً، فلا يرى الحمارُ أن يذهب فيؤخذ. وهي مُولعَة بصيد الحيّات. وفي طبعها قبل أن تتدرب أنها لا تراوغُ صيداً ولا تَعْنَى في طلبه، ولا تزال مُوفِيَةً على شَرَف عالٍ؛ فإذا رأت سِباعَ الطير قد صادت شيئاً اْنقضّتْ عليه، فتتركه لها وتنجو بنفسها. ومتى جاعت لم يمتنع عليها الذئبُ. وهي شديدة الخوف من الإنسان. ويقال: إنها إذا هَرِمت وثَقُل جَناحُها وأظلم بصرُها التمستْ غديراً، فإذا وجدتْه حَلْقت طائرةً في الهواء ثم تقع من حالِقٍ[1] في ذلك الغدير فتَنْغَمِس فيه مراراً، فيَصِحّ جسمُها ويَقْوَى بصرُها ويعود ريشُها ناشِئاً إلى حالته الأولى. وهي متى ثَقُلت عن النهوض أو عَمِيتْ حملتْها الفِراخُ على ظهورها ونقلتْها من مكان إلى آخر لطلب الصيد وتعولها إلى أن تموتَ. ومن عجيب ما أُلهِمتْ أنها إذا اْشتكت كَبِدَها رفعت الأرانبَ والثعالبَ في الهواء وأكلت أكبادَها فتبرأ. وهي تأكل الحيّاتِ إلاّ رُؤوسَها، والطيرَ إلا قلوبَها. قال اْمرؤ القيس:

كأنّ قلوبَ الطيرِ رَطْباً ويابِساً ... لَدَى وَكْرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالِي[2]

ومَنسِرُها[3] الأعلى يعظمُ ويتعقّفُ حتى يكون ذلك سببَ هلاكها؛ لأنها لا تنال به الطُّعْم إذا كان كذلك. وأوّلُ مَنْ صاد بها أهلُ المَغْرِب، وحُكي أنّ قيصر أهدَى إلى كِسْرى عُقَاباً، وكتب إليه: علِّمها فإنها تعملُ عَمَلاً أكثر من الصقور التي أعجبتْك. فأمر

(١) الحالق: المكان المرتفع المنيف.
(٢) الحشف من التمر: أردؤه، وهو الذي يجف ويصلب ويتقبض قبل نضجه فلا يكون له نوى ولا حلاوة ولا لحم.
(٣) المنسر: هو للطائر كالمنقار لغير الجارح.

بها فأُرسِلتْ على ظَبْيٍ عَرض لها فَقَدَّته، فأعجبه ما رأى منها؛ ثم جوّعها لِيَصِيدَ بها، فوثَبتْ على صبيّ من حاشيته فقتلتْه؛ فقال كسرى: غَزَانَا قيصر في بلادنا بغير جيش. ثم أهدي له نَمِراً وكتب إليه: قد بعثتُ إليك بما تقتل به الظِّبَاءَ وما قَرُبَ منها من الوحشِ؛ وكتَم عنه ما صنعتِ العقابُ. فأُعْجِبَ به قيصرُ. فغفَل عنه يوماً فافترس بعضَ فِتْيانِه؛ فقال: صادنا كِسرى؛ فإن كنّا صِدناه فلا بأس. فلمّا اتّصل ذلك بكسرى قال: أنا أبو سَاسَان.

وأجودُ العُقاب ما جُلِب من سُرْت[١] وبلادِ المغرب.

وقد وصفها الشعراءُ فمن ذلك ما قاله أبو الفَرَج البَبَّغاء[٢]: [من الرجز]

مـا كـلُّ ذاتِ مـخـلـبٍ ونـابِ ... مـن سـائـرِ الـجـارِحِ والـكـلابِ
بـمُـدْرِكٍ فـي الـجِـدّ والـطِّـلَابِ ... أيـسـرَ مـا يُـدْرَك بـالـعُـقَـابِ
شـريـفـةُ الـصِّـبـغـةِ والأنـسـابِ ... تـطـيـر مـن جَـنـاحـهـا فـي غـابِ
وتـسـتُـر الأرضَ عـن الـسَّـحَـابِ ... وتـحـجُـبُ الـشـمـسَ بـلا حِـجَـاب
يَـظَـلُّ مـنـهـا الـجـوُّ فـي اغـتِـرابِ ... مُـسْـتَـوْحِـشـاً لِـلـطـيـر كـالـمُـرْتـاب
ذكِـيَّـةٌ تـنـظـر مـن شِـهـاب ... ذاتُ جِـرانٍ واسـع الـجِـلْـبـاب[٣]
ومَـنْـكِـبٍ ضَـخْـمٍ أثِـيـثٍ رابِـي ... ومَـنْـسِـرٍ مُـوَثَّـقِ الـنِّـصـاب[٤]
وراحَـتَـيْ لـيـثٍ شَـرًى غـلّابِ ... نِـيـطـتْ إلـى بَـرَاثِـنٍ صِـلَابِ
مُـزْهَـفَـةٍ أمـضـى مـن الـحِـرابِ ... وكـلُّ مـا حـلَّـق فـي الـضَّـبـاب
* لِـمُـلْـكِـهـا خـاضـعـةُ الـرِّقـاب *

وأمّا الزُّمَّج ـ فهو الصِّنف الثاني من العُقَاب، ويُعدّ من خِفَاف الجوارح. وهو سريعُ الحركةِ شديدُ الوَثْبة. ويُوصف بالغدر. ومن عادته أنه يتلقّف الطائرَ كما يتلقّفه البازي، ويَصيد على وجه الأرض كما تصيد العقابُ، ويُحمد من خَلْقه أن يكون أحمرَ اللون ولا يُحمد ما قُرْنِص[٥] منه وَحْشِياً.

---

(١) سرت: مدينة على ساحل بحر الزوم.
(٢) هو عبد الواحد بن نصر بن محمد الببغاء المخزومي الشامي (أبو الفرج) شاعر، ناثر، تنقل في البلاد ومدح سيف الدولة والكبار. كانت وفاته سنة ٣٩٨ هجرية (معجم المؤلفين ٦ : ٢١٤).
(٣) الجران: باطن العنق، أو مقدمه.
(٤) الأثيث: الكثير والعظيم من كل شيء.
(٥) المقرنص: المقتنى للاصطياد.

وقد وصفه أبو الفَرَج البَبَّغاء فقال: [من الرجز]

يـا ربَّ سِـرْبٍ آمِـنٍ لـم يُـزْعَـجِ غـاديـتُـه قـبـلَ الـصَّـبـاح الأَبْـلَـجِ
بِـزُمَّـجٍ أذلَـقَ حُـوشٍ أَهْـوَجِ مُضبَّرِ المَنْكِبِ صُلْب المَنْسِجِ(١)
ذي قَـصَـبٍ عَـبْـلٍ أصـمَّ مُـدْمَـجِ وجُـؤْجُـؤٍ كـالـجَـوْشَـنِ الـمُـدَرَّجِ(٢)
وعُـنُـقٍ سـامٍ طـويـلٍ أعـوجِ ومَـنْـسِـرٍ أقْـنـى فَـسـيـح مُـشْـرَجِ(٣)
مُنْخَرِق المَدْخَلِ رَحْب المَخْرج ومـقـلـةٍ تَـشِـفُّ عـن فَـيْـرُوزَجِ
نـاظـرةٍ مـن لَـهَـبٍ مـؤجَّـجِ وهـامـةٍ كـالـحـجـر الـمُـدَمْـلَـجِ
* ومِـخْـلَـبٍ كـالـمِـعْـوَل الـمُـعَـوَّجِ *

ذكرُ مَا قِيلَ في البَازِيّ

قالوا: والبازي خمسة أصناف، وهي البازي، والزُّرَّقُ والباشَقُ، والعَفْصِيُّ، والبَيْدَقُ.

فأمّا البازي ـ فهو الثاني من الجوارح، وهو أحرّ هذه الأصناف الخمسة مِزاجاً، لأنه قليلُ الصبر على العطش. ومأواه مَساقِطُ الشجر العادِيّة الملتفّة والظلُّ الظَّليل ومُطَّرَدُ المياه. وهو لا يتخذ وَكْراً إلا في شجرة لها شَوْك. وإذا أراد أن يُفَرِّخ بَنَى لنفسه بيتاً وسقفه تسقيفاً جيّداً يقِيه من المطر ويدفع عنه وَهَجَ الحرّ. وسبيله في البرد أن يُدْفأ بالنار ويُجعَل تحت كَفَّيْه وبرُ الثعالب واللُّبودُ(٤)؛ وفي الصيف أن يُجعل في بيت كَنِينٍ باردِ النَّسيم ويُفرشَ له الرَّيْحانُ والخَلافُ(٥). وهو خفيف الجَناح، سريع الطيران، يَلُفُّ طيرانَه كالْتفافِ الفَوَاخِتِ(٦)؛ ويَسهُل عليه أن يَزُجَّ بنفسه صاعداً وهابطاً وينقلبَ على ظهره حتى يلتَقِفَ فريستَه. والإناثُ منه أجرأ على عِظام الطير من الذُّكور. ويقال: إن الإناث إذا كان وقتُ سِفَادِها يغشاها جميعُ أنواع الضَّوَاري: الزُّرّق والشاهين والصَّقْر،

---

(١) الدلق: خروج الشيء من مخرجه سريعاً ـ الحوش: القويّ ـ والمضبر: الذي اكتنز لحمه ـ ومنسج الدابة: ما بين العرف وموضع اللبد.

(٢) الجؤجؤ: الصدر ـ والجوشن: الدرع.

(٣) المنسر: هو للطائر كالمنقار لغير الجارح.

(٤) اللبود: جمع اللبد، وهو كل شعر أو صوف متلبد؛ أو هو ما يوضع تحت السرج؛ أو هو ضرب من البسط.

(٥) الخلاف: صنف من شجر الصفصاف.

(٦) الفواخت: جمع فاختة، وهي من ذوات الأطواق.

وإنها تبيض من كل طائر يغشاها؛ ولهذا تجيء مختلفةَ الأخلاقِ. والبازي يصيد ما بين العصفور والكُرْكِيّ[١]. ومن عادته أنه إذا أخطأ صيدَه وفاتَه وكان في بَرِّيَّةٍ لا شجر فيها ولّى مُمْعِناً حتى يجدَ كهفاً أو جِداراً يأوِي إليه؛ ولهذا عُلِّقَ عليه الجرسُ ليَدُلَّ على مكانه إذا خَفِي.

وصفةُ الجيّد منه المحمودِ في فعله أن يكون قليلَ الريش، أحمرَ العينيْن حادَّهما وأن تكونا مُقْبِلتين على مِنْسَره وحِجاجَاهما[٢] مُطِلَّين عليهما، ولا يكون وضعهما في جنبيْ رأسه كوضعِ عيني الحمام. والأزرقُ منه دون الأحمر العينِ؛ والأصفرُ دونهما. وسَعَةُ أشداقه تدلُّ على قوّة الافتراس. ومن صفاته المحمودة أن يكون طويلَ العنق، عريضَ الصدر، بعيدَ ما بين المَنْكِبين، شديدَ الانخراط إلى ذَنَبه، وأن تكون فخِذاه طويلَتين مُسَرْوَلَتين بريش، وذراعاه قصيرتَين غليظتَين، وأشاجِع[٣] كَفَّيْه عاريةً، وأصابعُه متفرقةً، ولا تكون مجتمعةً ككفِّ الغراب، ومخلَبُه أسود، ويكون طويل المِنْسَر دقيقه. وأفخرُ ألوانهُ الأبيضُ ثم الأشهبُ، وهما لونان يدُلاّن على الفراهة والكرم. وأما الأسود الظهرِ المُنَقَّش الصدرِ بالبياض والسواد فهو يدلّ على الشدّة والصَّلابة. وإن اتّفقَ أن يكون هذا أحمرَ العين كان نِهايةً. وهذا اللونُ في البُزاة كالكُمَيْت في الخيل. والأحمرُ في البُزَاة أخبَثُها وبعضُ الناس يقول: أشرفُ البُزاة الطُّغْرُل، ثم البَازي التامُّ وهو الذي وصفناه آنِفاً. والطُّغْرُل: طائرٌ عزيزٌ نادرُ الوقوع لا يعرِفه غيرُ التُّركِ، لأنه يكون في بلاد الخَزَر وما والاها وما بين خُوارَزْم إلى أَرْمِينِيَة، وهو يَجمع صيدَ البازي والشاهين. وقيل: إنه لا يَعْقِر شيئاً بمخْلَبه إلاّ سمّه.

وأوّلُ من صاد البازي «لُذَريقُ» أحدُ ملوك الروم الأوَل؛ وذلك أنه رأى بازياً إذا علا كَتَف[٤] وإذا سفَل خَفَق[٥]، وإذا أراد أن يسموَ دَرَقَ[٦]؛ فاتّبعه حتى اقتحم شجرةً ملتفةً كثيرةَ الدَّغَل؛ فأعجبته صورتُه، فقال: هذا طائر له سلاحٌ تتزيّن بمثله الملوكُ؛ فأمر بجمع عدّة من البُزاة فجُمِعت وجُعِلت في مجلسه. فعرَض لبعضها أَيْم[٧] فوثَب عليه؛ فقال: مَلِكٌ يغضَب كما تغضب الملوكُ. ثم أمرَ به فنُصِب على كُنْدُرةٍ[٨] بين

---

(١) الكركيّ: طائر يقرب من الوز أبتر الذنب رماديّ اللون.

(٢) الحجاج: العظم المستدير حول العين.

(٣) الأشاجع: رؤوس الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف.

(٤) الكتف: ضرب من الطيران.

(٥) خفق الطائر: طار. (٦) درق: أسرع.

(٧) الأيم: الحية.

(٨) كندرة البازيّ: مجثمه الذي يهيأ له من خشب أو مدر.

يديه، وكان هناك ثعلبٌ فمرّ به مجتازاً، فوثَب عليه فما أفلتَ منه إلاّ جريحاً؛ فقال لُذَريقُ: هذا جَبَّارٌ يمنع حِمَاه. ثم أمر به فضُرِّيَ[1] على الصيد؛ واتّخذتْه الملوكُ بعده.

وقد وصفته الشعراءُ والأدباء، فمن ذلك قولُ الناشِيء: [من الرجز]

لـمـا تَـعَـرَّى الـلـيْـلُ عـن أَنْـسَـاجِـه ... وأرتـاح ضـوءُ الـصـبـح لانـبـلاَجِـهِ
غَـدَوْتُ أبـغـي الـصـيـدَ من مِـنْـهـاجِـه ... بـأقْـمَـرٍ أُبْـدِع فـي نِـتَـاجِـه
ألـبَـسـه الـخـالـقُ مـن دِيـبـاجِـه ... ثـوبـاً كـفـى الـصـانـعَ من نِـسَـاجِـه
حـالٍ مـن الـسـاق إلـى أوْدَاجِـه ... وَشْـيـاً يَـحـار الـطَّـرْفُ فـي أنـدِرَاجِـه
فـي نَـسَـقٍ مـنـه وفـي أنـعـراجِـه ... وزانَ فَـوْدَيْـه إلـى حِـجَـاجِـه[2]
بـزيـنـةٍ كَـفْـتُـه عِـزّ تـاجِـه ... مَـنْـسِـرُه يُـثْـنـي عـلـى خِـلاَجِـه
وظُـفْـره يُـخـبـر عـن عِـلاجِـه ... لـو أسـتـضـاء الـمـرء فـي إدلاجِـه

* بـعـيـنـه كـفـتْـه عـن سِـرَاجِـه *

وقال أبنُ المعتزّ يصف عينَ البازي:

ومـقـلـة تَـصْـدُقُـه إذا رَمَـقْ ... كـأنـهـا نَـرْجَـسـةٌ بـلا وَرَقْ

وقال أيضاً فيه:

وفـتـيـانٍ غَـدَوْا والـلـيـلُ داجٍ ... وضـوءُ الـصـبـح مُـتَّـهَـمُ الـطـلـوعِ
كـأن بُـزَاتَـهـم أمـراءُ جـيـشٍ ... عـلـى أكـتـافـهـا صـدأُ الـدُّروعِ

وقال أيضاً: [من الرجز]

ومَـنْـسِـرٍ عَـضْـبِ الـشـبـاةِ دامـي ... كـعَـقْـدِك الـخـمـسـيـن بـالإبـهـامِ[3]
وخـافـقٍ لـلـصّـيـد ذي أصْـطِـلامِ ... يـنـشُـرُه لـلـنَّـهْـض والإقـدامِ[4]

* كَـنَـشْـرِكَ الـبُـرْدَ عـلـى الـمُـسْـتـامِ *

ووصفه أبو إسحاق إبراهيم بن خَفَاجة الأندلسيّ فقال من رسالة:

«طائرٌ يُستدلّ بظاهرِ صفاته، على كرم ذاته؛ طوراً ينظر نظرَ الخُيَلاء في عِطْفِه كأنمّا يُزْهَى جبّار، وتارةً يَرمِي نحوَ السماء بِطَرْفه كأنما له هناك أعتبار. وأخلِقْ به أن

---

(١) ضري على الصيد: أكره وعوّد عليه.
(٢) الحجاج: العظم المستدير حول العين.
(٣) طريقة حسابية كانت معهودة عند العرب وتعرف بحساب عقود الأصابع.
(٤) نشر: بسط.

ينقضّ على قَنِيصِه شِهاباً، ويَلْوِي به ذَهاباً، ويُحْرِقه تَوَقّداً والْتهاباً. وقد أقيم له سابغُ الذُّنَابَى والجَناح، كَفِيلَيْن في مطالبه بالنّجاح. جيّد العين والأَثَر حديدُ السمع والبصر. يكاد يُحسّ بما يجري ببال، ويَسْرِي من خيال. قد جمع بين عزّة مليك، وطاعةِ مملوك، فهو بما يَشتمل عليه من علوّ الهمة، ويَرجع إليه بمقتضى الخدمة؛ مُؤَهَّل لإحراز ما تقتضيه شمائلُه، وإنجازِ ما تَعِدُ به مَخَايلُه. وخليق بمُحْكَم تأديبه، وجَوْدَةِ تركيبه؛ أن لو مَثَلَ له النجمُ قَنَصا، أو جرى بذكره البرقُ قَصَصا؛ لاختطفه أسرعَ من لَحْظه، وأطوعَ من لَفْظه؛ وانْتسفه[1] أمضى من سهم، وأجرى من وَهْم. وقد أقسم بشرف جوهره، وكريم عُنصره، لا يُوجَّه مُسَفَّراً، إلا غادر قَنِيصَه مُعَفَّرا[2]، وآبَ إلى يد من أرسله مُظَفَّراً؛ مُورَّد المِخْلب والمِنقار، كأنما اُخْتَضَب بحنّاء أو كَرَعَ في عُقَار»[3].

وله من أبيات يمدح بها: [من الكامل]

طـرَدَ الـقـنـيـصَ بـكـلّ قَـيْـدِ طـريـدةٍ زَجِـلَ الـجَـنـاح مـورَّدَ الأظـفـارِ[4]

مُـلْـتَـفَّـةً أعـطـافُـه بـحَـبِـيـرةٍ مـكـحـولـة أجـفـانُـه بـنُـضَـارِ[5]

يَـرمـي بـه الأمـدَ الـبـعـيـدَ فـيَـنْـثـنـي مـخـضـوبَ راءِ الـظُّـفْـر والـمـنـقـارِ

وأمّا الزُّرَّقُ ـ وهو الصِّنف الثاني من البازي، هو باز لطيفٌ، إلا أن مِزَاجَه أحرُّ وأيْبَس، وهو لذلك أشدُّ جَناحاً وأسرعُ طَيَراناً وأقوى إقداماً. وفيه خَتْلٌ وخُبْثٌ؛ وذلك أنه إذا أُرسِل على طائر طار في غير مَطَاره ثم عطفَ عليه وأظهر الشدّة بعد اللين. وخيرُ ألوانه الأسودُ الظهرِ الأبيضُ الصدرِ الأحمرُ العين. ووصفُه المحمود منه أن يكون أعدلَها خَلقاً، وأقلَّها رِيشاً، وأثقلَها مَحْمِلاً، وأملأها فَخذاً، وأرحبَها شِدْقاً، وأوسَعها عيْناً، وأصغرَها رأساً وأصفاها حَدَقةً، وأطولَها عُنُقاً، وأقصَرها خافِيةً، وأشدَّها لَحْماً، وأن يكون أخضرَ الرجلين، وسيعَ المخالب، مُتَعَرِّياً من اللحم. والله أعلم.

وأمّا الباشقَ ـ وهو الصنف الثالث من البازي. وهو أحرّ وأيْبَسُ من الزُّرّق، وهو هَلِعٌ قَلِقٌ ذَعِر، يأنَس وقتاً ويَستوحِش وقتاً. ونفسُه قويّة جافيةٌ. فإذا أَنِس منه الصغيرُ بُلِغ منه كلُّ المراد. وأجودُ البَاشق ما أُخِذ فرخاً لم يُلْقِ من قوادِمه رِيشة. وهو متى تمّ

(١) انتسف الطائر الشيء عن وجه الأرض: قلعه.
(٢) المعفر: الذي مسح بالتراب.
(٣) العقار: الخمر.
(٤) الزجل: رفع الصوت والجلبة.
(٥) الحبر في البرود: الموشى المخطط.

تأنيسُه وُجِد منه بازٍ خفيفُ المَحْمَلِ ظريفُ الشمائل.

ومن صفاته المحمودةِ أن يكون صغيرَ المَنْظَرِ، ثقيلَ المَحْمَلِ، طويلَ الساقينِ والفخِذين، عظيمَ السِّلاح بالنسبة إلى جسمه.

وقال بعضُ الشعراء يصفه: [من المتقارب]

إذا بــارك الــلَّــهُ فــي طــائــرٍ — فَـخـص مـن الـطـيـر اسْـبَـهْـرَقِـي
لـه هـامـةٌ كُـلِّـلَـت بـالـلُّـجَـيْـنِ — فـسـال الـلُّـجَـيْـنُ عـلـى الـمَـفْـرِقِ
يُـقَـلِّـب عـيـنـيـن فـي رأسـه — كـأنـهـمـا نـقـطـتـا زئـبَـقِ
واشْـرَبَ لـونـاً لـه مُـذْهَـبـاً — كـلـون الـغـزَالـة فـي الـمَـشْـرِق
حِـمـامُ الـحَـمـامِ وحَـتْـفُ الـقَـطـا — وصـاعِـقَـةُ الـقَـبْـجِ والـعَـقْـعَـقِ[(١)]
وأحـنـى عـلـيـك إلـى أن يـعـود — إلـيـك مـن الـوالـد الـمُـشـفِـقِ
فـأكْـرِمْ بـه وبـكـفُّ الأمـيـر — وبـالـدَّسْـتَـبَـانِ إذا يَـلْـتَـقِـي[(٢)]

وقال أبو الفتح كُشَاجِم: [من الطويل]

يسمو فيَخْفَى في الهواء ويَنْكَفِي — عَجِلاً فينقضُّ أنقضاضَ الطارق
وكأن جُؤجُؤَه وريش جناحِه — خُضِبا بنَقْش يدِ الفتاةِ العاتِقِ[(٣)]
وكأنما سكَن الهوى أعضاءَه — فأعارهنّ نحولَ جسمِ العاشقِ
ذا مقلةٍ ذهبيّةٍ في هامةٍ — محفوفةٍ من ريشها بحدائقِ
ومخالبٍ مثلِ الأهِلَّةِ طالما — أدْمَيْنَ كفَّ البَازيارِ الحاذِقِ
وإذا أنبرى نحوَ الطريدةِ خِلْتَه — كالرِّيح في الأسماع أو كالبارق
وإذا دعاه البَازيار رأيتَه — أدْنَى وأطوعَ من محبٍّ وامقِ[(٤)]
وإذا القَطاةُ تخلّفتْ من خوفه — لم يَغْدُ أن يهوي بها من حالِقِ

ومن رسالة لبعض فضلاء الأندلس، جاء منها:

«كأنما اكتحَلَ بلَهَب، أو أنتعل بذهب. ملتفٌ في سِبْرِه، وملتحفٌ بِجَبْرِه. من سيوفه مِنقارُه، ومن رماحه أظفارُه. ومن اللواتي تتنافس الملوكُ فيها، تُمسكها عُجْباً بها

(١) القبج: الحجل، وهو جنس طيور تصاد.
(٢) الدستبان: الضارب بالدستان، وهي النغمة بالفارسية.
(٣) العاتق: الجارية أول ما أدركت والتي لم تتزوج.
(٤) الوامق: المحب.

وتيهاً. فهي على أيديها آيةٌ بادية. ونعمةٌ من الله نامية، تَبذُل لك الجهدَ صُراحاً، وتُعيرك في نَيْل بُغْيتك جَناحاً. وتَتّفق معك في طلب الأرزاق، وتأتَلِف بك على ٱختِلاف الخَلْق والأخلاق. ثم تلوذ بك لِياذَ من يَزْجوك، وتفي لك وفاءً لا يلتزمه لك ٱبنُك ولا أخوك». ثم ذكرَ حمامةً صادها، فقال: «اِختطفَها أسرعَ من اللَّحظ، ولا مَحِيدَ لها عنه، وٱنحدر بها أعجلُ من اللَّفظ، وكأنها هي منه؛ ثم جعل يتناولها بعَقْد السبعين، ويُدْخلها في أضيقَ من التسعين. وكان لها موتاً عاجلاً، وكانت له قُوتاً حاصِلاً». والله الهادي للصواب.

وأمّا العَفْصِيُّ ـ وهو الصنف الرابع من البازي. وهو من الباشَق كالزُّرّق من البازي، إلا أنّه أصغرُ الجوارح نَفْساً، وأضعفُها حِيلةً، وأشدُّها ذُعراً، وأَيْبَسها مِزاجاً. وربما صاد العصفورَ وتركه لخوفه وحَذَره. ومن عادته أنّه يَرْصُد الطيرَ أيام حِضَانِه، فإذا طار عن وَكْرِه خلَفَه فيه وكسَر بيضَه ورماه وباض مكانَه وطار عنه فيحضُنه صاحبُ الوكر؛ فهو أبداً لا يحضُن ولا يُرَبِّي.

وأمّا البَيْدَق ـ وهو الصنف الخامس من البازي، وهو لا يصيد غيرَ العصافير. وقد وصفه كُشَاجِمُ فقال: [من الرجز]

حَسْبي من البُزاةِ والزَّرارِقِ ... بِبَيْدَقٍ يصيد صيدَ الباشَقِ
مُؤَدَّبٍ مُدَرَّبِ الخلائِق ... أَصْيَد من معشوقةٍ لعاشِقِ
يَسْبِق في السُّرعة كلَّ سابقِ ... ليس له عن صيده من عائقِ
رَبَّيْتُه وكنتُ عينَ الواثِق ... أن الفَرَازِين من البَيَادق(١)

ذكرُ ما قِيلَ في الصَّقْرِ

والصقرُ ثلاثةُ أصنافٍ، وهي صقرٌ، وكَوْنَجٌ، ويُؤيُؤٌ.

فأمّا الصقر ـ هو النوع الثالث من الجوارح. والعرب تُسمّي كل طائرٍ يصيد صقراً، ما خلا النّسر والعُقَاب، وتسمّيه «الأكدرَ» و«الأجدل». وهو من الجوارح بمنزلة البغال من الدّوابّ، لأنه أصبر على الشدّة وأشدُّ إقداماً على جلّة الطير كالكَرَاكيّ والحَبَارج(٢). قالوا: ومِزاجُه أبردُ من سائر ما تقدم ذِكرُهُ من الجوارح وأرطب. وهو يُضَرَّى على الغزال والأرنب ولا يُضَرَّى على الطير لأنها تفوتُه. وفعلُه في صيده

---

(١) الفرازين: جمع فرزان، وهو الملكة بالفارسية.
(٢) الحبارج: واحدتها حبرج (بضم أوله)، وهو من طير الماء.

الانْقِضاض والصَّدْمُ. وهو غير صافٍّ[1] بجناحه ولا خافقٍ به. ومتى خفقَ بجناحه كانت حركتُه بطيئةً بخلاف البازي. ويقال: إنه أَهْدأُ نفساً من البازي، وأسرع أُنساً بالناس، وأكثر رِضاً وقناعةً، وهو يَغْتَذِي بلحوم ذواتِ الأَرْبَع. وهو يَعاف المياهَ ولا يَقْرَبُها، وذلك لبَرْد مِزاجِه. وفي طبعه أنه لا يركب الأشجارَ ولا الشوامخَ من الجبال، ولا يأوي إلاّ المقابرَ والكهوفَ وصدوعَ الجبال. وهو يَنْقَى بالتَّمَعّك[2] في الرّمل والتراب.

ومن صفاته المحمودة الدّالّة على نجابتِه وفراهتِه: أن يكون أحمرَ اللّون، عظيمَ الهامة، واسعَ العينين، تامَّ المنسر، طويلَ العنق والجناحين، رَحْبَ الصدر، ممتلىء الزَّوْر، عريضَ الوسط، جليلَ الفخذين، قصيرَ الساقَين والذَّنَب، قريبَ القَفْدَة[3] من الفَقَار، سَبْطَ الكفّ، غليظَ الأصابع فَيْرُوزجَها، أسودَ اللسان، والله الموفّق.

وأوّلُ مَنْ صاد بالصقر وضَرَّاه الحارثُ بن معاوية بن ثَوْر بن كِنْدة. وسببُ ذلك أنه وقف في بعض الأيام على صيّاد قد نَصب شبكةً للعصافير، فأنقضّ أَكْدَرُ على عصفور قد عَلِق في الشبكة فجعل يأكله وقد علِق الأكدر وأندقّ جناحاه، والحارثُ ينظر إليه ويَعْجَبُ من فعله، فأمر به فَحُمِلَ فرُمِيَ به في كِسْرِ بيتٍ ووُكِّل به من يُطْعمه؛ وأنِس الصقرُ بالموكَّل به، حتى صار إذا جاءه باللحم ودعاه أجاب؛ ثم صار يُطْعِمه على يده وصار يحمله. فبينما هو يوماً حامِلُه إذ رأى حمامةً، فطار عن يده إليها فأخذها وأكلها، فأمر الحارث عند ذلك بأتّخاذها وتَذْرِيبها والتصيّد بها. فبينا هو يسير يوماً إذ لاحت أَرْنبٌ فطار الصقرُ إليها وأخذها؛ فلما رآه يصيد الطيرَ ويأكله أزداد به إعجاباً وأغتباطاً، وأتخذتْه العرب بعده.

ووصفه الشعراء؛ فمن ذلك ما قاله كُشَاجِم يصفه: [من الطويل]

غَدَوْنَا وطَرْفُ النجمِ وَسْنَانُ غائِرُ ... وقد نزل الإصباحُ والليل سائرُ
بأجْدَلَ من حُمْرِ الصقور مؤدَّبٍ ... وأكرمُ ما قَرَّبْتَ منها الأحامرُ[4]
جريءٌ على قتل الظِّباء وإنّني ... لَيُعْجِبني أنْ يَكْسِر الوحشَ طائرُ
قصيرُ الذُّنَابَى والقُدَامَى كأنّها ... قَوَادِمُ نَسْرٍ أو سيوفٌ بواترُ[5]

(١) صفّ الطائر جناحيه. بسطهما ولم يحركهما.
(٢) التمعك: التمرغ.
(٣) القفد: جزء من جانب الرأس الخلفي.
(٤) الأحامر: واحدتها أحمر.
(٥) القدام: ما يوضع على الفم سداداً له.

ورُقِّشَ منه جُؤجؤٌ فكأنّه ... أعارتْه إعجامَ الحروف الدّفاترُ
فما زلتُ بالإضمارِ حتى صنعتُه ... وليس يحوز السبقَ إلاّ الضَّوامرُ
وتحمِلُه منّا أكفٌّ كريمةٌ ... كما زُهِيت بالخاطِبين المنابرُ
وعَنّ لنا من جانب السَّفْح رَبْرَبٌ ... على سَنَنٍ تَسْتَنّ منه الجآذِرُ[١]
فجلّى وحُلّت عُقْدةُ السير فأنتحى ... لأوّلها إذ أمكنته الأواخرُ[٢]
يَحُثّ جناحيه على حُرّ وجهها ... كما فُصِّلَتْ فوق الخدود المَعَاجِرُ[٣]
وما تَمّ رَجْعُ الطَّرْف حتى رأيتُها ... مُصَرَّعَةً تَهْوِي إليها الخَنَاجِرُ

وقال عبد الله بن المعتز: [من الرجز]

وأجدلٍ يفهم نُطْقَ الناطقِ ... مُلَمْلِم الهامةِ فَخْمِ العاتِقِ[٤]
أفنى المَخالِبِ طلوبٍ مارِق ... كأنها نُونَاتُ كفٍّ ماشِق
ذي جُؤجؤٍ لابِس وَشْيٍ رائقِ ... كَمُبْتَدا اللاّمات في المَهَارِق[٥]
أو كامتدادِ الكحل في الحَمَالِق ... ونَجَّمَتْ باللّحظ عينُ الرامِق
عَشْراً من الإوَزِّ في غَلاَفِقِ ... فمرّ كالرِّيحَ بعَزْمٍ صادِق[٦]
حتى دنا منهنّ مثلَ السارِق ... ثم علاها بجَناح خافِقِ

* فطَفِقَتْ من هالكٍ أو فائِقِ[٧] *

وقال أيضاً: [من الرجز]

وأجدلٍ لم يَخْلُ من تأديبِ ... يَرى بعيد الشيء كالقريبِ
يَهْوي هُوِيَّ الدَّلْوِ في القَلِيبِ ... بناظرٍ مُسْتَغْجَمٍ مقلوب
كناظِرِ الأقبَل ذي التَّقْطِيبِ ... رأى إوَزّاً في ثَرَى رَطِيبِ[٨]
فطار كالمُسْتَوْهِلِ المرعوبِ ... ينفُذ في الشمال والجَنوبِ

---

(١) الربرب: القطيع من الظباء ومن البقر الوحشي والأنسي.
(٢) انتحى: قصد، أو مال إلى ناحية.
(٣) المعاجر: واحدتها المعجر، وهو ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها.
(٤) الململم: المجمع المدور المضموم.
(٥) المهارق: واحدتها المهرق، وهو الصحيفة البيضاء يكتب فيها.
(٦) الغلافق: واحدتها غلفق، وهو الطحلب.
(٧) يقال: فاق الرجل: إذا كانت نفسه على الخروج.
(٨) الأقبل: الذي أقبلت حدقتاه على أنفه.

وأمّا الكَوْنَجُ ـ وهو الصنف الثاني من الصقر. ويُسمَّى بمصر والشأم السّقاوية. ونسبتُه من الصقر كنسبة الزُّرَّقِ من البازي، إلا أنه احَرُّ منه؛ ولذلك هو أخفُّ منه جَناحاً. وهو يصيد الأرنبَ، ويعجز عن الغزال لصغره؛ ويصيد أشياء من طيرِ الماء. وشدّةُ نَفْسه أقلُّ من شدّة بدنه؛ ولأجل ذلك أطول في البيوت لُبْثاً، وأصبرُ على مقاصاة الشقاء من الصقر. وفي وصفه يقول بعضُ الشعراء: [من الرجز]

إن لم يكن صقرٌ فعندي كَوْنَجْ كأنّ نَقْشَ ريشه المُدَرَّجْ
بُرْدٌ من المَوْشِيّ أو مُدَبَّجْ فكم به للطير قلبٌ مُزْعَجْ
مُمَزَّقٌ بدَمِه مُضَرَّجْ بمثله عنّا الهموم تُفْرَجْ

وأمّا اليُؤيُؤ ـ وهو الصِّنف الثالث من الصقر. ويسمّيه أهل مصر والشأم «الجَلَم» لخفّة جناحَيه وسرعتهما. وهو طائر قصير الذَّنَب. ومِزاجه بالإضافة إلى الباشَق باردٌ رَطْبٌ، لأنه أصبر منه نَفْساً وأثقلُ حركةً. ويشرب الماءَ شرباً ضرورياً كما يشربه الباشَقُ. ومِزاجه بالنسبة إلى الصقر حارٌّ يابس، ولذلك هو أشجع منه، لأنه يتعلّق بما يفترسه، ويصيد ما هو أجلّ منه كالدُّرّاج. ويقال: إنّ أوّل من صاد به واتَّخَذَه لِلَّعب بَهْرام جُور؛ وذلك أنه شاهد يُؤيؤاً يُطارد قُبَّرةً ويُرَاوِغها ويرتفع معها إلى أن صادها؛ فأعجبه واتّخذه وصاد به.

وقال عبد الله النّاشىء يصفه:

ويؤيؤٍ مهذَّبٍ رشيقِ كأنّ عينيه على التحقيق
* فَصّانِ مخروطانِ من عَقِيقِ *

وقال أبو نُوَاس: [من الرجز]

قَدْ أغتدِي والصبحُ في دجاه كطُرّة البُرْد على مَثْنَاهُ(١)
بيؤيؤٍ يُعْجِب من رآه ما في اليآيي يؤيؤٌ شَرْواه(٢)
أزرقُ لا تكذِبه عيناه فلو يرى القانصُ ما يراه
* فدّاه بالأُمّ وقد فَدّاه *

وقال أبو إسحاق الصّابي(٣) يصفه من رسالة:

---

(١) الطرّة: الجبهة.

(٢) شروى الشيء: نظيرة.

(٣) هو إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة الصابىء، الحراني (أبو إسحاق)، عالم بأنواع الحكمة، والغالب عليه علم الهندسة، وله مصنفات كثيرة. كانت وفاته سنة ٣٣٥ هجرية. (معجم المؤلفين ١: ٣٦).

«وكم من قُبَّرٍ أطلقنا عليه يؤيؤاً لنا فعَرَج إلى السماء عُروجاً، ولجّجَ في أثَرِه تلجيجاً؛ فكان ذلك يعتصم منه بالخَلّاق، وهذا يَستطعِمُه من الرّزّاق؛ حتى غابا عن النُّظّار، واحتجبا عن الأبصار؛ وصارا كالغَيْب المُرَجَّم، والظنْ المتوهَّم؛ ثم خِطفه ووقع به وهما كهيئة الطائر الواحد؛ فأعجَبنا أمرُهما، وأطربَنا منظرُهما».

ذكرُ مَا قِيلَ في الشَّاهِينِ

والشاهينُ ثلاثة أصناف، وهي شاهين، وأَنِيقي، وقَطَامِيّ.

فأما الشاهين ـ واسمه بالفارسية شَوْذَانه، فعرّبته العربُ على ألفاظ شَتَّى منها: شُوذانِق وشَوْذَق وشَوْذَنيق وشَيْذَنُوق. ويقال: إنه من جنس الصقر إلا أنه أبردُ منه وأيبس؛ ولذلك تكون حركتُه من العُلْو إلى السُّفْل شديدةً، وليس يحلّق في طلب الصّيد على خطّ مستقيم إنما يحوم لثِقَل جَناحه، حتى إذا سامتَ الفريسةَ انقضّ عليها هاوياً من عُلْوٍ فضربها وفارقها صاعداً؛ فإن سقطتْ على الأرض أخذها، وإن لم تسقُط أعاد ضربَها لتسقط؛ وذلك دليلٌ على جُبْنه وفتورِ نَفْسه وبَرْد مِزاج قلبه. ومع ذلك كلِّه فهو أسرعُ الجوارح وأخفُّها وأشدُّها ضَرَاوةً على الصيد. إلاّ أنهم عابوه بالإِبَاق[١] وبما يعتريه من الحِرْص؛ حتى إنه ربما ضرب بنفسه الأرضَ فمات. ويزعمون أنّ عظامَه أصلبُ من عظام سائر الجوارح؛ ولذلك هو يضرِب بصدره ويعلَق بكفِّه.

وقال بعضُ من تكلّم في هذا النوع: الشاهين كاسمه. يريد شاهي[٢] الميزان لأنه لا يحتمل أدنى حال من الشِّبَع ولا أيسَر حالٍ من الجوع.

والمحمودُ من صفاته: أن يكون عظيمَ الهامَة، واسعَ العينين حادَّهما، تامَّ المِنْسَر، طويلَ العنق، رَحْبَ الصدر ممتلىء الزَّوْر، عريضَ الوسط، جليلَ الفخِذين، قصيرَ الساقين، قريبَ القَفْدة من الظهر، قليلَ الرِّيش ليِّنَه، تامَّ الخوافي، دقيقَ الذَّنَب، إذا صَلَّب عليه جناحيه لم يفضُل عنهما شيءٌ منه. فإذا كان كذلك فهو يقتل الكُرْكِيَّ ولا يفوته، وزعم بعضُهم أنّ السُّودَ من الشواهين هي المحمودة، وأن السواد أصل لونها، وإنما أحالته التُّرْبة، ويكون في الشواهين المُلَمَّع. والله أعلم.

وأوّلُ من صاد بالشَّوَاهِين قسطنطين ملك عَمُّوريَّة[٣]. حُكِي أنه خرج يوماً يتصيَّد، حتى إذا أتى إلى مَرْج فَسيح نظر إلى شاهين يَنْكَفِىءُ على طير الماء؛ فأعجبه ما

(١) الإباق: الهروب.
(٢) شاهين الميزان: لسانه.
(٣) عمورية: بلد في بلاد الروم غزاه المعتصم في سنة ٢٢٣ هجرية.

رأى من سرعته وضَرَاوته وإلحاحِه على صيده، فأخذه وضَرّاه؛ ثم رِيضتْ له الشَّوَاهين بعد ذلك وعُلِّمت أن تَحُوم على رأسه إذا ركِب فتُظِلّه من الشمس؛ فكانت تنحدِر مرّة وترتَفِع أخرى، فإذا نزل وقعتْ حولَه.

وقد وصف الشعراءُ الشواهينَ وشبّهوها، فمن ذلك قولُ النّاشيء: [من الرجز]

هـل لـك يـا قَـنّـاصُ فـي شاهـيـنِ ... شُــوذَانِــقٍ مــؤدَّبٍ أمــيــنِ
جـاء بـه الـسـائـسُ مـن رَزيـنِ ... ضَـرّاه بـالـتَّـخـشـيـن والـتَّـلْـيـين
حـتـى لأَغْـنَـاه عـن الـتـلـقـيـنِ ... يـكـاد لـلـتـشـقـيـفِ والـتَّـمْـرِيـنِ
يَـعـرف مـعـنـى الـوَحْـي بـالـجـفـونِ ... يَـظَـلُّ مـن جَـنـاحِـهِ الـمَـزيـنِ
فـي قُـرْطَـقٍ مـن خَـزِّه الـثـمـيـنِ ... يُـشـبـه مـن طِـرَازِه الـمَـصُـونِ[١]
بُـرْدَ أَنُـو شِـرْوانَ أو شـيـريـنَ ... أحْوَى مَجارِي الدَّمعِ والشؤون[٢]
ذي مِـنْـسَـرٍ مُـؤلَّـلٍ مَـسْـنـون ... وافٍ كـشَـطْـر الـحـاجـب الـمَـقْـرونِ
مُـنْـعَـطِـفٍ مـثـلَ انْـعـطـافِ الـنـون ... يُـبـدي اسْـمُـه مـعـنـاه لـلـعـيـون

وقال أبو الفتح كُشَاجم وبدأ بالكُرْكِيّ: [من الرجز]

يـا ربَّ أسـراب مـن الـكَـرَاكِـي ... مُـطْـمِـعـة الـسـكـون فـي الـحَـرَاكِ
بـعـيـدةِ الـمَـنَـالِ والإدْرَاكِ ... كُـدْرٍ وبِـيـضِ الـلّـون كـالأفْـنَـاكِ[٣]
تَـقْـصُـر عـنـهـا أسـهـمُ الأتـراكِ ... ذُعِـرْنَ قـبـل لَـغَـطِ الـمَـكَـاكِـي[٤]
وقـبـلَ تـغـريـد الـحـمـامِ الـبـاكـي ... بـفـاتـكٍ يُـرْبِـي عـلـى الـفُـتّـاكِ
مـؤدَّبِ الإطـلاق والإمْـسـاكِ ... مُـلَـمْـلَـم الـهـامَـة كـالـمَـداك[٥]
مثل الكَمِيّ في السّلاح الشّاكي ... ذي مِـنْـسَـرٍ ضـخـمَ لـه شَـكّـاكِ
ومِـخْـلَـبٍ بـحـدّه بَـتّـاكِ ... لـلـحُـجْـبِ عـن قـلـوبـهـا هَـتّـاكِ[٦]
حـتـى إذا قـلـتُ لـه دَرَاكِ ... وحَـلَّـقـتْ تـسـمـو إلـى الأفـلاكِ

---

(١) القرطق: قباء ذو طاق واحد.
(٢) شيرين: اسم حظية كسرى أبرويز.
(٣) الأفناك: واحدتها فنك، وهو دويبة يؤخذ منه الفرو.
(٤) المكاكي: واحدتها مكاء، وهو طائر في ضرب القبرة، إلا أنه في جناحيه بلقاً؛ وسمي بذلك لأنه يمكو، أي يصفر.
(٥) المداك: حجر يسحق عليه الطيب.
(٦) تباك: قطاع.

مُـمْـتَـدَّةَ الأعـنـاق والأوْراكِ   مُـوقِـنـةً بـعـاجـلِ الـهَـلاكِ
غـادرهـا تـهـوِي عـلـى الـدِّكـاكِ   أسْـرَى بـكـفَّـيْـه بـلا فَـكَـاكِ[1]
يـا غـدوات الـصـيـد مـا أحـلاك   ومُـتـةَ الـشـاهـيـن مـا أقـواكِ
لـم تَـكْـذِبِـي فِـرَاسَـةَ الأمـلاكِ   إيّـاك أعـنـي مـادحـاً إيّـاكِ

وأمّا الأنِيقيّ ـ وهو الصِّنف الثاني من الشاهين. وتسميه أهلُ العراق الكرّك. وهو دون الشاهين في القوّة، إلا أنّ فيه سرعة. وهو يصيد العصافير. وفيه يقول الشاعر: [من الوافر]

غَـنِـيـتُ عـن الـجَـوَارح بـالأنِـيـقـي   بـمـثـل الـرِّيـح أو لـمـعِ الـبُـروقِ
أَصُـبُّ بـه عـلـى الـعُـصـفـور حَـتْـفـاً   فـأرْمـيـه بـصـخـرة مَـنْـجَـنِـيـقِ

وأمّا القُطَامِيّ ـ وهو الصِّنف الثالث من الشاهين، وتسميه أهل العراق «البَهْرَجَة». يقال: إنه في طبع الشاهين، والعرب تُخالف ذلك، وتسمّي بعضَ الصقور القُطَامِيّ؛ والمُعْتَنُون بالجوارح يخالفونهم في ذلك.

فَصْلٌ

وممّا ناسبَ الجوارحَ في الافتراس وأكل اللحم الحيّ «الصُّرَدُ»، ويُسَمَّى «الشَّقَّراق» و«الأَخْطَب»، و«الأَخْيَل»، وقيل: إنّ من أسمائه «الواق» وبعضُهم يسمّيه «بازي العصافير». وهو طائر مُوَلَّعٌ بسواد وبياضٍ، ضخمُ المِنقار. وفي طبعه شَرَهٌ وشراسة وسرقةٌ لفراخ غيره ونفورٌ من الناس. وهو يصيد الحيّات ويغتذِي باللَّحم، ويأوِي الأشجارَ ذواتِ الشَّوْك وفي رؤوس التِّلاع، حَذَراً على نفسه ممن يَصيده. وهو يتحيّل في صيد ما دونه من الطير كالعصفور.

هذا ما ظَفِرت به في أثناء المطالعة من سِباع الطير ممّا تكلّم عليه أربابُ هذا الفن. وقد أهملوا أصنافاً، منها ما هو أجلُّ من جميع ما ذكرناه، وهو «السُّنقر».

والسّنقر ـ طائر شريف، حسنُ الشَّكل، أبيضُ اللّون بنقط سود. والملوك تَتَغالى فيه وتَشْتَريه بالثمن الكثير. وكان فيما مضى من السنين القريبة يُشْتَرى من التّجار بألف دينار؛ ثم تناقَصَ ثمنُه حتى اْستَقرّ الآن بخمسةِ آلافِ درهم. ولهم عادةٌ. أنّ التّجار إذا حملوه وأَتَوْا به من بلادِ الفِرِنجْ فمات منهم في الطريق قبل وصولهم أحضروا ريشَه إلى أبواب الملوك، فيُعْطَوْن نصفَ ثمنه إذا أَتَوْا به حيّاً؛ كل ذلك ترغيباً لهم في حملها

---

(١) الدكاك: واحدتها الدكة، وهي ما استوى من الرمال وسهل.

ونقلها إلى الديار المصريّة. وهذا الطيرُ لا يشتريه غير السلطان ولا يلعَب به غيرُه من الأمراء إلا من أنعم السلطان عليه به. والله أعلم.

وممّا أهملوا الكلام فيه «الكوهيّة» و«الصيفيّة» و«الزغزغي» وهو يُعَدّ من أصناف الصقر. ولم أجد مَنْ أثق بنقله وعلمه بهذه الأصناف فأنقل عنه أخلاقَها وطبائعها وعاداتها.

وقال أبو إسحاق الصابي في وصف الجَوارح من رسالة طَرْدِيّة جاء منها:

«وعلى أيدينا جوارحُ مؤلّلةُ المخالب والمَناسر، مُذَرَّبة[١] النِّصال والخناجر، طامحةُ الألحاظ والمناظر؛ بعيدةُ المَرامي والمطارح؛ ذكيّة القلوب والنفوس، قليلة القُطُوب والعُبُوس؛ سابغةُ الأذناب، كريمةُ الأنساب؛ صُلْبَةُ الأعواد، قويّة الأوصال؛ تزيد إذا أُلْحِمَتْ[٢] شرهاً وقَرَماً[٣]، وتَتَضاعَف إذا أُشْبِعَتْ كَلَباً ونَهَماً. ثم خرج إلى وصف الحمام فقال: فلما أوفينا عليها، أرسلنا الجوارحَ إليها؛ كأنها رسلُ المنايا؛ أو سِهام القضايا؛ فلم نَسْمَع إلا مُسَمِّياً، ولم نَر إلا مُذَكّياً».

البَابُ الثَّانِي
مِنَ القِسْمِ الخَامِسِ منَ الفَنِّ الثَّالِثِ
فِي كِلابِ الطَّيْرِ

ويشتمل هذا الباب على ما قيل في النَّسر، والرَّخَم، والحِدَأة، والغراب. وإنما سمّيت هذه الأصناف بالكلاب لأنها تأكل المَيْتَة والجِيَفَ وتقصِدها وتقع عليها، فهي في ذلك شبيهة بالكلاب.

ذكر ما قيل في النّسْر

والنَّسر ذو مِنْسَر وليس بذي مَخْلب، وإنما له أظفار حِدادٌ، كالمخَالب، وهو يَسْفِد كما يسفِدَ الديكُ. وزعم من تكلّم في طبائع الحيوان أنّ الأنثى من هذا النوع تَبِيضُ من نظر الذَّكَر إليها، وأنها لا تحضُن بيضَها، وإنما تبيضُ في الأماكن العالية التي يَقرَعُها حرُّ الشمس وهَجِيرُها، فيقوم ذلك للبيض مقامَ الحَضْن.

---

(١) ذرب السيف ونحوه: أحدّه.

(٢) ألحمت: أطعمت اللحم.

(٣) القرم: اشتداد الشهوة إلى اللحم.

والنَّسر يُوصف بحدّة حاسّة البصر، حتى إنه يقال: إنه يرى الجِيفَةَ عن مسافة أربعمائةِ فرسخ، وكذلك حاسّة الشَّمّ؛ إلا أنّه إذا شمّ الطِّيبَ مات. وهو أشدُّ الطيرِ طَيراناً وأقواها جَناحاً؛ حتى زعموا أنه يطير ما بين المَشرق والمَغرب في يوم واحد. وهذا القولُ أراه من التَّغالِي فيه. وسائرُ الجوارح تخافُه. وهو شَرِهٌ نَهِمٌ رَغِيبٌ؛ إذا سقط على الجِيفة وآمتلأ منها لم يَستطع عند ذلك الطيرانَ حتى يَثِبَ عِدَّةَ وَثَباتٍ يرفع فيها نفسَه في الهواء طبقةً بعد طبقةٍ حتى تدخل تحته الرِّيحُ. ومَنْ أصابه بعد آمتلائه وأعجلَه عن الوثوب أمكنه ضربهُ إن شاء بعصا وإن شاء بغيرها. قالوا: والأنثى تخاف على بيضها وفراخها من الخُفّاش فتَفرُش في وَكْرها وَرَقَ الدُّلْب[1] لِيَفِرَّ منه. والنّسرُ أشدُّ الطير حُزْناً على فِراق إلْفِه؛ يقال: إن الأنثى إذا فقدتِ الذَّكرَ آمتنعت عن الطُّعْم أياماً ولَزِمتِ الوكر؛ وربما قتلها الحزنُ. وهو طويل العمر؛ يقال: إنّهُ يُعَمَّر ألف سنة. وفيه ألوان: منها الأسودُ البهيم، والأَرْبَد وهو لون الرَّماد. والأَكْدر مثله. وهو يتبع الجيوشَ طمَعاً في الوقوع على جِيف القَتْلى والدَّوابّ.

ذكرُ ما قيلَ في الرّخَم

يقال: إنّ لئام الطير ثلاثة: الغِربانِ والبُومُ والرَّخَمُ.

والرخمةُ تلتمس لبيضها المواضعَ البعيدةَ والأماكنَ الوحشيّةَ والجِبال الشامخةَ وصُدُوعَ الصخرِ؛ ولذلك يُضرب المثل ببَيْض الأَنُوق. قال الشاعر:

طَلَبَ الأَبْلَقَ العَقُوق فلمّا ... لم يَنَلْهُ أرادَ بَيْضَ الأَنُوقِ[2]

والرَّخَمَ من أحبّ الحيوان في العَذِرة، لا شيءَ يحبّها كحبّه إلاّ الجُعَل. وقال المفضّل لمحمد بن سَهْل: إنّا لا نعرف طائراً ألأمَ لؤماً ولا أقذرَ طُعْمَةً ولا أظهرَ مُوقاً من الرَّخمة. فقال محمد بن سهل: وما حُمْقُها وهي تحضُن بيضَها، وتَحْمي فراخَها، وتُحِبّ ولَدَها، ولا تمكّن إلاّ زَوجَها، وتقطع في أوّل القَوَاطِع[3]، وتَرجِع في أوّل الرَّواجع، ولا تطير في التَّحسير[4]، ولا تغترّ بالشَّكِيرِ[5]، ولا تُرِب[6] بالوُكُور، ولا تسقط على الجَفِير!

---

(١) الدّلب: شجر الصنار، وهو عريض الورق واسعه شبيه بورق الكرم.
(٢) الأنوق: الرخم. والعقوق: الحامل، والذكر لا يكون حاملاً.
(٣) القواطع من الطير: التي تجيء من بلد إلى بلد في وقت حر أو برد.
(٤) التحسير: سقوط الريش.
(٥) الشكير: الزغب، أو الشعر الخفيف الرقيق.
(٦) تربّ بالمكان: تلزمه وتقيم فيه.

قال الجاحظ: أمّا قوله: «تقطع في أوّل القواطع وتَرجِع في أوّل الرَّواجع»، فإنّ الرُّماةَ وأصحابَ الحبائل والقُنّاصَ إنما يطلبون الطيرَ بعد أن يعلموا أنّ القواطعَ قد قطعت، فبِقَطْع الرخمة يستدلّون، فلا بدّ للرّخمة من أن تنجو سالمةً إذ كانت أوّل طالع عليهم. وأمّا قولُه: «ولا تطير في التّحسير ولا تغترّ بالشّكير»؛ فإنها تدعُ الطيرانَ أيامَ التحسير، فإذا نَبَتَ الشّكيرُ وهو أوّل ما ينبت من الريش فإنها لا تنهض حتى يصير الشكيرُ قَصَباً، وأما قوله: «ولا تُربّ بالوكور» فإن الوكور لا تكون إلا في عُرْض الجبل، وهي لا ترضى إلا بأعالي الهضاب ثم بمواضع الصُّدوع وخِلالِ الصخور حيث يَمتنِع على جميع الخَلْق المصيرُ إلى أفراخها؛ ولذلك قال الكُمَيْت[(١)]:

ولا تـجعلـونـي فـي رجـائـي وَدَّكـم كـراجٍ على بَيْض الأنُوق احتبالَها[(٢)]

وأمّا قولُه: «ولا تسقط على الجَفِير»، فإنما يعني جَعْبَةَ السهام. يقول: إذا رأتْه علمتْ أنّ هناك سهاماً فلا تسقُط في موضع تخاف فيه وقْعَ السّهام.

قال: والرَّخَمُ من الطير التي تتبع الجيوشَ والحُجّاجَ لِمَا يسقُط من كَسْرَى[(٣)] الدّوابّ. وإذا فقدت المَيْتَةَ عَمَدت إلى العَظْم فحمَلَته وارتفعتْ به في الهواء ثم تُلْقِيه فيقع على الصخور فينكسر فتأكل ما فيه. والله أعلم بالصواب.

ذكرُ ما قيلَ في الحِدَأةِ

قالوا: والحِدَأةُ تَبيض بيضتين، وربما باضت ثلاثاً وخرج منها ثلاثةُ أفرخ. وهي تحضُن عشرين يوماً. ومن ألوانها الأسودُ والأَرْبَدُ. ويقال: إنها لا تَصِيد وإنما تخطَف. وهي تَقِف في الطيران، وليس ذلك لغيرها من الكواسر. وزعم ابنُ وحشيّة: أنّ العُقَاب والحِدَأة يتَبدّلان، فتصير الحِدَأةُ عُقاباً والعقابُ حِدأةً. وهذا أراه من الخُرافَات. ويقال: إنّ الحِدَأة من جوارح سليمان عليه السلام وإنها امتنعت من أن تُؤلَّف أو تُمْلَك لغيره، لأنها من المِلك الذي لا ينبغي لأحد من بعده. وهي لا تَختطِف إلا من يمين مَنْ تختطِف منه دون شماله. وليس فيها لحمٌ، وإنما عظامٌ وَعَصَبٌ وجِلْدٌ وريشٌ. ولم أقف على شعر فيها فأضعه.

---

(١) هو الكميت بن زيد من بني أسد ويكنى أبا المستهل وكان معلماً. وكان أصم أصلخ لا يسمع شيئاً، وكان بينه وبين الطرماح من المودة والمخالطة ما لم يكن بين اثنين على تباعد ما بينهما في الدين والرأي. (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٩٠).

(٢) احتبل الصيد: أخذه بالحبالة.

(٣) كسر الدواب: واحدتها كسير.

ذكرُ ما قيلَ في الغُرابِ

قالوا: والغراب أصنافٌ وهي «الغُدَافُ» و«الزَّاغُ الأكحل» و«الزاغ الأورق». والغراب يَحْكِي جميعَ ما يسمعه، وهو في ذلك أعجبُ من البَبَّغاء. ويقال: إنّ متولّي ثغر الإسكندريّة أهدى إلى السلطان الملك الظاهر رُكْن الدين بِيبَرس غُراباً أبيض؛ وهو غريبٌ نادر الوقوع. ويقال في صوت الغراب: نَغَقَ يَنْغِقَ نَغِيقاً، ونَعب يَنْعَبِ نَعِيباً. فإذا مرّت عليه السنون الكثيرة وغَلُظ صوتُه قيل فيه: شَحَجَ يَشْحَج شَحِيجاً. وفي طبعه الاستِتارُ عند السِّفاد وهو يَسْفِد مُوَاجَهةً، ولا يعود إلى الأُنْثى إذا سفَدها أبداً، وذلك لقلّة وفائه.

قال الجاحظ: وإذا خرج الفرخُ حضَنته الأنثى دون الذكر، ويأتيها الذَّكَر بالطُّعم. قال: والغراب من لِئام الطير وليس من كِرامها، ومن بُغَاثِها وليس من أحرارها، ومن ذوات المخالب المَقَّفَة والأظفار الجارحةِ، ومن ذوات المناقيرِ وليس من ذوات المَنَاسِر؛ وهو مع ذلك قويُّ البدن، لا يتَعاطى الصيدَ، وربما راوغَ العُصفورَ. ولا يصيد الجرادةَ إلا أن يلقاها في سُدٍّ[١] من جراد. وهو إن أصاب جِيفةً نال منها وإلا مات هُزَالاً. ويتَقمَّم كما تَتَقَمَّم[٢] بهائمُ الطير وضِعافُها. وليس ببهيمة لمكان أكلِه الجِيَف، وليس بسبُع لعجزه عن الصيد.

قال: وهو إمّا أن يكون حالكَ السواد شديدَ الاحتراق، ويكون مثله من الناس الزَّنْجُ لأنهم شِرار الناس وأرْدأُ الخَلْق تركِيباً ومِزاجاً، فلا تكون له معرفة ولا جمال؛ وإما أن يكون أبقعَ فيكون ٱختلافُ تركيبه وتضادُّ أعضائه دليلاً على فساد أمره. والبُقْعُ ألأمُ من السُّود وأضعف.

قال: ومن الغِربان غرابُ الليل، وهو الذي ترك أخلاقَ الغِرْبان وتشبّه بأخلاق البوم. وقد رأيتُ أنا ببُلُنْياس[٣] ـ وهي على ساحل البحر الروميّ ـ غِرباناً كثيرة جدّاً، فإذا كان وقتُ الفجر صاحب كلّها صِياحاً عظيماً مُزْعِجاً، فهم يعرفون طلوعَ الفجر بصياحها.

قال: ومنها غراب البَيْن؛ وهو نوعان: أحدُهما غِربان صغار معروفةٌ بالضَّعْف واللؤم، والآخرُ إنما لزِمه هذا الاسم لأنّ الغُرَابَ إذا بان أهلُ الدار للنّجْعةِ[٤] وقع في

---

(١) السدّ: القطعة من الجراد تسدّ الأفق.
(٢) تقمم: تتبع القمامات.
(٣) بلنياس: مدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر.
(٤) انتجع القوم: ذهبوا لطلب الكلأ.

مواضع بيوتهم يتلمّس ويَتَقَمَّم، فتشاءموا به وتَطَيَّروا منه، إذ كان لا يُلِمّ بمنازلهم إلا إذا بانوا منها؛ فسمَّوْه غرابَ البين. ثم كَرِهوا إطلاقَ ذلك الاسم مخافةَ الزَّجْر والطِّيَرة، وعلموا أنّه نافذُ البصر صافي العين، فسمَّوْه الأعورَ؛ من أسماء الأضداد. قال: والغِدْفانُ جِنسٌ من الغِربان، وهي لئام جدّاً. ومن أجل تشاؤمهم بالغراب ٱشتَقّوا من اسمه الغُرْبة والاغْتِرابَ والغريبَ. والعرب يتعايَرُون بأكل لحوم الغِربان. وفي ذلك يقول وَعْلَةُ الجَرْمِيّ[١]:

فما بالعار ما عيَّرتمونا شِوَاءُ النَّاهِضَاتِ من الخَبيصِ[٢]
فما لحمُ الغرابِ لنا بزادٍ ولا سَرَطان أنهار البَرِيصِ[٣]

والغربانُ من الأجناس التي تُقتَل في الحِلّ والحَرَم، وسُمِّيت بالفسقِ.

قال الجاحظ: وبالبصرة من شأن الغِربان ضروبٌ من العجب، لو كان ذلك بمصر أو ببعض الشامات كان عندهم من أجود الطِّلَّمْسَات؛ وذلك أنّ الغربان تَقْطَع إلينا في الخريف فترى النخيلَ وبعضُها مصرومٌ وعلى كل نخلة عددٌ كثير من الغربان، وليس فيها شيء يقرَب نخلةً واحدةً من النخيل التي لم تُصْرَم ولو لم يبق عليها إلا عِذْق[٤] واحد. قال: فلو أنّ الله تعالى أذِن للغراب أن يسقُط على النخلة وعليها التمرُ لذهب جميعُه. فإذا صرَموا ما على النخلة تسابقَ الغِربانُ إلى ما سقَط من التمر في جوف القُلْب[٥] وأصول الكَرَبِ[٦] تستخرجه وتأكله.

ومما يُتمثّل به في الغراب: يقولون: «أحْذَرُ من غراب». و«أصحُّ من غراب». و«أصفى نظراً من غراب». و«أسودُ من غراب».

ومما وُصِفَتْ به الغِربانُ ـ فمن ذلك قولُ عنترة:

حَرِقُ الجَناح كأن لَحْيَيْ رأسِه جَلَمان بالأخبار هَشٌّ مُولَعُ[٧]

وقال الطِّرِمَّاح بن حَكِيم[٨]:

---

(١) هو وعلة بن عبد الله الجرمي الشاعر، أحد فرسان قضاعة.
(٢) الناهضة: أنثى فرخ العقاب ـ والخبيص: ضرب من الحلواء.
(٣) السرطان: حيوان من خلق الماء ذو فكين ومخالب وأظفار حداد ـ والبريص: نهر دمشق.
(٤) العذق: القنو من النخل.
(٥) القلب من النخلة: الخوص الذي يلي أعلاها.
(٦) الكرب: أصول السعف الغلاظ العراض التي تقطع منها.
(٧) حرق الجناح: أنحص ريشه ونسل.
(٨) هو الطرماح بن حكيم من طيىء ويكنى أبا نفر وكان جده قيس بن جحدر أسره ملك من ملوك جفنة فاستوهبه حاتم طيىء. (طبقات الشعراء لابن قتيبة ص ٢٩٢).

وجرى ببينِهِمُ غَداةَ تَحمّلوا   من ذي الأثارِب شاحِجٌ يتعبّدُ[١]
شَنِجُ النَّسا أَدْفى الجَناح كأنه   في الدار إثْرَ الظاعنين مُقَيَّدُ[٢]

وقال أبو يوسف بن هارون الرمادي الأندلسيّ[٣]: [من الطويل]

أبا حاتم ما أنت حاتمُ طيِّىءٍ   وما أنتَ إلا حاتِمُ الحَدَثانِ
خطَبتَ ففرّقتَ الجميعَ بلُكْنةٍ   فما الظنُّ لو تُعْطَى بيانَ لِسانِ
كأنّهمُ من سُرعةِ البين أودِعوا   جَناحَيْك واسْتُحثثتَ للطيرانِ

وقال أحمد بن فرج الجُبّائي:

أمّا الغرابُ فمؤذِنٌ بتَغرُّب   وَشكاً فصدِّقْ بالنَّوى أو كذِّبِ[٤]
داجي القِناع كأن في إظلامه   إظلامَ يوم تفرّقٍ وتغرّبِ

البَابُ الثّالِثُ
مِنَ القِسْمِ الخَامِسِ مِنَ الفَنّ الثَّالِثِ
في بَهَائِمِ الطَّيرِ

ويَشتمل هذا الباب على ما قيل في «الدُّرّاج» و«الحُبَارَى» و«الطاوُس» و«الدِّيك»، و«الدَّجاج» و«الحَجَل» و«الكُرْكِيّ» و«الإوَزّ» و«البَطّ» و«النُّحام»[٥] و«الأنيس» و«القَاوَنْد» و«الخُطّاف» و«القِيق» و«الزُّرْزُور» و«السُّمَانَى» و«الهُدْهُد» و«العَقْعَق»، و«العَصَافِير».

قال الجاحظ: والبهيمةُ من الطير ما أكل الحبَّ خالصاً.

فأمّا الدُّرّاج وما قيل فيه ـ قال الجاحظ: إنه يبيض بين العُشْب، ولا سيما فيما طال منه والْتوى.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا: لحمُ الدُّرّاج أفضلُ من الفواخِت وأعدلُ

---

(١) الأثارب: قلعة بين حلب وإنطاكية، وتحت جبلها قرية تسمى باسمها.
(٢) الشنج: تقبض الجلد والأصابع وغيرهما ـ والنسا: عرق من الورك إلى الكعب ـ وأدفى الجناح: طويله.
(٣) هو يوسف بن هارون الكندي المعروف بالرمادي (أبو عمر) شاعر. أصله من رمادة، وولد بقرطبة ومدح المنصور بن أبي عامر. ومدح بعض الملوك. توفي سنة ٤٠٣ هجرية. (معجم المؤلفين ١٣: ٣٤٠).
(٤) وشك الغراب: سرعته.
(٥) النحام: طائر أحمر على خلقة الأوز.

وألطفُ وأيبس. قال: وهو يزيد في الدِّماغ والفهم، ويزيد في المَنِيّ.

وقال أبو طالب المأمونيّ[(١)]:

قد بعثنا بذاتِ حُسْنٍ بَديعٍ كَنَباتِ الرَّبيعِ بل هي أحسنْ

في رِدَاءٍ من جُلَّنَارٍ وآسٍ وقميصٍ من ياسَمِينٍ وسَوْسَنْ

وقال آخر: [من الطويل]

صدورٌ من الدُّرَّاج نُمِّق وَشْيُها وُصِلْنَ بأطراف اللُّجَيْنِ السَّواذِجِ[(٢)]

وأحداقُ تِبْرٍ في خدود شقائِقٍ تلألأ حُسناً كاشتعال المَسارِجِ

وأذنابُ طَلْعٍ في ظهورِ مَلاعِقٍ مجزَّعة الأعطاف صُهْب الدَّمالِجِ[(٣)]

فإن فَخَر الطاوُس يوماً بحسنه فلا حُسْنَ إلاّ دون حسن الدَّرارِجِ

وأمّا الحُبَارَى وما قيل فيه ـ وتسمِّيه أهلُ مصر الحُبْرُج.

قال الجاحظ: والحُبَارَى أشدُّ الطير طَيَراناً وأبعدُها سقطاً[(٤)] وأطولها شوطاً وأقلُّها عَرْجَةً[(٥)]؛ وذلك أنه يُصاد بالبصرة فيُشَقّ عن حَوْصَلَته بعد الذَّبح فتُوجَد فيها الحبّة الخضراء لم تتغيّر ولم تَفْسد؛ والحبّةُ الخضراءُ من شجر البُطْم[(٦)] ومنابتُها جبال الثغور الشاميّة. والحُبَارى له خِزَانة بين دُبُره وأمعائه، لا يزال فيها سَلْحٌ رقيق لَزِجٌ، فمتى ألَحّ عليه جارِحٌ ذَرَق عليه فتمعّط[(٧)] رِيشُه. ولذلك يقال: الحُبَارى سِلاحُه سُلاحُه.

قال الشاعر:

وهم تركوك أسْلَح من حُبَارَى رأى صَقْراً وأشْرَدَ من نَعَامِ

وهو يغتذِي بِسَلْحه إذا جاع. ويقال: الحُبَارى دجاجةُ البَرّ تأكل كل ما دَبّ حتى الخنافس؛ فلذلك يُعاف أكلُه.

ووصف أبو نُوَاس الحُبَارَيات فقال:

---

(١) هو عبد السلام بن حسن المأموني (أبو طالب) فاضل. له كنز الرؤيا في التعبير. كانت وفاته سنة ٣٨٣ هجرية. (معجم المؤلفين ٥: ٢٢٣).

(٢) السواذج: جمع الساذج: وهو الخالص غير المشوب وغير المنقوش ـ واللجين: الفضة.

(٣) الدمالج: واحدتها الدملج، وهو سوار يحيط بالعضد.

(٤) السقط: (بكسر أوله): الجناح.

(٥) العرجة: المقام.

(٦) البطم: شجر كالفستق جرماً سبط الأوراق وله حب مفرطح في عناقيد كالفلفل.

(٧) تمعط: تساقط.

يَخْطِرن في بَرانِسٍ قُشُوبِ من حِبَرٍ طُوهِزْنَ بالتَّذْهيبِ[١]

* فهنّ أمثالُ النّصارى الشِّيبِ *

وأما الطاوُس وما قيل فيه - فهو ألوان منها الأخضرُ، والأرقطُ، والأبيضُ، ويوجد في كلها الخيَلاء. ولا تُعْرَف هذه الألوان إلا في بلاد الزَّابج. وفي طبع الطاوُس الخيلاء والإعجاب بريشه. والأُنثى تبيض بعد أن يمضي من عمرها ثلاث سنين. ولا يحصلُ التلونُ في ريش الذّكر إلا بعد مضيّ هذه المدّة. وتبيض الأنثى مرتين في السنة، في كل مرّة اثنتي عشرة بيضة.

وقال الجاحظ: أوّلُ ما تبيضُ ثماني بيضات، وتبيض أيضاً بيضَ الرِّيح. ويَسْفِدَ الذّكرُ في أوان الربيع. ويُلْقِي ريشَه في فصل الخريف، كما يُلْقِي الشجرُ ورَقه فيه؛ فإذا بدأتِ الأشجارُ تَكْتَسِي الأوراقَ بدأ الطاوس فاكتسى ريشاً. والذكرُ كثير العَبَث بالأُنثى. والفرخُ يخرج من البيضة كاسياً كاسباً.

وزعم أرسطو أن الطاوس يُعمَّر خمساً وعشرين سنة. وقال أبو الصَّلْت أمية بن عبد العزيز الأندلسيّ يصفه: [من السريع]

أبدى لنا الطاوُسُ عن مَنْظَرٍ لم تَرَ عَيْنِي مثلَه مَنْظَرا

متوَّجُ المَفْرِق إلاّ يكن كِسْرَى بنَ ساسان يكن قيصرا

في كل عُضو ذَهَبٌ مُفْرَغٌ في سُنْدُسٍ من ريشه أخضرا

نُزهةُ من أبصر، في طَيِّها عِبْرةُ من فكّر واستبصرا

تبارك الخالقُ في كلِّ ما أبدعه منه وما صَوَّرا

وقال فيه أيضاً: [من الرجز]

أهلاً به لمّا بدا في مَشْيِهِ يَخْتالُ في حُلَلٍ من الخُيَلاءِ

كالرَّوضةِ الغنّاء أشرف فوقه ذَنَبٌ له كالدَّوْحةِ الغَنّاءِ

ناديتُه لو كان يفهم مَنْطِقي أو يستطيع إجابةً لِنِدَائِي

يا رافعاً قوسَ السماء ولابِساً للحسن روضَ الحَزْن غِبّ سماءِ

أيقنتُ أنك في الطيور مملَّك لمّا رأيتُك منه تحت لِوَاءِ

وقال أبو الفتح كُشَاجِم من قصيدة ذكر فيها طاوساً: [من المنسرح]

وأيّ عُذْر لمُقْلَةٍ بَعْدَ الطّـ ـاوُس عنها إن لم تَفِض بدَمِ

---

(١) القشب: الجديد.

رُزِئْتُــه روضــةً تــروق ولــم أَسْـمَـعْ بِـرَوْضٍ سَعى عـلـى قَـدَمِ
مُـتَـوَّجـاً خِـلْـعـةً حـبـاه بـهـا ذو الـفِـطَر الـمـعـجـزاتِ والـحِـكَـمِ
كـأنـه يَـزْدَجِـرْدُ مُـنْـتَـصِـبـاً يـبْـنِـي فـيُـغْـلـي مـآثـرَ الـعـجـم
يُـطْـبِـق أجـفـانَـه ويـحـسِـرُ عـن فَصَّيْن يُستصحبان في الظُّلَمِ(١)
أدَلّ بـالـحـسـن فـاسـتـذال لـه ذيـلاً مـن الـكـبـر غـيـر مـحـتَـشِـم
ثـم مـشـى مِـشـيـةَ الـعـروسِ فَـمِـن مـسـتـظـرِفٍ مُـعْـجَـبٍ ومُـبْـتَـسِـم

وأمّا الدِّيكُ والدَّجَاجُ ومَا قيلَ فيهمَا ـ قالوا: والدَّجاجُ ثلاثة أصناف: «نَبَطيّ»، وهو ما يُتّخذ في القُرى والبيوت، و«هِنْديّ» وهو عظيم الخَلْق يُتّخذ لحسن شكله، و«حَبَشِيّ» وهو نوعٌ بديع الحسن أرقط: نقطةٌ سوداء ونقطةٌ بيضاء، وله قُرطانِ أخضرانِ.

قالوا: والدَّجاجة تجمع البيضَ بعد السّفاد في أحدَ عَشَرَ يوماً؛ وهي تبيض في السنة كلها ما خلا شهرين شتويين. والذي عرَفناه نحن بديار مصر أنّ البيض لا ينقطع أبداً في الفصول الأربعة، فيدلّ على أنها تبيض دائماً. ومن الدَّجاج ما يبيض في اليوم مرّتين. والبيضةُ تكون عند خروجها ليّنةَ القِشْر جدّاً، فإذا أصابها الهواء يَبِسَتْ. وربما وُجِدَ في البيضة مُحّانِ. وقال أرسطو: باضت دجاجةٌ فيما مضى ثمانيَ عَشْرَةَ بيضةً لكل بيضة مُحّان، ثم حضنتِ البيضَ فخرج من كل بيضة فرخان، أحدُهما أعظمُ جثةً من الآخر.

والدّجاجةُ تحضُن عشرين يوماً. وخَلْق الفَرُّوج يتبيّن إذا مضت عليه ثلاثةُ أيام، ويُعْرَف الذَّكرُ من الأُنثى بأن يُعلَّق الفَرّوجُ برأسه فإن تحرّك فذَكَرٌ، وإن سكَن فأُنْثى.

قال الجاحظ: والفرخُ يُخْلَق من البياض ويَغْتَذِي بالصُّفْرة ويتمّ خلقُه لعشرة أيام، والرأس وحدَه يكون أكبرَ من سائر جسده. والدّجاجةُ إذا هَرِمَتْ لم يكن لبيضها مُحّ، وإذا لم يكن له مُحّ لا يُخلق منه فرّوجٌ.

والدّجاجةُ تَخشى ٱبنَ آوى دون سائر السِّباع، وذلك أنه يمرّ عليها في القُرى ما يمرّ من السباع وغيرِها فلا تَخْشاه؛ فإذا مرّ عليها ٱبنُ آوى وهي عى سطح نالَها من الفَزَع منه ما تُلقِي به نفسها إليه. وهي إذا قابلتِ الدِّيكَ تشهَّتْه ورامتَ السِّفادَ. والدَّجاجةُ تُوصف بقلّة النوم. والفَرُّوجُ يخرج من البيضة كاسِياً كاسِباً، سريعَ الحركةِ، يُدْعَى فيُجيب ويَتبع من يُطْعِمه؛ ثم هو كلّما كَبِر ماق وحَمُقَ وزال كَيْسُه. وهو مشترَكُ

---

(١) يستصبحان: يستضاء بهما.

الطبيعة: يأكل اللّحمَ، ويَحْسو الدَّمَ، ويصيد الذُّبَابَ، وذلك من طباع الجوارح، ويَلْقُط الحبوبَ، ويأكل البقولَ، وذلك من طباع بهائم الطير. والله أعلم بالصواب.

ذكرُ مَا جَاءَ فِي الدِّيَكَةِ مِنَ الأَحَادِيثِ

ومَا عُدّ مِنْ فَضَائِلِهَا وَعَاداتِهَا ومَنَافِعِهَا

جاء في الحديث عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة: أنّ ديكاً صرَخ عند النبيّ ﷺ، فسبَّه بعضُ أصحابه، فقال: «لا تَسُبَّه فإنّه يدعو إلى الصلاة». وعن زيد بن خالد الجُعَفِيّ: أنّ النبيّ ﷺ نَهى عن سبِّ الدّيك وقال: «إنّه يؤذّن للصلاة». وعن سالم بن أبي الجَعْد يرفعه: أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ ممّا خَلَق اللّهُ لَدِيكاً عُرْفُه تحت العرش وبَراثِنُه في الأرض السُّفْلَى وجَناحاه في الهواء فإذا ذهب ثُلُثا الليل وبقي ثُلُثٌ ضَرب بجناحيه ثم قال: سبِّحوا الملكَ القُدُّوس سُبُّوح قُدُّوس لا شريك له فعند ذلك تضرب الطيرُ بأجنحتها وتَصيح الدِّيكَة»، وعن كعب: «إنّ لله دِيكاً عُنُقُه تحت العرش وبراثنُه في أسفل الأرض فإذا صاح صاحت الدِّيكَةُ يقول: سبحان القُدُّوس الملك الرحمٰن لا إلٰه غيره»، ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنّ الدِّيك الأبيض صديقي وعدوُّ عدوّ الله يحرسُ دارَ صاحبه وسبَع دور». وكان النبيّ ﷺ يبيّته معه في البيت. ورُوي أنّ أصحاب النبيّ ﷺ كانوا يسافرون بالدِّيكَة.

قال الجاحظ: وزعم أصحابُ التَّجْرِبة أن كثيراً ما يَرَوْن الرجلَ إذا ذَبَحَ الدّيكَ الأبيض الأفرَق[١] إنه لا يزال يُنكَب في أهله وماله.

وقال في كتاب الحيوان في المناظرة بين الدِّيك والكلب: وفي الديك الشّجاعة والصبرُ والجَوَلانُ والثّقافة والتّسديدُ؛ وذلك أنه يقدِّر إيقاعَ صِيصِيتِه[٢] بعين الديك الآخر أو مَذْبَحه فلا يُخطىء. قال: ثم مَعْرِفَتُه بالليل وساعاتِه وارْتِفاقُ بني آدم بمعرفته وصوتِه، يتعرَّف آناءَ الليل وعَدَدَ الساعات ومقاديرَ الأوقات ثم يقسِّط أصواتَه على ذلك تقسيطاً موزوناً لا يُغادر منه شيئاً. فليعلم الحكماءُ أنه فوق الإسْطِرْلاب وفوق مقدار الجَزْر والمَدّ على مَنَازِل القمرِ، حتى كأنّ طَبْعَه فَلَكٌ على حِدِته.

ومن عجيب أحوال الدِّيَكة أنها إذا كانت في مكان ثم دخل عليها ديكٌ غريب سَفَدتْه جميعاً. والدِّيك يُضرب به المثل في السخاء، وذلك أنه ينقُر الحبَّ ويحمله بطرَفَيْ مِنقاره إلى الدّجاج، فإذا ظَفِر بشيء من الحبّ والدَّجاجُ غَيَبٌ دعاهنّ إليه وقنِع

(١) الأفرق: ذو العرفين لانفراق ما بينهما.
(٢) الصيصة: شوكة الديك.

منه بدون حاجته توفيراً عليهنّ. قالوا: والدِّيَكَةُ تعظُم بدَبِيل[١] السِّنْد حتى تكون مثلَ النّعام.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا: إنّ مَرَقَة الديوك العُتُق لها خاصِّيَّات، سنذكرها. قال: والوَجْهُ الذي ذكره جالِينُوس في طبخها أن تُذْبَح بعد عَلْفِها وبعد إعدائها إلى أن تَنْبَتَّ[٢] فتسقُط فتُذبح، ثم يُخرَج ما في بطنها ويُملأ بطنُها مِلْحاً ويُخاط ويُطبخ بعشرين قسطاً ماءً حتى ينتهي إلى الثُّلُث ويُشرب. قال: ثم يُزاد في ذلك ما نذكره. قال: وأجودُ الدِّيَكة ما لم يَصْقَع[٣] بعدُ. وأجودُ الدّجاج ما لم يَبِض، والعتيقُ رديءٌ. قال: ولحمُ الفراريج أحرُّ من لحم الدَّجاج الكبير. وخَصِيُّ الدُّيوك محمودٌ سريعُ الهَضْم. ومرقةُ الدّيوك المذكورة تُوافِق الرَّعشةَ ووجعَ المفاصل. ولحمُ الدّجاج الفتيّ يزيد في العقل، ودماغُها يمنعه النَّزْفَ الرُّعافيّ العارضَ من حُجُب الدِّماغ. ومرقةُ الدُّيوك المذكورة نافعةٌ من الرَّبْو. ولحمُ الدَّجاجُ يُصفِّي الصوت. ومرقةُ الدِّيك الهَرِم المعمولة بالقُرْطُم[٤] والشِّبِتْ تنفع من جميع ذلك. ومرقةُ الديوك نافعة لوجع المَعِدة من الرِّيح، وتنفع القُولَنْج[٥] جدّاً. ولحمُ الدَّجاج الفتيّ يزيد في المَنِيّ؛ والمَرَقَة المذكورة مع البسفايج[٦] تُسهِّل السَّوْداءَ، ومن القرطم تسهِّل البَلْغم. وقد تُطبخ بالأدوية القابِضة للسَّحَج[٧]، وباللّبن لقروح المثانة. والمرقةُ نافعةٌ من الحُمِّيات المزمنة. قال: والدَّجاجُ المشقوقُ عن قلبه أو الديك يوضع على نَهْش الهوامّ ويُبَدّل كلَّ ساعة فيمنع من فُشُوّ السمّ. وفي السموم المشروبة يُتحسَّى طبيخُه بالشِّبْث والملح ويُتَقَيَّأ.

ومن الحكايات التي تُعَدّ من خرافات العرب ما حكاه بعضُهم عن الرِّياشيّ قال: كنّا عند الأصمعيّ، فوقف عليه أعرابي فقال: أنت الأصمعي؟ قال: نعم؛ قال: أنت أعلم أهل الحَضَر بكلام العرب؟ قال: يزعمون؛ قال: ما معنى قول أميّةَ بن أبي الصَّلْت[٨]:

(١) دبيل: مدينة من مدن السند.
(٢) تنبّت: تنقطع إعياء وتعباً.
(٣) يقال: صقع الديك: إذا صاح.
(٤) القرطم: نبات زراعي صبغي من الفصيلة، يستعمل زهره تابلاً وملوناً للطعام، ويستخرج منه صبغ أحمر.
(٥) القولنج: مرض معوي مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح، وسببه التهاب القولون.
(٦) البسفايج: نبات ينبت بين الصخور التي عليها الخضرة وفي سوق شجر البلوط العتيقة.
(٧) السحج: قشر الجلد من شيء يصيبه.
(٨) هو أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عبد عوف بن عقدة بن غيرة بن قسيّ. وكان قد قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله عزّ وجلّ وعزّ ورغب عن عبادة الأوثان وكان يخبر بأن نبياً يبعث قد أظل زمانه ويؤمل أن يكون ذلك النبيّ. (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٢٧).

وما ذاك إلاّ الدِّيكُ شارب خمرةٍ ... نديم غراب لا يَمَلّ الحَوَانيا[١]
فلما أستقلّ الصبح نادى بصوته ... ألاَ يا غرابُ هل رَدَدتَ ردائيا

فقال الأصمعيّ: إنّ العرب كانت تزعمُ أنّ الدّيك كان ذا جَناح يطير به في الجوّ وأنّ الغراب كان ذا جَناح كجناح الدِّيك لا يطير به وأنهما تنادَما ليلَةً في حانة يشرِبان فنفِد شرابُهما؛ فقال الغراب للدِّيك: لو أعَرْتَني جناحَك لأتيتُك بشرابٍ؛ فأعاره جناحَه، فطار ولم يرجع إليه؛ فزعموا أنّ الدّيك إنما يصيح عند الفجر أستدعاءً لجناحه من الغراب؛ فضحك الأعرابيُّ وقال: ما أنت إلا شيطان. وهذه الحكاية ذكرها الجاحظُ في كتاب الحيوان بنحو ما حُكِي عن الأصمعيّ، وساق أبياتَ أُمَيّة بن أبي الصَّلْت، وهي: [من الطويل]

ولا غَرْوَ إلاّ الديكُ مُدْمِن خمرةٍ ... نديم غرابٍ لا يمَلّ الحوانيا
ومرهنه عند الغراب جبينه ... فأوفيت مرهوناً وخان مسابيا
أدلّ عليّ الدِّيكُ أنّي كما ترى ... فأقْبِلْ على شأني وهاكَ رِدَائيا
أمنتك لا تَلْبَث من الدهر ساعةً ... ولا نصفَها حتى تؤوبَ مآبِيا
ولا تُدْرِكَنْك الشمسُ عند طلوعها ... فأَغْلَق فيهم أو يطول ثَوَائِيا[٢]
فردّ الغرابُ والرداءُ يحوزه ... إلى الديك وعداً كاذباً وأمانيا
بأيّة ذنبٍ أو بأيّة حُجّةٍ ... أدَعْك فلا تدعو عليّ ولا لِيَا
فإني نذرتُ حِجّةً لن أعوقها ... فلا تدعُوَنّي دعوةً من ورائيا
تطيّرتُ منها والدّعاءُ يعوقني ... وأزمعتُ حَجّاً أن أطيرَ أماميا
فلا تَيْأَسَنْ إني مع الصبح باكراً ... أُوافِي غداً نحوَ الحجيج الغَوَاديا
كحب أمرىءٍ فاكهته قبل حجّتي ... وآثرت عمداً شأنه قبل شانيا
هنالك ظنّ الدِّيك أن زال زَوْله ... وطال عليه الليل أنْ لا مُفَادِيا
فلما أضاء الصبحُ طرّب صرخةً ... ألاَ يا غراب هل سمِعتَ ندائيا
على وُدّه لو كان ثَمَّ يجيبُه ... وكان له نَدْمانَ صِدْقٍ مُوَاتيا
وأمسى الغرابُ يضرب الأرضَ كلَّها ... عتيقاً وأضحى الدّيك في القِدّ عانيا[٣]

(١) الحواني: الحانات.
(٢) يقال: غلق الرهن: إذا لم يفك واستحقه المرتهن.
(٣) العتاق من الطير: الجوارح.

فذلك مما أسهتِ الخمرُ لُبَّه ونادمَ نَدماناً من الطير عادِيا

ومن الحكايات التي لا بأس بإيرادها في هذا الموضع ما حكاه الجاحظُ قال: قال أبو الحسن: حدّثني أعرابيٌّ كان نزل البصرةَ قال: قدِم عليّ أعرابيٌّ من البادية فأنزلتُه، وكان عندي دَجاجٌ كثير ولي آمرأةٌ وآبنان وآبنتان منها؛ فقلتُ لآمرأتي: بادِري وآشوِي لنا دجاجةً وقدِّميها إلينا نتغدّاها. فلما حضر الغَداءُ جلسنا جميعاً أنا وآمرأتي وآبناي وآبنتاي والأعرابيُّ. قال: فدفعنا إليه الدجاجة فقلنا له: إقسمها بيننا، نريد بذلك أن نَضحك منه؛ فقال: لا أُحسِن القسمةَ، فإن رَضيتم بقسمتي قسمتُها بينكم؛ قلنا: فإنّا نَرْضى. فأخذ رأسَ الدجاجةِ فقَطَعه وناوَلَنيه وقال: الرأسُ للرئيس، وقطَعَ الجناحيْن وقال: الجناحان للآبنَيْن، ثم قطع الساقيْن وقال: الساقان للآبنتَيْن، ثم قطع الزِّمِكّي[١] وقال: العَجُز للعجوز، وقال: الزَّوْر[٢] للزائر؛ قال: فأخذ الدجاجةَ بأسْرها وسخر بنا. قال: فلمّا كان من الغَد قلت لآمرأتي: آشْوي لنا خَمسَ دجاجات، فلما حضر الغَداءُ قلنا له: آقسِم بيننا، فقال: إني أظن أنكم وجَدْتم[٣] في أنفسكم؛ قلنا: لم نَجِدْ فآقْسِم بيننا؛ قال: أقسِمُ شَفْعاً أو وِتْراً؟ قلنا: اقسم وِتراً، قال: أنت وآمرأتُك ودجاجة ثلاثة، ثم رمى إلينا بدجاجة؛ ثم قال: وآبناك ودجاجة ثلاثة، ورمى إليهما بدَجاجة؛ ثم قال: وآبنتاك ودجاجة ثلاثة، ورمى إليهما بدجاجة؛ ثم قال: وأنا دجاجتان ثلاثة وأخذ دجاجتين وسخِر بنا. فرآنا ننظر إلى دجاجتيه فقال: ما تنظرون! لعلّكم كَرِهتم قِسْمتي! الوِترُ لا يجيء إلاّ هكذا، فهل لكم في قسمة الشَّفْع؟ قلنا: نعم؛ فضمّهنّ إليه ثم قال: أنتَ وآبناك ودجاجة أربعة، ورمى إلينا بدجاجة؛ ثم قال: والعجوزُ وآبنتاها ودجاجة أربعة، ورمى إليهنّ بدجاجةٍ؛ ثم قال: وأنا وثلاثُ دَجاجات أربعة وضمّ إليه الثلاث، ورفع يَديه إلى السماء فقال: اللهمّ لك الحمد، أنت فهَّمْتَنِيها. هكذا ساقها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. وحكى غيره هذه الحكاية عن الأصمعيّ وفيها زيادةٌ قال: حكى الأصمعيّ: بينا أنا في البادية إذا أنا بأعرابيّ على ناقةٍ وهي ترقُص به في الآل[٤]؛ فلما دنا منّي سلّم عليّ، فسلّمتُ عليه وقلت: يا أخا العرب.

قوم يخَفّان عَهِدناهُمُ سقاهم الله من النَّوْ[٥]

ما النّو؟ فقال:

---

(١) الزمكى: أصل ذنب الطائر.

(٢) الزّور: وسط الصدر.

(٣) وجد عليه: غضب.

(٤) الآل: السراب.

(٥) خفان: موضع قرب الكوفة تكثر فيه الأسود ـ والنوء: النجم إذا مال للغروب.

نَـوْءُ الـسِّـمـاكـيْـن وريَّـاهُـمـا   نُـورٌ تـلألأ بـعـد إيـمـاضـه ضَـوْ

فقلت: ما الضَّو يا أخا العرب؟ فقال:

ضـوءٌ تـلالا فـي دُجَـى لـيـلـةٍ   مُـقْـمِـرةٍ مُـسـفِـرة لَـوْ

فقلت: لو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

لَـوْ مـرّ فـيـهـا سـائـرٌ راكـبٌ   عـلـى نـجـيـب الأرض مُـنْـطَـوْ

فقلت: منطو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

مُنْطَوي الكَشْح هضيمُ الحَشَى   كـالـبـازِ يَـنْـقَـضّ مـن الـجَـوّ

فقلت: ما الجوّ يا أخا العرب؟ فقال:

جَـوّ الـسـمـا والـريـحُ تـعـلـو بـه   فـأشـتـمَّ ريـحَ الأرض فـأعْـلَـوّ

فقلت: فأعلو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

فـأعـلـو لِـمـا قـد فـات مـن صـيـده   لا بـدّ أن تُـلْـقـي ويُـلْـقَـوْا

فقلت: ماذا يلقوا يا أخا العرب؟ فقال:

يُـلْـقَـوْا بـأسـيـافٍ يَـمَـانِـيّـةٍ   وعـن قـلـيـلٍ سـوف يَـفْـنَـوْا

فقلت: ما يَفْنَوْا يا أخا العرب؟ فقال:

إن كـنـتَ تُـنـكـر مـا قُـلـتـه   فـأنـتَ عـنـدي رجـلٌ بَـوْ

فقلت: وما البوّ يا أخا العرب؟ فقال:

الـبَـوُّ مـن يُـفْـقَـد عـن أمّـه   يـا أحـمـق الـنـاس فَـرُخٌ أوْ

قلت: أو إيش؟ فقال:

تَـنْـدَفِـعُ الـكـفُّ بـصَـفْـع الـقـفـا   تَـسـمـع مـا بـيـنـهـمـا قَـوّ

فقلت: يا أخا العرب، هل لك في الضيافة؟ فقال: لا يأبى الكرامةَ إلاّ لئيم؛ فأتيتُ به منزلي. ثم ساق الحكايةَ بنحو ما تقدّم، إلا أنه قال: فأتيتُه في اليوم الثاني بثلاث دَجاجات، وقلت: ونحن كما علمتَ، اقْسِمها بيننا أزواجاً؛ فقال: أنت وأبناك ودجاجة زوج، وأمرأتُك وأبنتاها ودجاجة زوج، وأنا ودجاجة زوج. وساق خبر الخمسة في اليوم الثالث كما تقدّم.

ذكرُ شيء ممّا وَصَفَتْ به الشّعراءُ البيضةَ والدَّجاجةَ والدِّيكَ

فمن ذلك ما وصفوا به البيضةَ. قال أبو الفرج الأصبهانيّ من أبيات: [من الكامل]

فيها بدائعُ صَنعةٍ ولطائفٌ أُلِفْنَ بالتَّقدير والتلفيقِ
خلْطان مائيّان ما اختلطا على شكل ومختلف المِزاج رقيق
فبياضُها وَرِقٌ وزِئْبَق مُحِّها في حُقّ عاج بُطِّنَتْ بِدَبِيقي(١)

وقال شاعر:

وصفراءَ في بيضاءَ رَقّتْ غِلالةٌ لها وصفًا ما فوقها من ثيابها
جمادٌ ولكن بعد عشرين ليلة ترى نَفسها معمورةً من خرابها

وقال كُشَاجِم من أبيات يذكر فيها جُونةً أُهْدِيت إليه وفيها بيض مسلوقٌ مصبوغٌ أحمر: [من الرجز]

وجاءنا فيها ببيض أحمرِ كأنه العقيقُ ما لم يُقْشَرِ
حتى إذا قدّمه مُقَشَّراً أبرز من تحت عقيقٍ دُرَرَا
حتى إذا ما قطَّع البيضَ فِلَقْ رأيتَ منه ذهباً تحت وَرَقْ
يَخال أنّ الشطرَ منه مَنْ لَمَحْ أعاره تلوينَه قَوْسُ قُزَحْ

وممّا قيلَ في الدّجاجَةِ وَالدِّيك

قال الشاعر: [من الوافر]

غدوتُ بشَرْبةٍ من ذاتِ عِرْقٍ أبا الدَّهْناء من حَلَبِ العَصِيرِ(٢)
وأخرى بالعَقَنْقَلِ ثم رُحْنا نرى العصفورَ أعظمَ من بعيرِ(٣)
كأن الديك ديكَ بني نُمَيْر أميرُ المؤمنين على السَّرير
كأن دَجاجهم في الدار رُقْطاً وفودُ الروم في قُمُص الحريرِ
فبتّ أرى الكواكبَ دانياتٍ يَنَلْنَ أناملَ الرجل القصيرِ
أُدافِعهنّ بالكَفّين عنّي وأمسح جانب القمرِ المنيرِ

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَريّ من أبيات يصف ديكاً:

مُغرِّد الليل ما يألُوك تغريداً ملّ الكَرَى فهو يدعو الصبح مَجْهودا
لما تطرَّب هَزَّ العِطفَ من طَرَبٍ ومدّ للصوت لمّا مَدّه الجِيدا
كلابِسٍ مُطْرَفاً مُرْخٍ جوانِبَه تُضاحِك البيضُ من أطرافه السُّودا

---

(١) الدبيقي: نسبة إلى دبيق وهي بليدة كانت بين الفرما وتنيس من أعمال مصر.
(٢) ذات عرق: جبل بطريق مكة.
(٣) العقنقل: كثيب ببدر.

حالي المُقَلَّد لو قِيست قِلادتُه بالوَرْد قصّر عنها الوردُ توريدا
رَانٍ بفَصَّيْ عَقيقٍ يُدْركانِ له من جِدّةٍ فيهما ما ليس مَحْدودا[١]
تقول هذا عقيدُ الملك منتسِبا في آل كسرى عليه التاجُ معقودا[٢]
أو فارسٌ شَدّ مِهْمَازَيْه حين رأى لواء قائده للحرب معقودا

وقال أبو هلال العسكريّ: [من المجتث]

متوَّجٌ بعقيق مُقَرَّطٌ بِلُجَيْنِ
عليه قُرطَقُ وَشْي مشمّر الكُمَّيْنِ[٣]
قد زَيّنَ النّحْرَ منه ثنتان كالوردتيْن
حتى إذا الصبحُ يبدو مطرَّز الطُّرّتين
دعا فاسمَع منّا من كان ذا أُذُنَيْنِ
يُزْهَى بطوقٍ وتاجٍ كأنه ذو رُعَيْن[٤]

وقال الأسعد بن بِلّيْطة: [من الطويل]

وقام لنا يَنْعَى الدُّجى ذو شَقيقةٍ يُدير لنا من بين أجفانه سَقْطا[٥]
إذا صاح أصغى سمعُه لِندائِه وبادَرَ ضَرْباً من قوادمه الإبْطا
ومهما اطمأنت نفسُه قام صارخاً على خيزران نِيطَ من ظُفره خَرْطا
كأنّ أنُو شِرْوانَ أعلاه تاجَه وناطت عليه كفُّ مارية القُرْطا[٦]
سَبى حُلّة الطاوس حسنَ لباسها ولم يَكْفِه حتى سبَى المِشْيَةَ البَطّا

وقال أبو عبد الله المالكيّ:

رَعَى اللّهُ ذَا صوتٍ أنِسْنا بصوته وقد بان في وجه الظلامِ شُحُوبُ
دعا من بعيدٍ صاحباً فأجابه يُخَبِّرُنا أنّ الصباحَ قريبُ

وقال ابن المعتزّ: [من المنسرح]

---

(١) رنا: أدام النظر في سكون طرف، فهو ران.
(٢) العقيد: الحليف.
(٣) القرطق: القباء.
(٤) ذو رعين: من ألقاب ملوك اليمن.
(٥) المراد بالشقيقة هنا: عرف الديك. وسقط الزند: ما يقع من النار عند القدح.
(٦) مارية: امرأة قيل كان في قرطيها درتان كبيضتي حمامة.

بَشَّر بالصبح هاتِفٌ هتفا صاح من اللّيل بعدما انتصفا
مُذَكِّرٌ بالصَّبُوح صاح لنا كأنّه فوقَ مِنْبَرٍ وقَفا
صَفَّقَ إمّا ارتياحةً لِسَنا الـ فَجْرِ وإمّا على الدُّجى أسَفا

وقال أيضاً فيه:

وقام فوقَ الجِدار مُشْتَرِفٌ كمثلِ طِرْفٍ علاه أُسْوارُ[1]
رافعُ رأسٍ طوراً وخافِضُه كأنما العُرْف منه مِنْشارُ

وقال السّريّ الرَّفّاء: [من الكامل]

كشف الصباحُ قِناعَه فتألّقا وسطَا على اللّيل البهيم وأبْرَقا
وعَلا فلاحَ على الجِدار مُوَشَّحٌ بالوَشْي تُوّج بالعَقِيق وَطُوِّقا
مُرْخٍ فضولَ التاج من لَبّاتِه ومُشَمِّرٌ وَشْياً عليه مُنَمَّقا

وقال أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصفهانيّ يرثي ديكاً ويصفه: [من الكامل]

أَبُنَيَّ منزلنا ونَشْوَ مَحَلِّنا وغَذِيَّ أيدينا نِداءَ مَشُوقِ
لَهْفِي عليك أبا النَّذير لَوْ أنّه دفعَ المنايا عنك لهفُ شَفيقِ[2]
وعلى شمائلك اللّواتي ما نَمَتْ حتى ذَوَتْ من بعد حسنِ سُمُوقِ[3]
لما بَقِعْتَ وصِرْتَ عِلْقَ مَضَنَّةٍ ونَشأتَ نَشْوَ المُقبِلِ المَوْمُوقِ[4]
وتكامَلَت جُمَلُ الجَمال بأسرها لك من جَلِيلٍ خالصٍ ودَقيقِ
وكُسِيتَ كالطاوُس رِيشاً لامعاً مُتلألِئاً ذا رَوْنَقٍ وبَريقِ
من صُفْرةٍ مَعْ خُضْرةٍ في حُمرةٍ تَخْييلُها يخفَى على التَّحقيق
عَرَضٌ يَجلّ عن القياس وجوهرٌ لُطفتْ معانيه عن التَّدقيقِ
وكأنّ سالِفَتَيْك تِبْرٌ سائلٌ وعلى المَفارِقِ منك تاج عَقيقِ
وكأنّ مَجرى الصوت منك، إذا نَبَتْ وجَفَتْ عن الأسماع بُحٌ حُلُوقِ[5]
نايٌ رقيقٌ ناعمٌ قُرِنَتْ به نَغَمٌ مؤلَّفةٌ من المُوسِيقى

---

(١) الأسوار: الرامي بالنبال، أو هو قائد الفرس.
(٢) أبو النذر: كنية الديك.
(٣) السموق من النبات: ما ارتفع وعلا وطال.
(٤) بقع الطير: اختلف لونه. وعلق مضنة: يقال للشيء النفيس الذي يضن به ويحرص عليه.
(٥) بح: جمع أبح من البحة، وهي خشونة وغلظ في الصوت.

تَزَقُو وتَصْفِق بالجَناح كَمُنْتَشِ	وصلت يداه الصوتَ بالتَّصفيقِ
وخطَرتَ مُلتحفاً بمرْطٍ حَبَّرتْ	فيه بديعَ الوَشي كفُّ أنيقِ[1]
كالجُلَّنارَة أو ضياءِ عقيقةٍ	أو لَمْعِ نارٍ أو وميضِ بُروقِ
أو قهوةٍ تَختالُ في بِلَّوْرَةٍ	بتألُقِ اللَّمَعانِ والتَّزْويقِ[2]
وكأنما الجاديُّ جادَ بِصبْغِهِ	لك أو غَدَوْتَ مُضمَّخاً بخَلُوقِ[3]

وقال شاعر أندلُسيّ: [من المتقارب]

وكائِنْ نَفى النومَ من عين فانٍ	بديعُ الملاحةِ حلوُ المعاني
بأجفان عَيْنيه ياقوتَتانِ	كأنّ وَميضهما جَمْرتانِ
على رأسه التاجُ مُستشرِفاً	كتاج ابن هُرْمُزَ في المِهْرَجانِ
وقُرطانِ من جوهرٍ أحْمَرٍ	يَزينانه زَيْنَ قُرْطِ الحَصَانِ[4]
له عُنُقٌ حولها رَوْنَقٌ	كما حوتِ الخمرَ إحدى القَنَانِي
ودار بُرَائِلُه حولَها	لها ثوبُ شَعْرٍ من الزعفران[5]
ودارتْ بجُؤْجئه حُلّةٌ	تَروقُ كما راقكَ الخُسْرَوَانِي
وقام له ذَنَبٌ مُعْجِبٌ	كباقةِ زَهْرٍ بدَتْ من بَنَانِ
وقاس جناحاً على ساقه	كما قِيس سِتْرٌ على خَيْزرَانِ
وصفّق تَصفيقَ مستَهتِرٍ	بمُجْمَرَّةٍ من بَنَاتِ الدِّنانِ
وغرَّد تغريدَ ذي لَوْعةٍ	يبوحُ بأشواقه للغَوانِي

وقال أبو عليّ بن رَشيق[6] حيث مزّق عنه جِلبابَ الممادح، وتركه من شمل الذمّ في الرأي الفاضح: [من السريع]

قام بلا عقلٍ ولا دينِ	يَخلطُ تصفيقاً بتأذينِ

(١) المرط: كساء من خز أو صوف أو كتان، يؤتزر به وتتلفع به المرأة.
(٢) القهوة: المراد بها الخمر.
(٣) الخلوق: ضرب من الطيب.
(٤) الحصان: المرأة العفيفة.
(٥) البرائل: ما استدر من ريش الطائر حول عنقه.
(٦) هو الحسن بن رشيق المعروف بالقيروان (أبو علي) شاعر، أديب، نحوي، لغوي، مؤرخ، عروضي، ناقد. توفي سنة ٤٦٣ هجرية. (معجم المؤلفين ٣: ٢٢٥).

فنبَّه الأحبابَ من نومهم ليخرجُوا من غير ما حين
بصرخةٍ تبعثُ موتَى الكَرَى قد أذكرت نَفْخَ سَرَافِين[(١)]
كأنّها في حَلْقه غُصَّةٌ أغصَّه الله بسكّين

وأمّا الحَجَلُ ومَا قيلَ فيهِ ـ والحَجَلُ طائرٌ يسمّى: «دَجَاجَ البَرّ» وهو صنفان: نَجْدِيّ، وتِهَاميّ. فالنجديّ أخضر أحمرُ الرجلين. والتِّهامِيّ فيه بياضٌ وخضرةٌ. وسمّي الذكر «يعقوب»، والفرخ الذَّكر «السُّلَك»، والأنثى «السُّلَكة»، وهو من الطير الذي يخرج فرخُه كاسياً كاسباً. ويقال: إنّ الحجلةَ لم تَلْقَح تمرّغت في التراب ورشّته على أصول ريشها فتلقح. ويقال: إنها تبيض بسَماعِ صوتِ الذّكر وبريحٍ تَهُبّ من ناحيته.

قال أبو عثمان الجاحظ: وإذا باضت الحَجَلةُ ميّز الذكرُ الذكورَ منها فيحضُنُها وميّزت الأُنثى الإناثَ فتحضُنُها، وكذلك هما في التربية. قال: وكلّ واحد منهما يعيش خمساً وعشرين سنةً. ولا تَلْقَح الأنثى بالبيض، ولا يُلقِح الذكر إلاّ بعد مُضِيّ ثلاث سنين. والذكرُ شديد الغَيْرَةِ على الأنثى. فإذا ٱجتمع ذكرانِ ٱقتتلا، فأيُّهما غلَب ذَلّ له الآخرُ؛ وذهبت الأنثى مع الغالب. والأنثى إذا أُصيبت بيضُها قصدَت عُشّ أُخرى وغَلبتها على بيضها. وقد وصف أبو عليّ بن رَشيق القَيْرَوانيّ الحَجَل فقال: [من مجزوء الكامل]

ما أغْرَبَتْ في زِيّها إلاّ يَعَاقِيبُ الحَجَلْ[(٢)]
جاءتك مُثْقَلةَ التَّرا ئِبِ بالحُلِيّ وبالحُلَلْ[(٣)]
صُفْرَ الجفون كأنما باتَتْ بتِبْرٍ تَكْتَحِلْ
مشقوقةً شقَّ الزُّجا جِ لمن أمَّل أو عَقَلْ
وَصَلَتْ مذابحُها الرؤو سَ بحُمْرة فيها شُعَلْ
لولا اختلافُ الجنس والتـ ـركيب جاءتْ في المَثَلْ
كَلِحَى الثمانين التي خُضِبت ومنها ما نَصَلْ
أو كاللِّثام أزالَهُ فَرْطُ التَّلَفُّتِ والعَجَلْ
وتَخالُهنّ جَوَارِياً لا يُزْدَرَيْن من العَطَلْ

(١) سرافين: جمع سراف، وهو الملك.
(٢) اليعاقيب: جمع اليعقوب، وهو ذو العقب.
(٣) الترائب: عظام الصدر مما يلي الترقوتين. أو هو موضع القلادة.

رَمَتِ الثِّيابَ إلى وَرا ءَ عنِ المناكبِ تَنْجَدِلْ[١]
وبدَتْ سراويلاتُها يَسحَبْنَ وَشْياً من قُبُلْ
حُمْرٌ من الرُّكْبات في لونِ الشقائقِ أو أَجَلْ
عَقَدْنَها فوق الصدو رِ مُخالِساتٍ للْقُبَلْ
وشَدَدْنَ بالأعْضادِ من حَذَرٍ عليها أن تُحَلْ
وكأنما باتتْ أصا بِعُها بحِنَّاءٍ تُعَلْ[٢]
مَنْ يَستَحِلّ لصيدها فأنا أمرؤٌ لا أسْتَحِلْ

وأمّا الكُرْكيّ وما قيل فيه ـ ويقال: إنّه «الغِرْنِيق»؛ ويقال: إن الغرنيقَ صِنف منه. وهو طائر أخضرُ طويلُ المِنْقار والرجلين. وسِفادُه في السُّرعة كالعصفور. وله مَشَاتٍ ومَصَايف. وفي طبعه التَّناصُر؛ ولهذا أنّه لا يطيرُ متقطِّعاً ولا مُتباعِدا بل صَفّاً واحداً، يُقدمها واحدٌ منها كالرئيس لها المقدَّم عليها وهي تتبعه، يكون كذلك حيناً، ثم يخلفه آخَرُ منها. وفي طبع الكُركِيّ وعادته أنّ أبَوَيْه إذا كَبِرا عالَهما.

وقال أرسطو: إن الغرانيقَ من الطير القواطِع وليست من الأوابِد، وإنها إذا أحسَّت بتغيّر الزمان أعتزمَتْ على الرجوع إلى بلادها. وكلّ منها ينام على إحدى رجليه قائماً. ويقال: إن الكَرَاكيّ إذا كَبِرت اسْودَّ ريشها وهو في شيبتها رَماديٌّ. وقد ظهر بالديار المصريّة في شهور سنة خمسَ عشرةَ وسبعمائة صِنْفٌ من الكَرَاكِيّ أبيضُ اللون ناصعُ البياض حَسَنُ الصورة، وهو أكبرُ جُثَّةً من الكراكي المعتاد. وقال النَّاشِي في وصف الكراكيّ: [من الرجز]

ومَوْرِدٍ يُجْذِل قلبَ الوامِق مُنَظَّمٍ بالغُرِّ والغَرانِقِ[٣]
وكلِّ طيرٍ صافرٍ أو ناعِق مكتهلٍ وبالغٍ ولاحقِ
مَوْشِيَّةِ الصدورِ والعواتِقِ بكلِّ وَشْيٍ فاخرٍ وفائقِ
تختالُ في أجنحةٍ خَوَافِق كأنما تَختَالُ في قَرَاطِقِ[٤]
يَرْفُلْن في قُمْصٍ وفي يَلامِقِ كأنّهن زَهَرُ الحدائقِ[٥]

---

(١) انجدل: انصرع.
(٢) تعلّ بحناء: تخضب مرة بعد أخرى.
(٣) الغرانق: نبات شجيري معمر من الفصيلة الجارونية.
(٤) يقال: خفق الطير إذا طار، وهو خافق.
(٥) يلامق: جمع يلمق، وهو القباء المحشو.

حُمْرِ الحِداق كُحُلِ الحَمالِقِ   كأنما يَجُلْن في مَخانِقِ[١]

وأمّا الإِوَزّ وما قيل فيه - والإوَزّ ثلاث أصناف: بَطائحيّ وهو الطويل الأسود بزُرقة وتركيّ وهو المُدَوَّر المائل إلى البياض، وخبيّ وهو الضخم الكبير منها. ويقال: إنّ الإوَزّ إذا فرغ من السِّفاد وسَبح في الماء فإنما يفعل ذلك لتَمام اللّذة. والأنثى تحضُن بيضَها ثلاثين يوماً. والذكور تَحنُو على الفراخ. ولكلّ منها قَضِيبٌ يَسفِدُ به كالبَطّ، والإوَزّ البطائحيّ، وهو المعروف بمصر بالعِراقيّ يخالف الخبيَّ في الصياح؛ لأنّ الخبي تصيح ذكورها ولا تصيح إناثُها، والبطائحي بخلاف ذلك. والخبيّ من الطير الأوابدِ التي لا تَبرح من الأماكن التي تُرَبّى فيها لثِقَل أجسامها، وإذا نَهضت فلا ترتفع من الأرض إلاّ يسيراً. والعراقياتُ من الطير القَوَاطع التي تنتقلُ من مكان إلى آخر، وتُرى في وقت دون وقتٍ.

وقال ٱبن رَشيق يصِف فحلَ إِوَزّ: [من الطويل]

نظرتُ إلى فحل الإوزّ فخِلتُه   من الثِّقْل في وَحْلٍ وما هو في وَحْلِ
يُنقِّلُ رجليه على حين فَتْرةٍ   كمُنْتَعلٍ ولا يُحسِن المشيَ في النَّعْلِ
له عُنُقٌ كالصَّوْلَجانِ ومَخْطِمٌ   حكى طَرَفَ العُرجون من يانِعِ النَّخْلِ[٢]
يُداخِله زَهْوٌ فيلحظ من علٍ   جوانِبَه ألحاظَ مُتَّهَمِ العقل
يَضُمّ جناحيه إليه كما ٱرتدى   رداءً جديداً من بَني البَدْوِ ذو جهلِ

وأمّا البطُّ ومَا قِيلَ فِيهِ - وهو أصناف: منها الوَحْشِيّ، والأهليّ، ومن الوحشِيّ «اللَّقْلَق»[٣]؛ ومن الأهليّ «الصِّينيّ»، وفراخُه تَخرُج كاسيةً كاسبةً. وقيل: إن بالزَّابجَ بطّاً بيضاً وحمراً ورُقطاً طوالَ الأعناق قِصارَ الأرجلُ. والبطّ يطير على وجه الماء، وليس من طير الماء، لأنه لا يَأويهِ دائماً ولا يَغتَذِي بالسمك، وهو يأكل النباتَ والبُذور، وله قضيبٌ يخرج من دُبُره كذكر الكلب عظيمٌ جدّاً بالنسبة إليه؛ في رأسه زِرٌّ كالفَلْكَة[٤]؛ فإذا سَفِدَ لم يُخْرِجْه حتى ينقلبَ لجنبِه، ويحصُل له عند السِّفادِ من الالتحام ما يحصُل للكلب.

وقال أبو عليّ بن سينا: وطبع البطِّ حارٌّ أسخن من جميع الطيور الأهلية. قال:

---

(١) المخانق: القلائد.
(٢) العرجون من النخل كالعنقود من العنب.
(٣) القلق: طائر أعجمي طويل العنق.
(٤) فلكة المغزل: رأسه.

قال بعضهم: وهو يسخّن المبرودَ ويُورث المحرور حمّى. قال: وشحمه عظيم في تسكين الوجع وتسكين اللذع من عمق البدن؛ وهو أفضلُ شُحوم الطيرِ. ولحمه يُكثِر الرِّياحَ، وقانِصتُه كثيرةُ الغِذَاءِ؛ ولحمه يُسَمِّنُ، وهو بَطِيءٌ في المعِدة ثقيلٌ. وإذا آنهضم كان أغذى من جميع لحوم الطير؛ وهو يزيد في الباه[١] ويكثر المَنِيَّ.

وأمّا النُّحَام[٢] ومَا قيلَ فيهِ - قالوا: والنُّحام يكون أفراداً وأزواجاً. وإذا أراد المبيتَ آجتمع رُفُوفاً[٣] فنام ذُكوره ولا تنام إناثُه. وتُعِدّ لها مَباتَاتٍ، إذا ذُعِرتْ في واحد منها طارت إلى آخَر. ويقال: إنه لا يَسْفِدَ ولا يُخرج فراخه بالحَضْن وإنما تبيض الأنثى من زَقّ الذكر. وإذا باضت تغرّبَت وبقي الذَّكَرُ عند البيض يذرُق عليه ليس إلاّ، فيقوم ذَرْقُه مقامَ الحَضْن. فإذا تمّت مدّةُ ذلك خرجت الفراخُ لا حَرَاكَ بها؛ فتجيء الأُنثى فَتَنْفُخُ في مناقيرها حتى يُجري ذلك النفخُ فيها رُوحاً، ثم يتعاون الذَّكَرُ والأُنثى جميعاً على التربية، وإذا قَوِيَت الفراخُ على الطُّعْم وأمكنها التكسُّبُ لنفسها طردها الذَّكَر.

وأمّا الأنيسُ ومَا قيلَ فِيهِ - فقال أرسطو: إنّه حادُّ البصر، وصوته يُشبه صوتَ الجَمل ويُحاكيه. ومأواه في قرب الأنهار في الأماكن الكثيرة المياه الملتفّة الشجر. وله لونٌ حسنٌ وتدبيرٌ في معاشه. والناسَ يتغَالَون به إذا وقع لهم ويجعلونه في بيوتهم.

وأمّا القَاوَنْدُ ومَا قيلَ فيهِ - قال صاحبُ كتاب مباهج الفكر ومناهج العِبرَ في كتابه: كنتُ أسمع بشَحْم القاوَنْد ولم أدرِ ما هو: حيوانٌ هوائيّ أم مائيّ أم أرْضِيّ، حتى وقفتُ على كتابٍ موضوعٍ في طبائع الحيوان وخواصّه ليس عليه آسم المُصنِّف، فرأيته قد قال: «القاوند طائر يتّخذ وكره على ساحل البحر ويحضُن بيضَه سبعةَ أيّام، وفي اليوم السابع يُخرج فِراخَه ثم يَزُقّها سبعةَ أيام. والمسافرون في البحر يتيمّنون بهذه الأيام ويُوقنون بِطيبِ الرِّيح وحلول أيام السفر».

وأمّا الخُطَّافُ ومَا قيلَ فيهِ - والخُطّافُ يسمّى «زَوَّارَ الهند»، وهو من الطيور القواطع التي تَقطع البلاد البعيدة إلى الناس رغبةً في القرب منهم والإلف بهم، وهو مع ذلك لا يَبْنِي بيتَه إلاّ في أبعد المواضع حيث لا تناله أيديهم. ومن عجيب حاله أنّ عينَه تُقلَع فترجع؛ وهو لا يُرَى أبداً يقف على شيءٍ يأكله، ولا يُرى يُسافِدُ ولا يجتمع بأنثاه، والأنثى تبيض مرّةً واحدةً في السنة، وقيل: مرتين؛ وكلاهما قاله الجاحظ.

---

(١) الباه: النكاح.
(٢) النحام: طائر أحمر كالأوز.
(٣) الرفوف: جمع رف، وهو القطيع من الطير.

والخُفّاش عدوُّ الخُطّاف؛ فهو إذا فرَّخ وضع في أعشاشه قُضبان الكَرَفْسِ[(١)]، فلا يُؤذِي فراخَه إذا شمَّ رائحة الكَرَفْس. وهو لا يُفَرِّخ في عِشٍّ عتيقٍ حتى يُطِيِّنه بطينٍ جديدٍ. وهو يَبني عُشّة بالطين والتِّبْن. فإذا لم يجد طينا مُهَيَّأً ألقى نفسه في الماء ثم تمرّغ في التّراب حتى يمتلىءَ جَناحاه ثم يجمعه بمِنقاره. وهو يُسوِّي في الطُّعْم بين فراخه. ولا يترك في عُشِّه زِبْلاً بل يُلقيه خارجاً. وأصحابُ اليَرَقان يُلَطِّخون فِراخَ الخُطّاف بالزعفران، فإذا رآها صُفْراً ظنّ أنّ اليَرَقانَ أصابَها من شدّة الحرّ، فيذهبُ ويأتيها بحَجَر اليَرَقان فيَطْرحُه على الفِراخ، وهو حَجرٌ أصفَرُ، فيأخذه المُحتالُ فيعلّقه على نفسه أو يَحُكُّه ويشربَ من مائه يسيراً فيبرأ. والخطّاف متى سمع صوتَ الرّعد مات.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا: قال ديسقوريدس: إنّ أوّل بطن للخُطّاف إذا شُقّ وُجد فيه حَصاتان، إحداهما ذاتُ لونٍ واحد والأخرى ذاتُ ألوانٍ كثيرة، إذا جُعلتا في جِلد عجلٍ قبل أن يصيبه ترابٌ ورُبِط على عَضُد المصروع ورقبته أنتفع به، قال: وقد جرَّبت ذلك وأبرأ المصروعَ. قال: وأكلُ الخُطّاف يُحِدّ البصرَ، وقد يُخَفَّفُ ويُسْقَى. والشربةُ منه مثقالٌ. وقيل: إنّ دماغه بعسل نافعٌ من ابتداء الماء، وكذلك دماغُ الخُفّاش. قال: وإن مُلِّح الخُطّاف وجُفِّف وشُرِب منه درهمانِ نفَع من الخُنَاق. قال بعضُ الأطباء: المشهور عند الأطباء أن عُشَّ الخَطَاطيف إذا حُلَّ في ماء وصُفِّيَ وشُرِب سهّل الولادة.

وقد ألمّ الشعراءُ في أشعارهم بوصف الخُطّاف؛ فمن ذلك ما قاله أبو إسحاق الصّابي: [من الطويل]

وهنديّة الأوطان زَنجيّة الخَلْق مُسَوَّدة الأثواب مُحْمَرَّة الحَدَقْ
كأنّ بها حُزْناً وقد لَبِستْ له حِداداً وأذْرَت من مدامعها العَلَقْ[(٢)]
إذا صَرْصَرَتْ صَرّت بآخر صوتِها كما صَرّ مَلْوَى العود بالوتَر الحَزَقْ[(٣)]
تَصِيفُ لدينا ثم تشتو بأرْضِها ففي كلّ عامٍ نَلْتقي ثم نَفْتَرِقْ

وقال السَّريّ الرّفّاء يصفها من أبيات ويذكر غرفةً: [من الطويل]

وغرفتُنا بين السحائب تَلْتَقي لهنّ عليها كِلّةٌ ورِوَاقُ
تَقَسَّم زُوّارٌ من الهند سَقْفَها خِفافٌ على قلب النديم رِشاقُ

---

(١) الكرفس: عشب ثنائي الحول من الفصيلة الخيمية، له جذر وتدي مغزليّ، وساق جوفاء قائمة.
(٢) العلق: الدم الشديد الحمرة.
(٣) الحزق: اسم من حزق الشيء يحزقه إذا شدّه وضغطه.

أعـاجِـمُ تَـلْـتَـدُّ الـخِـصَـامَ كـأنـهـا ... كـواعـبُ زَنْـج راعَـهـنّ طَـلاَقُ
أَنِـسْـنَ بـنـا أُنْـسَ الإمـاء تـحـبّـبـت ... وشـيـمـتُـهـا غَـدْرٌ بـنـا وإبـاقُ
مُـواصِـلـةٌ والـوَرْدُ فـي شَـجَـراتـه ... مُـفـارِقـةٌ إن حـان مـنـه فِـراقُ

وقال أيضاً: [من الطويل]

وغرفتُنا الحسناء قد زاد حسنُها ... بـزائـرةٍ فـي كـلّ عـام تَـزُورُهـا
مُبَيّضَةِ الأحشاءِ حُمر بطونُها ... مُزَبْرَجَة الأذناب سود ظهورُها
لـهـنّ لُـغـاتٌ مُـعْـجَـمَـاتٌ كـأنـهـا ... صَرِيرُ نِعال السِّبْتِ عالٍ صَرِيرُها[1]

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الطويل]

وزائـرةٍ فـي كـلّ عـام تـزورُنـا ... فيخبر عن طِيبِ الزمان مَزارُها
تُـخَـبِّـر أنّ الـجَـوّ رَق قـمـيـصُـه ... وأنّ رِيـاضـاً قـد تـوشّـى إزارُهـا
وأنّ وجـوهَ الـغُـدْرِ رَاقَ بـيـاضُـهـا ... وأنّ مُـتـونَ الأرض رَاعَ ٱخـضـرارُهـا
تَـحِـنّ إلـيـنـا وهـي مـن غـيـر شَـكْـلـنـا ... فتدنو على بُعْدٍ من الشكل دَارُها
ويُعْجِبنا وسْطَ العِراصِ وُقوعُها ... ويـؤنِـسُـنَـا بـيـن الـدّيـار مَـطـارُهـا[2]
أغار على ضَوْءِ الصباح قميصُها ... وفـاز بـألـوانِ الـلـيـالـي خِـمـارُهـا
تَـصِـيـح كـمـا صَـرّت نِـعـالُ عـرائـسٍ ... تـمـشـت إلـيـنـا هِـنْـدُهـا ونَـوَارُهـا

وقال آخَرُ:

أهـلاً بـخُـطّـافٍ أتـانـا زائـراً ... غَـرِداً يُـذَكِّـر بـالـزمـان الـبَـاسِـمِ
لَـبِـسـتْ سـرابـيـلَ الـصـبـاحِ بـطـونُـه ... وظـهـورُه ثـوبَ الـظـلام الـعـاتِـمِ

وقال أبو نُوَاس:

كـأن أصـواتَـهـا فـي الـجـوّ طـائـرةً ... صوتُ الجِلامِ إذا ما قَصّتِ الشَّعَرَا[3]

وأمّا القِيقُ والزُّرْزُورُ ومَا قيلَ فيهمَا ـ والقِيقُ: طائر في قَدْر الحَمَام اللّطيف؛ وأهلُ الشأم يُسمّونه «أبا زُرَيْق». وفي طبعه كثرةُ الإلْف بالنّاس، وقبولُ التعليم، وسرعةُ الإدراك لما يُلَقّن من الكلام مُبيّنا حتى لا يشك سامعه إذا لم يَره أنه إنسانٌ؛ وربما زاد على البَبَّغاء. وله حكاياتٌ وأخبارٌ في الذكاء والفِطْنة يطول شرحها، وهو طائر مشهور بذلك.

---

(١) نعال السبت: نعال تتخذ من جلود البقر المدبوغة بالقرظ.
(٢) العراص: واحدتها عرصة، وهي البقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها.
(٣) الجلام: واحدتها جلم، وهو المقص.

وأمّا الزُّرزُورُ ـ فيقال: إنه ضَرْبٌ من الغراب يسمّى «الغُدَاف»؛ ويقال: إنه «الزّاغ». وهو يقبل التعليم، ولا يُرى إلاّ في أيام الربيع. ولونه أرقطُ لكن السواد أغلب. وقد يوجد في لونه الأبيض، وهو قليل جدّاً.

وقال بعض شعراء الأندلس: [من الكامل]

يا رُبّ أعجمَ صامتٍ لقّنته ... طُرَفَ الحديثِ فصار أفصحَ ناطقِ
جَوْنِ الإهابِ أُعيرَ قوّةَ صُفْرةٍ ... كالليل طرّزه وَميضُ البارقِ
حِكَمٌ من التّدبير أعجزت الورى ... ورأى بها المخلوقُ لُطفَ الخالِقِ

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

أمِنْبَرٌ ذاكَ أم قَضِيبُ ... يَقْرَعُه مِصْقَعٌ خطيبُ
يَختالُ في بُرْدَتَيْ شَباب ... لم يتَوَضَّحْ بها مَشيبُ
أخرسُ لكنّه فصيحٌ ... أبلَهُ لكنّه لبِيبُ

وقال الوزير أبو القاسم بنُ الجدّ الأندلسيّ من رسالة كتبها إلى الوزير أبي الحسن بن سِراج جواباً عن رُقْعةٍ وصلتْ منه إليه، يشفعُ لرجل يُرعف بالزُّرَيْزِيرِ، ابتدأها بأن قال:

حسُنتْ لك أبا الحسن ضرائبُ الأيام، وتشوفَتْ نحوكَ غرائبُ الكلام، واهتزّت لمكاتبتك أعطافُ الأقلام، وجادت على مَخلك ألطافُ الغَمَام، وأشادت بفضلك ونُبلك أصنافُ الأنام. فإن كان روض العهد أعزّك الله لم يُصِبْه من تَعَهُّدنا طلٌّ[1] ولا وابل[2]، ولا سَجَعَتْ على أَيْكِهِ وُرْقٌ ولا بَلابِل؛ فإن أزهارَه على شِرْب الصّفاء نابته، وأشجارَه في تُرْب الوفاء راسخةٌ ثابتة، وقد آن الآن لعُقم شجره أن تُطلِع من الثمر ألواناً، ولعُجْم طيره أن تَسجَعَ من النَّغَم ألحاناً، بما سقط لديّ ووقع عليّ من طائرٍ شِهيّ الصفِير، مبنيّ الاسم على التصغير؛ فإنه رَجَّع بأسمك حِيناً، وابتدع في نوبة شكرك تَلْحِينا، وحرَّك من شوقي إليك سكوناً، ودمَّث[3] في قلبي لوُدِّك وُكوناً، ثم اسمعني أثناء ترنّمه كلاماً وصف به نفسَه، لو تغنّت به الوَرْقاء، لأَذِنَتْ له[4] العنقاء، أو ناح بمثله الحمام؛ لبكى لشَجْوِه الغَمَام، أو سَمِعه قيسُ بن عاصم في ناديه، وبين

(١) الطل: المطر الخفيف يكون له أثر قليل.
(٢) الوابل: المطر الشديد الضخم القطر.
(٣) دمث: هيأ وسهل.
(٤) أذنت: أصغت واستمعت.

أعاديه، لحَلّ الزّمع[١] حُبَاه، وأستردّ الطَّرَبُ صِباه:

كلاماً لوْ أن البَقْلَ يُزْهَى بمثله زها البقل وأخضرّ الغضا بِمَصيف

فتلقّيتُ فضل صاحبه بالتّسليم، وأعترفتُ بسبْقه أعتراف الخبير العليم.

وبعدُ، فإني أعود إلى ذكر ذلك الحيوان الغرّيد، والشيطان المرِيد؛ فأقول: لئن سُمّي بالزُّرَيْزير، لقد صُغّر للتكبير؛ كما قيل: حُرَيْقِيصٌ وسَقْطُه يُحرِق الحَرَج، ودُوَيْهِيَةٌ وهي تلتهم الأرواحَ والمُهَج. ومعلومٌ أنّ هذا الطائرَ الصافر يفوق جميعَ الطيور في فَهْم التلقين، وحسن اليقين، فإذا عُلِّم الكلامَ لهِج بالتسبيح، ولم يَنْطِق لسانُه بالقبيح، وتراه يقُوم كالنصيح، ويدعو للخير بلسانٍ فصيح. فمن أحبَّ الاتّعاظ، لقي منه قُسَّ إيَادٍ بعُكَاظٍ؛ أو مال إلى سماع البسيط والنشيد، وجَد عنده نُخَبَ المَوْصليّ للرشيد. فطوراً يُبكيك بأشجى من مراثي أرْبَد، وحيناً يُسَلّيك بأحلى من أغاني مَعْبَد. فسبحان من جعله هادِياً خطيباً، وشادياً مُطْرِباً مُطِيباً. ولما طار ببلاد الغرب ووقع، وَرَقِيَ في أكنافها وصقعَ وعاين ما أتّفقَ فيها في هذا العام من عدم الزيتون، في تلك البطون والمتون؛ أزمع عنها فِراراً، ولم يجد بها قراراً؛ لأن هذا الثمر بهذا الأُفُق هو قِوامُ معاشه، وملاكُ أنتعاشه؛ إليه يَقْطَع، وعليه يقع؛ كما يقع على العسل الذُّبَاب، وتقطع إلى العَرَادِ الضِّباب، فاستخفَّه هائج التذكار، نحو تلك الأوكار، حيث يَكْتَسِي ريشُه حريراً، ويَحْتَشِي جوفُه بَرِيراً[٢]، ويحتسي قُرَاحاً نميراً، ويَغتدِي على رَهْطِه أميرا. فخذه إليك، نازلاً لديك، ماثلاً بين يديك، يترنّم بالثّناء، ترنُّم الذبابِ في الرّوضة الغَنّاء، وقد هَزّ قَوادِمَ الجناح، لعادة الاستمناح؛ وحَبَّر من لُمَع الأَسْجَاع، وما يصلُح للانتجاع، واثقاً بأن ذلك القُطْر الناضر سَتَنْفَحه حدائقُه، ولا تَلْفَحه ودَائِقُه[٣]؛ لا سيما وفضلُك دليله إلى تُرَع رياضِه، وفُرِضَ حياضه؛ مع أنه لا يَعْدَم في جنابكَ حَبّاً نثيراً، وخِصباً كثيراً، وعُشّاً وثيراً.

فإذا ما أراد كُنتَ رِشَاءً وإذا ما أراد كُنتَ قَلِيبَا[٤]

والله تعالى يَكْفيه فيما ينوبه شرّ الجوارح، ويقيه شؤم السانح والبارح، بمَنّه وكرمه.

وأمّا السُّمَانَى ومَا قيلَ فيهِ ـ يقال: إنّ السُّمَانَى هو السَّلوَى، وهو من الطيور

(١) الزمع: الخفة والطيش.
(٢) البرير: أول ما يظهر من ثمر الأراك وهو جلد.
(٣) الوديقة: حر نصف النهار.
(٤) القليب: البئر.

القواطِعَ التي لا يُعْلَم من أين تأتي، ويقال: إنه يخرج من البحر المالح؛ فإنه يُرى وهو يَطير عليه أوانَ ظهوره وأحدُ جَناحيه منغمسٌ في الماء، والآخرُ منتشرٌ كالقِلْع. وأكثرُ من يعتني بتربيته أهلُ مصر ويتغالَوْن في ثمنه ويحتفلون بأمره، حتى ينتهي ثمن جَيِّده إلى ألف درهم بعد أن يباع كلُّ عشرة منها بدرهم وأرخص. وهو صِنْفان: رَبيعيّ وطِرْمَاهِيٌّ، فالرَّبيعيّ القادم الراحل. والطِّرماهيّ القاطن في الأرض والبلاد الخصيبة، وَيَبيض ويُفَرِّخُ فيها كالحَجَل. وسببُ مُغالاتهم في أثمانها لأجل كثرة صِيَاحِها وعددِ أصواتها. وقد وُجد فيها ما صاح في الليلة الواحدة إلى الثانية من النهار أربعة آلاف وستمائة صوت. والصوتُ عندهم أن يُفْصَلَ بينه وبين الصوت الثاني بسَكْتة. وهم في تربيته يبدؤون بإطعامه دُقاق القَمح (وهو القمح الصغير الذي لا يُمسكه الغِرْبال لِصِغَره) مدّةَ شهر؛ وتكون ذلك الوقت مجتمعةً في قَفَص كبير يسمّونه «المرح»؛ ثم يُفرَدُ بعد ذلك كلُّ سُمَانَى بمفرده في قفص ويُطْعَمُ الدُّخْنَ[١] والشَّادَانِقَ[٢]. ويَصيح في مبتدأ أمره مقدارَ شهر ثمّ يسكت مدّة شهرين. ويُنقَلُ إلى أقفاصٍ أُخَر يعتنون بجودتها ويرفعونها على البَرَاريد (والبراريدُ عِصِيٌّ تُعَلّق عليها الأقفاص) فيصيح بعد تلك السكتة أربعةَ أشهر. فإذا دخل فصل الخريف وهبطَ الماءُ سكت مدّةَ شهرين وتَقَرْنَصَ[٣]، ثم يصيح أحياناً ويسكت أحياناً. وهو لا يطولُ عمره أكثر من سنة ونصف. وأوّل ما يصيح قبل أن يتفصّح بالوَعْوَعَة، وحكاية صوته: «وَعْ وَعْ»؛ ثم يصيح بعد ذلك: «شَقْشَلَق».

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا في كتاب الأدوية المفردة: إنه يُخاف من أكل لحوم السُّمَانَى من التمدّد والتَّشنّج.

وأمّا الهُدْهُدُ وما قيلَ فيهِ ـ والهدهدُ طائرٌ معروف. وقال الجاحظ فيه: والعرب كانوا يزعمون أن القُنْزُعَةَ[٤] التي على رأسه ثوابٌ من الله عزّ وجلّ على ما كان من بِرّة لأمّه، لمّا ماتت جعل قبرها في رأسه؛ فهذه القُنْزعَةُ عِوَضٌ عن تلك الوَهْدة. وهو طائر مُنْتِنُ البَدَنِ من جوهره وذاته. والأعراب يجعلون ذلك النَّتْنَ شيئاً خامرَه بسبب تلك الجِيفَةِ التي كانت على رأسه. ويستدلّون على ذلك بقول أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْت حيث يقول من أبيات: [من الكامل]

(١) الدّخن: نبات عشبي من النجيليات، حبه صغير أملس كحب السمسم.
(٢) الشادانق: بزر العنب.
(٣) الباز المقرنص: المقتنى للاصطياد، أو ما ربط من الطير ليسقط ريشه، وقرنس الديك (باب السين): أي هرب من ديك آخر.
(٤) القنزعة: الريش المجتمع في رأس الديك.

غَيْمٌ وظَلْماء وغيثُ سَحَابةٍ أزْمانَ كَفَّنَ وٱستراد الهُدْهُدُ
يَبْغِي الفرارَ لأُمّه ليُجِنَّها فبنى عليها في قفاه يَمْهَدُ
مَهْداً وطيناً فاستقلّ بحمله في الطير يَحْمِلُها ولا يتأوّدُ
من أُمّه فَجُزي بصالح حملِها وَلَداً وكَلَّف ظهرَه ما يَعْقِدُ
فتراه يُدْلِج ماشياً بجنازةٍ بقفاه ما ٱختلف الجديدُ المُسْنَدُ

وزعم صاحبُ الفِراسَة: أن سبَبَ نَتْنِه أنّه يطلب الزِّبْلَ؛ فإذا وجده نقل منه وٱبتنى بيتاً منه؛ فإذا طال مُكثه في ذلك البيت، وفي مثله وُلِد، ٱختلَط ريشُه وبدنُه بتلك الرائحة فورِث ٱبنُه النَّتْنَ، كما ورِثه هو من أبيه، وكما وَرِثه أبوه من جَدّه. قال شاعرٌ:

وأنْتَن من هُدْهُد مَيِّت أُصِيبَ فَكُفِّنَ في جَوْرَب

ويقال عنه: إنه يَرى الماءَ في باطن الأرض كما يراه الإنسان في باطن الزُّجاج. وزعموا: أنه كان دليل سليمان عليه السلام على الماء ولذلك تَفَقّده، على أحد أقوال المفسرين لكتاب الله تعالى.

وقال الجاحظ فيه: إنه وَفِيٌّ حَفُوظٌ؛ وذلك أن الذكر إذا غابت عنه أُنْثاه لم يأكل ولم يشرب، ولا يزال يصيحُ حتى تَعودَ إليه، فإن لم تَعُدْ لا يَسْفَد بعدها أُنْثى أبداً، ولا يزال يصيحُ عليها ما عاش، ولم يَنَلْ بعدها من طُعْم بل ينال منه ما يُمْسك رَمَقَه.

ووصفه أبو الشِّيصِ[١] فقال: [من البسيط]

لا تَأْمَنَنّ على سرِّي وسِرِّكُمُ غيري وغيرَك أو طَيِّ القراطيسِ
أو طَائرٍ سأُجَلِّيه وأَنْعَتُه ما زال صاحبَ تنقير وتَدْسِيسِ
سُودٍ بَرَاثِنُه مِيلٍ ذَوائِبُه صُفْرٍ حَمَالِقُه في الحسن مغموسِ
قد كان هَمَّ سليمانٌ لِيَذْبَحَهُ لولا سِعايتُه في مُلْك بِلْقِيس

وقال آخر من أبيات: [من البسيط]

كأنّه إذ أتاه من قُرَى سَبَإٍ مُبَشِّراً قد كساه تاجَ بِلْقِيس
يبدو له فوق ظهرِ الأرض باطنُها كما تَبَدّت لنا الأقذاءُ في الكُوس[٢]

وأمّا العَقْعَقُ وَمَا قيلَ فِيهِ ـ ويسمّى العقعق أيضاً «كُنْدُشاً»، وهو طائرٌ لا يأوِي

(١) هو محمد بن عبد الله بن رزين وهو ابن عم دعبل بن علي بن رزين الشاعر، وكان في زمن الرشيد: وقد رثاه بعد موته. (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٣٧).
(٢) المراد بقوله: «الكوس» الكؤوس، واحدتها كأس.

تحت سَقْفٍ ولا يَستظِل به، بل يُهَيِّىء وَكْرَه في المواضع المشرفة الفسيحة. وفي طبعه الزِّنا والخيانةُ والسرقةُ والخُبْث؛ والعرب تَضرِبُ به المثلَ في ذلك كلّه. وإذا باضت الأنثى أخْفَت بيضَها بورق الدُّلْب خوفاً عليه من الخُفَّاش، فإنه متى قَرُبَ منه مَذِرَ[١] وفَسَد وتغيّر من ساعته. وتقول العرب في أمثالها: «أمْوَقُ من عَقْعَق». وهو شديدُ الاستلاب والاختطاف لما يراه من الحَلْي الثمين. قال إبراهيم الموصليّ فيه: [من المتقارب]

إذا بـــارك الـــلَّـــهُ فـــي طـــائـــرٍ فـــلا بـــارك الـــلَّـــهُ فـــي الـــعَـــقْـــعَـــقِ
قـصـيـرُ الـذُّنَـابَـى طـويـلُ الـجـنـاح مـتـى مـا يَـجِـدْ غـفْـلـةً يَـسْـرِق
يُـقَـلِّـبُ عَـيْـنَـيـنِ فـي رأسـه كـأنـهـمـا قَـطْـرَتَـا زِئْـبَـقِ

وكان سببُ قوله لهذا الشعرِ فيه ما حكاه إسحاق بن إبراهيم قال: كان لي عَقْعَقٌ وأنا صبيٌّ قد ربَّيتُه، وكان يتكلّم بكلّ شيءٍ يسمعه؛ فسُرِقَ خاتم ياقوتٍ كان أبي قد نَزعه من إصْبَعِه ودخل الخَلاَء ثم خرج فلم يجده، فضرب الغلام الذي كان واقفاً، فلم يَقِفْ له على خبر. فبينا أنا ذات يوم في دارنا إذ أبصرت العَقْعَق قد نَبَش تراباً وأخرج الخاتمَ منه، فلَعِب به طويلاً ثم دفَنه؛ فأخذتُه وجئتُ به إلى أبي، فَسُرَّ به وقال هذا الشعر.

وأمّا العَصَافِيرُ ومَا قِيلَ فيهَا - والعصافير ضروبٌ كثيرةٌ: منها «العصفور البُيوتِي» و«عصفور الشَّوْك»، و«عصفور النَّوْفر»، ومن ضروبها «القُبَّرَة» و«حَسُّونُ» و«البُلْبُل».

فأمّا العصفور البُيوتِيّ - ففي طباعه اختلافٌ: ففيه من طبائع سِباع الطير أنه يُلْقِم فِراخَه ولا يَزُقّها، ويَصيدُ أجناساً من الحيوان كالنَّمْل إذا طار والجرادِ، ويأكل اللّحمَ. والذي فيه من طباع بهائم الطير أنه ليس بذي مِخْلَبٍ ولا مِنْسَرٍ؛ وهو إذا سقط على عُودٍ قَدم أصابعه الثلاثَ وآخَر الدّابِرَةَ؛ وسباعُ الطيرِ تُقدِّم أصبعين وتُؤخِّر إصبعين؛ ويأكل الحبَّ والبقولَ. وَيَتَمَيَّزُ الذكرُ منها من الأُنْثى بِلحْيةٍ سوداء. وهو لا يعرِف المشيَ وإنما يرفع رجليه ويَثِبُ. وهو كثيرُ السِّفاد، وربما سَفِد في الساعة الواحدة خمسين مرّةً، ولذلك عمره قصيرٌ فإنّه لا يُعَمَّر غالباً أكثرَ من سنةٍ؛ وإناثُها تُعمَّر أكثر من ذكورها. والمثل يُضرب في التحقير والتصغير بأحلام العصافير.

قال دُرَيْد بن الصِّمّة:

يـا آلَ سـفـيـانَ مـا بـالـي وبـالُـكُـم أنـتـم كـبـيرٌ وفي الأحلام عـصـفـورُ

(١) مذر البيض: فسد وتغير.

وقال حسّان بن ثابت:

لا بأسَ بالقوم من طولٍ ومن عِظَمٍ   جِسمُ البغال وأحلامُ العصافير

وأما عصفور الشَّوْك ـ فزعم أرسطو أنّ بينه وبين الحمار عداوةً، لأن الحمارَ إذا كان به دَبَرٌ حكَّه بالشَّوْك الذي يأوِي إليه هذا العصفورُ فيقتله؛ وربما نَهَق الحمارُ فتسقط فراخهُ أو بيضه خوفاً منه؛ فلذلك هذا العصفور إذا رأى الحمار رَفْرَف فوق رأسه وعلى عنقه وآذاه ونقَره في عَقْره أنّى كان.

وأما عصفور النَّيْلَوْفَر ـ وهو لا يوجد غالباً إلا بثَغْر دِمْياط[١]، وشأنُه غريب؛ وذلك أنه عصفورٌ صغير جدّاً، فإذا كان قبل غروب الشمس جاء إلى بِرَك النَّوْفَر فيجد النَّوْفَرَةَ وهي طافحةٌ على وجه الماءِ مفتوحة فيقعد في وسطها، فإذا حصَل فيها ٱنطبقتْ عليه وٱنغمست في الماء طوال الليل؛ فإذا طلعت الشمسُ طفَت النَّوْفَرةُ على وجه الماء وٱنفتحت، فيخرج منها ويطير إلى غروب الشمس، فيأتي ويفعل كفعله.

وأما القُبَّرة ـ فقد عَدُّوها من أنواع العصافير. وهي غَبْراءُ كبيرة المِنْقار على رأسها قُبَّرةٌ. وهذا الضرب قاسي القلب. وفي طبعه أنّه لا يَهُولُه صوت صائح به، ورُبّما رُمِي بالحجر فاستخفَّ بالرامي ولَطِيءَ إلى الأرض حتى يتجاوزَه الحجرُ، وهو يَضَع وَكْره على الجَادَّةِ رغبةً في الأنس بالناس.

وأمّا حَسُّونٌ ـ وتُسميه أهل الأندلس «أم الحسن» والمصريون «السقاية» لأنه إذا كان في القفص ٱستقَى الماءَ من إناء بآلَةٍ لطيفةٍ يُوضع له فيها خيطٌ، فتراه يَرفعُ الخيطَ بإحدى رجليه ويضعه تحت رجله الأخرى حتى يصل إليه ذلك الإناء اللطيف فيشرب منه. وهو ذو ألوان حسنة التركيب والتأليف من الحمرةِ والصفرةِ والسوادِ والبياضِ والخضرةِ والزُّرقةِ. وله صوتٌ حسنٌ مُطْرِبٌ. ووصفه أبو هلال العسكريّ فقال:

ومُفْتَنَةِ الألوانِ بِيضٍ وجوهها   ونُمْرٍ تَراقِيها وصفرٍ جُنُوبُها[٢]

كأنّ دَرارِيعاً عليها قصيرةً   مُرَقَّعَةً أعطافُها وجُيوبُها[٣]

وأما البُلْبُل ـ وهو «العَنْدَلِيب»، وتُسَميه أهلُ المدينة «النُّغَر». وهو طائرٌ أغبرُ الرأس لطيف القَدِّ، مأواه الشجرُ.

قال الجاحظ: البلبل موصوفٌ بحسن الصوتِ والحنجرةِ، ومن شأنه إذا كان غيرَ

---

(١) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل، مخصوصة بالهواء الطيب وعمل ثياب الشرب الفائق، وهي ثغر من ثغور الإسلام. (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الجنوب: واحدتها الجنب، وهي الناحية، أو الشق من كل شيء.

(٣) الدراريع: واحدتها دراعة، وهي جبة مشقوقة المقدم.

حاذقٍ أن يطارِحه إنسان بشكل صوتِه، فيتدرّب ويتعلّم ويحسنُ صوتُه. وقد وَصف أبو هلال العسكريّ البلابلَ فقال: [من الطويل]

مررتُ بدُكْنِ القُمْصِ سُودِ العمائم تُغَنّي على أطراف غِيدٍ نواعم[1]
زُهِينَ بأصداغ تَرُوق كأنّها نجومٌ على أعضاد أسودَ فاحِم
تَرى ذهباً منهنّ تحت مآخِرٍ لها ولُجَيْناً نُطْنَه بالقَوادِمِ

وقال آخر: [من الخفيف]

كيف أُلحَى وقد خَلَعتُ على اللهـ ـو عِذاري وقد هَتَكْتُ قِناعي
وتعشّقتُ بلبلاً أنا منه في أنزعاج إلى الصِّبا والْتِياع[2]
أنا من رِيشه المدبَّج في زَهْـ ـرٍ من شَجْو صوته في سماع

ومن رسالة ذكرها العِماد الأصفهانيّ الكاتب في الخريدة، وهي لبعض فضلاء أصبهان، ذكر فيها وصفَ الرّياض ومفاخرةَ الرَّيَاحين، وفضّل فيها الورد، وأنتهى بعد ذكر الورد إلى وصف البلابل، فقال:

«فلما أرتفع صدرُ النّهار، وأنقطعَ جدالُ الأزهار؛ سُمع من خَلَل الحديقة زَقْزَقَةُ[3] عَنْدَلِيب، قد أتّخذ وَكْراً على حاشية قَليب[4]؛ كان يستتر به عن الجمع، ويجعله دريئةً لاستراق السّمع. وحين أتقن ما وعاه، وأوْدَعَه سمعَه وأَرْعاهُ؛ انتحَى غُصْناً رطيباً، فأوفَى عليه خَطيباً، ثم قال: يا فتنة الخَليقة، لقد جئتِ بالشَّنْعاء الفَليقه[5]؛ وربّ بَسْم أستحال أحتداماً، ولن تَعْدَم الحسناءُ ذاما. إلامَ ترفُل في دَلاَل زَهْوك، وتغفُل عن رذّائل سهوك! وحَتّامَ تَتيه على الأكفاء والأقران، كأنّك أنت صاحب القرآن! ألستَ من عُجْبك بنفسك، وأسترابتك بأبناء جِنسك؛ لا تزال مشتملاً شَوْك الغصون، معتصماً منها بأشباه المعاقل والحصون! لكنك متى أنقضى مَهَبُّ الشَّمال، وعَدَل عن اليمين إلى الشِّمال؛ خِيف عليك نَفْحُ الإحراق، وتعرّيتَ من حُلَل الأوراق؛ وأصبحتَ للأرض فِراشاً، وتلّعب بك الهواء فعُدت فَراشًا. ثم ما قدرُ جَوْرتك حتى تجور! وهل ينتج حضوره إلا الفجور! هذا إذا كنتم على الأصل الثابت، وعُرفتم في

---

(١) الدكن: جمع دكناء، وهي ما يميل إلى السواد، أو إلى اغبرار اللون.
(٢) التاع الفؤاد: احترق من الشوق أو الهم.
(٣) الزقزقة: صدح الطائر عند الصبح.
(٤) القليب: البئر.
(٥) الفليقة: الأمر العجب والداهية.
(٦) النهبوري، نسبة إلى النهبور: جمع النهابير، وهي جبال ورمال مشرفة.

أكرم المغارس والمنابت؛ فكيف وأنتم بين رَمْلِيّ وجَبَلِيّ، ونَهْبُوريّ[١] أو تَيْهوريّ[٢]. وهَبْ أنك ورَهْطَك تفرّدْتم بمُمَايَلة القُدود، وتَوَحَّدْتم بمشابهة الخدود؛ وصِرْتم درر البحور، وعُلِّقتم على الجِبَاه والنّحور، وتَحوّلتم جُمَاناً ومَرْجاناً، وحُلِّيتم مناطق وتيجاناً؛ أقَدَرْتم على مباراة الشحَارير، ومجاراةِ القَمَارِي النَّحَارِير! أم ملكتم تَهييجَ البلابل[٣]، قبل أصوات البلابل! أم وجدتم سبيلاً إلى ولوج القلوب والأسماع، واتّخاذ الطَّربَ والسَّماع؟! هيهات هيهات، بُعد عنكم ما فات! بل نحن ذوات الأطواق، وبنات الغُصون والأوراق؛ إنما يُكمِل صِيتُكم بنَغَمات أصواتنا، ويزهو غناؤكم بصحة غنائنا؛ ويحسُن تمايُلُ دَوْحِكم بترنّمنا ونَوْحنا، ويَرُوق غديرُكم بهديرنا، ويَشُوق تهديلكم بهديلنا. لم تزالوا حَمَلَةَ أثقالنا، ومُهُودَ أطفالنا؛ وجِيادَ شُجْعاننا، ومنابرَ خطبائنا. فُروعُكم مَحَطُّ أَرْحُلنا، ورؤوسكم مساقِطُ أرجلنا. إذا أوفى مُطْرِبُنا على عُوده، وعبث بمَلْوَى عُوده؛ وشدّ المثالث والمثاني، شدَّ الثَّقيلين الأوّل والثاني؛ فقد أحيا باللحن الأَيْكيّ، وبَذّ يحيى المَكيّ[٤]؛ وأعاد إبراهيم[٥]، كحاطِب الليل البَهيم، وخرق له أثواب مُخَارق[٦] طَرَباً وحسداً؛ ولم يسلَمْ منه سُلَيم[٧] غيظاً وكَمَداً؛ وأخذ قلبَ[٨] آبن جامع بمجامعه، وطوّقه من الإقرار غُلاّ بمجامعه؛ حتى كأنّه بصحّة ضربه وإتقان أوتاره، يطلب عندهم قديمَ أحقاده وأوتاره: [من الخفيف]

فهي تُصَبي الأبصارَ لوناً قريباً ... وتَسُرّ الأسماع ضَرْباً بعيدَا
خضَب الكفّ من دم القلب وأبْتَزْ سُـ ... ـوَيداءَه فطوّقَ جيدَا
أعجميُّ اللّسان مُستعرِبُ اللحـ ... ـن يُعيدُ الخَليَّ صَبّاً عَميدا
كلَّ وقتٍ تراه من فَرْط شَجْوٍ ... مُظْهِراً في الغِناءِ لحناً جديدَا
تارةً يجعل النَّشِيدَ بَسيطاً ... ويُعيد البسيطَ طوراً نَشِيدا

---

(١) التيهوري، نسبة إلى تيهور: وهو من الرمل ما له جرف.
(٢) البلابل: الأشجان.
(٣) يحيى المكي: هو يحيى بن مرزوق مولى بني أمية، وكان يكتم ذلك لخدمته الخلفاء من بني العباس خوفاً من أن يجتنبوه. (الأغاني ٦: ١٦).
(٤) هو إبراهيم الموصلي، المغني المشهور. (الأغاني ٥: ١٥٤).
(٥) هو مخارق بن يحيى الجزار، المغني، كان أبوه جزاراً مملوكاً لعاتكة بنت شهدة، وهي من المغنيات المحسنات المتقدمات في الضرب. (الأغاني ٢١: ٢٢٠).
(٦) هو سليم بن سلام الكوفي، يكنى أبا عبد الله، وكان حسن الوجه حسن الصوت. (الأغاني ٦: ١٢).
(٧) هو أبو القاسم إسماعيل بن جامع، وهو من قريش.

مَـغْـبَـدٌ لـو رآه أصـبـح عـبـداً وَلَـبِـيـدٌ أمـسـى لـديـه بـلـيـدا
ضـلّ عـن إلْـفـه وأَقْـلَـقـه الـوَجْـ ـدُ فـأمـسـى بـكـاؤه تـغـريـدا

لو عارض الخليل[١] في عروضه لبكّته، أو ناظر ابنَ السِّكّيت[٢] في إصلاحه لسكّته؛ أو جادل الفارسيّ[٣] لَفَرَسه وجَدَله، أو نازل الكُوفِيّ لأَكْفأه عن رُتْبته وأنزله».

البَابُ الرَّابِعُ
مِنَ القِسْمِ الخَامِسِ مِنَ الفَنِّ الثالِثِ
في بُغَاثِ الطَّيرِ

ويشتمل هذا الباب على ما قيل في القُمْريّ، والدُّبْسِيّ، والوَرَشَان، والفَوَاخِت والشُّفْنِين، واليعتبط، والنَّوَّاح، والقَطَا واليَمَام وأصنافه، والبَبَّغاء. وهذه الأصناف قد عدّها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أو أكثرَها في الحمام، فقال: الحمام وَحْشِيّ، وأهلِيّ، وبُيُوتِيّ، وطُورَانِيّ، وكلّ طائر يُعرف بالنُّوَاح وحسنِ الصَّوت والدّعاء والتَّرجيع، فهو حَمام وإن خالف بعضُه بعضاً في الصُّورة واللون وفي بعض النَّوْح ولَحْن الهَديل.

قال: وزعم أفليمون[٤] صاحبُ الفِراسة أنّ الحمام يُتّخذ لضروب، منها ما يُتّخذ للأُنْس والنّساء والبيوت، ومنها ما يُتّخذ للفِراخ، ومنها ما يتخذ للزِّجَال والسِّبَاق. والزِّجال: إرسال الحَمام الهَوَادِي. ثم ذكر من أوصاف الحمام وما فيه من ضروب المعرفة والمنافع ما نُورِدُه عند ذكرنا للحمام المشتهرِ بهذه التَّسميةِ، وهو الذي أشار الجاحظ إليه. فلنذكر تفصيلَ ما قدّمناه من هذه الأصناف، فنقول وبالله التوفيق:

أمّا القُمْرِيّ وما قيل فيه ـ فقد قالوا: إنما سُمِّي القمريُّ بهذه التسمية لبياضه، والأقمر: الأبيض. وحكاية صوته تشبه ضحك الإنسان. وهو شديد المودّة والرحمة. أما مودّته فإنه يُفَرِّخ على فَنَنٍ[٥] من أفنان شجرةٍ عليها أعشاش لأبناء جنسه، فيُصَابِحها

(١) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم.
(٢) هو يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت. كان عالماً بنحو الكوفيين وعلم القرآن واللغة والشعر وله تصانيف كثيرة.
(٣) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار أبو علي الفارسي، واحد زمانه في علم العربية، كان أستاذاً لابن جني وكانت وفاته سنة ٣٧٧ هجرية.
(٤) أفليمون: كان فاضلاً كبيراً عالماً في فن من فنون الطبيعة وكان معاصراً لبقراط.
(٥) الفنن: الغصن المستقيم من الشجرة.

في كلّ بوم. وأمّا رحمته فإنه يربّي ولدَه ويَعِفّ عن أُنْثاه ما دام ولدُه صغيراً. ومن عادته أنه يعمل عُشّه في طرَف فَنَنٍ دائمِ الاهتزاز، احترازاً على فرخه لئلا يسعى إليه من الحيوان الماشي ما يقتله.

وقال أبو الفتح كُشَاجِم يصفه من أبيات رثاه بها أوّلها:

ومطوَّقٍ من حسن صَنْعة ربه ... طوقين خِلْتُهما من النُّوّارِ

منها:

لَهْفِي على القُمْرِيّ لَهْفاً دائماً ... يَكْوِي الحَشَا بجَوًى كلَذْعِ النار

لونُ الغمامةِ لونُه ومُناسِبٌ ... في خَلْقِهِ الأقلامَ بالمنقار

وأمّا الدُّبْسِيّ وما قيل فيه - وإنما سمّي الدُّبْسِيّ بذلك للونه، لأنّ الدُّبْسَةَ حمرةٌ في سواد. قالوا: والدُّبْسِيّ أصناف، منها المصريّ، والحجازيّ والعِراقيّ. وأفخر هذه الأصناف المصريّ ولونه الدكنة. وهو لا يُرى ساقطاً على وجه الأرض، بل له في الشتاءِ مَشْتًى، وفي الصيف مَصِيفٌ. ولا يُعرف له وكر.

وأمّا الوَرَشَانُ وما قيل فيه - والورشان أصناف منها النُّوبِيّ وهو ورشان أسود؛ ومنها الحِجازيّ. والنوبيّ أشجاها صوتاً. وهذا الطائر يوصف بالحُنُو على أولاده، حتى إنه ربما قتل نفسَه إذا رآها في يد القانص.

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِيّ فيه: [من الخفيف]

أنا في نزهتين من بستاني ... حين أخلو به ومن ورَشَانِ

طائرٌ قلبُ مَنْ يغنّيه أوْلى ... منهُ عند الغِناء بالطّيرانِ

مُسْمِعٍ يُودِعُ المسامعَ ما شا ... ءت وما لم تشأْ من الألحانِ

في رداءٍ من سَوْسَنٍ وقميصٍ ... زرّرْته عليه تشرينانِ

قد تَغَشّى لونُ السماء قَرَاه ... وتراءى في جيده الفَرْقَدانِ(١)

وأمّا الفواخِتُ وما قِيل فيها - والفواختُ عراقيةٌ ليست حجازيّة. وفيها فصاحةٌ وحسنُ صوت. وفي طبعها أنها تأْنَس بالناس، وتُعَشّشُ في الدُّور. والعرب تضرِب بها في الكذب المثلَ، فيقولون: «أكذبُ من فاختةٍ»؛ فإنّ حكاية صوتِها عندهم: «هذا أوانُ الرُّطَبِ». قال شاعرٌ:

أكذبُ من فاختةٍ ... تقول وسطَ الكَرَبِ

(١) القرا: الظهر.

والطَّلْعُ لم يَبْدُ لنا ... هذا أوانُ الرُّطَبِ

وهو يُعمَّر. وحكى أرسطو أن منه ما عاش أربعين سنة.

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الطويل]

مَرَرتُ بِمطْرابِ الغَداةِ كأنها ... تُعَلّ من الإشراق راحاً مُفَلْفَلا[١]
مُنَمَّرةٍ كَدْراء تحسَب أنها ... تُجَلّل من جِلد السَّحاب مُفَصّلا
بَدَت تجتلي للعين طوقاً ممسَّكاً ... وطرْفاً كما ترنو الغزالةُ أَكْحَلا
لها ذَنَب وافي الجوانبِ مثلما ... تُقشِّر طَلْعاً أو تجرِّد مُنْصُلا
إذا حلَّقَتْ في الجوّ خِلْتَ جناحَها ... يَرُدّ صفيراً أو يحرّك جُلْجُلا[٢]

وأمّا الشُّفْنِين وما قيل فيه ـ والشفنين من الطير التي تترنّم؛ وصوتُه في ترنّمه يُشْبِه صوتَ الرَّبَاب[٣]. وفي طبعه أنه إذا فقد أُنْثاه لم يزَل أعْزَبَ، يأوِي إلى بعض فراخه حتى يموت؛ وكذلك الأنثى إذا فَقدت الذَّكَر. وهو متى سمن سقَط ريشُه وٱمتنع من السِّفاد؛ فهو لذلك لا يَشْبَع. وهو طائر يؤثِر العُزْلَة.

وأمّا اليعتبط وما قيل فيه ـ وإنما سمّي اليعتبط بهذه التسمية لصوته، وهو شريف في طيور الحجاز. وحاله حال القُمْريّ، ولكنه أحرّ منه مِزاجاً وأعلى صوتاً. قال كُشَاجم:

وناطقٍ لم يَخْشَ في النطق غَلَطْ ... ما قال شيئاً قطُّ إلا يعتبطْ

وأمّا النَّوّاح وما قيل فيه ـ والنوّاح: طائر كالقُمْريّ، وحالُه كحاله؛ إلاّ أنّه أحرّ منه مِزاجاً وأرطبُ وأدمثُ وأشرفُ. قالوا: يكاد النّوّاح يكون للأطيارِ الدَّمِثَةِ مَلِكاً، وهو يَهيجها إلى التّصويت لأنه أشجاها صوتاً؛ وجميعُها تَهوى ٱستماع صوته، وهو أيضاً يَسُرُّه ٱستماعُ صوتِ نفسه. والله أعلم بالصواب.

وأمّا القَطَا وما قيل فيه ـ والقطا نوعان: «كُدْرِيّ» و«جُونيّ»، والكُدْرِيّة غُبْرُ الألوان، رُقْشُ الظهور والبطونِ، صُفْرُ الحُلوقِ، قِصارُ الأذناب؛ وهي ألطف من الجونُ. والجونيّة سُود بطونِ الأجْنِحَةِ والقوادِمِ بِيضُ اللَّبَان[٤] وفيه طوقان أسودُ

(١) الراح: الخمر.
(٢) الجلجل: الجرس الصغير.
(٣) الرباب: آلة وترية شعبية ذات وتر واحد.
(٤) اللبان: الصدر.
(٥) الغتمة: العجمة في المنطق.

وأصفرُ؛ وظهورُها غُبْرٌ رُقْطٌ تعلوها صفرةٌ. وتسمّى الجُونِيَّة غُتْماً[١]؛ لأنها لا تُفصِح بصوتها إذا صوّتت إنما تُغَرْغِر بصوتٍ في حَلْقها. والكُدْرِيَّةُ فصيحةٌ تنادي بأسمها تقول: قَطَا قَطَا؛ ولهذا يُضرب بها المثلُ في الصدق. وتُوصف القطا بحسن المشي لِتقارُب خُطاها. والعرب تشبّه مشيَ النّساء الخَفِرات بمشيها إذا أرادوا مدحَهنّ. قال شاعر يصف القطاةَ ـ وٱخْتُلِف في الشاعر من هو، فقيل: هو أَوْس بن غَلْفاء الهُجَيْميّ، وقيل: مُزَاحِم العُقَيْليّ، وقيل العباس بن يَزيد بن الأسود الكِنْدِيّ، وقيل: العُجَيْر السَّلُوليّ، وقيل: عمرو بن عقيل بن الحجّاج الهُجَيْمِيّ؛ قال أبو الفرج الأصفهانيّ: وهو أصحّ الأقوال ـ: [من البسيط]

أمّا القَطَاةُ فإنّي سوف أنْعَتُها ... نَعْتاً يوافق نعتي بعضَ ما فيها
سَكّاءُ مخطوبةٌ في ريشها طَرَقٌ ... سُودٌ قوادمُها صُهْبٌ خَوافِيها[٢]
مِنْقارُها كَنَواة القَسْب قلْمها ... بِمبْرَدٍ حاذِقُ الكَفَّين بارِيها[٣]
تمشِي كمشي فتاةِ الحيّ مُسرِعةً ... حِذَارَ قومٍ إلى سترٍ يُواريها
تَسقِي الفراخَ بأفواهٍ مرقّقةٍ ... مثلِ القَواريرِ سُدّت من أعاليها
كأن هَيْدَبة من فوق جُؤْجُئِها ... أو جِرْوَ حنظلةٍ لم يَعْدُ راميها[٤]

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ: [من الكامل]

ولرُبّ طيّارٍ خفيفٍ قد جَرَى ... فَشَلا بجارٍ خلفه طيّارِ
من كلّ قاصرةِ الخُطا مُخْتالةٍ ... مَشْيَ الفتاةِ تجرُّ فضلَ إزارِ
مخضوبةِ المِنْقارِ تحسِب أنها ... كَرَعَتْ على ظَمَإٍ بكأسِ عُقَارِ
لا تستقرّ بها الأيادي خشيةً ... من ليلٍ وَنَيْلٍ أو نهارٍ بَوارِ

وقال المَرّار أو العكبُ التغلَبيّ ـ وهي أجود قصيدةٍ قِيلتْ في القطا: [من الطويل]

بلادُ مَرَوْرَاةٍ يَحَارُ بها القطا ... ترى الفرخَ في حافاتها يَتحرّق[٥]
يَظَلُّ بها فرخُ القطاة كأنّه ... يَتيمٌ جفا عنه مَوَاليه مُطْرِقُ

---

(١) السكك: صغر الأذن ولصوقها بالرأس. والمخطوبة: التي لونها يضرب إلى الكدرة مشرب حمرة في صفرة ـ وطرق الريش: أي أن يغطي الريش الأعلى منه الأسفل.
(٢) القسب: التمر اليابس الصلب النواة.
(٣) الهيدب: خمل الثياب وهدبه ـ والجرو: الصغير من الحنظل.
(٤) المروراة: المفازة التي لا شيء فيها.
(٥) الديمومة: المفازة الدائمة البعد.

بِدَيْمُومةٍ قد بات فيها وعينُه على مَرَهٍ تُغْضي مراراً وترمُق[١]
شبيهٌ بلا شيءٍ هنالك شخصُه يُواريه قَيْضٌ حولَه مُتفلِّق[٢]
له مَحْجرٌ نابٍ وعينٌ مريضةٌ وشِدْقٌ بمثل الزعفران مُخَلَّقُ[٣]
تُعاجِيه كَحْلاءُ المَدامِعِ حُرَّةٌ لها ذَنَبٌ ساجٍ وجيدٌ مُطوَّق[٤]
سِمَاكيّةٌ كُدْرِيّةٌ عَرْعَرِيَّةٌ سُكَاكِيّةٌ عَفْراءُ سَمْراءُ عَسْلَق[٥]
إذا غادَرَتْه تَبتغي ما يُعِيشُه كفاها رَذَاياها الرَّقِيعُ الهَبَنَّقُ[٦]
غدتْ تَسْتَقي من مَنْهَلٍ ليس دونَه مسيرة شهرٍ للقَطا مُتَعلَّق
لأَزْغَبَ مطروحٍ بجَوْز تَنُوفةٍ تَلَظّى سَمُوماً قَيْظُه فهو أوْرَق[٧]
تَراه إذا أمسى وقد كاد جِلْدُه من الحرّ عن أوصاله يتمزَّق
غدت فاستقلَّتْ ثم ولَّت مُغِيرةً بها حين يَزْهاها الجناحان أوْلَقُ[٨]
تَيَمَّمُ ضَحْضَاحاً من الماء قد بَدَتْ دَعَامِيصُه فالماءُ أطْحَلُ أطْرَقُ[٩]
فلما أتته مُقْدَحِرّاً تغوّثَتْ تغوُّثَ مخنوقٍ فتطفو وتَغْرَق[١٠]
تَجرّ وتُلْقِي في سِقَاءٍ كأنّه من الحَنْظَل العَامِيّ جِرْوٌ مُعَلَّقُ
فلمّا ارتوتْ من مائها لم يكن لها أَناةٌ وقد كادت من الرّيّ تَبْصُقُ
طَمَتْ طَمْوةً صُعْداً ومَدَّتْ جِرانَها وطارت كما طار الشِّهَابُ المُحَلِّق[١١]

---

(١) المره: مرض في العين لترك الكحل ـ والقبض: قشرة البيضة العليا اليابسة.
(٢) محجر العين: ما دار بها.
(٣) معاجاة الفصيل: هو أن يرضع بغير لبن أمه إذا كان لا لبن لها أو ماتت.
(٤) سماكية: نسبة إلى السماك، والسماكان: كوكبان نيران ـ عرعرية: منسوبة إلى العرعر، وهو شجر السرو ـ السكاكية: منسوبة إلى السكاكة. والسكاكة: الصغير الأذن ـ والعسلق: الخفيف أو الطويل العنق.
(٥) قيل: الرقيع: هو الكروان، وهو يوصف بالحمق لتركه بيضه واحتضانه بيض غيره.
(٦) الأورق: الذي فيه سواد في غبرة.
(٧) الأولق: الجنون.
(٨) الدعاميص: واحدتها دعموص، وهو دويبة، سوداء تكون في الغدران إذا نشّت. الطحلة: لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل كلون الرماد ـ والطرق: التراكب.
(٩) المقدحرّ: المتهيىء للسباب والشر تراه الدهر منتفخاً شبه الغضبان.
(١٠) طمت: ارتفعت.

ذكرُ شيءٍ منَ الأَوْصَافِ وَالتَّشبِيهَاتِ والشِّعْرِيّةِ الجَامِعَةِ لمجموعِ هذا النوعِ الذي ذكرناهُ

ومن ذلك قول بعض الشعراء: [من الكامل]

وقبليَ أَبْكَى كلَّ من كان ذا هوًى هَتوفُ البَوَاكِي والدِّيارُ البلاقعُ
وهنّ على الأَفْلاق من كلِّ جانب نوائحُ ما تَخْضَلُّ منها المدامعُ[1]
مُزَبْرَجَة الأعناقِ نُمْرٌ ظهورُها مُخَطَّمةٌ بالدُّرّ خُضْرٌ روائع
تَرى طُرراً بين الخَوَافِي كأنّها حَوَاشِي بُرودٍ زيّنتها الوشائعُ
ومن قِطَعِ الياقوت صِيغتْ عيونُها خواضبُ بالحِنّاء منها الأصابعُ

وقال أبو الأسود الدؤليّ من أبيات: [من البسيط]

وساجع في فروع الأَيْك هيّجني لم أدرِ لِمْ ناح ممّا بي ولِمْ سَجَعَا
أباكياً إلْفَه من بعد فُرْقَتِه أم جازعاً للنَّوَى من قبل أن تَقَعا
يدعو حمامتَه والطيرُ هاجعةٌ فما هَجَعتْ له ليلاً ولا هَجَعا[2]
موشّح سُنْدُساً خُضْر مناكبُه تَرَى من المسك في أذياله لُمعَا
له من الآس طَوْقٌ فوقَ لَبّته من البَنَفْسَج والخَيْريّ قد جُمِعا[3]
كأنّما عَبّ في مُسْوَدّ غاليةٍ وحَلّ من تحته الكافورُ فأنْتُقِعا
كأنّ عينيه من حسن أصفرارهما فَصّانِ من حَجَر الياقوت قد قُطِعا
كأنّ رجليه من حسن أحمرارهما ما رَقّ من شُعَبِ المَرْجان فأتّسعا
شكا النَّوَى فبكى خوفَ الأَسَى فرمَى بين الجوانح من أوجاعه وجعا
والريحُ تَخْفِضُه طوراً وترفَعه طوراً فمنخَفِضاً يدعو ومرتفِعا
كأنه راهبٌ في رأس صومعةٍ يتلو الزَّبُورَ ونجمُ الصبح قد طلعا

وقال أبنُ اللّبانة الأندلسيّ[4]: [من الرجز]

وعلى فروع الأَيْكُ شادٍ يَخْتَوِي طَرْفي لآخر تحتويه الأَضْلُعُ

---

(١) الأفلاق: واحدتها الفلق، وهو المطمئن من الأرض بين ربوتين.
(٢) هجع: نام.
(٣) الخيريّ: نور.
(٤) هو الوزير الأديب أبو بكر بن اللبانة الداني أحد شعراء دولة المعتمد في الأندلس.

يَنْدَى لـه رَطْبُ الـهـواء فـيغـتَـدي ... ويُـظِـلّـهُ وَرَقُ الـغـصـون فـيـهـجَـعُ
تَـخِـذَ الأَرَاكَ أريـكـةً لـمـنـامِـه ... فـلـه إلـى الأسـحـار فـيـهـا موضِعُ
حـتـى إذا مـا هـزَّه نَـفَـسُ الـصَّـبَـا ... والـصبـح، هَـزَّكَ مـنـه شَـدْوٌ مُـبْدَعُ
فـكـأنـمـا تـلـك الأَرَاكـةُ مِـنْـبَـرٌ ... وكـأنـه فـيـهـا خَـطـيـب مِـصْـقَـعُ

وقال بعضُ الأعراب يصف مُطَوَّقَةً: [من الطويل]

دعَتْ فـوق سـاقٍ دعـوةً لـو تـنـاولـتْ ... بهـا الصَّخْرَ من أعلى أَبَانَ تَحَدَّرا(١)
تُبَكِّي بـعـيـن لـيـس تُذْرِي دمـوعَـهـا ... ولـكـنَّـهـا تـذْرِي الـدمـوعَ تـذكُّـرا
محلاَّة طَوْقٍ ليس تَخْشَى انفصامَه ... إذا هـمّ أن يَـبْـلَـى تُـجَـدِّدُ آخَـرَا
لـهـا وُشُـحٌ دون الـتَّـرَاقِـي وفـوقَـهـا ... وصَـدرٌ كـمقطوف البَنَفْسَج أخضرا
تَـنَـازعُـهـا الألـوانُ شـتّـى صِـقـالُـهـا ... بـدا لـتَـلاَلـي الـشـمـس فيه تحيرا

وقال شاعر أندلسيّ: [من الطويل]

ومـا شـاقـنـي إلا ٱبـنُ وَرْقـاء هـاتِـفٌ ... عـلـى فَـنَـن بـين الـجـزيـرة والـجسرِ
مُـفَـتَّـقُ طـوْقٍ لازورديُّ كَـلْـكَـلٍ ... موشَّى الطُّلَى أَحْوَى القوادِمِ والظهرِ(٢)
أدار عـلـى الـيـاقـوت أجـفـانَ لـؤلـؤ ... وصاغ على الأجفان طوقاً من التّبرِ
حـديـدُ شَـبَـا الـمِـنْـقـارِ داجٍ كـأنـه ... شَبَا قلـمٍ من فِضَّةٍ مُدّ مِن حِبْرِ(٣)
تـوسّـد مـن فـرع الأراك أريـكـةً ... ومال على طيّ الـجنـاحِ مع النَّحرِ
ولـمّـا رأى دمـعـي مُـراقـاً أرابـه ... بكائيَ فاستولى على الغُصُن النَّضرِ
وحـثّ جـنـاحـيـه وصـفّـق طـائـراً ... فطار بقلبي حيث طار وما يَدري

وقال آخر:

كـأنّ بـنـحـرهـا والـجـيـدِ مـنـهـا ... إذا مـا أمـكـنـتْ لـلـنّـاظِـريـنـا
مَـخَـطّـاً كـان مـن قـلـمٍ لـطـيـفٍ ... فـخـطّ بـجـيـدهـا والـنـحـرِ نُـونـا

وقال ٱبنُ الرّومي:

مُـطـوَّقـةٌ تـبـكـي ولـم أر بـاكـيـاً ... بدا ما بدا من شجوها لم يُسَلِّبِ(٤)

---

(١) أبان: اسم جبل.
(٢) الأحوى: أسود من شدة النضارة.
(٣) شبا القلم: طرفه.
(٤) يقال: سلّبت المرأة: إذا لبست ثوب الحداد.

وقد أوردنا في باب الغزل والنَّسيب من هذا المعنى فيما قيل على لسان الورقاء ما يُستغنَى عن تكرَاره.

وأمّا اليَمامُ وأصنَافُهُ ومَا وُصفَ بهِ ومَا قيلَ فيهِ ـ فالعَرَبُ تقولُ: إن هذه التسمية واقعةٌ على النوع التي تسمّيه عامّةُ الناس الحمامَ؛ وهو أصنافٌ مختلفةُ الأشكالِ والألوانِ والأفعال، منها «الرّواعبُ» و«المَراعِيشُ» و«العَدّاد» و«المِيساقُ» و«الشّدّادُ» و«القَلاّب» و«الشّقّاق»، و«المَنسوب».

فأمّا الرّواعبُ ـ وهو ألوان كثيرةٌ. وزعم الجاحظُ أنه تولّد بين وَرَشانٍ ذكرٍ وحمام أنثى، فأخذ من الأب الجُثّة ومن الأمّ الصوتَ، وفاتَه سرعةُ الطيران فلم يشبههما فيه؛ وله من عِظَم البدنِ وكثرة الفراخِ والهَدِيلِ والقَرْقَرة[1] ما ليس لأبويه، حتى صار ذلك سبباً للزيادة في ثمنه والحرصِ على اتّخاذه.

وأمّا المَراعيشُ ـ وهي تَطير مرتفعةً حتى تغيبَ عن النظر فتُرى في الجوّ كالنّجم.

وأمّا العَدّاد ـ فهو طير ضخم، قليل الطيران كثير الفراخِ.

وأمّا المِيساق ـ وهو أضخم من العَدّاد وأنبل، ثقيل الجسم لا يستطيع الطيرانَ إلاّ قليلاً.

وأمّا الشدّادُ ـ فهو لا يَلْزم الطيرانَ في الجوّ، وله قوّة في جَناحه حتى يقال إنّه ربما يكسِر الجَوْز به، ولا يأتي من الغاية لِبَلَهٍ فيه. وأصحابُ الرَّغَبات في تربية هذا الصِّنف يُلْقونه على البَصْريّات فيخرج من بينهما حمامٌ يُسمَّى «المضرّب» يجتمع فيه هدايةُ البصريّ وشدّةُ الشّدّادِ. والشدّادُ يطير صُعُداً حتى يُرى كالنّجم. وفي ذنبه إحدى وثلاثون ريشة.

وأمّا القَلاّب ـ فتسميّه العراقيون «المَلاّح»؛ وسمّي بذلك لتقلّبه في طيرانه. والشّقّاق ـ وطيرانُه تَحْويمٌ.

وأمّا المنسوب ـ ويسمِّيه العراقيون «الهوَادي»، والمصريون يسمونه «البَصارِي»، يعنون البصرية، وهو بالنسبة إلى ما تقدّم ذكرهُ كالعِتَاقِ من الخيل، وما عداه فيها كالبراذين. وفيها «العلويّ» وهو ألطفُ جِرْماً وأسرعُ طيراناً؛ وهو يطلب وكرَه ولو أرسل من مسافةِ ألف فرسخ، ويحمِلُ البطائقَ ويأتي بها من المسافة البعيدة في المدّة القريبة. قالوا: وفيه ما يقطعُ ثلاثةَ آلافِ فرسخ في يوم واحد. وسباعُ الطير تطلبُه أشدَّ طلبٍ. وخوفُه من الشاهين أشدّ من خوفه من غيره. وهو أطير منه ومن سباع الطير

(١) القرقرة: الهدير.

كلّها؛ لكنه يُذْعَر فيجهل بابَ المَخْلَص.

والمحمودُ منه ما وصفَه الجاحظُ عن أفليمون صاحبِ الفِراسةِ أنه قال:

جميعُ الفراسة لا تخرجُ عن أربعة أوجه: أوّلها التقطيعُ، والثاني المجسّة، والثالث الشمائل، والرابع الحركة.

فأمّا التقطيع ـ فآنتصابُ العُنُق والخِلْقَةِ، وآستدارةُ الرأس من غير عِظَم ولا صِغَرٍ، وعِظَمُ القِرْطِمَتيْن[1] ونَقَاؤهما، وآتّساعُ المِنْخَرَيْن، وآنهراتُ الشِّدْقين، وَسَعَةُ الجوف. ثم حسنُ خِلْقةِ العينين مع توقّدهما، وقِصَرُ المِنْقارِ في غير دِقّةٍ، ثمّ آتّساعُ الصدر، وآمتلاءُ الْجُؤْجُؤ، وطولُ العُنُق، وإشرافُ المَنْكبين، وآنكماشُ الجناحين، وطولُ القوادم في غير إفراطٍ، ولُحُوق بعض الخوافي ببعض، وصَلاَبَةُ القَصَبِ في غير آنتفاخ ولا يُبْسٍ، وآجتماعُ الخَلْق في غير الجُعُودة والكَزَازة[2]، وعِظَمُ الفَخِذَين، وقِصَرُ السّاقين والوَظِيفَين، وآفتراقُ الأصابع، وقِصَرُ الذَّنب، وخفّتُه من غير تَفْنِينٍ[3] وتفريق، ثم تَوَقّدُ الحدقَتين وصفَاءُ اللّون. فهذه علامة الفِراسَةِ في التقطيع.

وأمّا علامة المَجسّة ـ فَوَثَاقَةُ الخَلْق، وشدّةُ اللّحم، ومَتانةُ العَصَب، وصلابةُ القَصَب، ولينُ الرِّيش في غيرِ رَقّةٍ، وصلابةُ المِنقار في غير دِقّةٍ.

وأمّا علامة الشمائل ـ فقلّة الاختيال، وصفاءُ البصر، وثباتُ النظر، وشِدّة الحَذَر، وحسنُ التَّلَفُّتِ، وقِلَّةُ الرِّعْدَة عند الفزع، وخفّةُ النهوض إذا طار، وتركُ المبادرةِ إذا لَقَط.

وأمّا علامة الحركة ـ فالطيران في عُلُوّ، ومدُّ العُنُق في سُموّ، وقلّةُ الاضطرابِ في جوّ السماء، وضمُّ الجناحين في الهواء، وتتابُعُ الرَّكْض في غير آختلاطٍ، وحسنُ القصد في غير دَوَرانٍ، وشدّةُ المدّ في الطيران، فإذا أصبتَه جامعاً لهذه الصفات فهو الطائر الكامل.

وقد وصف الجاحظُ الحمامَ في كتاب الحيوانِ وبسط فيه القولَ ووسّعَ المجالَ. ونحن الآن نُوردُ ملخّصَ ما قاله فيه، قال:

ومن مناقب الحمام حبّهُ للناس وأنْسُ الناس به، وهو من الطير المَيَامين، وهو إذا عَلِمَ الذكرُ منه أنه قد أودَعَ رَحِم الأنثى ما يكون منه الولدُ، تقدّما في إعْداد العُشّ،

(١) القرطمتان: نقطتان على أصل منقار الحمام.
(٢) الكزازة: يبس الشيء وانقباضه.
(٣) من غير تفنين: أي من غير اختلاط.

ونقْلِ القَصَبِ وشِقَق الخُوص، وأشباه ذلك من العِيدان الخَوّارة[١] الدِّقاق، حتى يَعملا أُفْحُوصةً[٢] ويَنْسِجاها نسجاً متداخِلاً في الموضع الذي اتّخذاه واْصطنَعاهُ عشّاً بِقدر جُثْمانِ الحمامة؛ ثم أَشخصا لتلك الأُفْحُوصةِ حروفاً غيرَ مُرتفعةٍ لتحفظَ البيضَ وتَمنَعَه من التّدحرُج، ولتَلْزَمَ كَتِفَي الجُؤْجُؤ، ولتكونَ رِفْداً لصاحب الحَضْن، وسنداً للبيض، ثم يَتَعاوَرَان ذلك المكانَ ويتعاقبان تلك الأُفْحُوصَة يُسَخِّنانِها ويُدَفِّئانِها ويُطَيِّبانها ويَنفِيان عنها طباعَها الأوَل ويُحْدِثانِ طبيعةً أُخرى مُشتَقَّةً من طبائعهما ومُستخْرَجةً من رائحة أبدانهما وقُوَاهما، لكي تقعَ البيضةُ إذا وقعت في موضع يكون أشبهَ المواضع طِباعاً بأرحام الحمام مع الحضانة والوَثَارة[٣]، كي لا تنكسرَ البيضةُ بيُبْس الموضع، ولئلا تُنكِرَ طباعُها طباعَ المكان، وليكونَ على مقدارٍ من البَرْد والسُّخُونَة والرَّخاوَةِ والصَّلَابَةِ. ثم إنْ ضرَبها المَخاضُ وطَرَّقَتْ ببيضها، بَدَرَت إلى الموضع الذي قد أعدّته وتحامَلَت إليه، إلاّ أن يَقرَعَها رَعْدٌ قاصفٌ أو ريحٌ عاصفٌ فإنها ربما رَمت بها دون الأُفْحُوصة. والرَّعد ربّما أفسد البيضَ. فإذا وضعتِ البيض في ذلك المكانِ الذي أعدّاه لا يزالان يتعاقبان الحَضْنَ ويتعاورانه حتى تنتهي أيّامُه ويَتِمَّ مِيقاتُه؛ فعند ذلك يَنصدعُ البيضُ عن الفرخ، فيخرج عاريَ الجلد صغيرَ الجَناح مُسْتَدَّ الحُلْقُوم؛ فيعلَمانِ أنّه لا يَتّسع حَلْقُه وحوْصَلتُه للغِذَاء، فلا يكون لهما همٌّ إلاّ أن يَنفُخَا في حَلْق الفَرْخ الرّيحَ لتَتّسع الحوصلةُ بعد اْلتحامها، ثم يعلمانِ أنه وإن اتّسعت الحوصلةُ لا يَحْمِلُ في أوّل اْغتذائه أن يُزَقّ بالطُّعْم، فيُزَقّ باللُّعَاب المختلطِ بقُواهما وقُوَى الطُّعْم. ثم يَعلمان أنّ الحوصلةَ تضعُف عن اْستمراء الغِذاء، وهضم الطُّعْم فيأكلان من شُرُوج[٤] أصول الحيطان ـ وهو شيء من المِلح المَحْض والتراب الخالِص، وهذا هو السَّبَخُ ـ فَيُزَقّانه به. حتى إذا علما أنه قد اْندبغ واشتدّ زَقّاه بالحَبّ الذي قد غَبَّ في حواصلهما؛ ثم يَزُقّانه بعد ذلك بالحَبّ والماء. حتى إذا علما أنه قد أطاق اللَّقْطَ منعاه بعضَ المنع ليَحتاج إلى اللّقط فيتعوّده. فإذا علما أنّ إرادتَه قد تمّت وأنه قد قَوِي على اللَّقْط وبلغ بنفسه مُنتهى حاجته، ضَرَبَاه إذا سألهما الكفاية، ونَفَياه متى رجع إليهما، وتُنْتَزَعُ تلك الرحمةُ العجيبةُ منهما ويَنْسِيانِ ذلك التعطّفَ. ثم يبتدئان العمل ثانياً على ذلك النظام وتلك المُقَدِّمات. فسبحان الهادي الملهم.

قال: ثمّ يَبتدىء الذَّكَرُ بالدُّعاء والطِّراد؛ وتبتدىء الأُنثى بالتَّأتّي والاستدعاء، ثم

(١) الخوّارة: الضعيفة الرخوة.
(٢) الأفحوصة: حفرة تحفرها القطاة، أو الدجاجة في الأرض لتبيض وترقد فيها.
(٣) الوثارة: كثرة الشحم، أو الفراش، أو.. (اللسان وثر).
(٤) الشروج: الشقوق والصدوع.

تَزِيفُ[١] وتَشْكل[٢]، وتُمَكِّن وتَمْنَع، وتُجِيبُ وتَصْدف بوجهها؛ ثمّ يَتَعاشقان ويَتَطاوَعان ويكون بينهما قُبَلٌ وٱرتشافٌ وإدخالُ فَمِها في فمه؛ وذلك هو التَّطَاعُم والمُطَاعَمَةُ. قال الشاعر:

لم أَعْطُها بيدي إذ بِتُّ أرْشُفُها إلاّ تَطَاوُلَ غُصْنِ الجيدِ بالجيدِ[٣]

كما تَطَاعَمَ في خَضْراء ناعمةٍ مُطَوَّقانِ أصاخَا بعد تَغْرِيدِ[٤]

قال أبو عثمان: ومما أشبه فيه الحمامُ الناسَ أن ساعاتِ الحَضْن على البيض أكثرُها على الأُنثى، وإنما يحضُن الذكرُ حَضْناً يسيراً. والأُنثى كالمرأة في كفالة الصبيّ، حتى إذا ذهب الحَضْنُ وصار البيضُ فِراخاً كالأطفال في البيت يحتاجون إلى الطعام والشَّراب صار أكثرُ ساعات الزّقّ على الذكر.

وقال: قال مُثَنَّى بن زُهَير ـ وهو إمام الناس في البصرة بالحمام ـ: لم أر شيئاً قطّ في رجلٍ ولا امرأةٍ إلاّ قد رأيتُ مثله في الذكر والأنثى من الحمام. رأيت حمامةً لا تُريد إلاّ ذكرَها، كالمرأة لا تُريدُ إلاّ زوجها أو سيّدها. ورأيتُ حمامةً لا تَمنعُ شيئاً من الذّكُورة؛ ورأيت ٱمرأةً لا تمنع يَدَ لامسٍ. ورأيتُ حمامةً لا تَزِيفُ إلاّ بعد طِرادٍ شديدٍ وشدّةِ طلبٍ، ورأيتها تَزيف لأول ذكر يريدها، ورأيت من النساء كذلك. ورأيتُ حمامةً لها زوج وهي تُمكِّن ذكراً آخر لا تَعدُوه، ورأيت مثل ذلك في النساء. ورأيتها تَزِيف لغير ذكرها وذكرُها يراها، ورأيتها لا تفعل ذلك إلاّ وذكرُها يطيرُ أو يحضنُ. ورأيتُ الحمامةَ تَقْمُطُ[٥] الحمامة، ورأيتُ الحمامَ الذكرَ يَقْمِطُ الذكر. ورأيتُ أُنثى كانت لا تَقْمِطُ إلاّ الإناث، ورأيت أخرى تَقْمِطُ الإناث فقط ولا تَدَعُ أنثى تَقمِطُها، ورأيت ذكراً يَقْمُطها ويَدَعُها حتى تَقْمِطه. ورأيتُ ذكراً يَقْمُطُ الذكورَ وتَقْمِطُهُ؛ ورأيت ذكراً يَقْمُطُ الذكورَ ولا يَدَعُها تَقمِطه؛ ورأيت أنثى تَزيف للذكور ولا تدع شيئاً منها يقمِطُها ورأيت هذه الأصناف كلّها في السَّحاقات واللاَّطَة. قال: وٱمتنعت عليّ خَصْلةٌ فوالله لقد رأيتها؛ لأني رأيتُ من النساء من تَزْنِي أبداً وتُسَاحِقُ أبداً ولا تتزوج؛ ومن الرجال مَنْ يَلُوط أبداً ويزني أبداً ولا يتزوج، ورأيت حماماً ذكراً يَقْمط ما لَقِي ولا يُزاوِج، ورأيت حمامةً تُمكِّن كلَّ حمام أرادها من ذكر أو أنثى وتقمِط الذكورةَ والإِنَاثَ ولا تُزاوِجُ، ورأيتها تُزاوِجُ ولا تبيضُ، وتبيض فيفسدُ بيضُها، كالمرأة. قال: ورأيت ذكراً له أُنْثَيَان

---

(١) يقال: زافت الحمامة، إذا مشت مدلة متبخترة بين يدي الحمام الذكر.

(٢) شكلت المرأة: إذا كانت ذات شكل، أي غنج ودلال وغزل.

(٣) عطا فلان الشيء: أخذه وتناوله.

(٤) أصاخ: استمع.

(٥) قمط الشيء: أي شد عليه وضيق حتى يلتصق بالجسم.

وقد باضَتا منه، وهو يحضُن مع هذه ومع تلك ويَزُقُّ مع هذه ومع تلك، ورأيت أنثى تبيض بيضةً، ورأيت أنثى تبيض في أكثر حالاتها ثلاثَ بَيْضات. قال: ورأيت حمامةً تُزَاوِج هذا الحمامَ ثم تتحول منه إلى آخر، ورأيت ذكراً فعل مثل ذلك في الإناث، ورأيت الذكر كثيرَ النَّسْل قوياً على القَمْط.

قال الجاحظ: والحمام يبيضُ عشرةَ أشهر من السنة؛ فإذا صانوه وحفظوه وأقاموا له الكفايةَ وأحسنوا تعهُّده باض في جميع السنة. والفواخت والأَطْرُغُلَّاتُ[1] والحمام البَرِّيّ تَبيضُ مرّتين في السنة. قال: ويَتمُّ خلْقُ الحمام في أقلّ من عشرةِ أيام. والحمامةُ في أكثر أمرها يكون أحدُ فرخيها ذكراً والآخر أنثى؛ وهي تَبيضُ أوّلاً البيضَة التي فيها الذكر ثم تُقيم يوماً وليلةً وتبيض الأخرى، وتحضن ما بين السبعةَ عَشَرَ يوماً إلى العشرينَ. والأنثى أبرُّ بالبيض، والذكرُ أبرُّ بالفراخ. ولقد أطنب أبو عثمان الجاحظ وأوْغَل وبسَط القول في ذكرْ الحمام وأوصافه ومناقبه والمغالاة في ثمنه والحرص على اقتنائه، حتى إنه قال: وللحمام من الفضيلة والفخر أنّ الحمام الواحد يباع بخمسمائة دينار؛ ولم يبلغ ذلك باز ولا شاهين، ولا عُقابٌ. قال: وأنت إذا أردت أن تتعرّف مبلغ ثَمن الحمام الذي جاء من الغاية ثم دخلتَ بغدادَ والبصرة، وجَدتُ ذلك بلا معاناة، وهذا يدلّ على أنّ قوله فيه كان مشهوراً عندهم في وقته. ثم قال: والحمامُ إذا جاء من الغاية بيع الذَّكرُ من فراخه بعشرين ديناراً وأكثر، وبيعت الأنثى بعشرة دنانير وأكثر وبِيعتِ البيضةُ بخمسة دنانير؛ فيقوم الزوجُ منها من الغَلّة مقام ضَيْعةٍ، حتى ينهضَ بمؤونة العيال، وبقضاء الدَّيْن، وتُبْنَى من غَلّاته وأثمان رِقابِه الدُّورُ والجِنانُ وتُبتاع الحوانيتُ. ثم وصف حُجَرَ الحمام ومقاصيرَها المبنيّة في ذلك الزمان وما يُعانيه أهلُها من حديثها والاحتفال بها في المسابقة وغيرها. وأطال في ذلك. وقال: وللحمام من حُسْن الاهتداءِ، وجَوْدَةِ الاستدلالِ، وثباتِ الحفظ والذُّكر، وقوةِ النزاع إلى أربابه، والإلْفِ لِوَطَنه، أن يكون طائراً من بهائم الطير يجيء من مسافة كذا إلى مسافة كذا. قال: ولن ترى جماعةَ طيرٍ أكثرَ طيراناً إذا كثُرنَ من الحمام؛ فإنّهنّ كلما ٱلتففن وضاق موضعُهنّ كان أشدَّ لطيرانهنّ قال النابغة[2]: [من البسيط]

وٱحكُم كحُكْم فتاةِ الحيّ إذْ نظرَتْ   إلى حَمامٍ شِرَاعٍ وارِدِ الثَّمَدِ[3]

(١) الأطرغلات: هي الدباسي والقماري والصلاصل ذات الأطواق.

(٢) هو زياد بن معاوية ويكنى أبا أمامة ويقال: أبا ثمامة، وأهل الحجاز يفضلون النابغة وزهيراً.. (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦١).

(٣) الشراع: مجتمعة. والثمد: الماء القليل الذي يكون في الشتاء ويجف في الصيف.

يَحُفُّهُ جانِبَا نِيقٍ وتُتْبِعُه مثلَ الزُّجاجةِ لم تُكْحَلْ من الرَّمِد[١]
قالت ألاَ لَيتَما هذا الحمامَ لنا إلى حمامتنا ونصفُهُ فَقَدِ
فَحَسَبُوه فَألْقوهُ كما حَسَبَتْ تسعاً وتسعين لم تَنْقُص ولم تَزِدِ
فأكملَتْ مائةً فيها حَمامَتُها وأسرعَتْ حِسْبَةً في ذلك العَدَدِ

قال الأصمعيّ: لما أراد أن يمدح الحاسِبَ وسُرعةَ إصابته شدَّد الأمرَ وضيّقه عليه ليكون أحمدَ له: إذا أصاب؛ فجعله حَزَرَ طيراً والطيرُ أخفّ من غيره؛ ثم جعله حماماً والحمامُ أسرعُ الطير وأكثر اجتهاداً في السرعة إذا كَثُرَ عددهنّ، وذلك أنه يشتدّ طيرانُهُ عند المسابقة والمنافسة. وقال: «يحفّه جانباً نِيقٍ وتُتبعه»، فأراد أن الحمام إذا كان في مَضيق من الهواء كان أسرع من أن يتسع عليه الفضاءُ. والله أعلم بالصواب.

ذكرُ ما قيلَ في طَوقِ ٱلحَمَامَةِ

يقال: إنّ نوحاً ﷺ لمّا كان في السفينة بعث الغرابَ ليَكْشِفَ له هل ظَهَر من الأرض موضعٌ، فوقع على جِيفة فلم يرجِع إليه؛ فبعث بالحمامة، فٱستَجْعَلَتْ على نوح الطَّوْقَ الذي في عُنُقها فجعل لها ذلك جُعْلاً. وفي ذلك يقول أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلْت: [من الوافر]

وأُرسِلَتِ الحمامةُ بعد سَبْعٍ تَدُلُّ على المهالك لا تَهَابُ
تَلَمَّسُ هل ترَى في الأرض عيناً وعاينه من الماء العباب[٢]
فجاءت بعدما ركضَتْ بِقِطْفٍ عليه الثَّأْطُ والطِّينُ الكُبَابُ[٣]
فلمّا فَرَّسُوا الآياتِ صاغوا لها طَوْقاً كما عُقد السِّخَابُ[٤]
إذا ماتت تُوَرِّثُه بَنِيها وإن تُقتَلِ فليس لها ٱستِلابُ

وقال أيضاً فيها: [من الخفيف]

سَمِعَ اللَّهُ لابنِ آدمَ نوحٍ رَبُّنا ذو الجلال والإفضالِ
حين أَوْفَى بذي الحمامةِ والنا سُ جميعاً في فُلْكِهِ كالعِيَالِ
حابِساً خوفه عليه رسولاً من خِفاف الحَمَامِ كالتِّمْثالِ

(١) يحفه: يحيط به ـ والنيق: الجبل.
(٢) الماء العباب: الكثير.
(٣) الكباب: الثرى والتراب والطين اللازب.
(٤) السخاب: قلادة تتخذ من قرنفل.

فَرَشَاها على الرّسالة طَوقاً وخِضاباً علامةً غيرَ بالِ
فأتته بالصِّدق لمّا رشاها وبِقطْفٍ لمّا بدا عِثْكالِ[١]

قوله: «فرشاها» أي جَعل لها جُعلاً.

وقال فيها: [من الطويل]

وما كان أصحابُ الحمامة خِيفةً غداةَ غَدَت منهم تَضُمُّ الخوافيَا
رسولاً لهم والله يُحكم أمرَه يُبِين لهم هل برنس التُّرْب بادِيَا
فجاءت بِقَطْفٍ آيةً مستبينةً فأصبح منها موضعُ الطينِ جادِيا[٢]
على خَطْمِها واْستوهبتْ ثَم طوقها وقالت ألا لا تجعل الطوق حاليا
ولا ذَهَباً إني أخاف نِبَالهم يَخالونه مالي وليس بماليا
وزِدْني على طوقي من الحَلْي زينةً تُصِيب إذا أتبعت طوقي خِضَابِيا[٣]
وزدني لِطرق الطين منك بنعمةٍ وورِّث إذا ما مِتُّ طوقي حمامِيَا
يكون لأولادي جمالاً وزينةً وعنوانَ زَيْني زِينةً من تُرابِيا

ذكرُ شيء ممَّا وُصِفَ بِهِ هَذَا النَّوعُ نَظْماً وَنَثراً

قال عبد الواحد بن فتوح الأندلسيّ يصف حماماً بسرعة الطيران والسَّبْق: [من الكامل]

يجتابُ أودِيَةَ السّحاب بخافقٍ كالبرق أَوْمَضَ في السّحاب فَأَبْرَقَا
لو سابَقَ الريحَ الجنوبَ لغايَةٍ يوماً لجاءك مثلَها أو أسْبَقَا
يَستقرِبُ الأرضَ البسيطةَ مَذْهَباً والأُفْقَ ذا السُّقُفِ الرفيعةِ مُرْتَقَى
ويظلّ يَسترقي السماءَ بخافقٍ في الجو تَحسبه الشّهابَ المخرِقَا
يَبْدُو فيُعْجِبَ مَن رآه لحُسْنِهِ وتكاد آيةُ عُنقِهِ أن تَنطِقَا
مُتَرقرقاً من حيثُ دُرتَ كأنما لبِسَ الزجاجة أو تَجَلْبَبَ زِئْبَقا

وقال أبو هلال العسكريّ في حمام أبلق: [من الطويل]

(١) العثكال: العذق.
(٢) الجادي: الزعفران.
(٣) الخضاب: ما يخضب به من حنّاء ونحوه.

ومُتَّفقات الشكل مُختلفاته لَبِسنَ ظلاماً بالصباح مُرقَّعا
أَخَذْنَ من الكافور أنفاً ومَنْسِراً وخَضَّبْنَ بالحِنَّاءِ كفّاً وإصبَعَا[١]
وترنو بأبصارٍ إذا ما أدرْنَها جَلَوْنَ عقيقاً للعيون مُرصَّعَا
تطيرُ بأمثال الجِلَام كأنّها جنادِلُ تَذحوها ثلاثاً وأربعَا[٢]
تَبُوعُ بها في الجوّ من غير فَتْرةٍ كأن مجادِيفاً تَبُوعُ بها مَعَا[٣]
إذا هي عَبَّت في الغدير حَسِبتَها تَزُقُّ فراخاً في المغاور جُوَّعَا

وقال القاضي الفاضل عبد الرحيم البَيْسانيّ من رسالة يصف طائراً جاء من غاية: «وكان هذا الطائر أحدَ الرسل المُسَيَّرة بل المُبَشِّرة، والجنود المجرّدة بل المسخّرة؛ فإنها لا تزال أجنحتُها تحمِل من البطائق أجنحة، وتُجَهِّز من جيوش المقاصد والأقلام أسلحة؛ وتحمل من الأخبار ما تحمل الضمائر، وتَطْوِي الأرضَ إذا نَشَرتِ الجناحَ الطائر؛ وتُزْوَى لها حتى تَرَى ما سَيَبْلُغه مُلْك هذه الأمّة، وتَقْرُب بها السماءُ حتى ترى ما لا يَبْلُغه وَهْم ولا هِمّه؛ وتكون مراكبَ للأغراض لمّا كانت الأجنحة قُلوعا، وتركب الجَوّ بحراً يُصفِّق فيه هبوبُ الرياح مَوْجاً مرفوعاً؛ وتُعلِّقُ الحاجاتُ على أعجازها، فلا تَعْرِفُ الإراداتُ غير إنجازها، ومن بلاغات البطائق استعارت ما هي به مشهورة من السَّجْع، ومن رياض كتبها ألِفَتِ الرياضَ فهي إليها دائمة الرَّجْع. وقد سكنت البروج فهي أنجم، وأُعِدَّت في كنائنها فهي للحاجات أسهمُ. وقد كادت تكون ملائكةً فإذا نِيطت بالرِّقاع، صارت أُولِي أجنحةٍ مَثْنَى وثُلاثَ ورباع. وقد باعدَ اللّهُ بين أسفارها وقرَّبها، وجعلها طَيْفَ اليَقَظَة الذي صدَق العينَ وما كذبَها. وقد أخذت عهودَ الأمانة فهي في أعناقها أطواقاً، فأدّتها من أذنابها أوراقاً؛ فصارت خَوَافِيَ وراء الخَوَافِي، وغَطَّت سِرّها المُودَع بكتمانٍ سحبت عليه ذيولَ ريشها الضوافي[٤]؛ تُرغم النَّوَى بتقريب العهود وتكاد العيون تَلاَحظها تَلاَحُظَ أنجمِ السعود؛ فهي أنبياء الطير لكثرة ما تأتي به من الأنباء، وخطباؤها لأنها تقوم على منابرِ الأغصان مَقامَ الخطباء». والله أعلم بالصواب.

وأمَّا البَبَّغاءُ وَمَا قِيلَ فِيهَا ـ والبَبَّغاء طائرٌ هنديّ، وحبشيّ، حَسَنُ الخَلْق، دَمِثُ الخُلُق، ثاقب الفهم، له قوّةٌ على حكاية الأصوات بالتلقين والتعليم؛ تتخذه الملوك

---

(١) المنسر: منقار الطائر.
(٢) الجلام: ما جزّ من شعر وصوف.
(٣) تبوع بها: أي تبسطها في الجو.
(٤) الضوافي: السابغة الكثيرة.

وأكابرُ الناس في منازلهم. وفي لونه الأخضرُ والأغبرُ والأسودُ والأحمرُ والأصفرْ والأبيضُ. وهذه الألوان كلّها قليلة نادرة الوجود إلاّ الأخضر والأغبر. وقد شاهدتُ أنا بالقاهرة المُعِزِّيَّة دُرّة[١] بيضاء. وحكي أنه أُهْدِي إلى معزّ الدولة بنُ بُوَيه ببغداد هديّةٌ من اليمن كان فيها بَبَّغاءُ بيضاء، سوداء المنقار والرجلين، وعلى رأسها ذؤابة فُسْتُقِيَّة. وهذا الطائر يتناول الطُّعْمَ برجله. وله منقار مُعَقَّف قصير يكسر به ما صَلُب ويَنْقُب به ما تعسَّر نَقْبه. وهو في مأكله ومشربه كالإنسان التَّرِفِ الظريفِ. والناس يحتالُون على تلقينه بأن ينصبوا تجاهه مرآةً يرى خَيَالَه فيها ويتكلّم الإنسان من ورائها، فيتوهَّم الطائر أنّ خياله في المرآة هو المتكلّم فيأخُذ نفسه بحكاية ما يسمعه من ذلك الصوت.

وقال المولى تاج الدين عبد الباقي اليمانيّ[٢] رحمه الله فيها مُلغِزاً: [من الرجز]

يـا سـيِّـداً أبـدعَ فـي الـمـقـالِ ... ويـا رئـيـسـاً فـاق فـي الـمـعـالـي
مـا حـيـوانٌ مـشـبـهُ الإنـسـانِ ... مُـرَتِّـلُ الآيـاتِ فـي الـقـرآنِ
ذو مَـبْـسِـمٍ صـيـغَ مـن الـنُّـضَـار ... ومُـقْـلَـةٍ قـد رُكِّـبـتْ مـن قـارِ
ومِـخْـلَـبٍ يُـكَـسِّـر الـصَّـلِـيـبَـا ... ومَـنْـطِـقٍ يُـفَـاخِـر الـخـطـيـبـا
ذو حُـلَّـةٍ بَـنْـدِيَّـةِ الـبـرود ... مـنـسـوجـةٍ مـن أخـضـر الـبـنـود
كـروضـةٍ قـد أيـنَـعَـتْ أزهـارُهـا ... وأدهـشـتْـنـا بـآلِـغـنَـا أطـيـارُهـا
قـد جُـمِّـعـت فـي ذاتـه ألـوانُ ... كـأنّـه فـي خِـلْـقـه بُـسـتـانُ
فـذَاتُـه مـن نـاصـع الـزَّبَـرْجَـدِ ... ونَـوْرُه مُـركَّـبٌ مـن عَـسْـجَـدِ
وتـارة يُـبـصَـرُ مـن أقـاحـي ... خِـلْـقَـتَـه فـي سـائـر الـنـواحـي
وعُـرْفُـه مـن خـالـص الـمِـدادِ ... ونُـطـقُـهُ مُـسـتـحـكِـم الإيـراد
يـأكـل بـالـكـفّ خـلافَ الـطـيـر ... ويَـغْـتَـدِي وهـو قـديـرُ الـسَّـيْـر
إن لَـقَـطَ الـحَـبَّ لـدى تـفـريـقـه ... رأيـتَ دُرّاً جـال فـي عَـقِـيـقِـهِ
يـحـفـظ بـيـتَ الـمـرء فـي الـمـغـيـبِ ... ويـغـتـدي كـالـحـارس الـمـرهـوب
سـمـيُّـه فـي أسـفـل الـبـحـار ... مُـسـتـودعٌ فـي آخـر الـتَّـيـار

---

(١) الدرّة: الببغاء.

(٢) هو عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله اليمني المخزومي، المكي، الشافعي (تاج الدين أبو المحاسن) أديب، ناثر، ناظم، لغوي، مؤرخ، كانت وفاته بمكة سنة ٧٤٤ هجرية. (معجم المؤلفين ٥ : ٧٣).

إليه يُعزَى الشاعرُ المَجيدُ والكاتبُ النِّحريرُ والمُجيدُ
فاكشف مُعمَّى ما لغزتُ يا إمامْ وأسلم على مرِّ الدهور في الدّوامْ

البَابُ الخَامِسُ
مِنَ القِسْمِ الخَامِسِ مِنَ الفَنِّ الثَّالِثِ
في الطَّيرِ اللَّيلِيِّ

ويشتمل هذا الباب على ذكر ما قيل في الخُفَّاش، والكَرَوان، والبُوم، والصَّدَى.

فأمّا الخُفّاش وما قيل فيه ـ فالخُفَّاش ليس من الطير في شيء، فإنه ذو أذنين ظاهرتين وأسنان وخَطْم وخُصيتين بارزتين، ويبول كما تبول ذواتُ الأَرْبع، ويَحيض، ويَلِد، ويُرضِع، ولا رِيش له. قال بعض المفسّرين لكتاب الله عزّ وجلّ: إنّ الخُفّاش هو الطائر الذي خلقه عيسى ابن مريم عليه السلام بإذن الله تعالى؛ ولذلك هو مباين لصنعة الخالق؛ ولهذا سائرُ الطير تَقهره وتُبْغضه؛ فما كان منها يأكل اللحمَ أكله، وما لا يأكل اللحم قتلَه؛ فلذلك لا يطير إلاّ ليلاً. وطعامُه البعوضُ والفَراشُ يصيدهما وقتَ طَيَرانه، ولا يبلغ ذلك إلا بما فيه من سرعة الاختطاف وشِدّة الطيران ولِينِ الأعطاف. وهو مع ذلك ليس بذي رِيشٍ، وإنما هو لحم مُغَشًّى بجِلْد صُلبٍ كأنّه جِلدِ ضِفْدَع، وهو يطير بغير ريشٍ؛ وهذا من العَجَب. وهو لا يطير في ضوءٍ ولا ظلمةٍ، وسببُ ذلك أنه ضعيف حاسّةِ البصر، قليلُ شُعاع العين؛ فالشمس تُضعِف بصرَه عن التحديق في شعاعها، والظلمة تغمرُ ضياءَ بصره؛ فهو يجعل طيرانَه لطلبِ قُوتِه، وقتَ غروب الشمس وظهور الشّفق. وذلك وقتَ هَيج البعوض وانتشاره. ومنازله تكون في الجبال وصُدوعِ الصخور وبسيطِ الفَيَافِي وجزائرِ البحر والأماكنِ الخَرِبة المهجورة. وهو يَطلب قُرب النّاس؛ فإذا كان في بيوتهم قصد أرفعَ مكانٍ وأحْصَنه فيكون فيه. ويُذكر بطول العُمر، ويكبُر حتى يكون في قدر الحِدَأة وأكبر. وهو يلد ما بين الثلاثة إلى التسعة. ويَسفِدَ غالباً وهو طائر في الهواء. وهو يحمل ولده تحت جناحه، وربما قبض عليه بفِيهِ لإشفاقه عليه. وربّما أرضعتِ الأنثى ولدَها وهي طائرة. أخبرني مَن شاهد ذلك ممن يُعتمد على نقله، وهو متى أصابه شجر الدُّلْب[1] خَدِر.

قال الجاحظ: والخُفّاش يأتي الرُّمانة وهي على شجرتها فينقُب عنها ويأكل جميع ما فيها حتى لا يَدَعَ إلا القشرَ وَحْده. قال: ولحوم الخفافيش موافقةٌ للشواهين

---

(١) الدلب: جنس شجر للتزيين، من الفصيلة الدلبية، وهو من الزهريات، يحب الماء.

والصُّقور والبَوَازِي ولكثير من جوارح الطير، وهي تَسْمَن عنها وتصِحّ أبدانها عليها، ولها في ذلك عملٌ محمود ناجع عظيم النفع بيّن الأثر.

وقال بعض الشعراء في الخُفّاش مُلْغِزاً: [من الرجز]

وطـائـرٍ جَـنـاحُـه فـي رِجْـلِـهِ أبـعـد شـيءٍ فَـصُّـه مـن وُصِـلِـه[١]
لـم يُـوصَـف الـلّـهُ بـخـلـقٍ مِـثْـلِـه وهـو عـلـى تـآلُـفٍ فـي شـكـلِـه
* لـو بِـيـع فـي سُـوقٍ لـه لـم أُغْـلِـه *

وقال آخر:

أبَى عـلـمـاءُ الـنـاس أن يُـخـبـرونِـنِي وقد ذهبوا في العلم في كلّ مذهبِ
بـجـلـدةِ إنـسـانٍ وصـورةِ طـائـرٍ وأظـفـارِ يَـرْبُـوعٍ وأنـيـابِ ثَـعْـلَـبِ

وأمّا الكَرَوانُ وَمَا قِيلَ فِيهِ ـ والكروان طائرٌ من طبعه وعادته الطيرانُ في الليل، والإذلاجُ والصِّيَاح بالأسحار، والإشراف على مواضع العساكر، ويوصف بالحُمْق؛ ومن حمقه أنه يقال له: أَطْرِق كَرَا، فيَلْصَق بالأرض حتى يُرْمَى. وتقول العرب: «أَطْرِق كَرَا أطرق إنّ النَّعامَةَ في القُرَى»[٢].

وأمّا البُومُ وَمَا قِيلَ فِيهِ ـ ويقال: إنه الصَّدَى، ويقال: بل الصَّدَى ذكَرُ البوم، وللبوم ذكر له منه. ويقال: إنه خمسة أصناف: منه ما يصيد الأرنبَ. ومنه صِنْف له لونان يأوِي الأكامَ والبَرِّيّةَ. ومنه المدبَّج بالصُّفْرة، وله حواجبُ وقرونٌ من ريش، ويسكن الجُذْرانَ. ومنه الهَام ويسمّى «الغبشية»، ومنه «القن» وهو يصيح كالهام لكنّ صوته أدقّ. وكل هذه الأصناف تحب الخَلْوَةَ بنفسها. وهي تُبغض الغربان، وسائرُ أصناف الطير تُبغِضها، فإنّ الطيور إذا رأينها يَطِرْنَ حولَها ويَنْتِفْنَ ريشَها، فلذلك صيّادو الطيور يجعلونها في مصايدهم؛ لأن الطيور إذا رأوْها اجتمعوا عليها، فتُصاد عند ذلك.

وأمّا الصَّدَى وما قيل فيه ـ العرب تزعم أن الإنسان إذا مات أو قُتِل تتصوّر نفسُه في صورةِ طائرٍ تصرخُ على قبره مستوحِشةً لجسدها. وفي ذلك يقول تَوْبة[٣]:

ولـو أنّ لـيـلَـى الأَخْـيَـلِـيّـةَ سَـلَّـمَـتْ عـلـيّ ودُونِـي جَـنْـدَلٌ وصـفـائـحُ
لـسَـلَّـمْـتُ تـسـلـيـمَ الـبَـشَـاشَـةِ أو زَقَـا إليها صَدًى من جانب القبر صائحُ

ويحكون على ذلك حكايةً. وتقول العرب: إن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر

(١) الوصل (بكسر أوله): كل عظم على حدة لا يكسر ولا يوصل به غيره.
(٢) هذا المثل يضرب للرجل الحقير إذا تكلم الذي لا يشبهه وأمثاله الكلام فيه.
(٣) هو توبة بن الحمير.

حتى يصيرَ في قَدْر البُوم، ويسمُّونه الهامَ، واحدُه هامَةٌ، وهو يتوحَّش ويصيح ويوجد في الدّيار المعطَّلة والنَّواويس[1] وحيثُ مَصَارعُ القَتْلَى وأجداثُ الأموات. ويقولون: إنه لا يزال عند وَلدِ الميّت ومُخْلَفِيه ليعلم ما يكون بعده فيخبره. وهذا كلُّه أراه من خُرافات العربِ وأكاذِيبِها. وما زالوا على ذلك حتى جاء الإسلام فنهى رسولُ الله ﷺ عنه فقال: «لا عَدْوَى ولا طِيرَةَ ولا هامَةَ»، الحديثَ. والله أعلم.

البَابُ السَّادِسُ
مِنَ القِسْمِ الخَامِسِ مِنَ الفَنِّ الثَّالِثِ
في الهَمَجِ

وقد قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فيه: إنه ليس من الطير، ولكنّه مما يطير كالحشرات مما يمشي. والذي أُطلق عليه اْسمُ الهَمَج هو مما يَشتمل عليه هذا الباب، وهو النّحل، والزُّنبور، والعنكبوت، والجَرَادُ، ودودُ القزّ، والذُّباب، والبَعُوض، والبراغيثُ، والحُرْقُوص.

فأمّا النحلُ ومَا قيلَ فيهِ ـ قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨ - ٦٩]. وعن أبي سَعيد الخُدْريّ رضي الله عنه: أن رجُلاً أتى النّبي ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنَه يا رسول الله؛ فقال النبيّ ﷺ: «اسقِهِ عَسَلاً»، ثم أتاه فقال: قد فعلْتُ؛ فقال: «اسقِهِ عسلاً». ثم أتاه فقال: قد فعلت؛ فقال: «اسقِهِ عسلاً»، ثم أتاه في الرابعة؛ فقال: «صَدَقَ اللّهُ وكذَب بطنُ أخيكِ اسقِه عسلاً»؛ فسقاه فبَرِىء الرجل.

وقال أرسطو: النحل تسعة أصنافٍ: ستّةٌ منها يأوي بعضُها إلى بعضٍ، وذكر أسماءهما باليونانيّة. وغذاءُ النحلِ من الفضول الحُلْوةِ والرُّطُوباتِ، والنحلُ لا تقعُد على أزهارٍ مختلفةٍ بل على زهر واحدٍ؛ وإن قَعدت على زهرِ آخر فإنما تقعُد عليه بعد أن تنصرف إلى الخليّة، وبيوتُها من أعجب المباني؛ لأنها مبنيّة على الشكل الذي لا يُنتَهك ولا يَنْخَرِق، كأنه حُرِّر بآلةٍ وقياسٍ هندسيّ. وإذا هلك شيء من النحل في باطن الخلايا أخرجَتْه الأحياء إلى خارجِها. وهو يعمل في فصل الربيع والخريفِ. والرَّبيعِيّ

(١) النواويس: مفرده ناووس، وهو صندوق من خشب أو نحوه يضع النصارى فيه جثة الميت، أو هو مقبرة النصارى.

أجود من الخَرِيفيّ. والصغير منه أعمَلُ من الكبير. وهو يشرب من الماء النقيّ العذبِ الصّافي، ويطلبه حيث كان. وهو يَسْلُخ جلدَه كالحيّات. وتوافقه الأصوات المُطرِبة. ويجتمع للتصفيق بالأيدي والرَّقص. والسوسُ يضرُّه. ودواؤه أن يُطرَح في كل خليَّةٍ كفٌّ من الملح، وأن تُفتح في كلّ شهر مرّةً وتُدَخَّنَ بأخثاءِ البقرِ.

وقد وصف الشعراءُ الشُّهد والعسلَ في أشعارها؛ فمن ذلك قولُ إبراهيم بن خَفَاجة الأندلسيّ يصف شُهْدَةً بعث بها إليه بعضُ أصدقائه: [من المجتث]

لِلّهِ رِيقَةُ نحلٍ رعَى الرُّبَى والشِّعابا
وجاب أرضاً فأرضاً يَغْشَى مَصابا مَصابا[1]
حتّى ارتوى من شِفاءٍ يَمُجّ منه رُضَابا
إن شئتَ كان طعاماً أو شئتَ كان شرابا

وكتب مع هذه الأبيات رسالة، جاء منها: «وكفَى النّحلةَ فَضيلةَ ذات، وجَلالَةَ صفات؛ أنّها أُوحِيَ إليها، وأُثنِيَ في الكتاب عليها؛ تعلم مساقِطَ الأَنْداء، وراء البَيْداء[2]؛ فتقع هناك على نُوّارةَ عَبِقه، وبَهَارةٍ أنِقه[3]؛ ثُمّ تصدُر عنها بما تَطبعه شمعَه، وتُبدعه صنعَة وتَرتَشف منها ما تَحفَظه رُضاباً[4]، وتَلفِظه شَراباً؛ وتتجافى بعدُ منه عن أكرم مُجْتَنى، وأحكم مُبْتَنى».

وأمّا الزُّنبُور ومَا قيلَ فيهِ - والزنبور يُسمَّى «الدَّبْرَ». وهو جَبَلِيّ وسُهْلِيّ. فالجبليّ يأوِي الجبالَ والأماكنِ الخشِنةَ، وقد يُعَشِّش على الشّجر، ولونه إلى السواد. والسُّهليّ أحمرُ اللونِ ويَتّخِذ عُشّه تحت الأرض ويُخرج الترابَ منه كما يفعل النّملُ، وهو يختفي في الشتاء فلا يظهر، وأكثرُه يهلِك. ومن السُّهْلِيّ صِنف مختلفُ الألوانِ مستطيلٌ؛ وفي طبعه الشَّرَه يطلب المطابخَ ويأكل اللحم، ويطير مفرداً ويسكن بطنَ الأرض.

وصنف الزنبور جميعه مقسومٌ في وسطه؛ وهو لذلك لا يتنفّس من جوفه ألبتة. ومتى غُمِس في الدُّهنِ سكنت حركاته وذلك لضِيقِ منافِذِه.

وقد وصفه الشعراءُ، فمن ذلك قولُ السُّلاميّ[5]: [من الطويل]

---

(١) المصاب: موقع الغيث.
(٢) البيداء: الفلاة.
(٣) البهار: نبت طيب الريح جعد له فقاحة صفراء ينبت وقت الربيع.
(٤) الرضاب: رغوة العسل.
(٥) قد يكون عبد الله بن موسى بن الحسن بن إبراهيم السلامي (أبو الحسن)، محدث، أديب، شاعر، مؤرخ.

ولابِس لونٍ واحدٍ وهو طائرٌ ... ملوّنة أبرادُه وهو واقِعُ
أغرّ تردّى طَيْلَساناً مُدَبَّجاً ... وسودُ المنايا في حشاه ودائِع
إذا حَكّ أعلى رأسِه فكأنما ... بسالِفتيه من يديه جوامِع[١]
يُخاف إذا ولّي ويُؤمَنُ مُقبِلاً ... ويُخفِي عن الأقران ما هو صانِع
بدا فارسيّ الزِّي يَعْقِد خَصْرَه ... عليه قَباءٌ زيَّنتْه الوشائِع[٢]
فمِعْجَرُه الوَرْدِيُّ أحمر ناصِعٌ ... ومِئْزَرُه التِّبْرِيّ أصفر فاقِعُ[٣]
يرجّع ألحانَ الغريض ومَعْبِدِ ... ويَسْقِي كؤوساً مِلؤها السمّ ناقِع

وقال السَّريُّ الرّفّاء يصفه: [من المنسرح]

ومُخْطَفِ الخَصْرِ بُرده حَبِرُ ... نَحذَرُه وهو خائِف حذِرُ[٤]
مُجنَّح طار في مُجَنَّحةٍ ... تصعدَ طوراً به وتنحدر
كأنّها والرياح تنشرُها ... غرائبُ الزَّهرِ حين تُنْتَثر
لها حُمَاتٌ كأنها شعر ... تَظْهَر مسودّة وتستتِر
قد أُذهبتْ في الجبين غُرّتُه ... إذ فُضّضتْ في جيادنا الغرر
سِلاحُه الدّهرَ في مؤخّره ... يطعَنُ طوراً به وينتصِر
كأنّ شطر الذي يُجرّده ... من بين فكّيه حيّة ذكر

وأمّا العنكبُوتُ ومَا قيلَ فيهِ ـ قد ضرب اللّهُ عزّ وجلّ المثلَ في الوَهْن[٥] بالعنكبوت؛ فقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١]. والعنكبوتُ أصنافٌ: منها صِنفٌ يُسمّى «الرُّتَيْلا» من ذوات السموم القواتل، وهو عنكبوتٌ صغير. ومنه صنفٌ طويل الأرجل. ومنه يُسمّى «اللَّيْثَ» يصيد الذّبَاب، وله ست عيون وثماني أرْجُلٍ. وقال الجاحظ: ولَدُ العنكبوت يَقْوَى على النَّسْج ساعةَ يُولد، وذلك من غير تلقين ولا تعليم. وأوّل ما يولد دوداً صغاراً، ثم يتغيّر ويصير

(١) الجوامع: جمع الجامعة، وهي الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنق.
(٢) الوشائع: جمع وشيعة، وهي الطريقة في البُرد.
(٣) العجر: ثوب تلقه المرأة على استدارة رأسها.
(٤) مخطف الخصر: ضامره.
(٥) الوهن: الضعيف.

عنكبوتاً. وهو يُطاوِلُ في السِّفَاد. ومنه ما هو كبيرٌ ونسجُه رديءٌ، ومنه ما هو دقيق. وهو في نَسْجه يَمُدّ السَّدَى[١] ثم يعملَ اللُّحمَة[٢]، ويبتدىء من الوسط؛ ويُهَيِّىءُ موضعاً لِمَا يصيده يكون له كالخِزانة. والأنثى منه هي التي تَنْسِجُ، والذكر يَحُلُّ ويَنقُضُ. والتي تَنسِجُه لا تُخْرِجه من جوفها بل من خارج جسدها، وفَمُ العنكبوت مشقوقٌ بالطول. وهو إذا صاد الذُّبَابَ يَثِبُ عليه وُثُوبَ الفَهْد.

وقال الشيخ الرئيس أو عليّ بن سينا: إنّ نَسْجَ العنكبوت يَقْطَعُ نَزْف الدَّم إذا جُعِل على الجِراحة، وإذا وُضع نَسْجُه على القروح مَنَعها أن تَرِم وعلى الجراحات. وإذا طُبِخَ العنكبوتُ الذي هو غليظ النَّسْج أبيضُه بدُهن الوَرْد وقُطِّر في الأُذن سَكَّن وجعَها. قال: وقال بعضُهم: إنّ نسج العنكبوت إذا خُلِط ببعض المراهم ووُضع على الجَبْهة والصُّدْغَين أبرأ حُمَّى الغِب[٣]. قال: وزعم بعضهم أنّ نسج الصِّنف الذي يكون نسجُه كثيفاً أبيضَ إذا شُدّ في خيط وعُلِّق على العنق والعَضُد أبرأ حُمَّى الغُبّ.

وقال ابن الروميّ يَصِف فهد العنكبوت: [من منهوك المنسرح]

أَعْـجَـبُ مُـسْـتَـفَـادِ ... أفـادنـي زمـانـي
مـن الـفـهـود فَـهْـدٌ ... فـي الاسـمِ والـعِـيـانِ
تـلـك ذواتُ أربـعٍ ... وذاك ذو ثـمـانِ
كـأنـمـا أرْجُـلُـه ... مَـخَـالِـبُ الـنُّـغْـرَانِ[٤]
سَـيْـفـاه سَـيْـفـا بَـطَـلٍ ... والـدرعُ درعُ جـانِ
مـسـتـأنـسٌ مـا إنْ بَـنَـى ... والإنـسَ فـي مـكـان
وصـائـدٌ وهـو مـن الـ ... ـمَـصِـيـد فـي أمـان
ذُبَـابُـه فـي كَـفِّـه الـ ... ـطـائـرُ مـثـل الـعـانـي
ولـيـس يـبـغـي بـدلاً ... بـطـائـر الـخِـوَان
إذا دَنَـا فـلـم يـكـن ... بـيـنـهـمـا عـقـدان
عـانـقَـه أسْـرَعَ مـن ... تـعـانُـقِ الأجـفـان

---

(١) السَّدى: خلاف اللحمة، وهو ما يمد طولاً في النسيج.
(٢) اللحمة: الخيوط.
(٣) حمى الغب: التي تنوب يوماً بعد يوم.
(٤) النغران: جمع نغر، وهي أفراخ العصافير.

بِــخِـفَّــةِ الــوثــوب بَــل   بِــجُــرْأَةِ الــجَــنَــان
فَــهــو عــزيــزٌ عــزَّةً   فــي غــايــةِ الــهَــوان

وقال خَلَف الأحمر في الرُّتَيْلاءِ: [من الرجز]

إبـعَـث لـه يـا ربِّ ذاتَ أَرْجُلِ   فِي فَمِها أحْجَنُ مثلُ المِنْجَلِ[١]
دَهْمَاءَ مثلَ العنكبوت المُحْوِلِ   تَأخذُه من تحته ومن علِ

وأمّا الجَرَادُ ومَا قِيلَ فيهِ ـ فالجراد أحد جُنْد الله الذي عذّب اللّهُ به قومَ فرعون؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. والعرب تقول: سَرَأَت الجرادةُ إذا باضت. فإذا خرج من بيضه فهو «دَبًى»، ويخرج دوداً أصهبَ إلى البياض. فإذا تلوّنت فيه خطوطٌ صُفْرٌ وسُودٌ وبيضٌ فهو «المُسَيَّحُ»، فإذا ضمّ جناحيْه فذاك «الكُتْفَانُ»؛ لأنه حينئذٍ يَكْتِفُ في المشي. فإذا ظهرت أجنحتُه وصار أحمرَ الغُبْرة فهو «الغَوْغَاءُ»، والواحدة غَوْغاءة؛ وذلك حين يستقلّ فيمرج بعضُه في بعض ولا يتوجّه إلى جهة. فإذا بدت في لونه الحمرةُ والصفرةُ وٱختلف في ألوانه فهو «الخَيْفَان». وإذا ٱصفرّت الذكور واسودّت الإناث سُمّي حينئذٍ «جَرَاداً».

وهو إذا أراد أن يبيض التمس لبيضه المواضعَ الصَّلْدة[٢] والصخور الصُّلْبة التي لا تعمل فيها المعاول فيضربها بذنبه فتنفرج له، ثم يلقي بيضه في ذلك الصَّدع فيكون له كالأُفْحُوص ويكون حاضناً له ومربياً.

والجرادة لها سِتُّ أرْجُل: يَدان في صدرها، وقائمتان في وسطها، ورجلان في مؤخّر جسدها، وطرفا رجليها مِنشاران. والجرادُ من الحيوان الذي ينقاد إلى رئيس يجتمع إليه كالعسكر، إن ظَعَن أوّله تتابع كلّه ظاعناً؛ وإذا نزل أوّله نزل جميعُه. ولُعابُه سمّ على الأشجار، لا يقع على شيء منها إلا أَهْلَكه. والجرادة فيها شَبَهٌ من عشرة من جَبَابِرة الحيوان، وهي: وجهُ فرس، وعينا فِيل، وعُنُقُ ثور، وقرْنا إيَّل، وصدرُ أسدٍ وبطنُ عَقْرب، وجناحَا نَسْر، وفَخِذا جَمَل، ورِجْلا نَعامة، وذنبُ حيّة. قال شاعر: [من الطويل]

لـهـا فَـخِـذَا بَـكْـرٍ وسـاقـا نَـعـامـةٍ   وقـادِمَـتَـا نَـسْـرٍ وجُـؤْجُـؤُ ضَـيْـغَـمِ[٣]
حَبَتْها أفاعي الرمل بطناً وأَنعمت   عليها جيادُ الخيل بالرأس والفَم

---

(١) الأحجن: المعوج ويعني به السِّن.
(٢) الصلدة: الصلبة الملساء الشديدة.
(٣) الضيغم: الأسد الواسع الشدق.

وقال أبو عليّ بن سِينا: أجودُ الجراد السمينُ الذي لا جَناح له؛ وأرجلُ الجراد تَقْلَع الثآلِيلَ فيما يقال. قال: يؤخَذ من مُسْتَدِيراتها اْثنتا عشَرة وتُنْزع رؤوسُها وأطرافُها ويُجعل معها قليلُ آسٍ يابسٍ وتُشرب للاستسقاء كما هي. قال: والجراد نافع لتقطير البول؛ وإذا تُبُخِّر به نفع عسرَه وخصوصاً في النساء. ويُتَبَخَّر به من البواسير. والذي لا أجنحَةَ له يُشْوَى ويُؤكل لِلسْع العقرب.

وقال بعضُ الأعراب وذكر فساده: «بَاكَرنا وسَمِيّ[1]، ثم خَلَفه وَلِيّ[2]؛ حتى كأنّ الأرض وَشْيٌ منشور، عليه لؤلؤٌ منثور؛ ثم أتتنا غيومُ جراد، بِمَنَاجِلَ حداد، فأخْربَت البلاد وأهلكت العباد. فسبحان من يُهلِكُ القوِيَّ الأكول، بالضعيف المأكول».

وقال العسكريّ يصف جرادةً: [من مجزوء الرجز]

أجنحةٌ كأنّها ... أردِيَةٌ من قَصَبِ
لكنّها منقوطة ... مثل صدور الكُتُبِ
بأرجلٍ كأنّها ... مناشِرٌ من ذَهَبِ

وقال أيضاً: [من الوافر]

وأعرابيّة تَرْتاد زادا ... فَتَمْرُق من بلاد في بلادِ
غَدَتْ تمشِي بِمِنْشارٍ كليلٍ ... تَبوع به قَرارَة كلّ وادِ[3]
وتَنْشرُ في الهواء رِداء شَرْيٍ ... على أطرافه نُقَطُ المِدَادِ[4]

وقال يَعْلَى بن إبراهيم الأندلسيّ:

وخيفانةٍ صفراءَ مسودّةِ القَرَا ... أتتكَ بلَوْنٍ أسودٍ فوقَ أصفرِ[5]
وأجنحة قد ألحقتها لرؤيةٍ ... تقاصَرُ عن أثناء بُرْدٍ مُحَبَّرِ

وقال آخر: [من المنسرح]

جرادةٌ حَنَّتِ القلوبُ لها ... حين أشارت بناظِرَيّ رَبْرَب

---

(١) الوسمي: أول المطر.
(٢) الوليّ: المطر بعده.
(٣) يبوع الشيء: يدرك غايته.
(٤) الشرى: الحنظل.
(٥) القرا: الظهر.

صفراءُ جسيم يَشوبُها رَقَطٌ في نُقَطٍ من عَبيرها الأشهبْ[(١)]
كأنها والجَناحُ حُلَّتُها راقصةٌ في مُمَسَّكٍ مُذْهَبْ

ووقفتُ على حكاية عجيبة في أمر الجراد، نقلها ٱبنُ حلب راغب في تاريخه في حوادث سنة ٱثنتين وتسعين وخمسمائة، قال: قال القاضي الفاضل عبد الرحيم البَيْسانيّ: حدّثنا القاضي بهاء الدّين بن شَدّاد قاضي حلب في يوم الثلاثاء من عشر شهر رَبيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وقدِم علينا في صفر منها، قال: كان الجراد بالشأم قد زاد أمرُه وعظُم خَطْبه وأمحلت السّنةُ بعد السّنة ولم يسلم من الزرع إلا أقله؛ فأعلم الملِك الظاهر غازي صاحب حلب عن طائر يسمى «السَّمَنْدَل»، إذا ظهر الجرادُ ببلادَ أُحْضِر إليها ماءٌ من مكان مخصوص فتبعه ذلك الطائرُ ووقع على الجراد فأتلفه وٱستخرج بيضَه من التراب ونَظَّفَ البلادَ منه. قال: فندب ثلاثة نفرٍ من العجم ذوي قوّة في أبدانهم وصَبْرٍ على مشقّةِ المَشْي في أسفارهم، وأزاح عِلّتهم بنفقة وسَّعَها عليهم، وساروا على خُوزِسْتان[(٢)]، واستدلّوا على الضَّيْعة التي هي من عملها وفيها هذا الماءُ، فوصلوا إليها وحملوا من الماء، ووجدوا هذه العين على وجه الأرض لا تبلغ إلى أن تَفيضَ فتسيح ولا إلى أن تَغِيضَ فتُسْتَقَى. ومن تدبير هذا الماء إلى أن يتمّ به المرادُ أن يحمِله الماشي ولا يركب، وإذا نَزل بمنزلة علّقه ولا يضعه على الأرض؛ وكان الملك الظاهر قد سيّر معهم دوابَّ يركبُها من لم يحمل الماء بالنّوبة ويمشي من يحمله؛ ومن عادة من يحمله ألاّ ينفردَ بنفسه وألاّ يسيرَ إلاّ في قافلةٍ وأن يُعلم أهلَها بما معه ويُشهِدَهم أنه ما ركِب ظهرَ دابّةٍ في حال حمله، وأنه مشى والماءُ في إنائه في يده، وكلّما وصلَتْ قافلةٌ إلى بلد أدّى شهود القافلة ما شَهِدوا به عند الحاكم؛ ويَتَبَخّرُ حاملُ الماء كتباً حُكْميّةً من قُضاة البلاد في أمر الماء بصحّة نسبه وكيفيّة حَملِه. قال: ولم يزالوا على ذلك إلى أن وصلوا إلى حلب، فعُلّق ذلك الماء ووصل ذلك الطائرُ في جمع كجَمع الجَراد وأكثر، وهو يشبه السُّمَانَى في قَدْره ولونه، ووقَع على الجراد فأتلفه وٱستأصله. قيل: إنّه كان يأكل الجرادةَ والثنتين والثلاث والأربع في دَفْعَة ويرميها في الحال في بطنه، وإنه يتتبّع مكانَ بيضه في الأرض فيبحث عنه بمناقيره وأخرجه، حتى صارت الأرض كالغِرْبال من أثر نقره، وإنّ الجراد ٱرتفع من الشأم وكُشِفَتْ به البلوى. قال: وأمرُ هذا الماء مشهور معلوم مستفيض.

(١) الرقط: جمع الرقطة، وهو لون مؤلف من بياض وسواد؛ أو من حمرة وصفرة وغيرهما.
(٢) خوزستان: اسم لجميع بلاد الخوز المذكورة. وقيل ليس بخوزستان جبال ولا رمال إلا شيء يسير يتاخم نواحي تستر وجنديسابور. (معجم البلدان لياقوت).

وأمّا دُودُ القَزّ وَمَا قِيلَ فيهِ ـ ودود القزّ وإن لم يكن من الهَمَج الذي له جَناح، فمآلُ أمرِه أن يصير له جناحٌ؛ ولذلك أوردناه في هذا الباب وألحقناه بهذا النّوع.

ودُودُ القزّ أوّلُ ما يكون بِزْراً في قَدْر حبّ التين، وهو البيض الذي يتكوّن فيه الدُّودُ. ويكون خروجُه منه في أوّل فصل الربيع. ويخرجُ أصغَر من الذَّرّ، وفي لونه. وإذا تأخّر خروجُه وضَعه النساء تحت ثُدِيِّهنّ في صرر. فإذا خرج غُذِّيَ بورق التوت. ويأخذ في النموّ إلى أن تصير الدودة منه في قَدْرِ الإصْبَع وينتقل من السواد إلى البياض أوّلاً فأوّلا، وذلك في مدّة ستين يوماً فما دونها. وله في غضون هذه المدّة نَوْماتٌ لا يأكل فيها شيئاً ألبَتّةَ، كلُّ نومةٍ يومان؛ فإذا ٱستيقظ أكل أضعاف ما كان يأكل قبل النوم. فإذا أكمل المدَّةَ ٱمتلأ حريراً فلا يبقى فيه مَساغٌ لمأكل، فيقطع الأكلَ عند ذلك ويَهيج للنَّسْج؛ فأيّ شيء تعلّق به نَسج عليه. وهو يَنْسِجُ على نفسه بما يُخرِجه من فيه إلى أن يُخْرِجَ ما في جوفه، وهو أَرَقّ من العنكبوت، ويُكمل عليه ما يبنيه، فيكون كهيئة اللَّوْزةِ. ويبقى محبوساً في غَزْله قريباً من عشرين يوماً، ثم يَنقُب عن نفسه ويخرج فَراشاً أبيض ذا جناحين لا يَسكُنان عن الاضطراب وقرنين وعينين. وهو إذا نقَب عن نفسه وخرج لا يُنتفع من نسجه بحرير لأنه يقطع طاقاته. وعند خروجه يهيج للسفاد فيُلْصِق الذكرُ ذنبه بذنب الأنثى ويلتحمانِ ساعة زمانيّة ثم يفترقان، وتنثر الأنثى البِزر على الصفة التي ذكرناها على خِرَقٍ بِيضٍ تكون قد فُرِشَت له. فإذا نفِد ما فيهما من السفاد والبِزر ماتا. هذا إذا أُريد من الدودِ البِزرُ. وإذا أُريد منه الحرير تُرِك ذلك النسج في الشمس بعض يومٍ فيموت.

وقد جعله بعض الشعراء مثلاً للحريص على جمع المال، فقال:

يُفْنِي الحريصُ لجمع المال مُدتَهُ ... وللحوادث والوُراث ما يَدَعُ
كدودة القزّ ما تَبْنيه يُهْلِكُها ... وغيرُها بالذي تَبنيه ينتفعُ

وهو كثيرُ العوارض. وأكثر ما يَعْرِض له الفسادُ إذا أطعِم وَرَق التُّوت الحامض. ويَهْلِكُ من صوت الرعد وضرب الطَّسْت والهَاوُنِ، ومن رائحة الخَلّ والدُّخان. وكثرة الحرّ تهلكه وتُذيبه؛ وكذلك البردُ الشديدُ فإنه يبطيء به. ويُؤذيه مَسُّ الجُنُب والحائض، ويُخشَى عليه من الفأر والعصفور والنمل والوَزَغ[1].

وأمّا الذُّبَابُ وَمَا قِيلَ فِيهِ ـ فقد ضرب الله عزّ وجلّ به المثلَ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾

(١) الوزغ: جمع الوزغة، وهو سام أبرص (للذكر والأنثى).

[الحج: ٧٣]. فهذا مَثَلٌ ضرَبَه اللَّهُ تعالى لضَعْف الناس وعجزِهم عن الإتيان بمخلوقٍ. وجاء في الحديث: «إذا سَقَطَ الذُّبابُ في طعام أحدكم أو شرابِه فليَغْمِسْه فإنّ في أحد جناحيه داءً وفي الآخر شفاءً». ويقال: إنه يَغْمِس جناحَ الداء ويَرفعُ جناحَ الشفاء، فلهذا نُدب إلى غَمْسه. والعرب تجعل النحلَ والفَرَاش والدَّبْر من الذّباب.

قال الجاحظ: «والذبابُ ضروبٌ سوى ما ذكروا من الفَرَاش والنحل والزَّنَابِير»؛ فمنها الشَّعْراء. قال الراجز:

* ذبــابُ شَــعْــرَاء ونــبــتٌ مــائــل *

وللكلاب ذبابٌ على حِدة يتخلّق منها فلا يريد سواها. ومنها ذباب الكَلأ والرِّياض؛ وكلٌّ نوع منها يألف ما خُلِق منه.

ومنها الذّباب الذي يقتل الإبل وهو أزرق. والذّبابُ الذي يسقط على الدّوابّ وهو أصفر. ويقال: إنّ الذّباب يكثر إذا هاجت ريحُ الجَنوب، وإنّه يُخْلق في تلك الساعة؛ وإذا هبّت ريحُ الشمال خَفّ وتلاشَى. وهو من ذوات الخراطيم، وكذلك البعوض. ويقال: إن الذّباب لا يُعَمَّر أكثر من أربعين يوماً.

قال الجاحظ: «وليس بعدَ أرض الهند أكثرُ ذُباباً من واسِط[١]، وربّما رأيت الحائطَ وكأنّ عليه مِسْحاً شديدَ السواد من كثرة ما عليه من الذباب».

ويقال: إن اللَّبَن إذا ضُرِبَ بالكُنْدُس[٢] ونُضِح به بيتٌ لم يدخله ذُبابٌ. ومن عجيب أمر الذباب أنّه يلْقِي رجيعَه على الشيءِ الأبيضِ أسودَ وعلى الأسودِ أبيضَ. ويقال: إنه لا يظهر إلاّ في مواضِع العُفُونات والقاذُوراتِ، ومُبْتَدَأ خلقه منها، ثم يكون من السِّفاد.

قال الجاحظ: ويقال: إنّ الذّباب لا يَقْرَب قِدْراً فيه كَمْأَةٌ[٣].

والذّباب بطيء في سِفاده، وربّما بقِي الذّكرُ على ظهر الأنثى عامّةَ النّهار؛ فهو يتجاوز في ذلك البعيرَ والخنزيرَ. وهو من الحيوان الشَّمسيّ لأنه يخفى في الشتاء ويظهرُ في الصيف. وللذّباب يدان زائدتان في مُقَدَّم يديه يتّقي بهما الأذى عن عينيه فإنهما بغير أجفان.

والعرب تضرب به المثلَ في الزَّهْو فتقول: «أَزْهَى من ذُبَابٍ». قالوا: لأنّه يسقط

---

(١) واسط: بلد متوسط بين البصرة والكوفة. (معجم البلدان).

(٢) الكندس: الخرشف البستاني، وهو عروق نبات داخله أصفر وخارجه أسود.

(٣) الكمأة: واحدتها الكمء، وهو فطر من الفصيلة الكمئية.

على أنف الملك الجبّار وعلى مُوقِ عينيه ويطرُدُه فلا ينطرد. ويُضرب به المثلُ في القَذَر واستطابةِ النَّتْنِ. فإذا عَجز الذُّبابُ عن شمّ شيء فلا شيء أنتن منه.

وقال ابن عَبْدَل في محمد بن حَسّان بن سعد ورماه بالبَخَر:

وما يدنو إلى فيه ذُبابٌ ولو طُلِيَتْ مَشافِرُه بقَنْدِ[1]
يَرَيْنَ حَلاوةً ويَخَفْنَ موتاً ذُعافاً إن هَمَمْنَ له بوِرْدِ

ويقال لكلّ أبخر: أبو ذِبّان؛ وكانت من كُنَى عبد الملك بن مروان. وقد وصف الشعراءُ الذّبابَ؛ فمن ذلك قولُ عنترة: [من الكامل]

جادتْ عليها كلُّ عينٍ ثَرَّةٍ فتَرَكْنَ كلَّ حديقةٍ كالدِّرهمِ
فترى الذّبابَ بها يُغنّي وحدَه هَزِجاً كفعل الشارب المُتَرَنِّمِ
غَرِداً يَحُكُّ ذراعَه بذراعه فِعْلَ المُكِبِّ على الزِّناد الأجْذَمِ

وقال العسكريّ، وجمعَ بيْنَ البراغيث والبَعُوض والذُّباب: [من الكامل]

وبدا فغنّاني البعوضُ تَطَرُّباً فهَرَقْتُ كأسَ النوم إذ غنّاني
ثمّ انبرى البرغُوث ينقُط أضْلُعي نقط المعلِّم مُشْكِلَ القرآنِ
حتى إذا كَشَف الصباحُ قِناعَه قَرأَتْ لِيَ الذِّبّانُ بالألحانِ

وأمّا البَعوضُ وَمَا قيلَ فيهِ ـ والبعوضُ صِنفان: صنفٌ يُشْبِه القُرَاد، لكن أرجُله خفيّةٌ ورطوبته ظاهرة، يُسمَّى بالعراق والشأم «الجِرْجِس» و«الفُسَافِس» وبمصر «البَقّ». ويَشمُّ رائحةَ الإنسان ويتعلّق به. وله لَسْعٌ شديد. ولدمِه إذا قُتل رائحةٌ كريهة. ويقال: إنّه يتولّد من النَّفَس الحارّ ولشدّة رغبته في الإنسان لا يتمالك إذا شمّ رائحته، فإذا كان في السقف رمى بنفسه عليه فلا يخطئه، وهذا الصنف ليس من الطير. والصنف الثاني طائر ويُسمّيه أهلُ العراق «البَقّ» و«البَعُوضَ»، ويسمّيه أهلُ مصر «الناموسَ». وهو يتولّد من الماء الراكد، فإذا صار الماءُ رَقْراقاً استحال دَعَاميصَ[2]، ثمّ تستحيل الدعاميصُ فَرَاشاً. والبَعُوض في خِلْقة الفيل إلاّ أنّه أكثرُ منه أعضاءً، فإنّ للفيل أربَعَ أرْجُلٍ وخُرطوماً وذَنَباً، وله مع هذه الأعضاءِ يدانِ زائدتانِ وأربعةُ أجنحة. وخُرطومُ البعوض أجوف نافذُ الخَرْق، فإذا طَعَن به جلدَ الإنسان استقى به الدَّمَ وقذف به إلى جوْفه. وفيه من الشَّرَه أن يمتصّ من دم الإنسان إلى أن ينشقّ ويموتَ، أو يمتصّ إلى أن يَعجِزَ عن الطيران. ومن عجيب أمره أنه ربّما قتل البعيرَ وغيرَه من ذوات الأربع، فيبقى طريحاً

(١) القند: عسل قصب السكر.
(٢) الدعاميص: واحده دعموص، وهو دويبة، أو دودة سوداء تكون في الغدران إذا نشّت.

في الصحراء فيجتمع حوله السّباعُ والطيرُ التي تأكل الجِيفَ، فمن أكل منها منه مات لوقته في موضعه. ويقال: إنّ بعضَ جبابرة الوُلاة بالعراق كان يقتلُ بالبعوض، فيأمر بمَنْ يريد قتلَه أن يُجَرَّدَ من ثيابه ويُرْبَط ويُخْرَجَ إلى بعض الآجام التي بالبطائح(١) فيوجد في أسرعِ وقتٍ عظاماً عاريةً من جلدٍ ولحم.

وقال الجاحظ: بَعوضُ البطائح كَجرَّارات(٢) الأهواز وعقاربِ شَهْرَزُور. وربمّا ظَفِرَ بالسكران النائم فلا يُبقي فيه إلاّ العِظامَ العارية.

وقد أكثر الشعراء في وصف البَعوض؛ فمن ذلك قولُ فرج بن خَلَف الأندلسيّ:

بعوضٌ جَعَلْنَ دمي قهوةً ... وغنَّيْنَني بصنوف الأغانْ
كأنّ عُروقِي أوتارُهنّ ... وجسمي الرَّبابُ وهنّ القِيَانْ

وقال آخر: [من الرجز]

إذا البَعُوض زَجِلَتْ أصواتُها ... وأخَذ اللّحنَ مُغنّياتُها
لم تُطرِب السامعَ خافِضاتُها ... وأرّق العينين رافِعاتُها
صغيرةٌ كبيرة أذَاتُها ... تنفَضُّ عن بُغيتها بُغَاتُها
ولا يُصيب أبداً رُماتُها ... رامحةٌ خُرطومُها قَناتُها

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الهزج]

غِناءٌ يُسْخِن العينَ ... ويَنفِي فَرَحَ القلبِ
ولا يَأتي على الزَّمْرِ ... ولا يَجري مع الضربِ
غِناءُ البَقّ باللّيل ... يُنافِي طَرَب الشَّرْبِ
إذا ما طَرَقَ المَرْءَ ... جرى في طَلَقِ الكربِ
إذا ما نَقَب الجلدَ ... ةَ أَخْفَى أثَرَ النَّقبِ
سوى حُمْرٍ خَفِيَّاتٍ ... تُحاكي نُقَطَ الكُتْبِ

وأمّا البراغيثُ وَمَا قِيلَ فِيهَا ـ والبُرْغوث أسودُ أحدبُ. وهو من الحيوان الذي لا يَمْشي؛ وإنما أوردناه مع ذي الجَناح لأنه ذو وَثْبٍ لا يَقْصُر عن الطيران؛ ومنه أيضاً ما يمشي ولا يَثِبُ. وقالوا: إنه يُطيل السِّفادَ، ويبيض ويُفَرِّخ. وأصلُه متولِّد من التراب في المواضع المظلمة. وهو يكثرُ ويستطِيل ويؤذي في أواخر الشتاء وفصلِ الربيع. وإذا

---

(١) البطائح: واحدتها البطيحة، وهي المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى.
(٢) الجرارات: واحدتها الجرارة: عقيرب صفراء على شكل التينة، تجر ذنبها.

اشتدّ عليه الحرُّ هلك.

ومن جِناس الكلام فيه قولهم: أذى البراغِيث إذا ألْبَرى غِيث. يَعنُونَ بالبَرَى التراب إذا نزل عليه المطر.

والبرغوث يكمُن بالنهار ويظهر بالليل، ويتشدّ أذاه للإنسان إذا أخذَ مَضْجَعَه. وهو يطول لُبْثُه بمصر؛ ولا يُوجد في البلاد الحارّة مثل صعيد مصر ولا في البلاد الشديدة البرد.

وقد أكثر الشعراءُ في وصف البراغيث وأفعالها؛ فمن ذلك قولُ أبي الرَّمَّاح الأسديّ وكان قد سكن مصر: [من الطويل]

تَطاول بالفُسْطاطِ ليلِي ولم أكن ... بِحِنْوِ الغَضَى ليلي عليّ يطولُ[1]
يؤرّقني حُدْبٌ صغارٌ أذِلّةٌ ... وإنّ الذي يُوقِظْنه لذليلُ
إذا ما قتلناهنّ أضعفْنَ كثرةً ... علينا ولا يُنْعَى لهنّ قتيلُ
ألاَ ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً ... وليس لبرغوث إليّ سبيلُ

وقال العسكريّ من أبيات:

ومن براغيثَ تَنْفِي النومَ عن بصري ... كأنّ جَفْنيَّ عن عيني قصيرانِ
يَطْلُبن منّيَ ثأراً لستُ أعرفه ... إلاّ عداوة سودان لبيضانِ

وقال أبو الحسن أحمد بن أيّوب البصري المعروف بالناهي: [من المنسرح]

لا أعذُلُ الليلَ في تطاوُله ... لو كان يَدري ما نحن فيه نَقَصْ
لي في البراغيث والبعوض إذا ... يُلْحِفُنا حِنْدِسُ الظلام قَصَصْ[2]
إذا تَغَنّى بَعُوضُه طَرَباً ... ساعد برغوثه الغِنا فَرَقَصْ

وقال عبد المؤمن بن هبة الله الأصبهانيّ:

بات البراغيثُ في الفراش معي ... تَقْسِمُني قسمةَ المواريث
أكلني بعد ما شَربن دمي ... فَمَنْ مُغيثي من البراغيثِ

وقال أيضاً فيها: [من السريع]

إنّ البراغيثَ إذا ساوَرت ... مَن كِنّها ترقُص أو تَقْرُصُ
وكلّما غنّت بَعُوضٌ لها ... فهي على شُرْب دمي أحرصُ

---

(١) الغضى: شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زماناً طويلاً لا ينطفىء.
(٢) الحندس: الليل الشديد الظلمة.

تَـقْـفِـز مـن ثَـمّ إلـى هـا هـنـا   كـأنـهـا زِنـجـيّـة تَـرْقـصُ

وقال عبد الله بن عبد الرحمٰن الدِّيَنَوريّ:

وحُـمْـش الـقـوائـم حُـدْب الـظـهـورِ   طـرَقْـن فِـراشِـي عـلـى غِـرَّةِ
ويـنْـقُـطْـنَـنـي بـخـراطـيـمـهـنّ   كـنَـقْـط الـمـصـاحـف بـالـحُـمْـرة

وقال ٱبن المعتزّ:

وبـراغـيـثَ إن ظَـفِـرْنَ بـجـسـمـي   خِـلْـتَ فـي كـلّ مـوضـع مـنـه خـالا

وأمّا الحُرْقُوصُ ومَا قِيلَ فيهِ ـ فقد ذكره الجاحظ في كتاب الحيوان فقال: وزعموا أنه دُوَيْبّة أكبرُ من البرغوث؛ وأكثرُ ما يَنْبُت لها جَناحانِ بعد حين. وعَضّةُ الحُرْقوص أشدُّ من عَضّةِ البرغوث. قالوا: والحرقوصُ يُسمَّى النُّهَيْكَ. وأكثرُ ما يَعَضّ أَحْرَاحَ[١] النساء وخُصَى الرجال. قال أعرابي وقد عَضّ الحرقوصُ خصيتيه:

لـقـد مـنـعَ الـحَـرَاقِـيـصُ الـقَـرَارا   فـلا لـيـلاً نَـقِـرّ ولا نـهـارا
يُـغـالِـبْـن الـرجـالَ عـلـى خُـصـاهُـمْ   وفـي الأَحْـراحِ دَسّـاً وٱنـجِـجـارا

وقالت امرأة تشير إلى زوجها:

يَغَار من الحُرْقوص إن عَضّ عَضّةً   بـفَـخْـذَيَّ مـنـهـا مـا يـجـدّ غَـيُـورُ
لـقـد وقَـع الـحـرقـوصُ مِـنّـي مـوقِـعـاً   أرى لَـذّةَ الـدّنـيـا إلـيـه تَـصـيـر

البَابُ السَّابعُ
مِنَ القِسْمِ الخَامِسِ مِنَ الفَنِّ الثالثِ
فِي أنواعِ الأسماكِ

قال ٱبن أبي الأَشْعث: السمكُ يَستَنْشِقُ الماءَ بأصداغه فيقوم له مقَامَ الهواء للإنسان. والسمكُ كلُّه شَرِهٌ كثيرُ الأكل، وحاسّةُ السمع والشمّ فيه أقوى منها في الإنسان. وٱستدل على ذلك بأدلّة يطول شرحها. وحاسّةُ البصر فيه ليست كالسمع والشمّ وإنما أضعف. ولسانُه غليظ قصير شبيه باللسان وليس لساناً. وله أضراس ليست للمضغ عليها وإنما لقتل ما يفترسه من حيوان الماء ويفرغ فيه سُمّاً يكون سبباً لقتله. وصَغار السمكِ تحترز من كباره بأن تطلب الماءَ القليل الذي لا يحمِل الكبارَ.

وٱختلف الناس في سِفاد السمك، فالأكثرُ على أنه يسفِدَ مثلَ الحيّة. وقال

(١) أحراح: واحدتها حرح، وهو الحر، أي حر المرأة (اللسان مادة حرح).

الجاحظ: وفي السمك القواطعُ والأوابدُ كالطير. ومن أصناف السمك ما هو في شكل الحيّات. قال: وهي إما أن تكون كانت بَرِّيَّة أو جَبَليّة فاكتسحتها السيولُ وألقتها في الماء الدائم فتوالَدَتْ فيه؛ وإما أن تكون أمهاتها وآباؤها من دوابّ الماء.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا في الأدوية المفردة: أفضلُ السمك في جثّته ما كان ليس بكبير جداً ولا صُلْب اللحم ولا يابسه، ولا دُسُومة فيه كأنه يتفتّت، والذي لا مُخَاطيّة ولا سُهُوكة فيه وطعمُه لذيذ، فإن اللذيذَ مناسبٌ، وما هو دَسِمٌ دسومةً غيرَ مُفرطةٍ ولا غليظةٍ ولا شحميَّةٍ ولا حِرِّيفَة، والذي لا يُسْرِع إليه النَّتْن إذا فُصل عن الماء. ويُختار من السمك الصُّلْبِ اللحمِ ما هو أصغر، ومن الرَّخْصِ اللحم ما هو أكبرُ إلى حدٍّ مّا. وصُلْبُ اللحم مملوحاً خيرٌ منه طَرِيّاً. وأمّا في الأجناس فالشَّبَابِيطُ أفضلُها، ثم البِنِّيّ، والبِياح البحريُّ لا بأس به. وأما في مأواه فالذي يأوِي الأماكنَ الصخريّةَ ثم الرمليّةَ والمياه العَذْبَة الجارية التي لا قَذَر فيها ولا حَمْأة وليست بِطَيحيّة[١] ولا نَزِّيَّة ولا من البحيرات الصغار التي لا تَسقيها الأنهارُ ولا فيها عيونٌ. قال: والسمكُ البحريّ محمودٌ لطيف، وأفضلُ أصنافه الذي لا يكون إلا في البحر واللُّجة. والذي يأوِي ماءً مشكوفاً ترفرفُ الرّياحُ عليه أجودُ من الذي بخلافه. والذي يأوِي ماءً كثير الاضطراب والتموّج أجودُ من الذي يأوِي الماءَ الراكدَ. والسمكُ البحريّ لطيف اللحم لا سيما إذا كان مأواه في الشطوط صخراً أو رملاً، والذي يصير من البحر إلى أنهارٍ عذبةٍ يعارض جِريَةَ الماء بالطبع لطيفٌ كثيرُ الرّياضة.

وأمّا غِذاؤه، فالذي يغتذي بالحشيش وأصولِ النبات خيرٌ من الذي يغتذي الأقذارَ التي تُطرح من البلاد إلى المستنقعات. وأفضلُ ما يُؤكل السمك اسفيدباجا[٢] ثم المشويّ على الطّابَق. وأما المَقلِيّ فيصلُح لأصحاب المِعَدِ القويّة ومعه الأبازير[٣]. والمشويُّ أغذَى وأبطأ نزولاً، والمطبوخُ بالضدّ. وأفضلُ طبيخه أن يُطبَخ الماء حتى يَغْلي ثم يُلقَى فيه.

وأمّا المالحُ، فخيرهُ ما كان طريّاً قريبَ العهد بالتمليح. وأحمَدُهُ المَمْقُور[٤] بالخلّ والتَّوَابِل.

وأمّا طبعُه، فجميعُ السمك باردٌ رطبٌ، لكن بعضه أسخنُ بالقياس إلى مِزاج

(١) البطيحية: نسبة إلى البطيحة، وقد تقدم تفسيرها.
(٢) الأسفيدباج: نوع من طعام السمك.
(٣) الأبازير: التوابل التي منها الكسبرة والمصطكا والفلفل وغيرها.
(٤) الممقور: المنقوع.

السمك مثل الكَوْسَج(١) والمارماهيج(٢).

وأمّا أفعالُه وخواصُه، فالطّريّ منه يولِّد البلغمَ المائيَّ مُرْخ للأعصاب، غيرُ موافقٍ إلا لِلمَعِدَة الحارّة جدّاً. قال: وجِلدُ السمك المعروف «بسيفَيانوس» في ناحية بيت المقدس إن ذُرّ رمادُ جلده في عيون المواشي أذهبَ بياضَها. والمالحُ من أصناف السمك يُخرج السّلاَّء(٣) من المنَاشب(٤). قال: ورأس «سماريس» مُحْرَقاً يَقْلَعُ اللحمَ الزائدَ في القروح ويمنع سَعَتَها ويَقلَع الثآليلَ والّيوث. وماء السمك المالح ينفع من القروح العَفِنَةِ ويغسِلها. قال: وإذا احتُقِن بِسُلاقة المالح مراراً نفَع من وجه الوَرِك. والسمكُ الصغار الذي تسمّيه أهلُ الشام ومصر «الصِّيرَ» إذا تمضمض صاحبُ القُلاَع(٥) الخبيثِ بالمُرّيّ الذي يُتّخذ منه نفعه، و«الرّعّاد» الحيّ إذا قُرّب من رأس المصدوع أخدَره عن الحسّ بالصداع. قال: وجلد «سيفيانوس» تُحَكّ به الأجفانِ الجربةُ فينفع، وجلدُه المحرَقُ أيضاً يدخل في أوديةِ العين؛ ويُذهِب الاكتحال به مع الملح الظَّفَرَةَ(٦) وأكلهُ مَقليّاً يورث غِشاوَة العين بل جميعُ السمك؛ ورؤوسُ السَّمَكَات المملوحة المجفَّفة تنفع اللَّهَاةَ(٧) الوارمةَ، وعلاجٌ جيّدٌ من شُقَاقِ المقعدة. وغِراءُ السمك يُلْقَى في الأَحْسَاءِ فينفَع نَفْثَ الدّم. قال: وحَوْصَلةُ سيفيانوس تُلَيِّن البطن مع صعوبة انهضامها. قال: ورأس المالح من سماريس مُحْرَقاً يُجعل على عضّة الكلبِ الكلبِ ولسعةِ العقرب فينفع ذلك، وكذلك كلّ سمكةٍ، ومرقةُ كلّ سمكٍ تنفع من السموم المشروبة والنُّهوش. قال: والسمك ينفع من عُسْر النَّفس والرَّبْو واليَرَقَان ويسهِّل البلغمَ وينفع من خُنَاق الرَّحِم.

وقد وصف الشعراء السمكَ في أشعارها؛ فمن ذلك قول ابنِ الرُّومي يخاطب رئيساً ويستدعي منه سمكاً: [من الكامل]

عَسُرَتْ علينا دعوةُ السَّمَكِ ... أنّى وجُودك ضامِن الدَّرَكِ
اعلم وُقِيتَ الجهلَ أنك في ... قَصْرٍ تَلَتْه مطارحُ الشَّبَك

(١) الكوسج: نوع من السمك له خرطوم كالمنشار.
(٢) المارماهيج: هو حوت طويل.
(٣) السلاء: شوك النخل، الواحدة سلاءة.
(٤) المناشب: جمع منشب، وهو اسم مكان من النشوب.
(٥) القلاع: قرحة تكون في جلدة الفم واللسان مع انتشار واتساع.
(٦) الظفرة: جلدة تنبت عند المآقي وقد تمتد إلى السواد، متغشية.
(٧) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق.

وبـنـات دِجْـلَـةَ فـي فِـنـائـكـم مـأسـورةٌ فـي كـلِّ مُـعْـتَـرَك[١]
بِـيـضٌ كـأمـثـال الـسـبـائـك بـل مشحونةٌ بالشحم كالعُكَكِ[٢]
حَسُنَتْ مناظرُها وساعَدَها طعم كَحل مَعَاقِدِ التِّكَكِ[٣]
فلْيَضْطَدِ الصيّادُ حاجَتنا يَضْطَدْ مودَّتَنا بلا شَرَكِ

وقال أبو الفتح كُشَاجم: [من الطويل]

ومحجوبةٍ بالماء عن كل ناظرٍ ولكنها في حَجْبها تُتَخَطَّفُ
أخذنا عليهنّ السبيل بأعيُنٍ رواصِد إلاّ أنّها ليس تَطْرِف
فجئنا بها بِيضَ المتونِ كأنّها خَناجِرُ في أيمانِنا تَتعطَّف

وقال أبو عُبَادة البُحْتُرِيّ وذكر بركةً:

لا يبلغُ السمكُ المقصورُ غايتَها لِبُعدِ ما بين قاصِيها ودانِيها
يَعُمْنَ فيها بأوساطٍ مجنَّحَةٍ كالطير تنفُضُ في جَوٍّ خَوَافِيها

وقال أبو طالب المأمونيّ في المَقْلِيّ منه: [من السريع]

ماوِيّةٌ فِضّيّةٌ لحمُها ألذُّ ما يأكلُه الآكِلُ
يضمّها من جلدها جَوْشَنٌ مُذَيَّلٌ فهو لها شامِلُ[٤]
لَوّنتُ من فِضّتها عسجداً بالقَلْي لما ضافني نازِل

وقال أيضاً:

مائيّة في النار مَضْلِيّةٌ يُصْبَغُ من فِضّتها عَسْجَدُ
كأنّما جلدتُها جَوْشَنٌ مُزَرْفَنُ الصَّنْعةِ أو مِبْرَدُ[٥]

وقال عطاءُ بن يعقوب يصِف سمكةً من رسالة يَستدعي بها صديقاً، جاء منها: «قد أهدى لنا صديق سمكة، قد لبِست من جلدها شبكة؛ تُشبِه حَمَلا شَكْلاً وقَدّاً، أو جِراباً قد آمتلأ زُبْداً؛ كأنها أرادت أن تحارِبَ نجمَ السِّماك، أو حُوتَ الأفلاك؛ فلبِست من جلدها جَوْشناً مزرَّداً. وسَلّت من ذنَبها سيفاً مجرّداً».

(١) قد يراد بـ «نبات دجلة»: السمك.
(٢) العكك: جمع عكة، وهي وعاء من الجلد للسمن.
(٣) التكك: واحدتها تكة، وهي رباط السراويل.
(٤) الجوشن: الدرع.
(٥) الزرفين: حلقة الباب.

وقال خالد بن صفوان ليزيدَ بن المهلَّب يصف سمكاً: «أتيتُ ببناتِ بيضِ البطون، زُرْقِ العيون، سُودِ المتون، حُدْبِ الظهور، مُعَقَّفَاتِ الأذناب، صِغارِ الرؤوس، غِلاظ القَصَر[1]، عِراضِ السُّرَر».

هذا ما ٱتفق إيرَادُه في السمك المُطْلَقِ. فلنذكر أصنافاً من أنواع الأسماك.

ذكرُ شيءٍ مِنْ أَنواعِ الأَسْمَاكِ

وأنواعُ الأسماكِ كثيرةٌ جدّاً، منها ما يعرِفه الناسُ، ومنها ما لم يعرفوه، ومنها ما يكون في أماكنَ من البحار دون غيرها. وقد ذهب بعضُهم أنّ كلّ حيوان في البرّ يكون مثلُه في البحر. فلْنُورِد في هذا الفصل ما أمكن إيرادُه، وهو الدُّلْفِين، والرَّعاد، والتِّمساح، والسَّقَنْقُور، والسُّلَحْفَاة، واللَّجاَةُ، والفرس النهريّ، والجندبيدستر والقُنْدُس، والقَاقُم، والضِّفَادِع، والسَّرَطانُ، وشيءٌ من عجائب الحيوان المائيّ، على حكم الاختصار حيث تعذّر الاستيعاب.

فأمّا الدُّلْفِين ـ وهو كالزِّقّ المنفوخ، وله رأس صغير جدّاً، وهو يُوجد في بحر النيل يَقذِفه البحرُ المِلْحُ إليه. ويقال: ليس في دوابّ البحر ما له رئةٌ غيرُه، فلذلك يُسمع له التنفُّس والنَّفخُ، وهو إذا ظفِر بالغريق كان أقوى الأسباب في نجاته؛ فإنه لا يزال يدفعه إلى البرّ حتى ينجيه. وهو من أقوى الدوابّ المائيّة. ولا يؤذِي ولا يأكل غيرَ السمكِ. وربما ظهر على وجه الماء وهو نائم كالمَيّت. وهو يَلِد ويُرضِع. وأولادُه تتبعه حيث ذهب؛ ولا يَلِد إلاّ في الصيف. وفي طبعِه الأُنْسُ بالناسِ وخصوصاً الصبيان. وإذا صِيد جاءت الدّلافين لقتال صائده، فإذا أطلقه لها ٱنصرفت. وأهلُ المراكب في البحر الفارسيّ إذا رأَوه ٱستبشروا به وأيقنوا ببلوغ الأرب سيّما الغُزاة.

وأمّا الرَّعَادُ ـ ويكون في نِيل مصر، ولم أسمع به في غيره. وفيه من الخاصيّة لأنه لا يستطيع أحدٌ من الناس أن يمَسّه. ومتى وضعَ الإنسانُ يدَه عليه نزعها بحركته وصاح صيحةً مُنْكَرَةً، ربما دَهِش الإنسان لها؛ ويجد الرجلُ في فؤاده خَفَقَاناً من ذلك. وهو متى وقع في شبكة الصيّاد ٱرتعدت يداه عند إخراج الشبكة من الماء أو جذب الحبل، فيعلم أنه قد وقع له السمك الرَّعّاد.

وأمّا التِّمساحُ ـ وهو أيضاً لا يكون إلا في نيل مصر؛ وزعم قوم أنه يوجد في مِهران السِّند[2]، لِزعمهم أنه من النيل. وهو شديدُ البطش في الماء، وهو يعظُم إلى أن

---

(١) القصر: جمع قصرة، وهي أصل العنق.

(٢) مهران السند: نهر عظيم بالسند تجري فيه السفن ويسقي بلاداً كثيرة ويصب في البحر عند الديبل.

ينتهي في الطول إلى عشرين ذراعاً في عرض ذراعين. ويفترِس الفرسَ والإنسانَ. ولا يَقْوَى على قتاله من الحيوان إلاّ الجاموس. وله يدان ورجلان وذَنَب طويل يضرِب به ويَلُفّ. وهو لا يُصاد إلاّ أن يُضرب في إبطيه، ومنهما مقتلُه، ويقال: إنه إذا أراد السِّفَاد، خرج هو والأنثى إلى البرّ فيقلِبها على ظهرها ويستبطِنها، فإذا فرَغ قلَبها لأنها لا تتمكن من الانقلاب لِقِصَر يديها ورِجليها ويُبْس ظهرها. وهي تبيض في البرّ، فما وقَع في الماء صار تمساحاً وما بقِي في البرّ صار سَقَنْقُوراً. والتِّمساحُ يحرّك فكّه الأعلى دون الأسفلِ، ولسانُه معلَّقٌ به. ويقال: إنه ليس له مَخرَجٌ، وإنّ جوفَه إذا امتلأ خرج إلى البرّ وفتح فَمه فيجيء طائرٌ صغير أرْقَطُ فينقُر بمنقاره ما في جوفه ويُخرجه، وذلك غِذاء الطائر وراحةٌ للتمساح وفي رأس هذا الطائر شوكةٌ فإذا غلّق التمساحُ فَمه عليه نَخَسه بها فيفتحه. ويقال: إن للتمساح ستين سنّاً وستين عِرْقاً، ويسفِدَ ستين مرّةً، ويَبِيض ستين بيضةً. ويُوجد في جِلْده ممّا يلي بطنَه سِلْعة[1] كالبيضة فيها رطوبةٌ لها رائحةٌ كالمسك، وتنقطع رائحتُها بعد أشهر.

ووصَفه شاعرٌ فقال: [من الطويل]

وذِي هامةٍ كالتُّرْس يَفْغر عن فَمِ ... يُضَمّ على مثلِ الحُسَامِ المثلَّمِ
ويَفْتَرُّ عن مثل المَنَاشِير رُكِّبت ... على مِشْفَرٍ مثلِ القَلِيبِ المُهَدَّمِ
مَشى في شَوَاةٍ من فَقَارة غَيْلَمٍ ... وسَقَّفَ لحياً عن مناكب شَيْهَمِ[2]

وأمّا السَّقَنْقُور ـ ويمسى الحِرْذَوْنَ البحريّ. ويقال: إنه ورَلٌ مَائيٌّ. ومنه ما هو مصريّ، وما هو هنديّ، وما يتولّد في بحر القُلْزُم وببلادِ الحبشة، وهو يغتذِي في الماء بالسمك وفي البرّ بالقَطَا. وأنْثاه تبيض عشرين بيضةً وتدفِنها في الرَّمل، فيكون ذلك حضنَها. وجِلدُه خَشِنٌ مُدَبَّج بالسواد والصفرةِ. وهو إذا عضّ إنساناً وسَبقه الإنسان إلى الماء فاغتسل منه مات السقنقورُ؛ وإذا سبَق السقنقورُ الإنسانَ إلى الماء مات الإنسانُ. وبين السقنقورِ وبين الحيّة عداوةٌ عظيمةٌ، متى ظفِر أحدهما بصاحبه قتله.

وقال الشيخ الرئيس: أجودُ السقنقور ما صِيد في الرَّبيع وقتَ هيجانِه. وأجودُ أعضائه السُّرّة، وهو ينفع من العلل الباردة في العَصَب. ومِلحُه يَهيج الباهَ فكيف لحمُه، وخصوصاً لحمُ سُرَّتِه وما يلي كُلْيَتَيْه وخصوصاً شحمها.

وأمّا السُّلَحْفَاةُ واللَّجَاةُ ـ يقال: إن اللَّجَاة تبيض في البرّ، فما أقام به سُمّي

---

(١) السلعة: زيادة تحدث في الجسد كالغدة.
(٢) الغيلم: السلحفاة الذكر ـ والشيهم: ذكر القنافذ أو ما عظم شوكه من ذكورها.

سُلَحْفَاةَ، وما وقع في البحر سُمّي لَجَأَةَ. فأمّا ما يبقى في البرّ فإنه يعظُم حتى لا يكاد الرجلُ الشديد يحمِله. وقد رأيتُ في سنة سبع وسبعمائة بالقاهرة المُعِزّيّة سُلَحْفَاةَ تَحمِل الرجلَ وتمشِي به وهو قائم على ظهرها. وما ينزِل البحرَ يعظُم حتى لا يكاد الحمار يحمِله، وربما وُجِد منها ما زِنتُه أربعُمائةِ رِطلٍ. وتبيض أُنْثاه أربعمائةِ بيضة. وهي تحضُن بيضها بالنظر إليه والرَّصْدِ له لا غيرُ. وللذّكَر نِزْكانِ وللأنثى فرجانِ. والذكرُ يطيل المُكْثَ في السِّفاد. والعرب تَكنِيها «أمّ طَبَقٍ». ويزعمون أنها تبيض تِسعاً وتسعين بيضةً، وتَبيضُ تمامَ المائةِ بيضةً يخرج منها أسود (أي ثعبان). وهو مولَعٌ بأكل الحيّات؛ وإذا أكل الأفعى أكلَ صَعْترا جَبَلِيّاً؛ فإذا أكثر من أكل الحيّات والصَّعْتَرِ هلَك. وله تحيُّلٌ فيما يصيده من الطائر، وهو أنه يصعَد من الماء ويتمرّغ في التراب ويأتي موضِعاً قد سقط الطيرُ عليه ليشربَ، فيَخْفَى على الطير بكُدْرةِ لونِه التي اكتسبها من الماء والتراب، فيصيد منها ما يكون له قوتاً ويدخل به الماءَ فيموت الطائرُ فيأكله.

ووصفها شاعر فقال: [من مجزوء الرجز]

وسُلحفاة تَمِج سكونُها والحَرَكَهْ
شَبّهتُها بِدَيْلَمِيٍّ ساقِطٍ في معركهْ
مُستَتِرٍ بتُرسِه عمّن عسى أن يُهلِكَهْ

وقال أبو بكر الخُوَارَزْمِيّ يصف لَجَأَةَ: [من الخفيف]

بِنتُ ماءٍ بَدتْ لنا من بعيدٍ مثل ما قد طوى البحاريّ سفرهْ
رأسُها رأسُ حيّة وقَرَاها ظهرُ تُرس وجِلدُها جِلدُ صَخْرهْ(١)
مثلُ فِهْرِ العَطّارِ دُقّ به العَطْـ ـرُ فحَلّت طرائقُ الطِّيب ظهرَهْ(٢)
يقطع الخوفُ رأسها فإذا ما أمِنَتْه فرأسُها مستَقَرّه

وقال آخر: [من المتقارب]

لحى الله ذاتَ فم أخرسٍ تُطيل من العِيّ وسْوَاسَها
تَكُبّ على ظهرها تُرسَها وتُظهِر من جِلْدِها فاسَها(٣)
إذا الحِذْرُ أقلق أحشاءَها وضيّق بالخوف أنفاسَها
تَضُمّ إلى نَحْرِها كفّها وتُدْخِل في جوفها رأسَها

(١) القرا: الظهر.
(٢) الفهر: الحجر الرقيق الذي تسحق به الأدوية.
(٣) الفأس: طرف مؤخر الرأس المشرف على القفا.

وأمّا الفرسُ النَّهْرِيُّ ـ وهو عظيم الجثة، وخَلْقه خلقُ الفرسِ؛ إلا أنّ وجهه أوسعُ؛ وله أظلافٌ كالبقرة؛ وذنبُه مثلُ ذنبِ الخِنزير؛ وصوتُه يُشبه صوتَ الفرس، وهو لا يوجد إلاّ في نيل مصر. وهو يخرج من الماء إلى البرّ، ويرعَى الزرعَ، وإذا قصد الزرع لا يبتدىء من أوّله، ولكنه يجوز منه قطعةً بقدر ما يأكل ويبتدىء منها بحيث يكون وجهُه إلى البحر، وهو يقتل التمساحَ ويَقْهَره. وأهلُ الديار المصريّةِ إذا رأوا أثَرَ حافره في البرّ تباشروا بزيادة النيل وكثرةِ الخِصْب. وفي سنة ٱثنتين وسبعمائةِ طَلع الفرسُ النهريُّ إلى البرّ بالجيزة وأَبعد عن البحر، فتُحيِّل عليه وقُتِل. وأهلُ النُّوبةِ يَصيدونه كثيراً، ويتّخذون من جلده سِياطاً يسوقون بها الإبل.

وأمّا الجندبيدستر ـ وهو السَّمُّور، ويسمى «كلبَ الماء». ولا يُوجد إلا ببلاد القفجاق[1] وما يليها. وهو على هيئةِ الثعلبِ، أحمر اللّون، لا يدانِ له، وله رِجلانِ وذنَبٌ طويل، ورأسُه كرأس الإنسان، ووجهُه مستديرٌ. وهو يمشي متّكئاً على صدره كأنه يمشي على أربع، وله أربعُ خُصًى: ثِنتان ظاهرتانِ وثِنتان باطنتانِ. وهو إذا رأى الصيّادين يَجِدّون في طلبه لأجل الجندبيدستر، وهو خُصْيَتَاه الظاهرتانِ، قطعهما بفيه ورمى بهما إليهم؛ إذ لا حاجة لهم إلا بهما. فإن لم يرهما الصيّادون وداموا في الجِدّ في طلبه ٱستلقى على ظهره ليُريَهم الدَّم، فيعلمون أنه قطعهما فينصرفون عنه، وهو إذا قطع الظاهرتيْن ظهر الباطِنتانِ وعوّض عنهما غيرهما. وفي داخل الخصية شِبهُ الدَّم أو العسلِ زهِم الرائحة سريعُ التفرُّك إذا جفّ. ويقال: إنه يُوَكِّرُ[2] على الأرض، ويُولِد عليها ويَرعى فيها، ويهرُب إلى الماء ويعتصم به؛ ويُمكنه أن يَلْبَثَ في قعره حابساً لنفسه زماناً ثم يخرج إلى الهواء.

وأمّا حيوانُ القُنْدُس والقَاقُم ـ فالقُنْدُس يغتذِي بالسمك والنّبات. ويقال: إنّ فيه سادةً وعبيداً، وإنه يتّخذ مساكنَ مرتَّبةً على ترتيبِ مساكنِ الناسِ. والسادةُ يتّخذون في بيوتهم صُفَفاً[3] مرتفعةً يكونون عليها، وفي أسفلها مواضعَ للعبيد، ولبيوتهم أنْفاقاً إلى البَرّ وأبواباً إلى النهر. وبعضُ هذا الحيوان يُغِير على بعض. والسادةُ لا تتكسّب وإنما يتكسّب لها العبيدُ، ويُعرف جِلْدُ السيّد من جِلْد العبد بحسن لونه وبَصِيصه[4]. وأهلُ تلك البلاد يسلخُون خراطيمَ القُنْدُس والسَّمُّور ويتعاملون بها كما يُتَعَامَلُ بالدّنانيرِ

(١) القفجاق: قوم كانوا يعرفون بالخفشاخ إلى بلاد القسطنطينة، وكان لهم ملوك كثيرة في بلاد المغرب. (تقويم البلدان ص ٢٠٦).

(٢) يوكّر: أي يتخذ وكراً.

(٣) الصفّة من البنيان: شبه البهو الواسع.

(٤) البصيص: البريق واللمعان.

والدراهم بحيث يكون عليها خَتْمُ الملك. وجِلْدُ هذا الحيوان هو الذي يُعْمَل شَرابِيشَ[(١)] الأمَراء وأطواقَ التَّشاريف ودوائرها.

والقَاقُم: حيوان يُشبه السِّنجابَ إلاّ أنه أبردُ منه وأرطبُ؛ ولهذا هو أبيضُ يَقَقٌ. وهو يُجلَب من بحر الخَزَر. وجلدُه يُشبه جلدَ الفَنَك[(٢)].

وَأَمّا الضَّفَادِعُ ـ وهي أصناف كثيرة، تكون من سِفادٍ وغيرِ سِفادٍ. وهي تبَيض في البرّ وتعيش في الماء. والذي من غير سِفادٍ يتولّد من المياه الضعيفةِ، ومن العُفُونات، وغِبِّ الأمطار الغزيرةِ، حتى يتوهّمَ المتوهِّم أنه يسقط من السَّحَاب لكثرةِ ما يُرى منه على الأسطِحةِ عَقِيبَ المطرِ. ويقال: إنه يُخلق في تلك الساعة.

والضِّفْدع من الحيوان الذي لا عظمَ له. وفيه ما يَنِقُّ وما ليس يَنِق. وليس صوتُ ما يَنِقُّ من فِيه ولكنه من جلودٍ رِقَاقٍ تكون إلى جانبِ أُذُنيه؛ فإذا أراد النقيق ٱنفتحت فيخرُج الصوتُ منها. وهي تَنْطَبِق في زمن الشتاء فلا تَنْفَتِح حتى يعتدلَ الجوّ.

قال الجاحظ: والضِّفْدَعُ لا يَصيح ولا يُمكِنه الصياحُ حتى يُدخِلَ حَنَكَه الأسفلَ الماءَ، فإذا صار في فِيه بعضُ الماء صاح؛ ولذلك لا تَسمع للضفادع نَقِيقاً إذا كنّ خارجاتٍ من الماء. قال: والضفادع تَنِقُّ، فإذا أبصرت النار أمسكتْ، وتُوصف بحدّة السمع إذا كانت خارجَ الماء. ويُضرب بها المثلُ في السمع والحذر، فيقال: «أحذَرُ من ضِفْدَع» و«أسمعُ من ضِفْدَعٍ». وقال شاعر يصف الضفادعَ:

وَمُـقْـعَـداتٍ زانَـهـنّ أرْجُـلُ   كـقِـعْـدةِ الـنـاكـحِ حـيـن يُـنْـزِل

* يُـكْـسَـيْـن وَشْـياً وعـيـونٌ تُـكْـحَـلُ *

وقال آخرُ: [من المنسرح]

دَعَـتْـك فـي فـاضَـةٍ مُـدَنَّـرةٍ   لـيـس لـهـا طُـرَّةٌ ولا هُـدُبُ[(٣)]

قـد نُـسِـجَـتْ مـن زَبَـرْجـدٍ فـجَـرَى   بـيـن تَـضَـاعِـيـفِ نَـسْـجِـهـا الـذّهَـبُ

يـظَـلّ صَـمْـتـاً نـهـارَه فـإذا   أدركـه الـلـيـلُ بـاتَ يَـصْـطَـخِـبُ

وهـو وإن لـم يُـغَـطّ مـقـلَـتـه   جـفـنٌ ولا ٱمـتـدّ خَـلْـفَـه ذنَـبُ

يُـعـجِـبُـنـي مـا أراه مـنـه فَـفِـي   خِـلْـقَـتِـه وٱخـتـلافِـهـا عَـجَـبُ

وأمّا السَّرَطَانُ وَمَا قِيلَ فِيهِ ـ وهو ذو فَكَّيْن وَمَخَالِبَ وأظفارٍ حِدادٍ، كثيرُ الأسنانِ،

---

(١) الشرابيش: جمع شربش، وهو هدب الثوب.

(٢) الفنك: دابة يؤخذ منها الفرو.

(٣) الفاضة: القميص الواسع البراق ـ ومدنره: أي يشبه وشيها الدنانير.

صُلْبُ الظَّهر، سريع العَدْو، وعيناه على كَتِفيه، وفَمُه في صدره، وفكّاه مشقوقانِ من جانبَين. وله ثَماني أرْجُلٍ. وهو يمشي على جانبٍ واحدٍ؛ ويَستنشق الماءَ والهواءَ معاً. وهو يسلُخ جلْده في السنة ستَّ مراتٍ، ويتّخذ بجُحْره بابين، أحدُهما إلى الماء والثاني إلى البرّ. فإذا سلخ جلده سدّ عليه ما يلي الماءَ خوفاً من السمك وترك ما يلِي البرَّ مفتوحاً؛ فإذا جفّتْ رطوبتُه وٱشتدَّ، فتح ما يلي الماءَ وطلب مَعاشَه.

قال شاعر يصفه: [من السريع]

فــي سَــرَطَــانِ الــمــاءِ أُعــجــوبــةٌ ... ظــاهــرةٌ لــلــخَــلْــق لا تَــخْــفَــى
مُــسْــتَــضْــعَــفُ الــمُــنَّــةِ لــكــنّــه ... أبــطَــشُ مــن حــاربــتَــه كَــفّــا
يُــسْــفِــر لــلــنــاظــر عــن جــمــلــة ... مــتــى مــشــى قــدّرهــا نِــصْــفــا

وقال أبو عُبَيْد البَكْرِيّ[1] في كتابه المترجم بالمسالك والممالك: إنّ ببحر الصين سَرَطَاناتٍ تخرج كالذراع والشبر؛ فإذا صارت إلى البرّ عادت حجارةً وٱنقلبت عن الحيوانيَّة؛ والأطباء يتخذون منها كحْلاً يجلو البياضَ.

ذكرُ شيءٍ من عَجَائِبِ الحَيَوانِ المَائِيِّ

وعجائبُ البحر كثيرةٌ لا يُستغرب ما نذكر منها؛ ولذلك قيل: «حدِّث عن البحر ولا حَرَج». وقد حكى صاحبُ كتاب مَبَاهج الفِكرِ ومَنَاهج العِبَرِ في كتابه، قال: رأيتُ في بعض المجاميع المجهولةِ أنّ في بعض البحار شاةً شَعْراءَ تكون في البرّ مع البهائم حين الرَّعْي؛ فإذا فرغت من رَعْيها عادت إلى الماء، وتأكل السمك. قال: وذكر لها خواصّ. قال: وذكر بعضُهم دابّة سمّاها «خَزّ الماء»، ولم يُسَمّ المكانَ الذي تكون فيه، وقال: إنها مثال ٱبنِ عِرْسٍ أو أكبرُ قليلاً، سِباحتُها في الماء كجَرْيها في البرّ، لها وبَرٌ ناعمٌ تُعمل منه ثِيابُ الخَزّ، وهذا الوَبَرُ موجودٌ تأتي به التّجّار من البحر الروميّ يُباع بالقاهرة، ويُسمُّونه صوفَ السمك؛ وهو أخضرُ اللّون؛ ويقال: إنه إذا طلع من البحر يكون أبيضَ يَقَقاً، فإذا صار إلى البرّ وأصابه النسيمُ ٱنقلب إلى الخُضْرة. وهم يَغزلونه ويُلْحِمُون به الثيابَ المُسَداةَ بالحرير، وقيمتُه لا تقصرُ عن قيمة الحرير وربما يزيد عليه. وأرخصُ ما ٱبتعتُه أنا حساباً عن وزن كلّ مائة درهم أربعين درهماً. وبه تُخْنَق الأفاعي بمصر، تُفتل منه خيوطٌ تُسمَّى إذا خُنِق بها الأفاعي حبالَ الخُنَاق، لها نفعٌ في تحليل مرض الخُنَاق.

---

(١) هو عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي المتوفى سنة ٤٨٧ هجرية، وكان مولده سنة ٤٣٢ هجرية. (كتاب التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه).

ويقال: إن ببحر الرّوم ـ وربما بغيره أيضاً ـ حيواناً يُسمُّونه «بناتِ الماء» يُشْبِهْنَ النساءَ، لهنّ شعورٌ سِبَاط، ألوانهنّ إلى السُّمرة، ذوات فروج عظام وثُدَيّ، ولهنّ قهقهة وضَحِكٌ وكلامٌ لا يُفهم، وربما يَقَعْنَ لأصحاب المراكب وغيرهم فينكحونهنّ فيجدون لنكاحهنّ لذّةً عظيمة ثم يعيدونهنّ إلى البحر. وفي البحر أيضاً أمثالُ الرجال، يقال: إنهم يظهرون بالإسكندرية وبالبُرُلّس ورَشِيد[١] في صورة الإنسان بجلودٍ لَزِجَةٍ لهم بكاءٌ وعويل إذا وقعوا في أيدي الناس؛ وذلك أنهم ربما بَرَزوا عن البحر إلى البرّ يتشمّسون فيقع بهم الصّيادون؛ فإذا سمع الناس بكاءَهم أطلقوهم رحمةً لهم.

البَابُ الثَّامِنُ
وَهُوَ الذَّيْلُ عَلَى القِسْمِ الخَامِسِ
مِنَ الفَنِّ الثَّالِثِ

ويشتمل هذا الباب على ذكر شيء مما وُصفت به آلاتُ الصيد في البرّ والبحر ووصفِ رُماةِ البندق، وما يَجري هذا المَجرى.

ذكرُ شيءٍ ممَّا قيلَ في رُماةِ البُندقِ ـ ومما وُصفت به الجُلاهِقُ[٢] وهو قِسِيّ البندق. من ذلك ما كَتب به أبو إسحاق الصّابي من رسالة إلى أبي الفرج محمد بن العباس بن فُسَابَخْش، جاء منها: «أقبلت رُفْقةُ الرُّماةِ قد بَرزت قبل الذُّرُور[٣] والشروق، وشمَّرتْ عن الأذْرع والسُّوق، مقلّدين خرائطَ شاكلت السيوفَ بحمائلها ونِياطَاتِها[٤]، وناسَبَتها في آثارها ونِكاياتها؛ تحمل من البُنْدُق المَلْمُوم، ما هو في الصحّة والاستدارة كاللؤلؤ المنظوم؛ كأنما خُرط بالجَهْر[٥]، فجاء كبنات الفِهْر[٦]؛ قد اُخْتِيرَ طينُه، ومُلِك عجينُه[٧]؛ فهو كالكافور[٨] المُصَّاعِد في اللّمس والمَنْظَرِ، وكالعنبرِ الأذْفَر في الشمّ والمَخْبَر؛ مأخوذٌ من خير مواطنه، مجلوبٌ من أطيب معادنه؛ كافلٌ

(١) رشيد: بليدة على ساحل البحر والنيل قرب الإسكندرية. (معجم البلدان لياقوت).
(٢) الجلاهق: قوس تتخذ من القنا، ويلف عليها الحرير وتغرّى. وفي وسط وترها قطعة دائرة تسمى الجوزة توضع فيها البندقة عند الرمي.
(٣) الذرور: ظهور الشمس أول شروقها.
(٤) النياط: الذي هو معلق القوس.
(٥) قد يراد بالجهر: الرابية الغليظة.
(٦) نبات الفهر: الحجارة الصغيرة.
(٧) ملك العجين: عجنه فأنعم عجنه وأجاده.
(٨) الكافور: صمغ شجر ولونه أحمر ملمع أو أسمر؛ وخشبه أبيض رخو يضرب إلى السواد.

بمطاعم حامِليه، مُحَقِّقٌ لآمال آمِليه؛ ضامنٌ لِحمام الحَمام، مُتَنَاوِلٌ لها من أبعد مَرَام، يعرُج إليها وهو سمٌّ ناقع، ويهبِط بها وهي رزقٌ نافع».

ومنها في وصف القسيّ: «وبأيديهم قِسِيٌّ مكسوةٌ بأغْشية السُّندس، مشتملة منها بأحسن مَلْبَس؛ مثل الكُماة في جَواشِنها ودُروعها، والجيادِ في جِلالها وقُطُوعها[١]؛ حتى إذا جُرِّدت من تلك المطارق، وأُنتُضِيَتْ من تلك المَلاحف؛ رأيت منها قُدوداً مُخْطَفةً[٢] رشيقة، وألواناً مُعْجِبة أنيقة؛ صُلْبَةَ المَكَاسِر[٣] والمَعَاجم، نجيبةَ المنابت والمَنَاجِم؛ خَطِّيةَ الأسماء والمنَاسب، سَمْهَرِيَّةَ الأعراقِ والمَنَاصب؛ رُكِّبت من شظايا الرِّماح الداعسة، وقرون الأوعال الناخسة[٤]؛ فحازت الشرفَ من طَرَفَيْها، وٱستولت عليه بِكِلْتا يديها؛ قد ٱنحنت ٱنحناءَ المَشْيخةِ النُّسَّاك، وصالت صِيالَ الفتية الفُتّاك؛ وٱستبدلت من قديمها في عزّ الفوارس، بحديثها من نفيس الملابس؛ وٱنتقلت من جِدّها في طِراد المَغارات[٥] إلى هَزْلِها في طَرْد المُسْهِرات[٦]؛ ظواهرُها صفرٌ وارِسه[٧]، ودواخِلُها سودٌ دامُسه؛ كأنّ شمسَ أصيلٍ طلعت على مُتونِها، أو جنحَ ليل ٱعتكر في بطونها؛ أو زعفراناً جرى فوق مناكبها أو غاليةً جَمَدت على ترائبها؛ أو قضبانَ فضة أُذْهِب شَطْرُها وأُحْرِق شطر، أو حَبّاتِ رَمْل ٱعتنق السودَ منها صفر».

وجاء منها في وصف الوتر:

«فلمّا توسّطوا تلك الروضة، وٱنتشروا في أكتاف تلك الغَيْضَة؛ وثَبَتَتْ للرَّمْي أقدامُهم، وشَخَصت للطير أبصارهم؛ وتَرُوها[٨] بكل وَتَرٍ فُوق[٩] سهمِه منه، وهو مفارقٌ للسهم وخارجٌ عنه؛ مُضَاعَفٌ عليها من وَتَرَيْن، كأنّه شخص ذو جسدين، أو عِناقُ ضمّ ضجيعين في وسطه عينٌ كشَرْجة كيسٍ مختوم، أو سُرّة بطنٍ خَميص مهضوم؛ تروعُ قلب الطير بالإنْبَاض، وتُصيب منها مواقعَ الأغراض».

(١) القطوع: جمع قطع، وهو ضرب من الثياب الموشاة.
(٢) المخطفة: الضامرة قليلة لحم الجنب.
(٣) يقال: فلان صلب المكسر والمعجم: إذا كان قوياً شديداً عند المختبر.
(٤) الوعل الناخس: الذي نخس قرناه استه من طولهما.
(٥) المغارات: جمع مغارة، وهي مصدر بمعنى الغارة.
(٦) الطرد: الصيد ـ والمسهرات: طيور يلتذ بها كل من يسمعها ويسهر عليها ولا يشتهي النوم من لذة سماعها.
(٧) الوارس: الأصفر.
(٨) وتره: أي أدركه بمكروه وأصابه.
(٩) فوق السهم: إذا وضع في الوتر ليرمى به.

وقال ضياءُ الدين بن الأَثيرِ الجَزَريّ من رسالة في وصف القسِيّ. وذكر الرُّماة، جاء منها:

«وإذا تناولوها بأيديهم قلتَ: أهلّةٌ طالعةٌ في أكُفّ أقمار، وإذا مُثِّل غَنَاؤها وغَنَاؤهم قلتَ: منا يا مسوقةٌ في أيدي أقدار، وتلك قِسِيٌّ وُضِعت لِلَّعب لا للنّضال، ولَرَدَى الطير لا لردى الرجال. فإذا نعتها ناعتٌ قال: إنها جَمَعَتْ بين وصْفَي اللين والصلابة، وصيغَتْ من نوعين غريبين فحازت معنى الغرابة؛ فهي مركّبةٌ من حيوان ونبات، مؤلّفةٌ منهما على بُعْد الشّتَات؛ هذا من سكان البحر وسواحله، وهذا من سكان البرّ ومجاهله، ومن صفاتها أنها لا تَتَمكّن من البطش إلا حين يُشتَدّ، ولا تنطلِق في شأنها إلا حين تُعْطَف وتردّ. ولها بناتٌ أُحكم تصويرُها، وصُحِّح تدويرُها؛ فهي في لونها صَنْدليّة الإهاب، وكأنها صِيغت لقوّتها من حجر لا من تراب؛ فإذا حَذَفها نحو الأطيار أحد، قيل: وتصعَد من الأرض من جبال فيها من بَرَد، فلا ترى حينئذٍ إلا قتيلاً بالمَقْتَل الذي لا يجب في مثله من قَوَد[١]؛ فهي كافلةٌ من تلك الأطيار بقبض نفوسها، ومُنزِلةٌ لها من السماء على أُمّ رؤوسها».

ومن إنشاء المولى الفاضل شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي الكاتب ـ أمتع الله ببقائه، وزاد في علوّه وارتقائه ـ رسالةٌ في رمي البندق، وصفَ فيها الرّماةَ، ومواضعَ الرَّمْي ووقتَه، والقِسيَّ، وأفعالَ الرُّماة، وجميعَ طير الواجب[٢]، لم أقف فيما طالعتُه لمتقدِّم ولا متأخِّر على أجمعَ لهذا الفن منها؛ وهي مما يستعين بها الكاتبُ على إنشاء ما يقصِده من قِدم البندق في أي نوع أراد من طير الواجب. وقد أوردتُها بجملتها؛ لحسن ٱلتئامها، وٱتساق نظامِها؛ وجودة ترتيبها، وبديع تهذيبها. وهي:

«الرّياضة ـ أطال اللّهُ بقاء الجناب الفلانيّ، وجعل حُبَّه كقلب عدوّه واجباً، وسعدَه كوصف عبدِه للمسارّ جالباً وللمضارّ حاجباً ـ تبعث النفسَ على مجانبة الدَّعَة والسكون، وتصونها عن مشابهة الحمائم في الرُّكون إلى الوكون[٣]؛ وتحضُّها على أخذ حظّها من كل فنّ حسن وتحثّها على إضافة الأدوات الكاملة إلى فصاحة اللَّسَن؛ وتأخذ بها طوراً في الجِدّ وطوراً في اللَّعِبْ، وتُصَرِّفها في مَلاَذّ السموّ في المَشاقّ التي يستروِح إليها التَّعِب؛ فتارةً تحمل الأكابر والعظماء في طلب الصيد على مواصلة

---

(١) القود: القصاص.

(٢) طيور الواجب: أربعة عشر طائراً وهي على ضربين: الضرب الأول طيور الشتاء.. والضرب الثاني طيور الصيف، أي التي يكثر وجودها فيه.

(٣) الوكون: جمع وكن، وهو عش الطائر في جبل أو جدار.

السُّرَى، ومقاطعةِ الكَرَى؛ ومهاجرةِ الأوطار، ومهاجمةِ الأخطار، ومكابدةِ الهواجر[١]، ومبادرة الأوابد التي لا تُدرَك حتى تبلغُ القلوبُ الحناجر، وذلك من محاسن أوصافهم التي يُذَمّ المُعْرِض عنها، وإذا كان المقصودُ من مثلهم جدَّ الحرب فهذه صورةُ لِعَب يُخرَج إليها منها؛ وتارةً تدعوهم إلى البروز إلى المَلَق[٢]، وتحدوهم في سلوك طريقها مع من هو دونهم على ملازمة الصدق ومجانبةِ المَلَق؛ فيَعْتَسفون إليها الدُّجى، إذا سَجَى؛ ويقتحمون في بلوغها حُرَقَ النهار إذا أنهار، ويتنعّمون بوعثاء السفر، في بلوغ الظَّفَر؛ ويستصغِرون ركوبَ الخَطَر، في إدراك الوَطَر؛ ويُؤثِرون السهر على النوم، وألليلةَ على اليوم، البندقَ على السهام، والوَحْدَةَ على الالتئام».

ولمّا عُدنا من الصيد الذي اتّصل بعلمه حديثُه، وشُرح له قديمُ أمره وحديثُه؛ تُقْنا إلى أن نَشفَع صيدَ السَّوانح برَمْي الصوادح، وأن نفعل في الطير الجوانح بأهلّةِ القِسِيّ ما تفعل الجوارح؛ تفضيلاً لملازمة الارتحال، على الإقامة في الرِّحال[٣]؛ وأخذاً بقولهم:

لا يُصلحُ النفسَ إذ كانت مُدَبِّرةً إلاّ التَّنَقُّلُ من حالٍ إلى حالِ

فبرزنا وشمسُ الأصيلِ تجود بنَفْسها، وتَسيرُ من الأُفُقِ الغربيّ إلى جانب رَمْسِها؛ وتُغازِلُ عيونَ النُّوَّار بمُقلة أرْمَدَ، وتنظر إلى صفحات الوردِ نظرَ المريض إلى وجوه العُوّد؛ فكأنها كئيبٌ أضحى من الفِراق على فَرَق[٤]، أو عليلٌ يقضي بين صَحْبه بقايا مدّةِ الرَّمَق؛ وقد أخضلّت عيونُ النَّوْر لوَداعها، وهمّ الروض بخلع حلّته المُموّهة بذهب شُعَاعِها: [من البسيط]

والطلُّ في أعين النُّوَّار تحسَبه دمعاً تحيَّر لم يَرْقأْ ولم يَكِفِ
كلُؤلؤٍ ظَلّ عِطْفُ الغصن مُتَّشِحاً بعِقْده وتَبَدّى منه في شَنَفِ[٥]
يُضَمّ من سندس الأوراق في صرر خُضْرٍ ويُخْبَا من الأزهار في صَدَف
والشمسُ في طَفَل الإمساء تنظر من طَرْفٍ غدا وهو من خوف الفِراق خَفِي[٦]

---

(١) الهواجر: جمع هاجرة، وهي نصف النهار في القيظ خاصة عند زوال الشمس مع الظهر، أو من زوالها إلى العصر، لأن الناس يسكنون في بيوتهم كأنهم قد تهاجروا.
(٢) الملق: الصفوح اللينة الملتزمة من الجبل، وقيل: هي الآكام المفترشة.
(٣) الرحال: جمع رحل، وهو المنزل والمأوى.
(٤) الفرق: الخوف.
(٥) الشنف: الذي يبس في أعلى الأذن، والذين في أسفلها يقال لها قرط.
(٦) الطفل: يقال: طفلت الشمس: أي مالت للغروب.

كعاشقٍ سار عن أحبابه وهَفَا   به الهوى فتراءاهم على شَرَف

إلى أن نضا المغربُ عن الأُفُقِ ذهبَ قلائدها، وعوّضه عنها من النجوم بخَدَمها وولائدها[١]؛ فلبثنا بعد أداء الفرض لُبْثَ الأهِلّة، ومنعنا جفوننا أن تَرِدَ النوم إلاّ تَحِلّه؛ ونهضنا وبُرْدُ الليل مُوَشَّع[٢]، وعِقدُه مرصَّع؛ وإكليلُه مُجَوْهَر، وأديمه مُعَنْبَر؛ وبدرُه في خِدْر سِراره مُسْتَكِنّ، وفجرُه في حَشَى مطالعه مُسْتَجِنّ؛ كأنّ أمتزاج لونه بشفق الكواكب خليطًا مِسْكٍ وصَنْدَل، وكأنّ ثُرَيّاه لامتداده مُعَلَّقةٌ بأمراس كَتّانٍ إلى صُمّ جَنْدل: [من الطويل]

ولاحتْ نجومُ الليل زُهْراً كأنّها   عقودٌ على خَوْدٍ من الزَّنْج تُنْظَمُ[٣]
مُحَلِّقةً في الجوّ تحسَب أنها   طيورٌ على نهر المَجَرّة حُوَّمُ
إذا لاح بازي الصبح وَلَّتْ يؤمّها   إلى الغرب خوفاً منه نَسْرٌ ومِرْزَمُ

إلى حدائقَ ملتفّة، وجداولَ مُحْتفّة؛ إذا جَمّش النسيمُ غصونَها أعتنقت اعتناقَ الأحباب، وإذا فَرَك من المياه متونَها أنسابت في الجداول أنسياب الحُبّاب[٤]، ورقَصتْ في المناهل رقصَ الحِباب؛ وإنْ لَثِمَ ثغور نَوْرها حيّته بأنفاس المعشوق، وإن أيقظ نواعسَ وُرْقِها غنّته بألحان المشوق؛ فنسيمُها وان، وشميمُها لعَرْف الجنان عُنوان، ورَدُها من سَهَر نَرْجِسها غَيْرَان، وطَلُّها في خدود الورد مُنْبَثٌّ وفي طُرَرِ الريحان حَيران، وطائرُها غَرِد، وماؤها مُطَّرِد؛ وغصنُها تارةً يَعْطِفُه النسيمُ إليه فَيَنْعَطِف، وتارةً تحت وَرْقائه فتحسب أنها همزةٌ على أَلِف، مع ما في تلك الرياض من تَوافُق المحاسن وتبايُن الترتيب؛ إذ كلّما أعتلّ النسيم صحّ الأرج وكلّما خرّ الماء شمخَ القضيب: [من الكامل]

فكأنّما تلك الغصونُ إذا ثَنَتْ   أعطافَها رسلُ الصَّبا أحبابُ
فلها إذا افترقت من أستعطافها   صُلْحٌ ومن سَجْعِ الحَمام عِتَابُ
وكأنّها حولَ العيون مَوائساً   شَرْبٌ وهاتيك المياهُ شَرابُ
فغديرُها كأسٌ وعَذْبُ نِطافِها   راحٌ وأضواءُ النجوم حَبابُ[٥]

تُحيط بمَلَقِ نِطافُها صَاف، وظِلال دوحها ضَاف، وحصاها لصفاء مائها في نفس

---

(١) الولائد: جمع وليدة، وهي الصبية والأمة.
(٢) الموشع من الثياب: المعلم.
(٣) الخود: الفتاة الحسنة الخلق الشابة.
(٤) الحباب (بضم الحاء): الحية ـ والحباب (بكسر الحاء): القرط من جهة واحدة.
(٥) النطاف: جمع نطفة، وهي القليل من الماء.

الأمر راكد وفي رأس العين طاف؛ إذا دغدغها[١] النسيمُ حسبت ماءها بتمايلُ الظّلال فيه يتبرّج ويميل؛ وإذا اطّردتْ عليه أنفاسُ الصّبا ظننت أفياءَ تلك الغصون فيه تارة تتموّج وتارة تسيل؛ فكأنّه محبٌّ هام بالغصون هوّى فمثّلها في قلبه، وكأنّ النسيم كَلِفٌ بها غار من دُنوّها إليه فميّلها عن قربه: [من مجزوء الكامل]

والسّرْو مثلُ عرائسٍ ... لُفّتْ عليهنّ المُلاءْ
شَمّرنَ فضلَ الأزْر عن ... سُوقٍ خلاخِلُهنّ ماءْ
والنهرُ كالمرآة تُبْـ ... ـصر وجهَها فيه السماءْ

وكأنّ صَوَافّ[٢] الطير المُبيضة بتلك المَلَقِ خيام، أو ظباءٌ بأعلى الرَّقْمَتين قيام، أو أباريقُ فضّة رؤوسُها لها فدَام[٣]، ومناقيرُها المحمّرة أوائلُ ما انسكب من المُدام؛ وكأنّ رقابها رماحٌ أسِنّتُها من ذَهَب، أو شموعٌ أسودُ رؤوسها ما انطفأ وأحمره ما التهب. وكنّا كالطير الجليل عِدّه، وكطِرَاز العُمْر الأوّل جدّه.

من كلّ أبْلَجَ كالنّسيم لَطَافةً ... عَفُّ الضّمير مُهَذَّبِ الأخْلاقِ
مثلُ البدورِ مَلاحةً وكعُمْرِها ... عَدَداً ومثلُ الشّمس في الإشراقِ

ومعهم قِسِيّ كالغُصون في لطافتها ولِينها، والأهِلّة في نَحَافَتها وتكوينها، والأزاهِر في تَرَافتها وتَلْوينها؛ بطونها مُدَبَّجة، ومتونها مُدَرَّجة؛ كأنها الشَّوْلة[٤] في انعطافها، أو أرْواقُ الظِّباء في التفافها؛ لأوتارها عند القوادم أوتار[٥]، ولبنادقها في الحواصل أوكار؛ إذا انتصبتْ لطيرٍ ذهب من الحياة نصيبُه، وإنْ انبِضَتْ[٦] لرمي بدا لها أنها أحَقُّ به ممّن يُصيبه، ولعلّ ذاك الصّوت زجرٌ لبندقها أن يُبْطِيء في سيره، أو يتخطّى الغَرَض إلى غيره؛ أو وَحْشَةٌ لمفارقة أفلاذ كَبِدها، أو أسَفٌ على خروج بنيها عن يدها؛ على أنها طالما نبذتْ بَنيها بالعَرَاء، وشفعت لخَصْمِها التحذيرَ بالإغراء: [من البسيط]

مثلُ العقاربِ أذناباً مُعَقَّدةً ... لمن تأمّلها أو حقَّق النّظرا
إنْ مدّها قمرٌ منهم وعايَنَه ... مُسَافِرُ الطير فيها أو نوى سفرا

---

(١) دغدغها النسيم: جمشها وزغزغها.
(٢) الصواف من الطير: هي التي تصف أجنحتها فلا تحركها.
(٣) الفدام: المصفاة تجعل على فم الإبريق ليصفى به ما فيه.
(٤) الشولة: إحدى منازل القمر في برج العقرب.
(٥) الأوتار: واحدتها الوتر، وهو الذحل أو الظلم فيه.
(٦) انبض الرمي القوس: جذب وتره لتصوت.

فهو المسيءُ ٱختياراً إذ نوى سفراً وقد رأى طالعاً في العقرب القمرا

ومن البنادق كُرَاتٌ متفقة السَّرْد، متّحدة العَكْس والطَّرْد، كأنّما خُرِطتْ من المَنْدَل[1] الرَّطْب أو عُجِنتْ من العنبر الوَرْد؛ تَسرِي كالشُّهُب في الظلام، وتَسبِق إلى مَقَاتِل الطير مُسَدَّداتِ السِّهام: [من البسيط]

مثلُ النجوم إذا ما سِرْنَ في أُفُقٍ عن الأهِلَّةِ لكن نونُها راءُ
ما فاتَها من نجوم اللّيل إنْ رُمِقَتْ إلاّ ثَباتٌ يُرَى فيها وأضواءُ
تَسْرِي ولا يشعرُ الليلُ البهيم بها كأنّها في جفون الليلِ إغفاء
وتسمَع الطيرَ إذ تَهْفو قوادمُه خَوَافِقاً في الدَّياجِي وهي صَمّاء

تَصُونها جراوَةٌ[2] كأنّها جُرْح دُرَر[3]، أو دُرْجُ غُرَر، أو كِمَامة ثَمَر؛ أو كِنَانةُ نَبْل، أو غَمَامة وَبْل، حالكة الأديم، كأنّما رُقِمَتْ بالشَّفَق حُلَّةُ ليلها البهيم: [من السريع]

كأنّها في وصفها مَشْرِقٌ تَنْبَثُّ منه في الدُّجَى الأنجمُ
أو ديمةٌ قد أطلعتْ قَوْسَها مُلَوَّناً وٱنبثقتْ تَسْجُمُ

فاتّهد كلٌّ له مركزاً، وتقاضى من الإصابة وَعْداً مُنَجَزاً، وضَمن له السعدُ أن يُصبح لمُراده مُحْرِزاً.

كأنّهمْ في يُمْنِ أفعالهم في نظرِ المُنْصِفِ والجاحِدِ
قد وُلِدوا في طالعٍ واحدٍ وأشرقوا في مطلعٍ واحدِ

فَسَرَتْ علينا من الطير عِصَابه[4]، أظلّتنا من أجنحتها سَحَابه؛ من كلّ طائر أقلع يرتاد مَرْتَعاً، فوجد ولكنْ مَصْرَعاً، وأَسَفّ[5] يبغِي ماءَ جُمَاما فورد ولكن السمَّ مُنْقَعاً، وحلّق في الفضاء يبتغي ملعباً فبات هو وأشياعُه سُجَّداً للقِسِيّ ورُكّعا؛ فتبركْنا بذلك الوجه الجميل، وتداركْنا أوائلَ ذلك القَبيل.

فٱستقبل أوّلنا «تَمّا»[6] تَمَّ بَدْرُه، وعَظُم في نوعه قدرُه؛ كأنّه بَرْقٌ كَرَع في غَسَق؛

---

(١) المندل: العود، وقيل: أجوده.
(٢) الجراوة: آلة من جلد يجعل فيها البندق الطين الذي يرمى به عن الجلاهق. والجلاهق: قد تقدم تفسيرها.
(٣) الجرج: وعاء من أوعية النساء.
(٤) عصابة الطير: الجماعة من الطير.
(٥) أسفّ الطائر من الأرض: دنا منها في طيرانه حتى كادت رجلاه تصيبانها.
(٦) التّم: طائر في قدر الأوز أبيض اللون طويل العنق أحمر المنقار.

أو صبحٌ عُطِفَ على بقيّة الدُّجى عَطْفَ النَّسَق؛ تحسَبه في أَسْداف المُنَى غُرَّةَ نُجْح، وتخاله تحت أذيال الدُّجى طُرَّةَ صُبْح؛ عليه من البياض حُلَّةُ وَقَار، وله كُرَةٌ من عَنْبَرٍ فوق مِنْقارٍ من قار. له عنقُ ظَليم، وٱلتفاتةُ رِيم، وسُرَى غَيْم يُصَرِّفه نسيم.

كَلَوْنِ المَشِيبِ وعَصْرِ الشَّباب ووقتُ ٱلوِصَالِ ويومِ الظَّفَرْ
كأنّ الدُّجى غار من لونه فأَمْسَكَ مِنقارَه ثمّ فَرْ

فأرسل إليه عن الهلال نجماً، فسقَط منه ما كبُر بما صغُر حَجْماً، فٱستبشر بنجاحه، وكبَّر عند صياحه، وحصَّله من وسَط الماء بجَنَاحِه.

وتلاه «كُيٌّ»[1] نَقِيّ اللّباس، مُشْتَعِلُ شَيْب الرأس، كأنّه في عَرَانينِ شَيْبه لا وَبْلِه كبير أُنَاس؛ إن أَسَفّ في طيرانه فغَمَام، وإن خفقَ بجناحه فقِلْعٌ له بيد النّسيم زِمَام؛ ذو غَبَبَةٍ[2] كالجِرَاب ومِنْقَارٍ كالحِرَاب، ولونٍ يَغُرّ في الدُّجى كالنَّجْم ويَخْدَعُ في الضُّحَى كالسَّرَاب؛ ظاهرُ الهَرَم، كأنّما يُخبر عن عادٍ ويُحَدِّثُ عن إرَم: [مِنَ الكامل]

إن عامَ في زَرَق الغدير حَسِبتَه مُبْيضَّ غَيْم في أديم سَمَاءِ
أوطار في أُفُق السماء ظننتَه في الجوّ شيخاً عائماً في ماءِ
مُتناقِضُ الأوصاف فيه خِفَّةُ ٱلْـ ـجُهَّالِ تحت رَزَانَةِ العلماءِ

فثنَى الثاني إليه عِنانَ بُنْدُقِه، وتوخّاه فيما بين رأسه وعُنُقِه، فخرّ كمارِدٍ ٱنقضّ عليه نجمٌ من أُفُقِه؛ فتلقّاه الكبيرُ بالتكبير، وٱختطفه قبل مصافحته الماءَ من وجه الغَدير.

وقارنته «إوَزّةٌ» حُلّتها دَكْناء، وحِلْيتُها حَسْناء؛ لها في الفضاء مَجَال، وعلى طَيَرانها خِفّةُ ذواتِ التبرُّج وخَفَرُ رَبّاتِ الحِجال؛ كأنّما عَبَّتْ في ذهَب، أو خاضَتْ في لَهَب، تَخْتَالُ في مِشْيتها كالكاعب[3] وتتأنّى في خَطْوِها كالّلاغب[4]؛ وتَعْطُو بجِيدها كالظَّبْيِ الغَرِير، وتَتدافعُ في سَيْرها مَشْيَ القَطَاة إلى الغَدير: [من الطويل]

إذا أقبلتْ تَمْشي فَخَطْرَةُ كاعبٍ رَدَاحٍ وإن صاحت فَصَوْلَةُ حازمِ[5]
وإن أقلعت قالتْ لها الريح ليت لي خفَا ذي الخَوَافِي أو قُوَى ذي القَوَادِمِ

---

(١) الكيّ (بضم القاف): من الطيور التي تظهر في الصيف، وهو طير أغبر اللون إلى البياض أحمر المنقار والحوصلة رجلاه تضربان إلى السواد.

(٢) الغبة: اللحم المتدلي تحت الحنك من الديك والبقر.

(٣) الكاعب: الفتاة التي نهد ثدياها.

(٤) اللاغب: الذي أعيا من التعب فيتأنى في خطوه تعباً.

(٥) الرداح: المرأة الثقيلة الأوراك.

فأنْعِم بها في البُعد زادَ مُسافرٍ ... وأحْسِن بها في القُرْب تُحْفةَ قادِمِ

فلَوى الثالثُ جِيدَه إليها، وعطَف بوجه قوسه عليها؛ فلجَّت في تَرَفُّعها مُمْنِعة، ثمّ نزلت على حُكمه مُذْعِنَة؛ فأعجلها عن آستكمال الهبوط، وآستولى عليها بعد آستمرار القُنُوط.

وحاذتها «لَغْلَغَةٌ» تَحْكِي لونَ وَشيها، وتَصِفُ حُسْن مَشْيها؛ وتُرْبِي عليها بغُرّتها، وتُنافسها في المحاسن كضَرّتها؛ كأنّها مُدامةٌ قُطِبَتْ[1] بمائها، أو غمامةٌ شَفَّتْ عن بعض نجوم سمائها.

بِغُرَّةٍ بيضاءَ مَيْمونَةٍ ... تُشرِقُ في آللّيل كبدر التَّمام

وإن تبدَّت في الضُّحى خِلْتَها ... في الحُلّة آلدَّكْناءِ بَرْقَ الغمام

فنهض الرابعُ لاستقبالها، ورماها عن فَلَك سعدِهِ بنجم وبالها، فَجدّتْ في العُلُوِّ مُغِذّة[2]، وتطاردَتْ أمامَ بُندقِهِ ولولا طِرَادُ الصَّيْد لم تَكُ لَذّة؛ وانقضّ عليها من يده شِهابُ حَتْفِها، وأدركها الأجلُ لخِفة طيرانها من خَلْفِها، فوقعَتْ من الأُفُق في كفِّه، ونَفر ما في بقايا صفِّها عن صفِّه.

وأتت في أثرها «أنيسةٌ»، آنِسة، كأنّها العَذْراء العَانِسة، أو الأَدْماء الكَانِسة[3]؛ عليها خَفَرُ الأبكار، وخِفَّةُ ذَوَاتِ الأوكار، وحلاوةُ المعاني التي تُجلَى على الأفكارِ؛ ولها أُنسُ الرَّبِيب[4]، وإدلالُ الحبيب، وتَلَفُّتُ الزائر المُرِيب، من خوف الرَّقيب؛ ذاتُ عُنُقٍ كالإبريق، أو الغُصْنِ الوَرِيق، قد جمَع صُفْرَةَ البَهار إلى حُمْرة الشَّقِيق؛ وصدرٍ بَهِيِّ الملبوس، شهِيٍّ إلى النُّفوس، كأنّما رُقم فيه النَّهارُ باللَّيل أو نُقِشَ فيه العاجُ بالآبنوس[5]؛ وجَناحٍ يُنْجيها من العَطَب، يحكي لونُه المَنْدَل الرَّطْبَ إلاّ أنّه حَطَب.

مُدَبَّجة الصدرِ تَفْويفُه ... أضاف إلى اللّيل ضوء النهار

لها عُنُقٌ خالَه مَنْ رآه ... شقائقَ قد سُيِّجَتْ بالبَهار

فوثب الخامسُ منها إلى الغَنيمة ونظمَ في سلك رميه تلك الدُّرَّةَ اليَتيمة؛ وحصل بتحصيلها بين الرُّمَة على الرّتبة الجسيمَة.

---

(١) قطبت: فرجت.

(٢) المغدة: المسرعة.

(٣) العانسة: التي دخلت في كناسها.

(٤) الربيب: المعاهد.

(٥) الآبنوس: شجر ينبت في الحبشة والهند، خشبه أسود صلب، ويصنع منه بعض الأدوات والأواني والأثاث.

وأتى على صَوْتها «حُبْرُجٌ» تسبِق همّتُه جناحَه، ويغلب خَفْقُ قوادمه صياحَه؛ مدبّج المَطَا، كأنما خَلَع حُلَّةَ مَنْكِبيْه على القطا؛ يَنظُرُ من لَهَب، ويخطو على رجلَين من ذَهَب.

يَـزورُ الـرّيـاضَ ويَـجـفُـو الـحـيـاض ويُـشْـبِـهُ فـي الـلّـونِ كُـدْرَ ٱلـقَـطَـا
ويـهـوَى الـزُّروع ويَـلـهُـو بـهـا ولا يَـرِدُ الـمـاءَ إلا خَـطَـا

فبدَره السادسُ قبل ارتفاعِه، وأعا قوسَه بأمتدادِ باعِه، فخَرّ على الألَاءةِ[1] كبِسْطامِ بن قَيْس، وأنقضّ عليه راميه فخَصَله[2] بحِذقٍ وحَمَلَه بكَيْس.

وتعذَّر على السابع مَرَامُه، ونَبَا به عن بلوغ الأرَب مقامُه؛ فصَعِد هو وتِربٌ له إلى جبل، وثبت في موقفه من لم يكن له بمرافقتهما قِبَل. فعنّ له «نَسرٌ» ذو قَوَادِمَ شِدَاد، ومَنَاسِرَ حدَاد، كأنه من نسور لُقْمان بن عاد؛ تحسَبه في السماء ثالِثَ أخويْه، وتخالُه في الفَضَاءِ قبّتَه المنسوبةَ إليه؛ قد حلَق كالفُقراء رأسَه، وجعل ممّا قَصُر من الدُّلُوق الدُّكْن لِباسَه؛ وٱشتمل من الرِّيّاش العَسَليّ إزاراً، وٱختار العزلةَ فلا يجد له إلاّ في قُنَنِ الجبال الشواهِقِ مَزَاراً، قد شابت نواصي الليالي وهو لم يَشِب، ومضت الدهورُ وهو من الحوادث في مَعْقِلٍ أشِب.

مَلِيكُ طيورِ الأرضِ شرقاً ومغرِباً وفـي الأُفُـقِ الأعـلـى لـه أَخَـوانِ
لـه حـالُ فَـتّـاكٍ وحِـلْـيـةُ نـاسِـكٍ وإسـراعُ مِـقْـدام وفَـتْـرةُ وَان

فدنا من مَطاره، وتوخّى ببُنْدُقِه عنقَه فوقَع في مِنْقاره؛ فكأنما هَدَّ منه صخراً، أو هدَم بِناءً مشمخِرّا؛ ونظر إلى رَفيقه، مبشراً له بما أمتاز به عن فريقه.

وإذا به قد أظلّته «عُقَابٌ» كاسر، كأنما أَضَلَّتْ صيداً أَفْلَتَ من المَنَاسِرِ، إن حَطّتْ فسَحَبٌ أنكشف، وإن قامت فكأنّ قلوب الطير رَطْباً ويابساً لَدَى وَكْرِها العُنّاب والحَشَف، بعيدةُ ما بين المناكب، إذا أقْلَعتْ لَجّتْ في عُلُوٍّ كأنّما تحاوِل ثأراً عند بعضِ الكواكِب.

تَـرَى الـطـيـرَ والـوحـشَ فـي كـفّـهـا ومِـنْـقـارِهـا ذا عِـظـام مُـزَالَـهْ
فـلـو أمـكـن الـشـمـسَ مـن خـوفـهـا إذا طـلـعـتْ مـا تَـسـمّـتْ غَـزَالَـهْ

فوثبَ إليها الثامنُ وَثْبَة ليث قد وَثِق من حركاته بنجاحها، ورماها بأوّلِ بُنْدُقةٍ فما

(١) الألاء: شجر ورقه وحمله دباغ، يمد ويقصر، وهو حسن المنظر مرّ الطعم.
(٢) خصله: أصابه.

أخطأ قادمةَ جناحِها؛ فأَهْوَتْ كعَوْدٍ صُرِع، أو طَود[١] صُدِع؛ قد ذهب بأسُها، وتذهب بدمها لباسُها؛ وكذلك القَدَر يُخَادِع الجوَّ عن عُقابه، ويَستنْزل الأعصم من عِقابه؛ فحمَلَها بجناحها المَهِيض[٢]، ورفعها بعد الترفّع في أَوْج جَوّها من الحَضيض؛ ونزلا إلى الرُّفقة، جَذِلَيْن بربح الصَّفَقة.

فوجدا التاسعَ قد مرّ به «كُرْكيٌّ» طويلُ السِّفَار، سريع النِّفَار، شَهِيّ الفراق، كثيرُ الاغتراب يَشْتو بمصر ويَصِيف بالعراقِ، لقَوَادمه في الجَوّ هَفيف[٣]، ولأديمِهِ لونُ سماءٍ طَرَأ عليها غيمٌ خفيف، تَحِنّ إلى صوته الجَوَارح، وتَعْجَب من قوّته الرِّياح البوارح؛ له أثَرُ حمرةٍ في رأسه كوَميض جمرٍ تحت رماد، أو بقيّة جُرْح تحت ضِمَاد؛ أو فَصّ عقيقٍ شَفّت عنه بقايا ثِماد؛ ذو مِنْقارٍ كسنَان، وعُنُقٍ كعنان؛ كأنّما يَنُوس[٤]، على عودين من آبنوس.

إذا بــدا فــي أُفُــقٍ مُــقْــلِــعــاً والــجــوُّ كــالــمــاء تَــفَــاويــفُــهُ
حَــسِــبْــتَــه فــي لُــجّــةٍ مَــرْكــبــاً رجــلاه فــي الأُفْــق مــجــاديــفُــهُ

فصبرَ له حتى جازه مُجَلّيا، وعطَفَ عليه مُصَلّيا؛ فخَرّ مُضَرَّجاً بدمه، وسقَط مُشْرِفاً على عَدَمه. وطالما أَفْلَت لَدَى الكواسِرِ من أظفار المَنُون، وأصابه القدرُ بحبةٍ من حمأٍ مسنون، فكثُر التكبير من أجله، وحمله راميه من على وجهِ الأرض برِجْلِه.

وحاذاه «غِرْنَوْق» حكاه في زِيّه وقَدْرِه، وأمتاز عنه بسواد رأسِه وصَدْرِه؛ له ريشتان ممدوتان من رأسه إلى خَلْفِه، معقودتان من أُذُنَيْه مكان شَنْفِه.

لــه مــن الــكُــرّكِــيّ أوصــافُــه سِــوَى سَــوَادِ الــصــدرِ والــرّأسِ
إن شــال رِجــلاً وأنــبــرى قــائــمــاً ألــفــيــتَــه هــيــئــةَ بِــرْجَــاسِ

فأصغَى العاشر له مُنْصِتاً، ورماه ملتفتاً؛ فخرّ كأنّه صريعُ الألحان، أو نَزِيفُ[٥] بنت الحان؛ فأهوَى إلى رِجله بيده وأَيْدِه[٦]، وأنقضّ عليه أنقضاضَ الكاسر على صيده.

---

(١) الطود: الجبل.
(٢) المهيض: المكسور.
(٣) الهفيف: صوت هبوب الريح.
(٤) ينوس: يتذبذب ويتحرك.
(٥) النزيف: السكران الذي ذهب عقله.
(٦) الأيد: القوة.

وتَبِعه في المَطَار «صُوغ»[١]، كأنّه من النُّضَار مَصُوغ؛ تحسبه عاشِقاً قد مدّ صَفْحته، أو بارِقاً قد بثّ لَفْحته.

طــويــلــةٌ رِجــلاه مــســودّةٌ   كــأنّــمــا مِــنــقــارُه خَــنْــجَــرُ
مِــثْــلُ عــجــوزٍ رأسُــهــا أشــمــطٌ   جاءت وفــي قــمّــتِــهــا مِــعْــجَــرُ[٢]

فاستقبله الحادِي عَشَرَ ووثَب، ورماه حين حاذاه من كثب؛ فسقط كفارسٍ تقطّر عن جَوَادِه، أو وامِقٍ أُصِيبتْ حَبّةُ فؤادِه؛ فحمَله بساقه، وعدَل به إلى رِفاقه.

واقترن به «مُرزَمٌ» له في السماء سَمِيٌّ معروف، ذو مِنقارٍ كصُدْغٍ[٣] معطوف؛ كأنّ رياشَه فَلَق[٤] اتّصل به شَفَق، أو ماءٌ صافٍ عَلِق بأطرافه عَلَق.

لــه جــســمٌ مــن الــثَّــلْــج   عــلــى رِجْــلَــيــنِ مــن نــارِ
إذا أقــلــع لــيــلاً قــلــ   ــتَ بــرقٌ فــي الــدُّجــى سـارِي

فانتحاه الثاني عشر مُمَيِّما، ورماه مصمِّماً؛ فأصابه في زَوْرِه، وحصّله من فَوْره، وحصل له من السرور ما خرج به عن طَوْره.

والتحق به «شُبَيطِر»[٥] كأنه مُدْيةُ مُبَيْطِر[٦]؛ ينحطُّ كالسيل ويَكُرّ على الكواسر كالخيل، ويجمع من لونه بين ضِدّين يُقْبِل منهما بالنهار ويُدْبِر بالليل؛ يتلوّى في مِنقاره الأيْم، تلوِّيَ التِّنين في الغَيْم.

تــراه فــي الــجــوِّ مــمــتــدًّا وفــي فــمــه   مــن الأفــاعــي شُــجــاعٌ أرقــمٌ ذكــر
كــأنــه قــوسُ رَامٍ عُــنْــقُــه يَــدُهــا   ورأسُــه رأسُــهــا والــحــيّــةُ الــوَتَــرُ

فصوّب الثالثَ عشرَ إليه ببندُقه، فقطَع لَحْيَه[٧] وعُنُقَه؛ فوقع كالصَّرْح الممرَّد، أو الطِّرَاف[٨] الممدَّد.

واتّبعه «غُنّاز»[٩] أصبح في اللّون ضِدّه، وفي الشكل نِدّه؛ كأنه ليلٌ ضمّ الصبحَ

---

(١) الصوغ: طائر مختلط اللون من البياض والسواد أحمر الصدر، وأكثر ميله إلى الخضرة والأشجار.
(٢) المعجر: ثوب تعتجر به المرأة وتشده على رأسها.
(٣) الصدغ: الشعر المتدلي على ما بين العين والأذن.
(٤) الفلق: الصبح، وقيل: الفجر.
(٥) الشبيطر: هو طائر أبيض، أسود طرفي الجناحين ورجلاه ومنقاره حمر وهو يأكل الحيات ويوصف بالفطنة والذكاء.
(٦) المبيطر: معالج الدواب.
(٧) الأيم: الحية.
(٨) الطراف: بيت من أدم.
(٩) الغناز: طائر أسود اللون أبيض الصدر أحمر الرجلين والمنقار.

إلى صدره، أو انطوى على هالة بدره.

تراه في الجوّ عند الصبح حين بدا مُسْوَدَّ أجنحةٍ مبيَّض خَيْزومِ
كأسودٍ حبشيٍّ عام في نَهَرٍ وضَمّ في صدره طفلاً من الرُّومِ

فنهض تمامُ القوم إلى التَّتِمَّة، وأسفرت عن نُجح الجماعة تلك الليلة المُدْلهِمَّة؛ وغدا ذلك الطير الواجبُ واجِباً[1]، وكَمُل العددُ به قبل أن تُطْلِعَ الشمسُ عيناً أو تُبْرِزَ حاجِباً؛ فيا لَها ليلةً حَصَرْنا بها الصوادحَ في الفضاء المتَّسِع، ولقِيت فيها الطير ما طارت به من قبل على كلّ شَمْلٍ مجتمِع؛ وأضحت أشلاَؤها على وجه الأرض كفرائدَ خانها النِّظام، أو شَرْبٍ كأنّ رقابَهم من اللِّين لم يُخْلق لهنّ عِظام؛ وأصبحنا مُثْنِينَ على مَقامنا، مُنْثَنِين بالظَّفر إلى مستقرّنا ومُقَامنا؛ داعين للمولى جَهْدَنا، مُذْعِنين له قَبِلَنَا أو رَدَّنَا؛ حامِلين ما صرعْنا إلى بين يديه، عامِلين على التشرّف بخدمته والانتماء إليه.

فأنت الذي لم يُلفَ من لا يَوَدُّه ويدعو له في السرِّ أو يَدَّعِي لَهُ
فإن كان رَمْيٌ أنت تُوضِح طُرْقَه وإن كان جيشٌ أنت تَحْمِي رَعِيلَه[2]

والله تعالى يجعل الآمالَ مَنُوطةً به وقد فعل، ويجعلُه كَهْفاً للأولياء وقد جعل.

ومن إنشاء المولى عَلاَء الدّين عليّ بن عبد الظاهر[3] في قِدْمة بندق.

ابتدأها بأن قال: «الحمد لله مُهَيِّىء أسباب الارتياح، ومُهَنِّىء أوقاتِ الانشراح، ومُطْلِق الأيدي في الاقتناص فليس عليها في صيد ذوات الجَناح جُناح؛ ومزيِّن السماء بمصابيح أنوارِها، ومُوَشّي الأرض برَوْضها ونُوَّارها؛ ومنوِّر الأيام بشموسها والليالي أقمارِها، ومَطرِّز مطارِفِ الآفاق بمَطَار أطيارها. والصلاةُ والسلام على سيِّدنا محمد وآلِهِ وصَحْبه الذين أنجدهم الله من ملائكته بأُولِي أجنحة، وأهْوَى بَصَرائعهم وأَوْهَى قُوَى مُمَانِعهم بعزائمهم المُنْجِحة.

وبعد، فإنّ القنصَ شُغِفَتْ به قلوبُ ذوِي العزائم، وصيّرته عُنواناً للحرب إذ حَمام الحِمام فيه على الفرائس حوائم؛ تلتذّ نفوسُهم بالمطاردة فيه وترتاح، وتهواه فلو تمكنت لركبت إليه أعناقَ الرّياح، تَرِد منه موردَ الظَّفَر، وتتمتّع فيه بنَزَهٍ نقسّم الحسنُ فيهن بين السمع والبصر، وتتملّى عند السرور إليه برياضٍ دبَّجها صَوْبٌ من المطر لا

(١) الواجب: الميت.

(٢) الرعيل: مقدمة الجيش والخيل.

(٣) هو علاء الدين علي بن فتح الدين محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر رئيس الكتاب وسيد الرؤساء، وجليس الملوك.

صوب من الفِكَر، ويَطْوي من الأرض ما نشرت أيدي السماء به بروداً أَبْهَى من الحِبر[١]؛ فتارةً تستنزِل من العواصم الظباءَ العَوَاصِي، وآونةً تقتنِص الطيرَ وقد تحصّنتْ من بروج السُّحُب في الصَّيَاصِي[٢] بُبعوثِها الدّانيةِ من كلّ قاصي. وأحسَنُ أنواعه الذي جَمع لمُعَايِنِه بين رَوْضةٍ ورياضة، وغُدُرٍ مُفَاضة؛ ومغازلة عيون النَّوْر وهي تدمَع حين طَرَفها بذيله نسيمُ الصباح، ومباكرة اللّذات من قبل أن ترشُف شمسُ الضحى ريقَ الغوادي من ثغور الأَقَاح؛ رمي البندق الذي هو عُقْلة المستوفِز[٣]، وانتهازُ غَفْلة الطائر المتحرّز؛ ونزهةُ القلوب التي إن طالت لا تُمَلّ؛ وإن اجتاز المتنزِّه بموطنها لم يؤجر. أحلى من صيد الظباء، وأشهى من لَمح مُلَح الحسناء؛ لا يحتاج إلى رَكْض جَواد، ولا يحتاج فيه خَفْضَ العيش جُوَاد[٤]، ولا يُهاجر متعاطيه إلى الهواجر، ولا يحجُر على نفسه في الإفضاء إلى المَحَاجر[٥]؛ أربابُه يرتاضون في الروضة الغَنَّاء، ويسمعون من نَغَمات الأوتار وشدْو الأطيار مختلِفَ الألحان والغِناء؛ ويَمْتَطُون الليلَ طِرْفا، ويستنيرون من النجوم شُمُوعاً لا تقَطّ ولا تُطْفا؛ قد اتّخذ كل منهم مُقاماً أكرِم به من مُقام، وهام باللذة فترك كرائمَ كَرَاه وكذا عادةُ المُسْتَهام؛ وسبَح في لُجَج الليل وكَرع في نهر النهار، وتجلّى في حُلَل الصدق وتخلّى عن خَلَل العار. يَهْوَوْن لَذّةَ القَنْص في الليل إذا عَسْعَس، والصبح إذا تنفّس، ويرسلون رُسُل المَنَايا إلى صرائعهم فما تتنفّس. إذا بَرزوا عند الغروب توارتْ شمسُ الأَصِيل حياء، وذهبتْ في حُلّتها الذهبيّة حين بَهروها سَنًا وسَنَاء؛ تراهم كالزُّهر أو الأزهار، أو عِقْدٍ نُظم باللُّجَين والزُّمرّد والنُّضَار؛ أوجُهُهم في أفلاك قِسِيِّهم أقمار، كوِلْدان جِنان، وأعطاف أغْصان؛ قد طاف بهم سِيَاجُ المَسَرّة وأحْدق، وحُلّوا بثياب سُنْدس خُضْر واسْتَبْرَق؛ كأنّ الأرض ضاهت بهم السماء، فصيّرتْ قَسِيّهم أفلاكَها، وغُرَرَهم نجومَها، وعزائمَهم صواعقَها وبنادقَهم رُجُومها؛ يَخْفق منهم قلبُ كلّ خافِقه، وتقدمُ بعوثُهم على ذوات القَوَادم فبينا هي مترافقة إذا بها متفارِقة، وكأن صَوَافَّ الطير لديهم في جوّ السماء، سطورٌ في صفيحةٍ زَرْقاء؛ أو كأنّها في التئامها، عقودُ دُرٍّ في نظامِها؛ يَفْرُطون سلكَها، ويقرِّبون هُلْكها، ويَغْدِرون بها في الغُدُر، ويَجْسُرون عليها في الجسور، وتُقَايضُ بنادقُهم صرائعَهم فيصير وَكْر الطير الجراوة وجراوةُ البنادق حواصلَ الطيور. وإذا أسْفَروا وجهَ صباح،

---

(١) الحبر: ضرب من البرود اليمانية مخطط.

(٢) الصياصي: الحصون وكل شيء امتنع وتحصن به.

(٣) المستوفز: المهيىء للوثوب.

(٤) الجواد (بضم الجيم): جهد العطش.

(٥) المحاجر: واحدها المحجر، وهو الحديقة، أو الموضع الذي فيه رعي كثير وماء.

سمعتَ للطير صياحاً والطربُ كلُه في ذلك الصياح؛ وإن عشَوْا مقاماتِهم وجهَ عِشَاء رأيت الطيرَ وهي لَدَى مَحَاريب قسيِّهم وهي سُجُود ورُكّع طرائحَ من بِيضٍ وسُودٍ كأنّ أديمَ الأرض منهنّ أَبْقع. وإن تعلّقوا بأذيال الليل وسَجْفه؛ وباتوا في عِطْفه؛ احتمى منهم بشُهُبِه، وتستَّر في حُجُبِه؛ وتوَارى عنهم البدرُ بذَيْل الغمام، وهال هالتَه أن تبدوَ لقسيِّهم الموتَّرة بالحِمَام. إلى غير ذلك مما ٱلتزموه من محاسِن أوصاف وأوصافِ محاسن، ووردوه من مناهل مصافاةٍ ماؤها غيرُ آسِن، ووجَدوه من طيب عَيْش ما لانوا معه ولا ٱستكانوا إلى المساكن؛ وحفظوه من صناعتهم من شروطٍ وأَوْضاع، ووقفوا في مقاماتهم من مُطِيع ومُطَاع؛ يَرْعوْن قدرَ كبيرهم، ولا يُراع بينهم قلبُ صغيرهم؛ ويتناصفون في أحكامهم، فالحكم واحد على آمِرهم ومأمورهم، إن تفرّقوا فهم على قلب رجل واحد، وإن ٱختلفتْ منهم المقاعد فقد ٱتّفقتْ منهم المقاصد. ما خلا جوُهم من واجب الطاعة، ولا علا بينَهم كبيرٌ إلاّ بذَلوا في خدمته جُهْدَ الاستطاعة؛ وأضْحوا وأمرُهم عليهم محتوم، وأمسَوْا وما فيهم إلا من له مَقَامٌ معلوم؛ بأيديهم قِسِيٌّ قاسِية، قُضبانُها قاضِية؛ منعطفةٌ جافية، بعوثها في الخَوَافِي خافِية، تَمثّلُها الأفكار في ساحة الفضاء، كَزَوَارِقَ مبثوثةٍ في لُجّة الماء. وكيف لا! وهي تَحْمل المنايا إلى الطير، وإن لم تكن سائرةً فلها بُعوثٌ سريعةُ السير؛ كأنّ صانعها قصَد وَضْعها كالأهلّة واقترح، أو حَكَى بمدبّج أثوابها قوسَ قُزَح، وكأن ظهرها وقد تنوّعت به من الغروز مَدَارِجُه، مَدَرُ سَحِيق وَرْسٍ دَبّ عليه من النمل دَارِجُه؛ إذا حُطّت عنها أوتارُها كانت عصاً لربّها فيها مآربُ ومغانم، يُوجِسُ الطيرُ في نفسه منها خِيفةً وكيف لا! وهي في شكل الأَرَاقِم؛ متضادّة تَجْفو وتَلِين، موتورةً وغيرها حَزِين؛ تضمّها أناملُ من يُسراهم هي أيْمَنُ من يَمين عَرَابة بن أوْس[1]، ويَطْلُع كلٌّ منهم في فَلَكها والطّالعُ القمرُ في القوس؛ لا تعتصِم منها الطّرائدُ بالخِبَاء في وَكْر الدّجْنَة، ولا يُخْفيها ٱتّخاذُها الظّلماءَ جُنَّة؛ ولا يُوَقّيها نَزَقُها، ولا ينقيها مَلَقُها ولا تَنْجح بخفْق الجَناح، ولا تَسْتَروح بمساعدة الرياح؛ لها بنادق كأنها حبات القلوب لوناً، وأشكال العقود كوناً؛ كأنّما صُبِغتْ من ليل وصِيغتْ من شُهُب، أو صُنعت من أديم للسُّحُب؛ تُفْرِد من الطير التُّؤَام، وتجمع بين رُوحها والحِمام؛ قد تحاماها النَّسْران فاتخذا السماء وكْراً، واتفقا أن يصبحا شفعاً ويُمْسِيَا وَتْراً؛ تَقْبِض منها الأيدي عند إطلاقِها رائحةً رابحة، جارحةً

---

(١) هو عرابة بن أوس بن قيظي الأنصاري. والإشارة هنا إلى مدح الشماخ بن ضرار المري لعرابة في قصيدة يقول فيها:

رأيت عرابة الأوسي يسمو ... إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين

من الطير كلَّ جارحة، لا ترى صادحةً إلا صيّرَتْها صائحة. قلبُ كلِّ طير منها طائر، وكيف لا وهي للسِّهام ضرائر؛ تُضْرَم النار لإشْواء الطَّريدة قبل مفارقتها للأوتار، وتَقْتَنص من الجوارح كلَّ مُسْتَخْفٍ بالليل وساربٍ بالنَّهار؛ تَهيج كامنَ الغنيمة وتَسْتَثير، وتبدو كأنما عُجِنت من صَنْدَل وعَبير.

ولمّا كان مَنْ هو واسطة عِقْدِ هذه الأوصاف، والرافلُ في بُرُودها المَوْشِيَّة للأطراف؛ والمُبْدِع في فَنِّه، والجامع بين فضيلة الرمي وحُسْنه؛ والمستنطِق لسانَ قومه بالإحسان؛ والحافظُ شروطَه في طهارة العِرْض وصِدْق اللسان؛ والرامي الذي بلغ بهمّته غاية المرام، وضاهَى ببُنْدُقِه السِّهام؛ وكان يوم كذا وكذا خرج إلى بَرْزَته المبارَكة وصرَع طيْرين في وجه واحد، وأبان عن حُسْن الرمي وسَدَاد الساعد؛ وأضْحَى بينهما كثيراً بين قومه، وجَعَلهما لهم وليمةً في يومه؛ وهما «تَمٌّ» كأنما صيغ من فضّة، أو تَدَرَّع من النهار حُلَّةً مبيَّضة؛ أو غاير بياضُه الليلَ فلطَم وجهَه بيد ظَلْمائه، فاقتصّ منه وخاض في أحشائه؛ لجناحه هَفِيفٌ[1] في المَطَار، تسمَع منه نغمة الأوتار. و«لَغْلَغَةٌ» كأنها كُوّنت من شَقِيق وغَمَام، أو مُزِج لونُها بماءٍ ومُدَام؛ لها غُرَّةٌ لو بَدَت في الليل خِلْتَها بَدْراً، وإن أسفرتْ عند الصباح حَسِبَتها فَجْراً، وحملها فلان وفلان، وقطع شبَقَه فلان وأُدْعِي لفلان؛ وعاد الرامي قَريرَ العين، مملوءَ اليَدين، إذا فَجر غيرُه بواحدة فخر بأثنتين؛ مُعظَّماً بين أترابه، مُكَرَّماً لَدى أحبابه؛ ألبسه الله من السرور أزهى أثوابه. بمنِّه وكرمه.

وَمِمَّا وَرَدَ في وَصْفِ الجُلاَهقِ نَظْماً ـ قال أبو الفرج البَبَّغاء يصفها: [من الوافر]

ومِـرْنـانٍ مُـعـبِّـسـةٍ ضَـحُـوك   مُـهـذَّبـةِ الـطـبـائـع والـكَـيـانِ[2]
مُـغـالِـبـةٍ ولـيـس بـهـا حَـرَاكٌ   وبـاطـشـةٍ ولـيـس لـهـا يَـدانِ
لـهـا فـي الـجـارح الـنَّـسبُ الـمعلَّى   وإن هـي خـالـفـتْـه فـي الـمـعـانـي
تـطـيـر مـع الـبُـزَاة بـلا جَـنَـاح   فَـتـسْـبِـقُـهـا إلـى قَـصَـب الـرِّهـانِ
وتُـدرِك مـا تـشـاء بـغـيـر رِجْـلٍ   ولا بـاعٍ يَـطُـولُ ولا بَـنَـانِ
وتـلـحَـظ مـا يَـكِـلّ الـطـرفُ عـنـه   بـلا نَـظَـرٍ يَـصِـحّ ولا عِـيَـانِ
لـهـا عُـضْـوانِ مـن عَـصَـب ولَـحْـم   وسـائـرُ جـسـمـهـا مـن خَـيْـزُرانِ
يُـخـاطَـبُ فـي الـهـواء الـطـيـرُ مـنـهـا   بـلـفـظٍ لـيـس يـصـدُر عـن لـسـانِ

(١) الهفيف: صوت الريح.
(٢) المرنان: القوس وصف في رنّ إذا صوّت.

فإن لم تُضغ أرْدَتْها بطَعْنٍ يَنُوبُ الطينُ فيه عن السِّنانِ
مُقَرْطَقة ممنطقة خَلُوب مُهَفْهفَة مخفَّفة الجِرَانِ
مذكَّرة مؤنَّثة تَهَادَى من الأصباغ في حُلَل القِيَانِ
مُعمَّرة تَزَايدُ كلَّ يوم شَبِيبتُها على مَرِّ الزمانِ
كأنّ الله ضمّنها فبانت لنا في الرِّزق عن أوفى ضَمانِ
أعزّ على العيون من المآقي وأخلى في النفوس من الأماني
إذا ما آستوطَنَتْ يوماً مكاناً تولّى الجَذْبُ عن ذاك المكانِ

وقال أبو الفتح كُشَاجِم: [من الرجز]

وثيقةٌ مُدْمَجةُ الأوصالِ مَخْنِيَّةٌ عَوْجاءُ كالهِلالِ
تعود إن شئتَ إلى آعتدال باطنُها لِعَاقل الأوعالِ
والظهر منها لقَنَا الأبطال يجمعها أَسْمَرُ ذو آنفتالِ
في وَسْطِه من صنعة المحتال مثالُ عينٍ غيرِ ذي آخولالِ
تَقْذِي بَصَدْفَات من الصَّلْصال أمضى من السِّهام والنِّبَالِ[1]
قَدًى يُقِرّ أعيُنَ الآمالِ فاقعةُ الصُّفْرة كالجِرْيالِ[2]
رَخِيصةٌ تَغْنَم كلَّ غالِ تُؤمَن منها وَنْيَةُ الكَلالِ
تَغُول في الجدب وفي الإمْحالِ وقد يكون الصَّقْر كالعِيالِ
مطِيُّها عَوَاتِق الرجالِ في غُلُفٍ ممدودةٍ طِوَالِ
كم أَفْضَلَتْ على ذوي إفضال وكم أنالتْ من أخي نَوَالِ

* وقرّبت للطَّيْر من آجالِ *

وقال أيضاً فيها من أبيات: [من البسيط]

وفي يَسَارِي من الخَطِّيّ مُحْكَمةٌ متى طَلَبتُ بها أدركتُ مطلوبي
للوَغْلِ باطنُ شَطْرَيها ومُعْظَمُها من عُودِ شَجْراءَ ظَمْياءِ الأنابِيبِ
تأنَّقَ القَيْنُ في تزيينها فَغَدَتْ تُومِي بأحسن تفضيضٍ وتذهيبِ[3]

---

(١) يقال: قذت العين تقذي: إذا قذفت ما فيها من قذى.
(٢) الجريال: الخمر أو لونها.
(٣) القين: الحداد.

في وسطها مُقلةٌ منها تُبيِّن ما   يُرمى فما مَقْتَلٌ عنها بمحجوبِ
فقمتُ والطيرُ قد حُمَّ الحِمامُ لها   على سبيليَ في عادِي وتجويبي
حتى إذا اكتَحلَتْ بالطين مُقلَتُها   صَبَّتْ عليهنّ حتفاً جِدّ مَضبوب
فرُحتُ جَذْلانَ لم تكدُرِ مشارِبُ   لَذّاتي ولم تُلْقَ آمالي بتخييبِ

ذكرُ شيءٍ ممّا قيلَ في سَبَطَانة(١)

قال أبو الفرج البَبَّغاء: [من المتقارب]

وجَوفاءَ حامِلةٍ تهتدِي   إلى كل قلبٍ بمَقروحِهِ
مُقَوَّمةِ القَدِّ ممشوقَةٍ   مُهَفْهَفَةِ الجسم ممسوحِهِ(٢)
مُثَقَّفةٍ فمُها عينُها   تُبشِّر قلبي بتصحيحه
فإن هي والجارح استُنْهِضَا   إلى الصَّيد عاقته عن رِيحه
إذا المرء أودَعَها سِرَّه   لتُخفِيهِ باحث بتصريحِه
مَوَاتٌ تعيشُ إذا ما أعاد   لها النافِخُ الرُّوح من روحه
هي السَّبَطانة في شكلها   ففي القلب جِدُّ تَبَاريحِه(٣)
تحُطّ أبا الفرخ عن وَكْرِه   وتستنزِلُ الطيرَ من لُوحِه(٤)

وقال أبو طالب المأمونيّ: [من الطويل]

مُثَقَّفَة جَوفاء تُحسَبُ زانَةً   ولكنها لازُجَّ فيها ولا نَصْلُ
تُسدَّد نحوَ الطير وهو محلِّق   فينفُذُ عنها للردَى نحوَه الرُسْلُ
يطير إلى الطير الرَّدَى في ضميرها   فيَجْرِي كما يَجْرِي ويعلو كما يعلو
فيَعْقِل ما تنجو به فكأنما   يُمَدّ إليه من بنادقها حَبْلُ

ذكرُ شيءٍ ممّا قِيلَ فِي عِيدَانِ الدِّبْقِ(٥)

قال عبد الله بن المعتز فيها مُلْغِزاً: [من الرجز]

---

(١) السبطانة: آلة من آلات الصيد تتخذ من خشب، مستطيلة كالرمح مجوّفة الداخل يجعل الصائد بندقه من طين صغيرة في فيه، وينفخ بها فتخرج منها بحدة فتصيب الطير فترميه، وهي كثيرة الإصابة.
(٢) الهفهفة: الضامرة البطن، الدقيقة الخصر.
(٣) تباريح الشوق: توهجه.
(٤) اللوح: الفضاء بين السماء والأرض.
(٥) الدّبق: شيء يلزق كالغراء يصاد به الطير.

ومـا رِمـاحٌ غـيـرُ جـارحـاتِ ... ولَـسْـنَ فـي الـدِّمَـاء والِـغـاتِ
ولَـسْـنَ لـلـطِّـرَاد والـغـاراتِ ... يُـخْـضَـبْـن لا مـن عَـلَـقِ الـكُـماةِ
بـريـق حـتـف مـنـجـز الـعِـدات ... مـتـمـكـن لـيـس بـذي إفـلات
يَـنْـشَـب فـي الـصـدور والـلَّـبّـات ... فـغـلَ إسـار فُـلَّـقِ الـسِّـيَـات[1]
عـلـى عَـوَالـيـهـا مُـرَكَّـبَـاتِ ... أسِـنَّـةٌ لَـسْـنَ مُـوَقَّـعَـاتِ[2]
مـن قَـصَـب الـريـش مـجـرَّداتِ ... يُـخْـسَـبْـن فـي الـهـواء شـائِـلاتِ
* أذنـابَ جِـرْذانٍ مُـنَـكَّـسـاتِ *

وقال أبو الفتح كُشَاجُم: [من الرجز]

وآسِـراتٍ مـثـلِ مـأسُـوراتِ ... مُـمَـكَّـنـاتٍ غـيـرِ مُـمْـكَـنـاتِ
مـؤمَّـلاتٍ غـيـرِ مُـكْـذِبـات ... صـوادِقِ الـتـعـجـيـلِ لـلـعِـداتِ
نـواظـرِ الأشـكـالِ ذاهـبـاتِ ... كـواسِـرٍ ولَـسْـنَ ضـارِيـاتِ
ولا بـمـا يَـصِـدْن عـالـمـاتِ ... بـمـثـل رِيـقِ الـنـحـلِ مَـطْـلِـيّـاتِ
أقـتَـلُ مـن سـمـائـم الـحَـيّـاتِ ... لـو صـلـحـت شـيـئـاً مـن الآلاتِ
ووُصِـلَـت بـالـزُّجِّ والـشَّـبـاةِ ... كـانـت مـكـانَ الـنَّـبْـل لـلـرُّمـاةِ
حـوامـلٍ لـلـطـيـر مُـمـسِـكـاتِ ... تَـعَـلُّـقَ الأحـبـاب بـالـحِـبّـاتِ
كـأنـهـا فـي الـنـعـت والـصـفـاتِ ... أذنـابُ مـا دَقَّ مـن الـحَـيَّـاتِ
أغـدرُ بـالـوُرْقِ الـمـغـرِّداتِ ... فـيـهـا مـن الـفـتـيـان بـالـقَـيْـنـاتِ
فـهـنَّ مـن قَـتْـلَـى ومـن عُـنَـاةِ ... بـلا فَـكَـاكٍ وبـلا دِيـاتِ

ذكرُ شَيءٍ ممّا قِيلَ في الشِّبَاكِ

قال السَّرِيّ الرَّفّاء يصف شَبَكَة: [من الرجز]

وجـدولٍ بـيـن حـديـقـتـيـنِ ... مُـطَّـرِدٍ مـثـلِ حُـسَـام الـقَـيْـنِ[3]
كَـسَـوْتُـه واسـعـةَ الـقُـطْـرَيْـنِ ... تـنـظـر فـي الـمـاء بـألـفِ عَـيْـنِ
راصِـدةً كـلَّ قـريـبِ الـحَـيْـنِ ... تُـبْـرِزُه مُـجَـنَّـح الـجـنـبـيْـنِ

(١) الإسار: ما شد به وهو الرباط ـ وسية القوس: ما عطف من طرفيها.
(٢) موقعات: محددات.
(٣) القين: الحداد.

كَمُدْيَةٍ مصقُولةِ المَتْنَيْنِ كأنما صِيغَ من اللُّجَيْنِ(١)

وقال أبو الفرج البَبَّغاء يصف شبكة العصافير: [من المنسرح]

رَقْراقةٌ في السَّرَابِ تحسَبُها على الثَّرَى حُلَّةً من الزَّرَدِ
كالدِّرع لكنها مُعَوَّضَةٌ عن المسامير كثرةَ العُقَد
سائرها أعينٌ مُفَتَّحةٌ لا تَرْتَضِي نسبةً إلى جسدِ

ذكرُ مَا قِيلَ في الشِّصِّ، وهو الصَّنَانِير ـ قال كاتب أندلسيّ يصفه من رسالة: «صَنَانِير، كأظفار السَّنَانِير؛ قد عَطَفها القَيْن كالراء، وصيّرها الصَّقْل كالماء؛ فجاءت أحدَّ من الإبَر، وأرقّ من الشَّعَر؛ كأنها مخْلَبُ صُرَد(٢)، أو نصفُ حَلْقةٍ من زَرَد».

وقال أبو الفتح كُشَاجِم: [من الرجز]

من كان يَحْوِي صيدَه الفضاءُ وللبُزَاةِ عندَه ثَوَاءُ
وطال بالكلب له العَنَاءُ فإن صَيْدِي ما حواه الماءُ
بمِخْلَبٍ ساعِدُه رِشَاءُ يَظَلّ والماءُ له غِطَاءُ
كما طوتْ هِلالَها السماءُ كأنه من الحروف راءُ
فهو ونصفُ خاتَم سواء يحمل سمًّا أَسْمُه غِذاءُ
وعَطَباً فيه لنا إحياءُ تَدْمَى به القلوبُ والأحشاءُ
عادٍ إذا ساعده القضاءُ أمتعنا القَرِيسُ والشِّوَاءُ(٣)

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

كمل الجزء العاشر من كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» للشيخ العلامة شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب البَكْري التَّيْمِيّ القرشيّ نسباً المعروف بالنُّوَيريّ رحمه الله. ويليه الجزء الحادي عشر.

---

(١) اللجين: الفضة.
(٢) الصرد: طائر أبقع اللون أبيض البطن أخضر الظهر ضخم الرأس والمنقار.
(٣) القريس: سمك يطبخ ويتخذ له صباغ ويترك فيه حتى يجمد.

فهرس المحتويات